كتاب جمل من أنساب الأشراف

صنّفه

الإمام أحمد بن يحيى بن جابر

البلاذري

المتوفى ٢٧٩هـ / ٨٩٢م

الجزء السابع

بنو أمية بن عبد شمس (٢)

حقّقه وقدّم له

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار
الدكتور رياض زركلي

بإشراف

مكتب البحوث والدراسات

في

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م

الطبعة الاولى



بيروت لبنان

حارة حريك - شارع عبد النور - برقيا : فكسي - ص.ب : ١١/٧٠٦١

تلفون : ٨٣٨٣٠٥ - ٨٣٨٢٠٢ - ٨٣٨١٣٦ - فاكس : ٠٠٩٦١١٨٣٧٨٩٨

دولي : ٠٠٩٦١١٨٦٠٩٦٢ - دولي وفاكس : ٠٠١ - ٢١٢ - ٤٧٨٢٣٠٨

عمـــال ابـــن الزبيـر

قال عليّ بن محمد أبو الحسن المدائني وغيره : اصطلح أهل الكوفة بعد موت يزيد ، وهَرَبِ ابن زياد على عامر بن مسعود ، فأقرّه عبدالله بن الزبير أشهراً ثم عزله وولّى الحرب والصلاة عبدالله بن يزيد الخَطْمي ، وولّى الخراج إبراهيم بن محمد بن طلحة .

فحدثني عمر بن شَبّة حدثنا أبو داوود حدثنا زهير بن معاوية عن أبي إسحاق قال : خرج عبدالله بن يزيد[1] يستسقي ، وخرج معه البَراء بن عازب وزيد بن أَرْقم ، وخرجتُ معهم يومئذ فخطب على رِجْلَيه على غير منبر ، فاستغفر الله واستسقى وصلّى بنا ركعتين جَهَرَ فيهما بالقراءة ونحن خلفه ، ولم يُؤذِن يومئذ ولم يقم .

وحدثني الحسين بن عليّ بن الأسود حدثنا يحيى بن آدم عن إسرائيل عن عبدالله بن يزيد : أنّه دَفَن ميّتاً فسلّه من قِبَل رِجْلَيه .

١ ـ بهامش الأصل : عبدالله بن يزيد صاحب رسول الله ﷺ .

حدثنا عمرو بن محمد الناقد حدثنا أبو أحمد الزُبيري عن مِسْعَر عن ثابت بن عبيد قال: رأيت على عبدالله بن يزيد خاتَما من ذهب وطيلسانا مُدَبَّجا.

وحدثني الحسين بن علي عن يحيى بن آدم عن إسرائيل عن الأشعث بن سليم عن عبدالله بن يزيد الأنصاري: أنّه كان على الناس، فقام من العِشيّ قبل العيد فقال: إنّا خارجون وإنّا مصلّون قبل الخطبة.

حدثنا عفّان حدثنا حَمّاد بن سَلَمة حدثنا أبو جعفر الخَطْمي أنبأنا محمد بن كعب قال: دُعِيَ عبدالله بن يزيد إلى طعام فلما جاء وجد البيت منجّدا فقعد خارجاً يبكي، فقالوا: ما يُبكيك؟ قال: كان النبيّ ﷺ إذا شيّع جيشا فبلغ عَقَبة الوادي قال: «أَستودعُ الله دينَكم وخواتم أعمالكم» فرأى ذات يوم رجلاً قد رقع بردة له بقطعة فَرْوٍ فقال: «أأنتم اليومَ خيرٌ أم إذا غدت عليكم قَصْعة وراحت قصعة، وغدا أحدكم في حُلّة وراح في حُلّة، وسترتم بيوتكم كما تُستَر الكعبة».

وقال المدائني وغيره: وعزل ابن الزبير عبدالله وصاحبه، وولّى الكوفة عبدالله بن مطيع، فأخرجه المختار منها، ثم ولّى أخاه مصعباً البصرة والكوفة، وقال له: إذا فتحتَ الكوفة فأنت أميرها وأمير ثغورها، فقتل المختارَ بالكوفة سنة تسع وستّين، ثم استخلف على الكوفة القُباع وهو الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي، وولّى المهلّب بن أبي صُفرة الموصل والجزيرة وأرمينية، وقال له: إنما ولّيتك لتكون بيني وبين عبد الملك وجيوشه لثقتي بحَزْمك، ووجّه إلى البصرة عمر بن عبيدالله بن معمر، ولم يزل خليفتَه عليها، ثم ولّاه فارس بعد مصير والي الكوفة إليها.

وقال بعضهم : إنّ مصعباً استخلف القُباع ، وأمره أن يجعل عمرو بن حُريث خليفته وعزل عبدالله بن الزبير أخاه بعد سنة من مقتل المختار ، أو أقلّ ، عن البصرة ، وولّى البصرة ابنه حمزة ، وأمر مصعبا أن يلحق بمن معه من رجال البصرة ، فعزل المهلّب عن الموصل ونواحيها فلحق بحمزة بالبصرة ، وخرج المصعب إلى أخيه فردّه على البصرة والكوفة ، فكانت ولاية حمزة نحواً من سنة ، وأقرّ حمزة عمر بن عبيدالله على فارس ، وكُلّم في توجيه المهلّب لقتال الأزارقة ففعل .

قالوا : وولّى القُباع شُرطة بالكوفة شَبَث بن رِبْعي الرِياحي .

فذكر عبدالله بن المبارك عن مِسْعَر عن عبيدالله بن القِبْطي : أنّ الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعَة القُباع فَاتَتْه الركعتان قبل الفجر فأعتق رقبة .

وحدثني عمر بن شَبّة عن أبي داود عن شُعْبة عن مُغيرة عن الشَعْبي عن ابن أبي ربيعة : أنّه أَجّل العِنين سنةً .

ورُوي أنّ الشعبي قال يؤَجل تسعة أشهر .

وحدثني عمرو بن محمد الناقد حدثنا أبو أحمد الزُبيري عن سفيان عن حمّاد عن الشعبي قال : ماتت أمّ الحارث بن أبي ربيعة ، وهي نصرانيّة فشهدها معه قومٌ من أصحاب محمد ﷺ .

وقال المدائني : كانت أمّه نصرانيّة سوداء ، وكانت أكلت حمامة من حمام مكة ، فكان يُعَيَّر بذلك .

المدائني قال : تقدّم شَبَث بن رِبْعِيّ ليصلّي على جنازة رجل من بني حِمْيَرِيّ بن رِياح ، وهو على شُرَط القباع بالكوفة فمنعوه ، فوثب ابنه عبد

السلام على رجل فقطع أذنه فدفعه شَبَث إليهم ليقطعوا أذنه فقالوا : هو ابن أَمة وصاحبنا ابن مهيرة ، فدفع إليهم ابنَه عبد المؤمن فأبَوه ، فدفع إليهم عبد القُدّوس فقطعوا اذنه ، فعزله القباع وقال هذا أعرابيّ ، وولّى شرطته سُويد بن عبد الرحمن المِنْقَري ، فقال شبث :

أَبَعْدَ القُباعِ آمَنُ الدَهْرَ صاحِباً عَلَى سُوءِهِ إنّي إذاً لَغَبِـينُ
وأُمْكَ سَوْداءُ الجَواعِرِ جَعْدَةٌ لها شَبَهٌ في مِنْخَرَيْكَ مُبينُ

وقال الهَيْثَم بن عَديّ والمدائني: أتى بني تميم محمد بن عُميربن عُطارد في حَمالة فقال : يُقْسَم على بني عمرو كذا ، وعلى حنظلة كذا ، وعلى بني سعيد كذا ، فقال شَبَث : بل كلّها عليَّ ، فقال ابن عمير : نِعْمَ العَوْنُ على المروءة المالُ .

قال : وكان شَبَث علوياً والهَيْثَم بن الأسود أبو العُريان عثمانيّاً ، وكانا متصافِيَيْن ، فقال الهيثم لشبث : إني أخاف عليك من يوم صِفّين ؛ قال العُريان بن الهيثم بن الأسود : فمرض شبث فأتيتُه فقلت له : يقول لك أبي كيف تَجدك ؟ قال : أنا في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة فأخبرْ أباك أنّي لم أندم على قتال معاوية يوم صِفّين ، وتمثّل قول لبيد :

تَمَنّى ابْنَتايَ أَنْ يَعيشَ أَبوهُما وهَلْ أَنا إلّا مِن رَبيعَةَ أَوْ مُضَرْ[1]

ولم يلبث شَبَث أن مات ، فلم أُبلغ إلى أبي حتى سمعتُ الصياح ؛ فقال أبي يرثي شَبثاً :

---

١ ـ ديوان لبيد ـ ط . الكويت ١٩٨٤ ص ٢١٣ .

إنّـني الـيَـوْمَ وإنْ أَمَّـلْتَـني لَقَليلُ المَكْثِ مِن بَعْدِ شَبَثْ
عـاشَ تِسْعينَ خَـريفاً هَمُّـهُ جَمْعُ ما يَمْلِكُ مِن غَيْرِ خَبَثْ
لَمْ يُخَـلِفْ في تَمِـيمٍ سُبَّـةً يَنْكُسُ الرَّأْسَ ولا عَهْداً نَكَثْ

في أبيات .

وجاءت الخوارج تريد الكوفة فخطب [القُباع] فقال : إنّ أوّل القتال السِباب ، ثم الرِميًا ، ثم الطِعان ، ثم السلّة ، فقالوا : ما أحسن صفة الأمير ، وسار من الكوفة إلى بَاجَوَّا[1] شهراً فقال الشاعر :

سارَ بِنا القُباعُ سَيْراً نُكْرا يَسـيرُ يَـوْمـاً ويُقيمُ شَهْـرا

وزعم قوم أنّ حمزة بن عبدالله ولي البصرة والكوفة فعزل المهلّب عن البصرة ونواحيها ، وأنّه ولّى القُباع الكوفة وليس ذلك بثبت ، والثبت أنّه ولي البصرة فقط ، وأنّ مصعبا عزل المهلّب عن عمله ذلك ، وألحقه بحمزة كما أمره أخوه ، وولّى عمل الموصل ونواحيها إبراهيم بن الأشتر ، فكان عليها حتى قدم المصعب والياً على البصرة ، وبعد ذلك إلى أن أحضره قتالَ عبد الملك .

وقال قوم : استخلف مكان المهلّب عبدَ الرحمن بن محمد بن الأشعث ، وكان إبراهيم بن الأشتر بالكوفة مُشْرِفاً على القباع .

وقال المدائني : ولّى عبدالله بن الزبير البصرة بعد ابنه عمرَ بن عبيدالله ، فكان سخيّا شجاعاً ممدَّحا ، وقال المهلّب ما رأيت مثل أحمر قريش في شجاعته ، ما لقينا خيلا قطّ إلاّ وكان في سرَعان خيلنا ، ولما ولاّه مصعب فارس ، بلغه ذلك ، فقال : رماها بحجرها ، لقد ولاّها شريفاً شجاعاً .

١ - موضع ببابل من أرض العراق في ناحية القف . معجم البلدان .

وقد مدحه الفرزدق ، ومدحه نُصيب وغيرهما ، وفيه يقول يزيد بن الحكم بن أبي العاص الثقفي :

فما كَعْبُ بْنُ مَامَةَ وَٱبْنُ سُعْدَى ... بِأَجْوَدَ مِنْكَ يا عُمَرَ الجَوادا

وقال المدائني : كانت لمغيرة بن حَبْنَاء التميمي جارية نفيسة ، فاضطُرّ إلى بيعها فجعل يُمْسِك حتى قالت له : لو بِعْتَني فٱنتفعتَ بثمني كان أمثل ممّا أراك تلقى ، قال : أفعلُ على كرْه ، فعرضها على عمر بن عبيدالله وقد بلغته خَلّته وخبره فاشتراها منه بمائة ألف ، وذلك أضعاف ما تساوي ، وقبض الثمن وقال :

لَوْلا قُعودُ الدَهْرِ بي عَنْكِ لَمْ يَكُنْ ... يُفَرِقُنا شيَءُ سِوَى المَوْتِ فَٱعذِري

أروحُ بِهَمٍّ في الفُؤادِ مُبَرِح ... أُناجِي بِهِ قَلْباً قَليلَ التَصَبُّرِ

عَلَيْكِ سَلامٌ لا زِيارَةَ بَيْنَنا ... ولا وَصْل إِلاّ أَنْ يَشاءَ ٱبْنُ مَعْمرِ

فلما بلغ الشعر عمر بن عبيدالله قال : فقد شاء ابن مَعْمَر ، فخُذْ بيدها والمال لك .

قالوا : وعزل عبدالله بن الزبير عمر بن عبيد الله بن معمر عن البصرة وولّاها القباع ، فحبس عمرَ بن عبيدالله بن معمر وطالبه بمال ، فجزع من الحبس فقال له القباع : يا أبا حفص لا تجزع فإنّك أوّل من سَنّ هذا ، حبست عبدالله بن الحارث يعني بَبّة ، وكان حبسه وطالبه بمال .

وقال عبد الملك بن مروان من ولّى ابن الزبير البصرة ؟ فقالوا : الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة ، فقال : لا حُرَّ بوادي عوف . ووقع بين الحارث وبين يحيى بن الحَكَم بن أبي العاص كلام ، فقال له يحيى : يا بن السوداء يا بن آكلة حَمام مكّة ، وكانت حبشيّة .

وزعموا أنه لما مات قال الوليد بن عبد الملك : مات سيد بني مخزوم ، فقال عبد الملك بل سيد قريش .

وقال أبو الأسود الديلي ، وسأل القُباع حاجةً فلم يَقْضِها :

أبـا بَكْرٍ جَـزاكَ الله خَيْراً ... أَرِحْنا مِن قُباعِ بَني المُغيرَه
بـلوْنـاهُ فـلُمْـنـاهُ وأعْـيـا ... عَلَيْنا ما يُمِـرُّ لنا مَـريـرَهْ
على أنَّ الفَتَى نُكَحٌ أكولٌ ... ومِسْهـابٌ مَـذاهِبُـهُ كَثيـرَهْ[1]

وكان عبّاد بن الحُصين على شُرَطه بالبصرة ، وفيه يقول زياد الأعجم :

فإنْ تَكُ يا عَبَّادُ وُلّيت شُرْطَةً ... فباسْتِ زَمانٍ صِرْتَ فيه تُكَلَّمُ [2]

قال المدائني : تواقف جرير والفرزدق بالمِرْبَد في ولاية القُباع فأرسل اليهما عبّادا فهربا فهدم دُورَهما وطلبهما ، فقال الفرزدق :

أَفي قَمَلِيٍ مِن كُلَيْبٍ هَجَوْتُهُ ... أبو جَهْضَمٍ تَغْلي عَلَيَّ مَراجِلُهْ
فما كان شَيْءٌ كُنْتَ فينا تُحِبُّهُ ... مِنَ الشَرِّ إلّا قد أَبانَتْ شَواكِلُهْ
وقَبْلَكَ ما أَعْيَيْتُ كاسِرَ عَيْنِهِ ... زِياداً فلَمْ يَقْدِرْ عَلَيَّ حَبائِلُهْ
وقد عاشَ لَمْ يَعْقِدْ لِسَيْفٍ حِمالَةً ... ولكِنْ عِصامُ القِرْبَتَيْنِ حَمائِلُهْ
أحارِثُ داري مَرَّتَيْنِ هَدَمْتَها ... وكُنْتَ آبْنَ أُخْتٍ ما تُخافُ غَوائِلُهْ [3]

في أبيات ، وكانت أَسْماء بنت مُخَرِّبَة النَهْشَلّيَة عند أبي ربيعة خَلَفَ عليها بعد هشام بن المغيرة .

١ - ديوان أبي الأسود ص ٢٢٠ - ٢٢١ ، ومسهاب لأن كان خطيباً .
٢ - شعر زياد الأعجم ص ١٧٢ .
٣ - ديوان الفرزدق ج ٢ ص ١٧١ - ١٧٢ .

وقال جرير :

فما في كِتاب الله هَدْمُ بُيوتِنا كتَهْديم ماخورٍ خَبيثٍ مَداخِله
ففي مُخْدَعٍ مِنْهُ نَوارُ وسِرْبُها وفي مُخْدَعٍ أَكْيارُهُ ومَراجِلُهْ
أَحارِثُ خُذْ ما شِئْتَ مِنّا ومِنْهُمُ فأَنْتَ كريمٌ ما تُغِبُّ فَواضِله (١)

وقال يزيد بن نَهْشَل الدارِمي :

لَوْلا حواجِزُ قُرْبى لَسْتَ راعِيها وخَشْيَةَ الله فيمَنْ قد يُعاديني
لَقَدْ بَرَيْتُكَ بَرْياً لا آجتِبارَ لَهُ إنّي رَأَيْتُكَ لا تَنْفَكُّ تَبْريني

في أبيات .

وقال الأَشْهَب بن رُمَيْلة :

أَحارُ بْنُ عَبْدِ الله يا خَيْرَ مُطْلِبٍ لِذي خَلَّةٍ أَوْ أنْ أتاهُ نَسيبُ
إذا مُتَّ ماتَ الجود وانْقَطَعَ النَدَى وعادَتْ أَكفُّ السائِلينَ تَخيبُ

في أبيات .

وقال المدائني وغيره : كان بَبّة أوّل من وجّه لقتال الأزارقة ، وكان القُباع أوّل الناس عقد للمهلَّب على قتال الأزارقة ، وكانوا قد غلبوا على الأهواز ، ولم يزل القباع على البصرة من قِبَل عبدالله بن الزبير حتى قدم المصعب والياً على البصرة والكوفة .

قالوا : قدم المصعب البصرة فدخل المسجد فصلّى ركعتين ثم أرسل إلى عمر بن عبيد الله بن مَعْمَر ، وكان محبوساً عند القُباع فأطلقه وجعله خليفته بينه وبين الناس .

---

١ ـ ديوان جرير ص ٣٨٩ .

وقال المدائني : وولّى شُرْطته مطرّف بن سِيدان الباهِلي ثم عزله ، وولّاه الأهواز وولّى شُرَطه بِشْر بن غالب الأَسَدي .

وقال المدائني : كان عمر بن سَرْج مولى ابن الزبير يحدّث قال : كنت في الذين قدموا مع مصعب من مكة إلى البصرة ، فقدم متلثّما حتى أناخ على باب المسجد ودخل فصعد المنبر ، وقال الناس : أميرٌ ، أُميرٌ ، وجاء الحارث بن عبدُالله بن أبي ربيعة فسفر المصعب فعرفوه وقالوا : مصعب بن الزبير ، فقال للحارث : اظْهَرْ فصعد حتى جلس على المنبر دونه بدرجة ، ثم قام المصعب فحمد الله وأثنى عليه وقرأ : ﴿طسم * تِلْكَ آيَات الكتابِ الْمُبِينِ * نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالحَقِّ لِقَوم يؤمنون * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي آلأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَة منهم يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ من آلْمُفسِدينَ﴾ وأشار نحو الشام ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى آلَّذِينَ آسْتُضْعِفُوا فِي آلأَرْضِ وَنَجْعلَهُمْ أَئِمَّة ونجعلهم آلْوَارِثِينَ﴾ وأشار بيده نحو الحجاز ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي آلأَرْضِ وَنرِي فرعونَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَا كانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [1] وأشار إلى الشام .

حدثني أبو هشام الرِفاعي عن عمّه عن ابن عيّاش الهمداني عن الشَعْبي أنّه قال :

ما رأيت أميراً قطُّ على منبر أَحسن من مصعب بن الزبير .

المدائني قال : وجد مصعب على رجال أهل البصرة فيهم أَنَس بن مالك ، وصَعْصَعة بن معاوية فضرب صعصعة محمولاً على استه ، ثم أمر بأَنَس فقال له أنس : أنشدك الله وخدمتي رسول الله ووصيّته بالأنصار ،

١ ـ سورة القصص ـ الآيات : ١ ـ ٦ .

فخرّ مصعب من المنبر حتى أُلصق خديه بالأرض وقال : سمعاً وطاعةً لله ولرسوله ، وحمله وكساه وأمر له بعشرين ألف درهم .

المدائني ، قال : وجد مصعب على الفُرات بن معاوية البكّائي فحلق رأسه ولحيته في غداة يوم فراحِ إليه الفُرات من يومه وقد أَعْتَمَ فسلّم عليه فتذمّم مصعب وقال:رجل فعلتُ به ما فعلت وأتاني في عشيّة يومه فأحسن إليه وأكرمه ووصله وولّاه .

وقيل لعبد الملك إنّ مصعباً ينال الشراب فقال : والله لو علم مصعب منذ حارب أنّ شُرْب الماء يفسد مروّته ما شربه فكيف يشرب الشراب ، ما عرفت له زَلّة مذ حارب .

محمد بن سعد عن الواقدي ، قال : كان مصعب وعبدالملك ، وعبدالله بن أبي فَرْوة أَخِلّاء لا يكادون يفترقون ، فكان عبد الملك وابن أبي فروة يتبارَيان في الكسوة ، ولم يكن مصعب يقدر على ما يقدران عليه ، فاكتسى ابن أبي فَـروة حُلّة واكتسى عبدالملك مثلها وبقي مصعب لا شي له فذكر عبدالله ، فلما ولي مصعب العراق استكتب عبدالله بن أبي فَرْوة ، فإنّه لَعند المصعب إذ أُتي المصعب بعقد جوهر قد أُصيب في بعض بلاد العجم لبعض ملوكهم ، فقال : يا عبدالله أيسرّك أن أهبه لك ؟ قال : نعم فدفعه إليه ، وقال : والله لَسروري بالحُلّة لو كسوتمونيها أشدّ من سرورك بهذا العقد فبارَكَ الله لك فيه ؛ قال : فلم يزل العقد عنده حتى أُخذ أخوه عمران في إمرة عمر بن عبد العزيز على المدينة شارباً ، فأمر عمر باستنكاهه فوجُدت منه رائحة الشراب فأمر بحبسه فجاء عبدالله بالعِقْد فدسّه تحت مصلى عمر ، ثم قام ، فرفع عمر المصلى فرأى العقد فقال :

رُدّوه ما هذا قال: هذا أهديتهُ إليك، فقال له لو كنتُ تقدَّمتُ إليك لأحسنتُ أدبَك ، ثم أمر بعِمْران فضُرب الحدَّ ، وكان عمران صديقاً لعبد الله بن عمرو بن عثمان مع الولاء ، فجاء عبد الله راكبا ومعه بغل يجُنب فلما ضُرب عِمْران حمله على البغل المجنوب ، ويقال : على البغل الذي كان راكباً عليه وركب هو المجنوب ، وانطلق به إلى منزله .

قالوا : وكان مصعب يعطي أهل العراق في كلّ سنة عطاءَيْن في الشتاء عطاءً ، وفي الصيف عطاءً، فأحبّه الناس حبّا شديداً ، فقال عمرو بن يزيد النَهْدي :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الجودَ إِذْ ماتَ مُصْعَبُ دَفَنّاهُ وَآسْتُرعِي الأَمانَةَ ذِئْبُ
فَهْبنا أُناساً أَوْبَقَتْنا ذُنوبُنا أَما لِثَقيفٍ حَوْبَةٌ وذُنوبُ

فأتي به الحجّاج ، فقال له : أنت القائل ما قلت ؟ فقال : فقدنا والله مصعباً ففقدنا به عدلا شاملاً ، وعطاءً جزيلاً وخِسْنا به ، فجُعلنا أحاديث ، ومُزّقنا كلَّ مُمَزَّقٍ ، فأمر به فضُربت عنقه .

المدائني ، قال : قدم مصعب البصرة وماء البطيحة يفيض على السباخ حتى كاد يصير في نهر مَعْقِل ، فاتّخذ المُسَنَّاة التي نُسبت إليه وحاز تلك الأرضين لنفسه ، فأقطعها عبد الملك الناس فحفروا الأنهار فهي اليوم قطائع عبد الملك .

المدائني وأبو مسعود عن عَوانهُ ، قال : كتب عبد الله بن الزبير إلى مصعب لرجل من قريش بألف درهم فاستقل ذلك واستحيا من الرجل فقال له : إنّ بيني وبين أمير المؤمنين علامة أنّه إذا كتب إليّ بألف فهي مائة ألف ، فأعطاه مائة ألف ، فبلغ ذلك عبد الله بن الزبير فغضب منه ؛ وكتب عبد الله

إلى مصعب في قوم ، فوصلهم بخلفة ذلك ، فلم يكتب إليه في أحد .

المدائني والحِرْمازي قالا : خطب مصعب أهلَ البصرة ، فقال : يا أهل البصرة بلغني أنكم تلقَبون أُمراءكم ، وقد لقّبت نفسي الجزّار .

واستخلف مصعب على البصرة عبيد الله بن عبيد الله بن مَعْمَر على أنّ الولاية لعمر بن عبيد الله ، وإيّاه كان يكاتِب ، وسار إلى المختار فقتله وأنفذ عمر بن عبيد الله إلى البصرة حين قتل المختار فصار إلى البصرة فحدث بها ما حدث من أمر الجفرة ، فقدم مصعب البصرة فتلافى ذلك الأمر ، ثم إنّ ابن الزبير ولّى حمزة ابنه البصرة سنة أو نحوها ، وكان خليفة مصعب على الكوفة القُباع فأقّره ، ومضى إلى أخيه ، ثم قدم بولاية المصرَيْن في سنة تسع وستّين ، فأقرّ مصعب القُباع على الكوفة حتى شخص إلى مَسْكِن ، فانصرف القُباع إلى ابن الزبير بمكة .

المدائني ، قال : لما قدم المصعب بعد عزل ابن الزبير حمزة ابنه ، وقد أعاده على المِصْرَيْن ،بدأ بالبصرة فقدمها فتزوّج وهو بالبصرة سُكَيْنة بنت الحسين عليه السلام ، فولدت له جارية سمّاها فاطمة ، وصير على شُرَطه عبّاد بن الحُصين ، فلما بلغ عبد الله أخاه تزويجه قال : إنّ مصعباً غَمَدَ سيفه وسلّ أيْره .

قال : ولما سار مصعب إلى الكوفة أخذ معه مالكَ بن مِسْمَع ، وزياد بن عمرو ، فاستأذناه في الرجوع فأذن لهما وقال : إنّهما لا يريدان خيراً ، فقال الشاعر :

أَلْحِقْ أُمَيَّةَ بِالحِجازِ وخالـداً وَٱضْرِبْ عِلاوَةَ مالِكٍ يا مُصْعَبُ
فلَئِنْ فَعَلْتَ لَتَحْـرَمَنَّ بِقَتْلِهِ ولَيَصْفُوَنْ لَكَ بِالعِراقِ المَشْرَبُ

وقال آخر :

أخافُ عَلَيْكَ زِيادَ العِراقِ وأَخْشَى عَلَيْكَ بَني مِسْمَعْ

وقال المدائني عن جَهْم بن حسّان السَليطي قال : كلّم الأَحْنَف مصعباً في قوم حبسهم فقال : أصلح الله الأمير إنْ كنتَ حبستَهم بحقّ فالعفو يَسَعُهم ، وإنْ كنت حبستهم بباطل فالحقّ يُخرجهم ، فقال : صدقتَ وأخرجهم .

المدائني عن مسلمة بن محارب قال : دخل أُسْقُف نجران على مصعب فكلّمه بشيء فأغضبه فرماه بقضيب كان معه فأدماه ، فقال الأسقف : إنْ أذن لي الأمير في الكلام تكلّمتُ . قال : تكلّم بما شئت ، قال إنّ المسيح قال لا ينبغي للإمام أن يكون سفيهاً ومنه يُلْتَمَسُ الحِلْم ، ولا جائراً ومنه يُلْتَمس العدل ، فقضى حاجته .

حدثني حَفْص بن عمر عن الهَيْثَم بن عَديّ ، فذكره المدائني عن ابن جُعْدُبة : ان المصعب بن الزبير قال لحُبَّى المدينيّة :ابغيني امرأة أتزوّجها ، فقالت : بأبي أنت وأُمي عائشة بنت طلحة على عُظْمٍ في أُذنَيْها وقَدَميها ، فقال المصعب : أمّا الأذنان فيغطّيهما الخمار ، وأمّا القدمان فيغطّيهما الخفّ فتزوّجها ، وأصدقها خمسمائة ألف درهم وأهدى لها خمسمائة ألف درهم .

فقال أَنَس بن أبي أُناس ، وبعضهم يقول : ابن همّام ، والأوّل أثبت :

أَبْلِغْ أَميرَ المُؤْمِنينَ رِسالَةً مِن ناصِحٍ ما إنْ يُريدُ مَتاعا
بُضْعُ الفَتاةَ بِأَلْفِ أَلْفٍ كامِلٍ وتَبِيْتُ قاداتُ الجُيوشِ جِياعا
فلَوَ آنّني الفاروقَ أُخْبِرُ بِالذي شاهَدْتُهُ ورَأَيْتُهُ لارْتاعا

وقال المدائني : قيل هذا الشعر حين تزوّج مصعب سُكينة بنت الحسين بن عليّ عليهما السلام .

وقال محمد بن سلّام الجُمَحي : كانت عائشة بنت طلحة عند عبدالله بن عبد الرحمن بن أبي بكر ، ثم عند مصعب ، ثم عند عمر بن عبيدالله بن معمر التَيْمي ، وأمّ عائشة أمّ كلثوم بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، وأمّها ابنة خارجة الأنصاري .

حدثني الحِرْمازي عن الشَعْبي : انّه ركب مع المصعب يوماً فلما نزل أَمَره بالنزول وأخذ بيده ، قال : فلم أزل أُدخل معه حتى صرت إلى بيت قد سُدلت ستوره ، فترك يدي ودخل فبقيتُ لا أقدر على تقدّم ولا تأخر ، ثم نادى من وراء الستر آدخلْ يا شعبي فدخلت فإذا هو وعائشة بنت طلحة على سرير ، فوالله ما شبّهتُ بوجهها إلّا القمر طالعاً فكلّمني ، ثم قال انصرفْ فقالت : والله لا ينصرف إلّا بجائزة ، فأمر لي بعشرة آلاف درهم ، وأمرت لي بمثلها ، فلما كان الغد دخلت عليه والناس عنده ، وهو على سريره ، فاستدناني فدنوت حتى ألصقت صدري بالسرير ، فقال : آدنُ ، فمددت إليه عنقي ، فقال كيف رأيت ذاك الانسان ؟ قال : قلت: والله ما رأيت مثله قطّ ، فبارك الله للأمير ، ثم رجعت إلى مقعدي .

وقال الهَيْثَم بن عَديّ عن مُجالد قال : لما دخل الشعبي على مصعب ومعه عائشة قال : أنا وهذه كما قال الشاعر :

وما زلت في لَيْلَى لَدُنْ طَرَّ شارِبي ... إلى اليَوْمِ أُبْدي إحْنَةً وأُواحِنُ

قال المدائني : قيل هذا الشعر :

أَبْلِغْ أميرَ المُؤْمِنينَ رِسَالَةً

حين تزوّج مصعبُ سُكينة بنت الحسين عليه السلام .

حدثني عمر بن شَبّة عن مَخْلَد بن يحيى : أنّ مصعب بن الزبير ولّى مُطَرِف بن سِيدان الباهلي أحد بني جِئَاوة شرطته في بعض الأيام التي ولِيَ فيها العراقَ لأخيه عبدالله ، فأُتِي مُطَرّف بالنابىء بن زياد بن ظَبْيان أحد بني عائش بن مالك بن تيم الله بن ثعلبة ، وبرجل من بني نُمير وقد قطعا الطريق ، فقَتل النابىء بأمر مصعب وضرب النُميري بالسياط وتركه ، فلما عزل مطرّفا عن الشرطة ولّاه الأهواز فجمع عبيدالله بن زياد بن ظبيان جمعاً وخرج يريده فالتقيا فتواقفا وبينهما نهر ، فعبر مطرّف بن سِيدان إليه فعاجله ابن ظَبْيان فطعنه فقتله ، فبعث مصعب ابن مطرّف في طلبه فلم يلحقه ، ولحق ابن ظبيان بعبد الملك ، وقاتل مصعباً معه ، قال البَعيث اليَشْكُري :

لّما رَأَيْنا الأَمْرَ نَكْساً صُدورُهُ وهَمَّ الهَوادي أَنْ تَكونَ تَوالِيا
صَبَرْنا لأَمْرِ الله حَتّى يُقيمَهُ ولَمْ نَرْضَ إلّا مِن أُمَيَّةَ والِيا
ونَحْنُ قَتَلْنا مُصْعَباً وَآبْنَ مُصْعَبٍ أَخا أَسَدٍ والأَشْتَرِيَّ اليَمانيا
سَقَيْنا آبْنَ سِيدانٍ بِكَأْسٍ رَوِيَّةٍ كَفَتْنا وخَيْرُ الأَمْرِ ما كانَ كافِياً

المدائني قال : قدم مصعب بآمرأته عائشة البصرة ، وكانت أجمل الناس ، فكانت تسأل عن أجمل نساء البصرة ، فأخبرت عن أمّ الفضل بنت غَيْلَان بن خَرَشة الضَبّي ، وكانت تحت داود بن قَحْذمَ أحد بني قيس بن ثعلبة ، وكان مصعب يطالبه بمائة ألف درهم من خراج غلّته ، فكانت عائشة تحبّ أن تراها ، فقيل لابن قحذم لو بعثتَ بها إلى عائشة فكلّمتَها في أن تكلّم مصعباً في إسقاط ما يطالبك به عنك ، فقال : إنّه من فتيان قريش مُتْرَف قد أسكره السلطان فأخاف منه ما يُخَاف من مثله ، فلم يُتْرَك حتى

أرسلها إلى عائشة فوجدتها في بِرْكة لها في دارها ، فقالت لها عائشة انزلي فنزلت ، فظلّتا في البركة مَلياً ، ثم خرجتا فدخلتا بيتا وتحدّثتا ، وكلّمتها في زوجها فلم تلبثا أن جاء مصعب فأدخلتها الحَجَلة ودخلت معها ونزع مصعب ثيابه فقالت عائشة : إنّ معي في الحجلة فلانة ، وقد جاءت في أمر زوجها وضمِنتُ لها عنك قضاء حاجتها ، فأَسْقَطَ ما على ابن قَحذَم ووهبه له وانصرفت أمّ الفضلِ ، فدخلت على زوجها فقالت له : والله ما جئتك حتى دخلت الحَجلة ، وأُرخَيت عليّ الستور ، واغتسلتُ ثم قضيت حاجتي ، فقال : وا سوءتاهْ لمصعب إنْ كان فعل ، قالت : لا ترُعْ وحدّثته الحديث .

المدائني عن ابن جُعْدُبة ، قال : جلس ابن عمر ومصعب وعروة وعبد الملك بالمدينة يتحدثون فتمنّى ابن عمر الجنّة ، وتمنّى مصعب ولاية العراق وأن يتزوّج سُكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة ، وتمنّى عروة أن يفقه في الدين ويُحمَل عنه العلم ، وتمنّى عبد الملك الخلافة .

المدائني عن ابن جُعْدبة عن صالح بن كيْسان ، قال : كان يقال ليس في الدنيا زوج أحسن من مصعب وعائشة .

قال المدائني : وكان مصعب يحسد الناس على الجمال فبينا هو ذات يوم يخطب إذ رأى رجلاً جميلاً من بني جِمّان مستقبلاً له فأعرض عنه ، ثم أقبل ابن جَوْدَان الأزدي ، وكان جميلاً فأعرض عنه ، ثم دخل الحسن بن أبي الحسن البصري فلما رآه نزل مبادراً .

قال : وكانت عائشة سيّئة الخُلق ، فغاضبها مصعب في بعض الأمر فتهاجرا ، فبلغ ذلك من كلّ واحد منهما مبلغاً شديداً ، فأقبل مصعب من حرب وعليه سلاحه فقالت لها حاضنتُها وقد شكت إليها وَجْدَها : قومي إليه

فأمسحي وجهه من الغبار ، وانزعي سلاحه ، فقامت إليه فقال:بأبي أنت إنّي مشفق عليك من ريح الحديد والصدأ ، فقالت : والله لهو أطيب ريحاً من المسك الأذفر فقبّلها وصالحها .

وقال المدائني : خرج مصعب من البصرة إلى الكوفة للقاء عبد الملك ، وخلف على البصرة سِنان بن سَلَمة بن المحبَّق الهُذَلي ، وكانت لأبيه صحبة ووُلد سنان ايّام حُنين ، فحنكه النبيّ ﷺ ، فلم يزل على البصرة حتى قدم المصعب .

وخلّف عبّاد بن الحُصين معه على شرطته وقُتل مصعب يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى ـ أو الآخرة ـ سنة اثنتين وسبعين ، ولما قُتل مصعب وثب حُمْران على البصرة .

المدائني وغيره ، قالوا : لما قدم مصعب الكوفة دخل إليه عبدالله بن الزَبير الأسدي فقال أنت القائل :

إلى رَجَبٍ أَوْ ذٰلِكَ الشَهْرِ قَبْلَهُ   تُوافيكُمْ بيضُ المَنايا وسودُها
ثمانونَ أَلْفاً دينُ عُثْمانَ دينُهُمْ   مُسَوَّمَةً جِبْريلُ فيها يَقودُهـا

فخافه ، ثم قال : نعم أنا قلته ، قال : فإنّا قد عفونا عنك وأمرنا لك بمائة ألف ، فخرج من عنده وهو يقول :

جَزَى الله عَنّي مُصْعَباً إنَّ سَيْبَهُ   يُنالُ به الجاني ومَن لَيْسَ جانِيا
ويَعْفو عنِ الذَنْبِ العَظيمِ تَكَرُّماً   ويُعطي مِنَ المَعْروفِ ما لَسْتُ ناسِيا

المدائني ، قال : أتى رسول مصعب عمرو بن النعمان بن مُقَرِّن بمال فقال له : الأمير يُقرئك السلام ، ويقول : إنّا لم نَدَعْ بالكوفة قارئاً إلّا وقد ناله معرُوفنا فاستعِنْ على نفقة شهر رمضان بهذا ، فقال : وعلى الأمير

السلام ، قل له : إنّا والله ما قرأنا القرآن لنطلب به الدنيا وردّه عليه ؛ وكان يؤمّ الناس في شهر رمضان .

حدثني بكر بن الهَيْثَم حدثنا أبو نُعيم عن يحيى بن زكريّاء عن اسماعيل بن [أبي] خالد عن الشَعْبي قال : ما رأينا أميراً قطّ على منبر أحسن من مصعب .

حدثني محمد بن حَيّان الحَرّاني حدثنا زهير بن معاوية حدثنا عطاء بن السائب عن أبي البَخْتَري قال : كان مصعب إذا سلّم في الصلاة كلّها قال : لا إله إلّا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير ، لا إله إلّا الله والله أكبر ، لا حول ولا قوّة إلّا بالله ، ويرفع بذلك صوته ، فقال عُبيدة: ماله قاتله الله نعّار[1] بالبِدَع .

قال المدائني : وكان عبيدالله بن الحُرّ الجُعْفي يغشى مصعباً بالكوفة فيراه يقدّم أهلَ البصرة فقال :

لقد ساءَني مِن مُصْعَبٍ أنَّ مُصْعبَا ... أرَى كُلَّ ذي غِشّ لَهُ هُوَ صاحِبُهْ
إذا ما أَتَيتُ البابَ يُدْخَلُ مُسْلِمٌ[2] ... ويَمْنَعُني أنْ أُدْخَلَ البابَ حاجِبُهْ

وقال أيضاً :

بـأي بَلاءٍ أَوْ بِـأَيَّةِ نِعْمَـةٍ ... يُقَـدَّمُ دوني مُسْلِمٌ والمُهلَّبُ
ويدُعى آبْنُ مَنْجوفٍ سُوَيْدٌ كأَنَّهُ ... خَصيٌّ أَتَى لِلْماءِ مِن غَيْرِ مَشْرَبِ

وقال أيضاً :

أَلم تَرَ قَيْساً قَيْسَ عَيْلانَ بَرْقعَتْ ... لِحاها وباعَتْ نَبْلَها بِالمَغازِلِ

---

١ ـ نعر : صاح وصوت بخيشومه . القاموس .
٢ ـ بهامش الأصل : هو مسلم بن قتيبة بن مسلم بن عمرو .

وكتب زُفَر بن الحارث إلى مصعب : أنا قد كفيتك قتال ابن الزرقاء ، يعني عبد الملك ؛ ثم أنّ نفراً من بني سُليم أخذوا ابن الحُرّ فخافهم فقال : إنّما قلت :

أَلم تَرَ قَيْساً قَيْسَ عَيْلانَ أَقْبَلَتْ إِلَيْنا وسارَتْ بِالقَنا والقَبائِلِ

فقتله رجل منهم يقال له عبّاس ؛ فقال زُفَر :

لما رَأَيْتُ الناسَ أَوْلادَ عِلةٍ وأَغْرَقَ فينا نَزْعَهُ كُلُّ نَائِلِ
فلو يَسْئَلُ آبْنُ الحُرِ أُخْبِرَ أَنَّها يمانِيَةٌ لا تُشْتَرَى بِالمَغازِلِ

وقال ابن همّام السَلولي :

ترنّمت يا بنَ الحُرِ وَحْدَكَ خالِياً بِقَوْلِ آمْرِىءٍ نَشْوانَ أَوْ قَوْلِ ساقِطِ
أتذكُرُ قَوْماً أَوْجَعَتْكَ رِماحُهُمْ وذَبّوا عَنِ الأَحْسابِ يَوْمَ المَآقِطِ
وتبكي لِما لاقَتْ رَبيعَةُ مِنْهُمُ وما أَنْتَ في أَحْسابِ بَكْرٍ بِواسِطِ
فهلا لجُعْفّيٍ طَلَبْتَ ذُحولَها ورَهْطُكَ دُنْيا في السِنينَ الفَوارِطِ

في أبيات .

وقد أنكر أنّ ابن الحُرَّ قُتِل هذه القَتْلة وقد ذكرت خبره بعد هذا .

المدائني ، قال : كان ابن [أبي] عُصَيْفير الثقفي محبوساً بمائة ألف ، ويقال بخمسمائة ألف ، وقد كان وجّه مَن يقيم الأَنْزال للأحنف منذ فصل من البصرة إلى أن دخل الكوفة مع مصعب ثم أنزله داره، فسأل عنه فقيل محبوس ، فكلّم مصعباً فيه ، وكان أكرم الناس عليه ، فقال : إنّ عليه كذا وكذا فقال : مِثْلُ الأمير سُئِلَها ، ومثلي تُرِكَ له مثلُها ، فقال له : هي لك ومثلُها فلما أتي الأحنف بماله بعث به إلى ابن أبي عُصيفير أيضاً .

وكان عبيدالله بن الحر محبوساً ، فكلّم الأحنف مصعباً فيه ، فلما أخرجه قال له : يا أبا بَحْر جعلني الله فداك ما أدري ما أكافئك به إلّا أن أقتلك فتدخل الجّنة وأدخل النار فضحك الأحنف ، وقال : لا حاجة لي في مكافأتك يا بن اخي .

قال المدائني:وجلس الأحنف في مسجد الكوفة ، وقد أطافت به بنو تميم ، فكلّمهم في شيء فقالوا : لا ، فقال : إنّ بني تميم خيلٌ صِعابٌ تُضطرب على سائسها ساعة ثم تتبعه .

المدائني ، قال : دخل الأحنف على مصعب في بعض الأيّام فأنكر تكّبره ، ويقال : إنه مدّ رجليه بين يديه وهو جالس معه على السرير ، فقال عجباً لمن يتكّبر ويتجبّر ، وقد جَرَى في مَجْرَى البَوْل مرّتَيْنِ ؛ وبلغ قوله عبد الملك فقال: لله هو وتمثّل .

وأُضْمِرُ في لَيْلَى لِقَومٍ ضَغينَةً وتُضْمَرُ في لَيْلَى عَلَيَّ الضَغائِنُ

قال : وكلم الأحنف مصعباً في رجل فقال : أُبلغني عنه الثقةَ أنّه قال كذا وكذا ، فقال : اللهم غَفْراً إنّ الثقةَ لا يُبلغ .

قال : وحضر الأحنف مصعباً وقد أُتي برجل فجعل الشرط يقولون له آصدق الأمير·فقال الأحنف : إن بعض الصدق معجزة .

قالوا : ولما بلغ عبد الملك قول الأحنف عجباً لمن يتكبر وقد جَرَى في مَجْرَى البَوْل مرّتَين بعث إليه : إنّه بلغني تنكُّر صاحبك لك فهلُمّ إلينا فَلكَ عندنا ولاية الشام ، فقال الأحنف : يا عَجَباً لابن الزرقاء يدعوني إلى نفسه وأهل الشام والله لوددت أن بيننا وبينهم بحراً من نار لا يعبره إلينا منهم أحد

إلّا احترق ، ثم قال : اللهم أَمِت الأحنف قبل أن يرى لأهل العراق غدراً فمات بالكوفة بعد يسير .

حدثني عبدالله بن صالح حدثني ابن كُناسة عن الأشياخ قالوا : لما حضرت الأحنف الوفاة بالكوفة قال : لا تندبنّي نادبةٌ ولا تبكيني باكيةٌ ، ولا يُعْلَمنّ بموتي أحد ، وأسرِعوا إخراجي ، فأرسل مصعب : إذا حَضَرَ اخراجه فأعلِموني ففعلوا ، فأرسل مَن أخذ بأفواه السكك لئلّا تخرج امرأة فانتفجت عليهم امرأة من بني مِنْقَر في رِحالةٍ وهي تقول :

قُلْ لأميري مُصْعَبٍ إنّي سَأَنْدُبُ المَدْفونَ بالقاعِ
أنْدُبُهُ بالخَيْرِ لا أَبْكي بِخَيْرِ ما يَنْعَى بِهِ الناعي

فقال مصعب : دعوها ، فلما دُفن قامت على قبره فقالت : أيّها الناس أنتم خَوَل الله في بلاده ، وشهداؤه على عباده . وإنّا قائلون ومُثْنُون صِدْقاً ، رحمك الله مِن مُجَنٍّ في جَنَن ومُدْرَج في كفن . فقد كنت من أعظم الناس حِلماً وأكرمهم فعلاً ، فلن يُرْثى بعدك مثلك إنّا لله وإنا إليه راجعون ، فقال مصعب : صدقتْ والله كذلك كان أبو بحر وبكى وبكى الناس ؛ وقال مصعب : مات سيّد العرب ؛ قال : ومشى مصعب أمام جنازته متسلّباً إعظاماً لموته .

قال : وقدم بموت الأحنف البصرة رجل من بني يَشْكُر ، فكذّبه رجل من بني تميم ، ثم عَلِمَ الخبر فقال :

أمات فلَمْ تَبْكِ السَماءُ لِفَقْدِهِ ولا الأَرْضُ أَوْ تَبْدو الكَواكِبُ بِالظُهْرِ
كذبت إذاً ما قَرَّ في بَطْنِ حامِلٍ جَنينٌ ولا أَمْسَى عَلَى الأَرْضِ مِن شُفْرِ
ولما أتيتُ اليَشْكُرِيَّ وَجدتُهُ بِأَمْرِ أَبي بَحْرِ بْنِ قَيْسٍ أَخا خُبْرِ

وكان موته بالكوفة ، وقد شخص مصعب إليها يريد عبد الملك ، فشخص منها إلى مسكن وقد دخلها معه في أيّام المختار أيضاً وشهد مقتله .

حدثني عبّاس بن هشام الكلبي عن أبيه قال: كان عُقيبة بن هُبيرة الأسدي فاتكاً ، وكانت له ابنة صغيرة فلاعبت ابن عمّ له يقال له تميم ، فكسرت الصبيّة ثنيّة ابنة عُقيبة فجاءت أباها تبكي ، فدخل على تميم داره فقتله ، فرُفع إلى مصعب فأقرّ بالقتل فحبسه فأعطى ابنَ تميم جماعةٌ من الأشراف الدية كاملةً لئلاّ يُقتل عُقيبة ، وأعطى محمد بن عُمير بن عُطارد دية فأبى ابن تميم إلاّ قَتْلَ عقيبة ، فلما جيء به ليُقتل قال : يا أهل الكوفة اسمعوا والله ما قتلته لِما جَنَت ابنته على ابنتي ، ولكن سمعت أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب يقول ، وعَنًّ له تميم هذا في جانب المسجد : مَنْ سَره أن ينظر إلى جِذلْ من أجذال جهنّم فلينظر إلى هذا ، رحم الله قاتِلَه ، فمازالت في نفسي حتى قتلتُه ، فقال الناس : رحمك الله ، ثم قال لابنة تميم لقد ضربتُ أباكِ ضربة حتى رأيتُ ضوء الثُرَيّا في سَلْحِه ، قالت : وأنت يا فاسق ستُضرب ضربة حتى أَرَى ضوء بنات نَعْش في سلحك ، ثم قُدّم فضُربت عنقه .

أمر عبيدالله بن الحر

ابن عمرو بن خالد بن المُجَمَّع بن مالك بن عَوف بن حَرِيم بن جُعْفِي بن سعد العشيرة .

حدثني عبد الرحمن الأحمري ـ أبو مسلم ـ أنبأنا هشام بن محمد الكلبي حدثنا جرير بن عمرو الجُعْفي ـ وكانت أمّه العالية بنت الأسعر بن عبيدالله بن الحُرّ ـ قال : ،وحدثني لوط بن يحيى ـ أبو مخنف ـ ببعضه عن أشياخه قال : شهد عبيدالله بن الحُرّ القادسيّة مع خالَيْه زهير ومَرْثد ابنَي قيس بن مَشْجَعَة بن المُجمع ، وكان شجاعاً فاتِكاً لا يعطي الأُمراء طاعةً ، ثم أنّه صار مع معاوية بن أبي سفيان ، فكان يكرمه ، فبلغ معاوية أنه يجتمع إليه جموع من أصحابه فسأله عنهم فقال : بطانتي وأصحابي وإخواني أتّقي بهم إن نابني أمر أو خفتُ ظلامة من أمير جائرٍ ، فقال له معاوية : لعلّ نفسك قد تطّلعت إلى عليّ بن أبي طالب ، فقال: إنّ علياً لعلى الحق وأنت بذلك عالِمٌ ، فقال عمرو بن العاص : كذبت يا بن الحُرّ فقال: انت وأبوك أكذب منّي ، ثم خرج من عند معاوية مُغْضباً يريد الكوفة في خمسين فارساً

مِمَّن كان يَنْتابُه ، وسأل معاوية عنه فقيل قد خرج ، وسار ابن الحُرّ يومه حتى إذا أمسى منعه بعضُ مسالح معاوية من المسير ، فشدّ وأصحابه عليهم فقتلوا منهم نفراً ، وهرب الباقون وأخذوا من دارهم ما احتاجوا إليه ، وأخذوا سلاحاً من سلاحهم ، ومضى عبيدالله لا يمرّ على قرية من قرى الشام إلاّ أغار عليها حتى قدم الكوفة ، وبلغ معاوية خبرُه فقال لعمرو : هذا ما هِجْتَ علينا من ابن الحُرّ .

وكانت لابن الحرّ بالكوفة امرأة يقال لها الدَرْداء ، وهي كبشة بنت مالك ، فلما فقده أهلها زوّجوها من عكرمة بن الخِنْبِص ، فقاضاهم إلى عليّ فقضى له بأمرأته ، وأقام عبيدالله منقبضا عن كلّ أمر من أمور عليّ وغيره حتى توفّي عليّ عليه السلام ، وولي معاوية ويزيد ابنه ، وكان من أمر الحسين ما كان .

وقال أبو مخنف: لما أقبل الحسين من المدينة، وقُتل مُسلم بن عَقيل . خرج ابن الحُرّ فنزل قصر بني مُقاتل الذي صار لعيسى بن عليّ متحرّجاً من أن يتلّطخ بشيء من أمر الحسين أو يشرك في دمه ، فلما صار الحسين إلى قصر بني مُقاتل رأى فسطاطاً فسأل عنه فقيل هو لعبيدالله بن الحُرّ ، فبعث إليه الحجّاج بن مسروق الجُعْفي يدعوه إلى نصر ته فقال للحجّاج : قل له : إنّي إنّما خرجت إلى هاهنا فراراً من دمك ودماء أهل بيتك لأنّي إن قاتلتك كان ذلك عظيماً وإن قاتلت معك ولم أُقتَل بين يديك فقد قصرت ، وأنا أحْمى أنْفاً من ذلك ، وليس لك بالكوفة شيعة ، ولا أنصار يقاتلون معك ، فلما ابلغه الحجّاج الرسالة تمشّى إليه الحسين ، فلما رآه قام من مجلسه فسأله الخروج معه فاستعفاه من ذلك، واعتلّ عليه، وعرض فرسا له يقال لها

المُلْحِقة ، وبعضهم يقول : المحلقة ، وقال له انجُ عليها حتى تلحق بمأمنك ، وأنا وأصحابي لك بالعيالات فانصرف عنه ، ويقال : إنه دفع الفرس إليه ، وقال له ابن الحُرّ : أأنت تخضب أم هو سوادُ لحيتك ؟ فقال : عجل عليَّ الشَيْب فاختضبت ، وخرج ابن الحُرّ من منزله بشاطىء الفرات فنزله حتى أُصيب الحسين بكربلاء ، وكان ابن الحرّ رجلا لا يقاتل لديانة ، وإنّما كان همّه الفتك والتصعلُك والغارات .

ثم إنّ ابن الحر أتى الكوفة فقال له عبيدالله بن زياد ، وكان قد تفقّد أهل الكوفة: أكنت معنا أم مع عدوّنا؟ قال: لا والله ما كنت مع عدوّك، ولو كنت معه لبلغك ذلك ولكنّي كنت مريضاً ، قال : مريض القلب ، قال : ما مرض قلبي قط ، وقد وهب الله لي في بدني العافية .

وكان ابن الحُرّ يُغير على مال الخراج فيقتطعه ويعطي منه أصحابه وكان سخياً مِتلافا ، وقد كان مِن أهل الديوان والعَطاء .

قالوا : فخرج من عند ابن زياد مغضبا ، فبات عند أحمر بن يزيد بن الكَبْشَم الطائي ، ثم خرج من عنده فأتى المدائن ، وقال يرثي الحسين عليه السلام :

يَقـولُ أَميرٌ جـائِرٌ حَقُّ جـائِرٍ ... أَلا كُنْتَ قاتَلْتَ الشَهيدَ ابنَ فاطِمَهْ
ونَفْسي عَلَى خِذْلانِـهِ وَٱعْتِزالِـهِ ... وبَيْعَةِ هذا الناكِثِ العَهْدَ سادِمَهْ
فيـا نَدَمي أَلّا أَكـونَ نَصَرْتُـهُ ... أَلّا كُلُّ نَفْسٍ لا تُسَدِدُ نادِمَهْ
سَقَى الله أَرواحَ الذين تَآزَّروا ... عَلَى نَصْرِهِ سَقْياً مِنَ الله دائِمهْ

في أبيات .

وقال أيضاً :

يا لَكِ حَسْرةٍ ما دُمْتُ حَيّاً تَـرَدَّدُ بَيْنَ حَلْقي والـتَراقي

وله فيه شعر غير هذا .

قالوا : فلما خرج المختار بالكوفة أَبى ابن الحُرّ أن يبايعه ، وبعث المختار في طلبه ، أتاه بعدُ فبايعه تعذيراً ، فكان المختار يهمّ أن يسطوَ به ثم تمسّك عن ذلك لمكان إبراهيم بن الأشتر معه ، وجعل ابن الحر يتعبّث بالنواحي ، كما كان يصنع به إبراهيم ، ففارقه وأقبل في أصحابه وهم نحو من ثلاثمائة فأغار على الأنبار ، فأخذ ما كان في بيت مالها فقسمه بين أصحابه بلقنسوة دَلْهَم المُرَادي ، وكانت ضخمة ، وكان دلهم جسيما عظيم الرأس ، شديد البأس وفي ذلك يقول ابن الحّر :

أنا الحُرُّ وابنُ الحُرِ يَحْمِلُ شِكَّتي طِوالُ الهَوداي مُشرِفاتُ الحَوانِكِ
فمَن يَكُ أَمْسَى الزَعْفَرانُ خَلوقَهُ فإِنَّ خَلوقي مُسْتَشارُ السَنابِكِ
اذا ما غَنِمْنا مَغْنَماً كانَ قِسْمَةً ولَمْ نَتَّبِعْ رَأْيَ الشَحيحِ المُتارِكِ
أَقولُ لَهُمْ كيلوا بِكُمَّةِ بَعْضِكُمْ ولا تَجْعَلوني في النَدَى كَآبنِ مالِكِ

يعني إبراهيم بن الأشتر .

ثم اغار على كَسْكَر فأخذ ما كان في بيت مال عاملها وقتله وقسم بين أصحابه قبل أن يستبيحوه ، ولما بلغ المختار غارته على الأنبار بعث عبدالله بن كامل الشاكري فهدم داره ، وأخذ امرأته أمّ سَلَمة بنت عبدة بن الحُليق الجُعفيّة فحبسها في السجن ؛ فبلغ ابنَ الحُرّ فقال :

أَشُدُّ حَيازِيمي لِكُلِ كَرِيهَةٍ   وإنّي على ما نـابَني لَجَليدُ
هُمُ هَدَموا داري وساقوا حَليلَتي   إلى سِجْنِهِمْ والمُسْلِمونَ شُهودُ
فلَسْتُ إذاً لِلْحُرِ إنْ لَم أَرُعْكُمُ   بِخَيْلٍ عَلَيها الدارِعونَ قُعودُ

في أبيات .

وسار حتى أتى ساباط المدائن فتلّقى بها أصحاب الزُبير بن عليّ ، وهو من الأزارقة ، فظّنوا أصحابَه جيشاً سرح إليهم ، وظن أنهم جيش سُرّح إليه فحكّموا ، فلما سمع تحكيمهم قاتلهم قتالاً شديداً فقُتل يومئذ بشر مولى الزبير وكاتِبه وناس من أصحابه ، ثم أُديل ابن الحرّ عليهم فقتل منهم وغنم ، وقال في ذلك شعراً منه قوله :

أُقدّمُ مُهْري في الوَغى ثُمَّ أَنْتَحي   عَلَى قَرَبوسِ السَرْجِ غَيْرَ صَدودِ
دَعَوْني إلَى مَكْروهِها فأَجَبْتُهمْ   وما أَنا إذْ يَدْعونَني بِبَعيـدِ
اذا ما التَقَوْني بالسُيوفِ غَشِيْتُهُمْ   بِنَفْسٍ لِما يَخْشَى النُفوسُ وَرودِ
فأَقْلعَتِ الغَمّاءِ عَنّا وفُرِّجَتْ   ونَحْنُ بِها مِن غانِمٍ وشَهيدِ

وقال أيضاً :

أقولُ لِفتيانِ الصَعالِكِ أَسْرِجوا   عَناجيجَ[1] أَدْنَى سَيْرِهِنَّ وَجيفُ
دَعـانِيَ بِشْرٌ دَعْـوَةً فـأَجَبْتُـهُ   بِساباطَ إذْ سِيقَتْ إلَيْهِ حُتوفُ
فلم أُخلِفِ الظَنَّ الذي كانَ يُرْتَجَى   وفي بَعْضِ أَخْلاقِ الرِجالِ خُلوفُ

---

١ ـ العناجيج : جياد الخيل والإبل . القاموس .

ثم أتى ابن الحُرّ وهو في مِائة وثلاثين فارساً الكوفة ، ومعهم الفُؤُوس والكلاليب لِمُكاثرة أصحاب السجن فأتى السجن فدخله فأخرج امرأته وكل من كان في السجن.فقاتله ابن كامل صاحب شرطة المختار فهزمه ابن الحرّ وانطلق ابن الحرّ بامرأته حتى أدخلها بيوت جُعْفّي ، فتوارت عند كريب بن سَلَمة الجعفي ، ولم يزل ابن الحرّ يقاتل قومه بالكوفة ويقول :

أَلَمْ تَعْلَمي يا أُمَّ تَوْبَةَ أَنَّني أنا الفارِسُ الحامي حَقائِقَ مَذْحِجِ
وأَنّي أَتَيْتُ السِجْنَ في رَوْنَقِ الضُحَى بِكُلِّ فَتىً يَحْمي الذِمارَ مُدَجِجِ

ثم أغار ابن الحُرّ على شِبام من همدان فقاتله عبد الله بن اريم وجعل يقول :

لقــد مُنيتُمْ بِـأَخي جِــلادِ لَـيْسَ بِفَــرّارٍ ولا حَـيّـادِ
ثَبْتِ المَقامِ مُقْعِصِ الأَعادي

فشد عليه ابن الحُرّ فصرعه وظنّ أنّه قد قتله ثم عولج فبرىء.وهزم من لقيه من شِبام وشاكِر وقال :

سائِلْ بِيَ المُخْتارَ كَمْ قد ذَعَرْتُهُ وشَرَّدتُ أَطْرافاً له وجُموعاً
وقاتَلْتُهُ والناسُ قد أَذْعَنوا له وقد أَقْشَعَ الأَحْياءُ عنه جَميعاً

فلم يزل مخالفاً للمختار حتى قتله المصعب .

وتكلّم أهلُ الكوفة في قتل أصحاب المختار فقال ابن الحرّ : أمّا أنا فأرى أن يردّ الأمير كلَّ قوم ممّن كان مع هذا الكذّاب إلى قومهم ، فإنّه لا غناءَ بنا عنهم في ثغورنا ، ويردّ عبيدنا علينا فإنّهم لأراملنا وضعفائنا وأن نضرب أعناق الموالي فقد بدا كفرهم وعظم كِبْرهم وقلّ شكرهم ولا آمنهم

على الدين ، فضحك المصعب ودفعهم إلى ابن الحر فضرب أعناقهم وكانوا سبعمائة .

وقاتل ابن الحُرّ المختار مع مصعب ، وبعث المصعب إلى ابن الحُرّ : إنّ لك ولأصحابك خراج بادُورَيَا[1] على أن تقاتل معي عبدَ الملك وأهل الشام فقال : أَوَليس لي خراج بادوريا وغيرها ، لست فاعلاً وأنشأ يقول :

أَتَرجْو ٱبْنُ الزُّبَيْرِ اليَوْمَ نَصْري لِعــاقِبَـةٍ ولَمْ أَنْصُرْ حُسَيْنــا

في أبيات .

وقيل لمصعب : إنّ ابن الحُرّ غير مأمون على أن يصنع في سلطانك ما كان يصنع في سلطان من كان قبلك ، ويفسد عليك ، فلم يزل مصعب يتلطّف له وَيَعِدُهُ حتى أتاه ، فأمر بحبسه فقال في السجن :

مَنِ يُبْلِغُ الفِتْيانَ أَنَّ أَخاهُمُ أَتَى دونَهُ بابٌ منيعٌ وحاجِبُهْ
بِمَنْزِلَةٍ ما كان يَرْضَى بِمِثْلِها إذا قامَ عَنَّتْهُ كُبولٌ تُجاذِبُهْ

في أبيات .

وقال أيضاً :

بـأيِّ بَلاءٍ أَمْ بِـأَيَّةِ نِعْمَـةٍ تَقَـدَّمَ قَبْـلي مُسْلِمٌ والمُهَلَّبُ

وكتب ابن الحُرّ إلى الأحنف وغيره يسألهم الكلام لمصعب فيه ، فكلّمه فيه الأحنف فأخرجه من الحبس ، وأطعمه خراج كَسْكَر ، فصار اليه فقسمه في أصحابه ، ثم أتى ابن الحرّ نِفَّرَ[2] فأخذ خراجها فقسمه ولحق بِبُرْسَ[3] ؛

---

١ ـ طسوج بالجانب الغربي من بغداد . معجم البلدان .
١ ـ بلد من نواحي بابل ـ بأرض الكوفة . معجم البلدان .
٢ ـ موضع بأرض بابل . معجم البلدان .

فبعث اليه المصعب الأَبْرَد بن قُرَّة التميمي ، فقاتله وقد صارمع ابن الحرّ خلق ، فهزم الأبردَ وضربه ضربة على جبينه ، فبعث إليهُ حريثَ بن زيد الخيل الطائي فقتله عبيد الله بن الحُرّ بمبارزة وهزم أصحابه ، فبعث إليه المصعب الحجّاج بن حارثة الخَثْعَمي فقاتله حتى حجز الليل بينهم ، وقاتله بِسْطام بن مَصْقلة بن هُبيرة الشَّيْباني وهو والٍ على عين التَمْر ، فدعا رجل من أصحاب بِسطام يقال له يونس بن عاهان ابنَ الحُرّ للمبارزة فقال عبيد الله : شرَّ دَهْرِك آخِرُه فذهَبتْ مَثَلًا ما كنت أظنّ أنّي أعيش حتى يدعوني مثل هذا إلى البراز ، وهزم أصحابَ بسطام فافتدى نفسه بماله وقال :

لو أَنَّ لي مِثْلَ جَريرٍ أَرْبَعَهْ صَبَحْتُ بَيْتَ المالِ حتى أَجْمَعَهْ
وَلَمْ يَهُلْني مُصْعَبٌ ومَن مَعَهْ

يعني جرير بن كُريب ، وكان صاحب ميسرته ؛ وأتى ابن الحُرّ شَهْرَزُور وأخذ ما كان في بيت مالها وقاتله عاملها فهزمه وظفر به فضرب عنقه ، وكان من قِبَل المهلّب ، لأنّه كان على الموصل وأعمالها والجزيرة وما يليها من قِبَل المصعب ، وقال ابن الحُرّ :

يُخَوِفُني بِالقَتْلِ قَوْمي وإنَّما أَموتُ إذا جاءَ الكِتابُ المُؤَجَّلُ
لَعَلَّ القَنا تدمي بِأَطْرافِها الغِنَى فنَحْيَا كِراماً نُجْتَدَى ونُؤَمَّلُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفَقْرَ يُزْري بِأَهْلِهِ وأَنَّ الغِنَى فيه العُلَى والتَجَمُّلُ
وإنَّكَ إنْ لا تَرْكَبِ الهَوْلَ لا تَنَلْ مِنَ المالِ ما يُرْضي الصَديقَ ويُفْضِلُ

وبايع ابن الحُرّ عبدَ الملك مراغمةً للمصعب واجتمع إليه بَشَر من أهل الموصل بتكريت ، فبعث إليه المهلّب عبد الله بن يزيد بن المُغَفَّل الأزدي ، وبعث إليه مصعب الأَبْرَد بن قُرَّة التميمي والجَوْن الهمداني فقاتلهم فلم يزل

يُنْتَصَف منه ، ثم إنه بيَّتهم فقتل منهم بشراً ، وأصاب منهم خيلاً وسلاحاً وقاتلوه من الغد ، فجُرِح ابن الحُرّ وانهزم أصحابه ، فلم يبق إلاّ في خمسين من أهل الحِفاظ وحجز بينهم الليل ، فخرج من تكريت ، وأتى ناحية من الكوفة ، فبعث إليه المصعب جماعة فيهم حجّار بن أَبْجَر فأُصِيب صاحب راية ابن الحُرّ ، فدفعها إلى أَحْمَر طَيّيءٍ ، ومضى إلى نِفَّر فأخذ ما كان بها من مال ؛ ويقال : إنّ المصعب بعث إليه عُمَر بن عبيد الله بن مَعْمَر فقاتله فضربه في وجهه ضربة لم يزل أثرها باقياً حتى مات ، وليس ذلك بثبت ؛ وقال بعضهم وأحسبه الهَيْثَم بن عَديّ : بعث به حين دخل البصرة بعد الجُفْرة ، وقبل توليته فارس .

ومضى ابن الحُرّ إلى عبد الملك ، ومعه جماعة من أصحابه ، فلما قدم عليه أُذِن له وأجلسه معه على السرير ، وأمر له بمائة ألف درهم ، ولكلّ رجل من أصحابه الذين دخلوا معه بمال ، فقال له ابن الحرّ : إنّي أتيتك لتُوَجِه معي جنداً إلى مصعب لأُحاربه ، فأمر له بمائة ألف درهم أُخرى ، ولأصحابه بمال فرّقه عليهم ، وقال:سِرْ وأجْمع من قدرت عليهم وأنا مُمدّك بالخيل والرجال ، فسار ابن الحرّ فنزل بقرية يقال لها بيت فارط إلى جانب الأنبار ، وهي على شاطىء الفرات ، فاستأذنه أصحابه في دخول الكوفة ، فأذن لهم وأمرهم أن يؤذِنوا مَن كان بالكوفة من أصحابهم ليسيروا إليه ، وبلغ خبره عبيد الله بن عبّاس السُلَمي ، فاغتنم الفرصة فسأل الحارث بن عبيد الله بن أبي ربيعة القُباع ، وكان خليفة مصعب على الكوفة يومئذ ، والمصعب بالبصرة ، أن يبعثه إلى ابن الحرّ ، وأخبره بمكانه وتفرُّقِ أصحابه ، فسار إليه في خيل كثيفة من قيس ، فنزل على حاتم بن النعمان الباهلي وهو

نازل في قصر عند كُوَيْفَة ابنِ عُمَر بين كُوثا وبَزِيقيا[1] ، واستمدّه فأمدّه بخمسمائة من قيس ، فسار حتى لقي ابن الحُرّ ، وهو في عدّة يسيرة من أصحابه ، فقالوا : هذا جيش لا طاقة لنا به ، فقال : ما كنت لأَدَعَهم ، وحَمل عليهم حملات وهو يقول :

يا لَكَ يَوْمٌ فاتَ فيه نَهْبي ... وغـابَ عَنّي ثِقَتي وصَحْبِي

ثم عطفوا عليه وكشفوا أصحابَه ، وحاولوا أن يأسروه ، فقال لأصحابه : انصرفوا سالمين ، ودعوني أُقْتَل ، فقالوا : والله لا نُسلمك ، فقاتلوا طويلاً حتى أُثخنوا بالجراح ، ثم أَذِن لهم بالذهاب فذهبوا ولم يُعْرَض لهم ، وجعل يقاتل وحده ، فحمل عليه رجل من باهلة يُكنى أبا كُدَيْنَةَ فطعنه وجعلوا يرمونه ولا يدنون منه ، وجعل يقول : هذه نبل أم مغازل ، فلما اثخنته الجراح خَلَصَ إلى مِعْبَر فدخله ولم يدخل فرسُه فنسف عرقوبة ومضى به الملاح حتى توسط به الفرات ، فأشرفت عليه الخيل وفي المعبر نبيط ، فقالوا لهم : إنّ الذي في السفينة بُغْيَة أمير المؤمنين والأمير ، فإنْ فاتكم قتلنا كم ، فوثب ابن الحُرّ ليقع في الماء فوثب إليه رجل عظيم طُوالٌ فقبض على عضدَيه وجراحاتُه تَشخُب دماً وضربه الآخرون بالمجاذيف ، فلما رأى ابن الحُرّ أنه يُمال به نحو القَيْسيّة قبض على الذي كان يمنعه ، وأخذ بعَضُده فعالجه حتى سقطا جميعاً إلى الفرات فغرقا ؛ فقال أبو كُدَينة الباهلي : إنّي لأنظر إلى شيخ على شاطىء الفرات يصيح ويبكي وينتف لحيته ويقول : يا بختيار ، يا بختيار ، فقلنا : ما لك يا شيخ ، ما لك يا شيخ ؟ فقال : ابني بختيار ،

---

١ ـ قرية قرب حلة بني مزيد من أعمال الكوفة . معجم البلدان .

كان يقتل الأسد ، ويُخرج هذا المعبر من الماء وحده ثم يردّه ، حتى وقع عليه هذا الشيطان الذي دخل المعبر فغرّقه ؛ ولما بلغ عبد الملك خبره جزع عليه وندم على بعثته في أصحابه من غير أن يضمّ إليه جنداً ، وقال : أيَّ مِدْره[1] حربٍ وسدّاد ثغرٍ كان عبيدُ الله لا يُبعدنّك الله يا بن الحُرّ ، والله ما وجدوك خوّاراً ولا فرّاراً .

قال ابن الكلبي : وكان ابن الحرّ لما صار إلى الأنبار بلغه أنّ حبشياً يقال له الغداف ، يقطع الطريق للعِدّة من الشُجَعاء فيهزمهم ويسلبهم ، ويدخل القرية نهاراً فلا يعجبه امرأة إلّا افترشها وقضى حاجته منها ، لا يقدر أحد على منعه ولا دفعه ، فمضى إليه وحدَه ، فلما رآه عرفه بالنعت فسايره ابن الحُرّ ، فقال له : من أين اقبلت يا صاحب الفرس ؟ قال : من الأنبار ، قال : فإنّه بلغني أنّ ابن الحُرّ نزلها فما تراه يريدُ ؟ قال : ايّاك يريد ، أنا ابن الحرّ فخُذْ حِذْرك أيّها الكلب ، ثم حمل عليه فطعنه فصرعه ، ثم نزل فضرب رجله فأبانها ، فأخذ الأسودُ رجله فرمى بها ابنَ الحُرّ ، فمشى اليه ابن الحرّ فقتله ، وأخذ فرسه وجعل ابن الحرّ يقول :

أُمَّ الغُدافِ فَشُقّي الجَيْبَ وآنْتَحِبي ... إنَّ الغِدافُ ورَبّي وافقَ الأَجَلا
دَهْـدَهْتُهُ بَـيْنَ أَنْهارٍ وأَوْدِيَةٍ ... لا يَعْلَمُ الناسُ غَيْري ما الذي فَعَلا

---

١ ـ المدره : السيد الشريف ، والمقدم في اللسان واليد عند الخصومة والقتال . القاموس .

أمر زفر بن الحارث الكلابي

وهو الحارث بن عبد عمرو بن مُعاز بن يزيد بن عمرو بن خُوَيلد بن نُفيل بن عمرو بن كلاب .

حدثني هشام بن عمّار الدمشقي عن الوليد بن مسلم عن مروان بن جَناح عن يونس بن مَيْسَرة: أنّ مروان بن الحَكَم أنفذ مع عبيدالله بن زياد بن أبي سفيان جيشاً إلى الجزيرة والعراق ، وقال له : كلّ بلد افتتحته فأنت أميره ، فسار في زُهاء ستّين ألفا فلم يبلغ الجزيرة حتى مات مروان ، فقلده عبد الملك ما قلّده أبوه وأعطاه مثل الذي أعطاه من الولاية ، فلما صار إلى الرَقّة وهو يريد زُفَر بن الحارث بقَرْقِيسَاء وقد تحصّن بها ، بلغه خبر قوم خرجوا من الكوفة يطلبونه بدم الحسين بن عليّ ، وعليهم سليمان بن صُرَد ، فعرّج إليهم وسرّب للقائهم جيشاً بعد جيش حتى قتلهم فقلَّ من أفلت منهم، وأتى قرقيسياء. فحاصر زفر بن الحارث ، فلم يُمكنه فيه شيء، فمضى يريد العراق ليواقع المختار بن أبي عُبيد الكذّاب ومصعب بن الزبير ، فلما صار بالموصل لقيه إبراهيم بن مالك الأشتر النَخَعي، فقاتله فقُتل ابن زياد،

وحُصين بن نُمير ، وابن ذي الكَلاع ، فاستخلف عبد الملك على دمشق عبدالله بن يزيد بن أَسَد بن كُرْز أبا خالد القَسْري وشخص ، فلما شارف الفرات انخزل عمرو بن سعيد الأشدق من عسكره وصار إلى دمشق ، فبايعه عبدالله بن يزيد ، وأغلق أبواب دمشق ، فانكفأ عبد الملك راجعاً إليه حتى قتله بعد أن آمنه ، واستخلف على دمشق عبد الرحمن بن عبدالله الثَقفي ، وأُمّه أمّ الحَكَم أُخت معاوية وبها يُعرف ، وصار إلى زفر فحصره حتى صالحه ؛ وكان بالجزيرة رجل من بني تغلب يقال له جِدار بن عبّاد قد تحصّن في بعض مدنها ، وكان ابن زياد على محاربته وحصاره بعد الفراغ من أمر زُفَر ، فلما حدث من أمره ما حدث قال زُفَر :

تَمَسَّكْ وَيْحَ أُمِكَ يا جِدارُ أَتاكَ الغَوْثُ وَٱنْقَطَعَ الحِصارُ

فوجّه عبد الملك أخاه محمد بن مروان إلى جدار بن عبّاد فحصره ، ثم صالحه وبايع جدار لعبد الملك وقد مدحه الأخطل .

قال : وأقبل طاغية الروم يريد الشام ، وخرج أيضاً قائد من قُوّاد الضواحي في جبل اللُكَّام ، فاتّبعه خلق من الجَراجِمة والأنباط وأبَاق عبيد المسلمين وغيرهم ، ثم صار إلى لُبْنان ، فأقبل عبد الملك مُغِذاً للسير حين أتاه كتاب ابن أُمّ الحَكَم بذلك ، فلما ورد دمشق وجّه حُميد بن حُريث بن بَحْدَل الكلبي بهدايا وألطاف إلى طاغية الروم ، وكتب إليه معه يسأله الموادعة على إتاوة وأعطاه ايّاها كما فعل معاوية حين أراد إتيانَ العراق فقبل الطاغية الهدايا وما بذل له عبد الملك من الإتاوة وأعطاه رُهناء من أبناء الروم صيّرهم ببَعْلَبكَّ ، وكان مع حميد أيضاً [كُريب] بن أَبْرَهة بن الصَبّاح الحِمْيَري ووادع عبد الملك [الذين خرجوا] بلُبْنان وجعل لهم في كل جمعة

ألف دينار ، فركنوا إلى ذلك ولم يَعْيَثوا بفساد ؛ ثم دسّ إليهم سُحيم بن المهاجر فتلطّف حتى وصل إلى رئيسهم متنكّرا فأظهر مُمالأته وتقرَّب إليه بذمّ عبد الملك وشتمِه ووعده أن يدلّه على عوراته وما هو خير له من الصلح الذي بذل له ، ثم عطف عليه وهو وأصحابه غارّون غافلون بجيشٍ مِن موالي عبد الملك وبني أميّة وجُنْدٍ مِن ثقات جنده وكُماتهم كان أعدّهم لمحاربته وأكمنهم في مكان بالقُرْب منه خَفِيٍ ، فقتل أولئك الروم وبشراً من الجراجمة وغيرهم ، ثم نادى بالأمان فيمن بقي من الجراجمة ومن سواهم فتفرّقوا في قُراهم ومواضعهم ، فلما أصلح عبد الملك أموره استخلف ابنه الوليد على دمشق ، ومعه سعيد بن مالك بن بحدل ، ويقال : إنّه خلّف ابن أُمّ الحَكَم أيضاً ، وأنفذ عبد العزيز إلى مصر ، وسار إلى مَسْكِن ، فقتل مصعب بن الزبير .

وقال هشام : قال الوليد : وقد سمعت أنّ خروج هؤلاء الذين خرجوا بلبنان كان مع مخالفة عمرو الأشدق ، وإغلاقه أبواب دمشق ، وحديث ابن جناح أصحّ .

وقال الوليد : وبلغني أنّ عبد الملك أمر فنودي : من أتانا من العَبيد يعني الذين كانوا مع أولئك القوم فهو حُرّ وله أن نُثْبته في الديوان ، فانفضّ إليه خلق منهم ، فكانوا ممّن قاتل مع سُحيم ، وأنّه وَفَى لهم وجعل لهم رَبْعاً على حِدَةٍ ، فهم يُسمَّون الفتيان إلى الآن .

حدثني عبّاس بن هشام الكلبي عن أبيه عن لوط بن يحيى في اسناده قال : التقى مروان والضحّاك يوم مَرْج راهِط ، وكان مع الضحّاك خلق من

أهل اليمن إلا أنّ قيساً كانوا رؤوس الناس معه عَدَدهم ، فلما قُتل الضحّاك مضى زُفَر فأتى قنسرين فاحتمل ما كان له بها إلى قَرْقِيسياء .

قال الكلبي : ويقال بل كان عاملاً عليها من قِبَل الضحّاك ، فأمدّه وسرّب الخيول إليه ، فلما قُتل هرب إلى قرقيسياء.ولما أتى قرقيسياء ضوى إليه خلق من قيس فرسان ورجال ، وكان عِياض بن عمرو الحميري بقرقيساء وقد غلب عليها ، فقال له زُفَر : إنّي إنّما جئت لدخول الحمّام لِعلّة عرضَتْ لي ، ثمّ أنا منصرف عنك فخاف عِياض أن لا يفعل فأحلفه فحلف له زُفَر ليخرجن منها بعد دخول الحمّام بقرقيسياء ، فلما صار بالمدينة أخرج عِياضاً منها ولم يدخل الحمّام بها أيّام مُقامه كلّها ، وكان دخوله إياها في المحرم سنة خمس وستّين ، وذلك قبل مرور التوابين به بأشهر .

قال : وتشاغل مروان بمصر حتى غلب عليها ، ثم وجّه عبيدالله بن زياد وقال له : أنت أمير كلّ بلد أَهْلُهُ على غير طاعتي تفتتحه ، فسار في ستّين ألفاً فقتل من قتل من التوابين بعَيْن الوَرْدة ، وقُتل بالخازر ، وأقبل عبد الملك يريد زُفَر بن الحارث ، ثم العراق ، فخلعه عمرو بن سعيد ، فعاد إلى دمشق؛ ثم أتى قرقيسياء بعد قتله عمرو بن سعيد، فوضع المجانيق على قرقيسياء ، فأمر زفر أن ينادَى أهل عسكر عبد الملك ، فيقال لهم : لِمَ وَضعْتُم المجانيق علينا ؟ ففعلوا فقالوا : لِنَثْلِم ثلمة نقاتلكم عليها ، فقال زُفَر : قولوا لهم إنّا لا نقاتلكم من وراء الحيطان والأبواب ، ولكنّا نخرج إليكم، قالوا: وثلمت المجانيق من المدينة بُرْجا ممّايلي حسّان بن مالك بن بَحْدَل ، وحُميد بن حُريث بن بحدل ، فقال زُفَر أو غيره :

لَقَدْ تَرَكَتْني مَنْجَنيقُ آبْنِ بَحْدَل   أَحيدُ عَنِ العُصفورِ حينَ يَطيرُ

وكان خالد بن [يزيد بن] معاوية يقاتل أهل قرقيسياء مع كلب ، وهم أخواله لأنّ أُمّ يزيد ميسون بنت بَحْدَل ، ويقال : إنّه كان يقاتلهم من ناحية أخرى في موالي معاوية وغيرهم فألَحَّ عليهم بالقتال والرمي حتى كاد يظفر فقال رجل من بني كِلاب: لأُسْمِعَن خالداً قولا لا يعود بعده إلى ما يصنع، ولأكسرنّه به ، فلما غدا خالد للمحاربة أشرف الكلابي عليه وهو يقول :

مـاذا آبْتِغـاءُ خـالِـدٍ وهَمُّـهْ إذْ سُلِبَ المُلْكَ ونِيكَتْ أُمُّهْ

فانكسر واستحيا ولم يعد إلى الحرب حتى انقضى أمر زُفَر .

وقال زُفَر لخالد وكان يُكنى أبا هاشم :

أبو هاشِمٍ عَـطّارَةٌ فارِسِيَّـةٌ مُكَحَّلَةُ العَيْنَين بَرّاقَةُ الفَمِ
أبو هاشمٍ يَرْمي فَوارِسَ قَوْمِهِ وأمَّا العَدَوُّ الأَبْعَدينَ فما يَرْمي

وقال الصَقْعَب المُرّي :

نَحْنُ بَنو مُرَّةَ نَـرمي زُفَرا يَهْدِي إلينا حَجَـراً فحَجَرا
لَمّـا رَأَيْنـا دِينَـهُ تَـغَـيَّرا وأَصْبَحَ المَعْروفُ مِنْهُ مُنْكَرا

وقال أيضاً :

كَيْفَ تَرَى قَيْساً تُرامي قَيْسا حُمْقاً تَرَى ذاكَ بِها أمْ كَيْسا
تَدوسُهُمْ بِالْمَنْجَنيقِ دَوْسا

وقيل لعبد الملك : إنّ قيساً تنهزم بالناس فآجعلْها ترْمي بالمجانيق ، فقال الصقعب :

فبِآسْتِ مَن قالَ ألا لا يَنْصَحُ وقد فَتَحْنَا حَوْلَهَا ما يُفْتَحُ
في كُلِ وَجْهٍ وخصي ترجح

وقالت كلب لعبد الملك : إنّا اذا لقينا زُفر انهزمت القيسيّة فلا تَشُبْ جَمْعَنا بأحد من قيس ففعل ، فكتبت القيسية على نبلها ليس يقاتلكم غداً مُضَريّ ، ورموا بنبلهم إلى المدينة ، فلما أصبح زُفر دعا الهذيل ابنه ـ وبه كان يُكنى ، ويقال انّه كان يُكنى أبا الكَوثَر والأوّل أثبت ـ فقال : اخرجْ إليهم فشُدّ عليهم شدّةً لا تنثني عنها حتى تضرب فسطاط عبد الملك ، أسمِعْتَ يا بن اللَخْنَاء ، والله لئن رجعت دون أن تطأ طُنُبَ فسطاطه لأضربنّ الذي فيه عيناك .

فخرج عبد الملك وتقدّمت اليمانية ، فجمع الهُذيل بن زُفَر خيله ، ثم رماهم فصبروا قليلا ، ثم انكشفوا وتبعهم الهذيل بخيله حتى وطئوا أطناب الفسطاط ، وقطعوا بعضها ، ثم كرّوا راجعين فقَبَّلَ زفر رأس ابنه الهذيل ، وقال : يا بُنَيَّ لايزال عبد الملك يحبّك بعدها أبداً. فقال الهذيل:والله لَو شئت أن ادخل فسطاطه لفعلتُ فقال زفر :

ألا لا أُبالي مَن أتاهُ حِمامُهُ إذا ما المَنايا عن هُذَيْلٍ تَجَلَّتِ
تَراهُ أَمامَ الخَيْلِ أَوَّلَ فارِسٍ ويَضْربُ في أعجازِها إنْ تَوَلَّتِ

حدثنا أحمد بن إبراهيم الدَوْرَقي ، وأبو خَيثَمة قالا : حدثنا وهب بن جرير حدثنا محمد بن أبي عُيينة قال : جعل بِشْر بن مروان يرسل إلى قيس أتقتلون أنفسكم مع رجل ليس منكم ، وإنّما هو من كندة ، فبلغ ذلك زُفَر بن الحارث فقال :

لَعَلكَ يا بِشْرَ بْنَ مَرْوانَ لائِمي على حين أَبْدَتْ عَن نَواجِذِها الحَرْبُ
فتخبِرُ قَومْي أَنَّني لَسْتُ مِنْهُمُ وتَزْعُمُ أَنَّا مَعْشَرٌ مِن بني وَهْبِ
أَتجْعَلُ أَجْلافاً عَلَيْها عَباؤُها كَكِنْدَةَ تمْشي في المَطارِفِ والعَصْبِ

وقال زفر أيضاً :

أبا الله أَمَّا بَحْدَلٌ وٱبْنُ بَحْدَلٍ فيَحْيَا وأَمَّا ٱبْنُ الزُبَيْر فَيُقْتَلُ
كذَبْتُمْ وبَيْتِ الله لا تَقْتُلونَهُ ولَمَّا يَكُنْ يَوْمٌ أَغَـرُّ مُحَجَّلُ
ولَمَّـا يَكُنْ لِلْمَشْرَفِيَّـةِ فِيكُمُ شُعاعٌ كَقَرْنِ الشَمْسِ حينَ تَرَّجلُ

المدائني عن أبي زياد بن يزيد بن قُحيف الكِلابي قال : قاتل عبد الملك زفر بن الحارث أربعين يوماً ، ورمى المدينة بالمجانيق حتى ثلم عامّة بروجها ، فقال أبناء الكلبيّات من قريش واليمانيّةُ : إنّك قد هدمت مدينتهم فناهِضْهم غداً ساعةً ، فخرج الهُذيل بن زُفَر ، ويزيد بن حُمران ، ومسلم العُقيلي ، وهو أبو اسحاق بن مسلم ، وعبدالله بن يزيد الهِلالي فصاروا على برج المدينة ، وأقبلت قُضاعة مع شروق الشمس فاقتتلوا إلى الظهر ، ثم جالت قضاعة وانكشفت ، ووقفت القيسيّة على البروج ، وأقبل رَوْح بن زِنْباع الجُذامي عند المساء إلى برج منها فقال : من صاحب هذا البرج ؟ قيلَ : عبدالله بن يزيد الهلالي ، فقال رَوْح : نشدتك الله كم قتلنا منكم اليوم ؟ قال : إذ نشدتني الله ، فلم يُقْتَل منّا أحد ، ولم يُجْرَح إلاّ الرجل الواقف صاحب الكُرْدُوس الأَيْمَن فإنّه طُعن طعنةً في صدره ، وأرجو أن لا يكون عليه بأس ، فنشدتُك الله كم قتلنا منكم ؟ قال : عدّة فرسان ، وجرحتم ما لا يُحْصَى ، فلعن الله ابن بَحدَل ، ورجع رَوْح إلى عبد الملك فقال له : إنّ ابن بحدل يُمَنِّيكَ الباطل فأَعْرِض عن هذا الرجل .

عليّ بن محمد المدائني وغيره : أنّ رجلا من كلب يقال له الذّيال كان يخرج في حصار زُفَر بقرقيسياء فيشتم ، فقال زفر للهُذيل أو لبعض من معه من قيس ، أَمَا تكفيني هذا ؟ فقال : أنا اجيئك به ، فدخل عسكر عبد

الملك ليلا فجعل ينادي من يعرف بغلاً من صفته كذا وكذا حتّى انتهى إلى خباء الرجل وقد عرفه [فقال] الرجل : ردّ الله علينا ضالتك ، فقال : يا عبد الله إنّي قد أَعْيَيتُ فلو أَذِنت لي فاسترحتُ قليلا ، قال : ادخل فدخل والرجل وحده في خِبائه فرمى بنفسه ونام صاحب الخباء ، فقام إليه فأيقظه فقال والله لئن تكلّمت لأقْتُلَنَّك ، ولن سكت وجئتَ معي إلى زُفَر فَلَك عهد الله وميثاقه أن أردّك إلى عسكرك بعد أن يَصِلكَ زفر ويُحسن إليك ، فخرجا وهو ينادي من دلّ على بغل ويَصِفُ حتّى أتى زفر بن الحارث والرجل معه ، فأعلمه أنّه قد آمنه ، فوهب له زفر دنانير وحمله على راحلة ، وألبسه ثياب النساء ، وبعث معه رجالا حتى دنوا من عسكر عبد الملك فنادوا هذه جارية بعث بها زفر إلى عبد الملك .

وانصرفوا ، فلما نظر إليه أهل العسكر عرفوه ، وأخبروا عبد الملك خَبَرَهُ فضحك وقال : لا أبعد الله رجال مضر ، والله إن قتلهم لذل ، وإن تركهم لحسرة ، وكف الرجل فلم يعد لشتم زفر وأصحابه ، ويقال إنه هرب من العسكر .

قالوا : وقال عبد الملك وهو محاصر لزفر بن الحارث :

إنا وجدنا زفر بن الحارث في هذه الهنات والهيائث[١]

خبيثة من أخبث الخبائث

قالوا : وكتب عبد الملك إلى زُفَر بن الحارث كتاباً يدعوه فيه إلى الطاعة ولزوم الجماعة ويُرغبه ويُرهبه ، وبعث بالكتاب مع رَجاء بن حَيْوَة

---

١ ـ المهايثة : المكاثرة ، والهيثان : إصابة الحاجة من المال والإفساد فيه . القاموس .

الكندي والحجّاج بن يوسف الثَّقفي ، فأتيا زفر بالكتاب وكلّماه فأبى الصلح ، وحضرت الصلاةُ فصلّى رجاء مع زفر ، وصلّى الحجّاج وَحْدَه ، وقال : لا أُصلّي مع مُشاقَ منافق ، فلما انصرفا قال عبد الملك لرَجاء : كيف لم تفعل ما فعل الحجّاج ؟ قال : ما كنتُ لأَدَعَ الصلاة مع قوم يقيمونها وأصلّي وحدي .

وقال الهُذيل بن زُفَر لأبيه: لو صالحتَ هذا الرجل فقد أكَلَتْك وقومَك الحربُ وأنت مذ سنون في هذه المدينة وقد أعطى الناسُ الرجلَ طاعتهم ، واجتمعوا عليه ، وهو خير لك من ابن الزبير ، وأمر عبد الملك محمد بن مروان أن يعرض على زفر وابنه الهذيل الأمان على أنفسهما ومن معهما ، وأن يُعْطَيَا ما أَحبّا ، ففعل محمد ذلك فأجاب الهذيل ، وكلّم أباه فأجاب على أن له الخيار عليه ، فبينا الرُسُل تختلف في ذلك ، إذ جاء رجل من كلب إلى عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين قد هُدمت أربعة أَبْرِجَة ، فقال عبد الملك : لا أصالحهم وناهَضَهم فهزَموا أصحابَه حتى دخلوا عسكره ، وأزالوه عن موقعه ، فقال: أعطوهم ما أرادوا ، فقال زفر : كان هذا قبل هذه الحال أَمْثَل ؛ قال : واستقر صلح زُفَر على أن آمنه عبد الملك وابنَه وكلّ من كان مع زفر وعلى وضع الدماء والأموال ، وأن لا يقاتل زفر مع عبد الملك ، ولا يقاتل له حتى يموت عبدالله بن الزبير لبيعته له ، وأن يُعطَى مالاً يقسمه في أصحابه ، وخاف زفر أن يغدر به عبد الملك كما غدر بعمرو بن سعيد الأشدق ، فتوقّف عن إتيانه حتّى بعث إليه بقضيب النبي ﷺ أماناً له .

وحدثني حفص بن عمر العُمَري عن الهَيْثم بن عَديّ عن يعقوب بن داود قال : لما تمّ الصلح بين عبد الملك [وزُفَر] خرج إليه فرأى قلّة أصحابه

فقال عبد الملك : لو علمت أنه في هذه القلّة لحاصرتُه أبداً حتى ينزل على حكمي فبلغ زُفَر قولُه فقال : إن شئتَ رجعتَ ورجعنا إلى أمرنا فقال : بل نَفِي لك يا أبا الهُذيل .

قال : ودخل زُفَر على عبد الملك فأجلسه معه على سريره فقال ابن عضاة الأَشْعَرى : أنا كنت يا أمير المؤمنين أحقّ بهذا المجلس ، فقال زفر : كذبت لستَ هناك إنّي عاديتُ فضَررت ، وواليتُ فنفعتُ .

ودخل الأخطل غِياثُ بن غوث على عبد الملك ، فرأى زُفَر بن الحارث معه على سريره ، فقال : يا أمير المؤمنين أيقعد زفر هذا المقعد وقد قاتلك وحاول زَوالَ نعمتك وسَلْبَها ؟ فقال زفر : إنّا كنّا قاتلناك بالأمس ثم أرانا الله خَيْراً ممّا كنّا فيه فواليناك ودخلنا في أمرك فنحن اليوم في طاعتك على أشدّ ممّا كنّا فيه من معصيتك ، فلا تسمعنّ ما يقول هذا الفَدَوْكَسي النصراني ولا قولَ قومه ، فإنّا أَمَسُّ بك قرابةً ، وأَوْجبُ عليك حقاً .

قالوا : ودخل زُفَر على عبد الملك وقد مدّ رجله ، ولم يُقْبِل عليه كما كان يُقْبِل لكَلام الناس في إجلاسه إيّاه على سريره ، فلما دنا زفر من السرير قال : يا أمير المؤمنين اقبض رجلك عن مجلس خالك ، وفِهْ لي بما أخذتُ عليه صفقتي ونلتَ به طاعتي . فقبض رجله وجلس زفر .

وقال ابن الكلبي : قوله خالك يعني أنّ أُمّ عبد شمس من بني سُليم ، وأُمّ أبيه آمنة بنت أَبان بن كُليب بن ربيعة بن عامر .

قالوا : وكان ممّن يتكلّم في أمر زفر عند عبد الملك خالد بن يزيد بن معاوية فقال زفر :

أبا هاشمٍ لَسْتَ الحَليمَ فتُرْتَجَى ولَسْتَ أَبِياً صابِراً حين تُجْهل
سَتَمْنَعُني قَيْسٌ مِنَ الضَيْمِ والقَنا وتَمْنَعُني بِيضٌ تُحَدُّ وتُصقَل
أَبَعْدَ سَعيدٍ يَوْمَ قامَ بِخُطْبَةٍ أزَالُ بها عَنْكَ الخِلافَةُ تُجْذل

سعيد بن مالك بن بحدل .

قالوا : وقال عبد الملك لزُفَر:بلغني أنّك من كندة ؟ فقال : وما خيرُ مَن لا يُنْفَى حَسَداً ولا يُدَّعَى رَغْبَةً .

قالوا : وسايَرَ زفر عبد الملك يوماً ، فلما كان بالمرج طعن في جنبه بِمِخْصَرَته ثم قال :

أبكاها الله ولا ذهبَتْ ، فغضب زفر وخنس من موكبه ، فافتقده وقال : أين أبو الهذيل ؟ فقالوا : تخلّف فوقف فدُعي ، فقال : يا ابا الهذيل إنما مزحتُ معك قال : فهلّا بغير هذا .

وقال الجحاف بن حُكيم السُلَمي :

وكُنْتَ زُبَيْرِيّاً فأَصْبَحْتَ شِيعَةً لِمَرْوانَ وأرتَدَّ الهَوَى لابْنِ بَحْدَلِ

وقال ابن الكلبي : كانت الرَباب بنت زُفَر بن الحارث عند مَسْلمة بن عبد الملك ، فكان يُؤْذَن عليه لأخَوَيْها الهُذيل وكَوْثَر في أوّل الناس ؛ فقال عاصم بن عبدالله الهِلالي لَمسلمة :

أَمَسْلَمَ قــد مَنَّيْتَني ووَعَــدتَني مَواعيدَ خَيْرٍ إنْ رَجَعْتَ مُؤَمَّرا
أَيُدعَى الهُذَيْلُ ثم أُدْعَى وَراءَهُ فَيَا لك مَدْعًى ما أَذَلَّ وأَحْقَرا
فلَسْتُ بِراضٍ عنك حتى تُحِبَّني كَحُبّكَ صِهْرَيْكَ الهُذَيْلَ وكَوثرا
وكيْفَ ولَمْ يَشْفَعْ لِيَ اللَيْلَ كُلَّهُ شَفيعٌ إذا أَلْقَى قِناعاً ومِئزَرا

فقال الهُذيل وفخر على عاصم :

ما فَخْرُ ذي فَخْرٍ عَلَيَّ وإنَّما نَشَأْنا وأُمَّانا مَعاً أَمَتانِ
أبي كان خَيْراً مِن أَبيكَ وأَفْضَلَتْ عليك قَديماً جُرْأَتي وبَياني

وقال الهَيْثم بن عَديّ : لما اتى زُفَر قَرْقِيسَاء ومات مروان ، كتب عبد الملك إلى أبان بن عُقبة بن أبي معيط وهو على حِمص يأمره أن يسير إلى زفر ، فسار وعلى مقدمته عبدالله بن زميت الطائي ، فواقع زفرَ بن الحارث فقتل من أصحاب ابن زميت ثلاثمائة فلامه أبان على عجلته ، وأقبل أبان فوقع زفرَ بن الحارث فقتل ابنه وكيع بن زفر ، وأدركت طيءٌ ثقلَ زفر ونساءً له فاستوهب محمد بن حُصين بَن نمير النساء ، فألحقهنّ بقَرْقِيسَاء ، وقال زفر :

عَلِقْنا بِحَبْلٍ مِن حُصَيْنٍ لَوَ آنَّهُ تَغَيَّبَ حالَتْ دونَهُنَّ المَصايرُ
أَبوكُمْ أَبونا في القَديمِ وإنَّني لَغابِرُكُمْ في آخِرِ الدَهْرِ شاكِرُ

وكان يقال إنّ زفر بن الحارث من كندة[1] .

١ - بهامش الأصل : بلغ العرض ولله الحمد .

خبر عصبية قيس وكلب ويوم بنات قين

قال هشام بن الكلبي وغيره : صار زُفَر بن الحارث إلى قَرْقِيسياء فتحصّن بها ، وجعل يُغِير منها على بلاد كلب لأنّ كلباً كانوا مروانيّة ، وكانت قيس زُبيريّة ، فكان يقتل ويسوق الأموال ، وكانت كلب تفعل مثل ذلك بقيس ، وكان عُمير بن الحُباب السُلَمي يغير مع زفر أيضاً ببني تغلب وذلك بعد انصراف عُمير من جيش عبيدالله بن زياد حين قُتل وقبل وقوع الحرب بين قيس وتغلب ؛ وغزا زفر تَدْمُرَ وعليها عامر بن الأسود الكلبي من بني عامر الأَجْدار بن عوف بن كِنانة بن عوف بن عُذْرة بن زيد اللاّت ، ومعه ابنه الهُذيل بن زفر فقتلهم جميعاً ففي ذلك يقول زفر :

يا كَلْبُ قد كَلِبَ الزمانُ عَلَيْكُمُ   وأَصابَكُمْ مِنّي عَذابُ تَنَزُّلِ
إنَّ السَماوَةَ لا سَماوَةَ فَالْحَقوا   بِمَنابِتِ الأشنان[1] وَآبْنَيْ بَحْدَلِ

فأجابه جواس بن القَعْطَل الكلبي :

---

١ ـ بهامش الأصل : الزيتون .

دُسْنا ولم نَفْشَلْ هَوازِنَ دَوْسَةً   تَرَكَتْ هَوازِنَ كَالفَرِيدِ الأَعْزَلِ
مِن بَعْدِ ما دُسْنا تَرائِقَ هامِها   بِالْمَشْرفيَّةِ والوَشيجِ الذُّبَّلِ
وأَذَلَّ مَعْطَسَكُمْ وأَضْرَعَ خَدَّكُمْ   قَتْلَى فَزارَةَ إِذْ سَمَا آبْنا بَحْدَلِ

قالوا : فلما رأت كلب المَدَر ما لقيته كلب البوادي من زُفَر بن الحارث ، وعُمير بن الحُباب أمرْوا عليهم حُميد بن حُريث بن بَحْدَل الكلبي ، فخرج حتى نزل بتَدْمُر ، وعبد الملك يومئذ يريد أن يزحف إلى زفر بن الحارث ، ثم يأتي العراق لمحاربة مصعب بن الزبير ، وكان مَن شهد المرج من بني نُمير بن عامر بناحية الشام بقرب تَدْمُر ، وبينهم وبين أهل تدمر عهد وعقد ، فأرسل إليهم حُميد بن حُريث عن نفسه ، وعن أهل تدمر : إنّا قد نقضنا عهدكم فالحقوا بمَأمَنكم من الأرض ، ثم سار إليهم فقتلهم ، ويقال : إنّه وجّه إليهم جماعة من كلب فأتت عليهم ، وإنّ حُميداً لم يكن معهم ؛ وسار حُميد يريد بني تغلب لمظاهرتهم عُمير بن الحُباب وقيساً على كلب ، فوجد عميرا قد أغار على قوم من كلب فمضى في طلبه ودليلاه العكبش بن حليطة الكلبي والمَأموم بن زيد الكلبي ، فلم يلحقه ولحق قوماً من قيس ممّن كان مع عُمير فقتلهم ، ولم يَنْجُ منهم إلاّ رجل عريان ركب فرسه وأتى عميراً فقال عمير : ما زلتُ أسمع بالنذير العريان حتى رأيت ، ولحق عُمير بقَرْقِيسِيَاء وانطلق حميد إلى من قتل من أولئك القيسيّة الذين كانوا مع عمير ، فقطع آذانهم ونظمها في خيط ومضى بها إلى الشام .

وانتهى الخبر إلى عبد الملك ، وعبدُالله بن الزبير يومئذ بمكة ، وكان عند عبد الملك حسّان بن مالك بن بَحْدَل الكلبي ، وعبدالله بن مَسْعَدَة بن حِكْمة بن مالك بن حذيفة بن بَدْر الفَزاري ، فأتي عبد الملك بالغَداء فقال

عبد الملك لعبدالله بن مسعدة : ادنُ فكُلْ ، فقال ابن مَسْعَدَة : والله لقد أوقع حُميد بسُليم وعامر وأخلاط قيس وقعةً لا ينفعني معها غداءٌ ، ولا يسوءني بعدها شراب حتى يكون لها غَيْرٌ ، فقال حسّان بن مالك: يا بن مَسْعَدَة غضبت لقيس إنْ قُتلتْ ، وأُنْسِيتَ دخولهم قرقيسياء يُغيرون على أهل البادية مِنّا قومٍ ضُعفاء لا ذَنْب لهم ، فلما رأى حُميد ما نزل بقومه وما نالهم طلب بثأره فأدركه ، وبلغ حميداً قول ابن مَسْعَدة فقال : والله لأوقعنّ بفزارة وقعةً تُشغل ابن مَسْعَدة عن الغضب لعامر وسُليم ، فتجهّز وخرج حتى أتى فزارة ومعه دليل من كلب يقال له العكبش بن حَلِيطة وآخر يقال له المأموم بن زيد بن مضرِس الكلبي ، ومعه كتاب قد افتعله على لسان عبد الملك بتوليته صدقاتهم، فلما اجتمعت إليه وجوههم قال: يا بني فزارة هذا كتاب أمير المؤمنين وعهده ، وقد كان ضرب فسطاطاً وخِباءً فجعل يدعو الرجل منهم فيدخل الفسطاط ، ثم يخرج من مؤخَّرة فيُقْتَل ، وعلم قوم من خارج الفسطاط بما يفعل بأصحابهم فامتنعوا من الدخول ، فكَثَرَهم بمن معه فقتلهم فكان جميع من قتل منهم : من بني بَدْر خمسين رجلاً ، سِوَى من قتل من غيرهم ، وأخذ أموالهم ثم رجع حُميد إلى الشام .

فلما قتل عبد الملك مصعب بن الزبير بالعراق وقدم النُخيلة بالكوفة ، كلّمه أَسماء بن خارجة بن حِصن ، وبنو فزارة ، وذكروا ما صنع حُميد بن حُريث بن بَحْدَل ، وحدّثوه بأنّه ادّعى أنّه مصدِقّه وقالوا : يا أمير المؤمنين أَقِدْنا منه فأبى عبد الملك ذلك وقال : كنتم في فتنة ، والفتنة كالجاهلية ولا قَوَدَ فيها ، ولكنّي صانع بكم ما لا أصنعه بغيرهم أُدِي كل قتيل منكم بِدِيَةٍ من أعطيه قُضاعة وحمير ممّن بأجناد الشام ، فقبل القوم الديات ؛ فقال

عمرو بن المخلى ، وبعضهم يقول : ابن المِخْلاة ، وقال ابن الكلبي : هو المخلى .

خُذُوها يـا بَني ذُبْيانَ عَقْـلاً عَلَى الأَحْياءِ واعْتَقِدوا الخِزاما
مَواعدَ مِن بَني مَرْوان دَيْناً نُـدافِعُكُمْ بها عـاماً فعـامـا

فلما قبضوا الديات ، مضى قوم منهم إلى اليمن ، فاشتروا الخيل والسلاح ، فلما قدموا أغارت بنو فزارة على بني عبد وُدّ وبني عُليم من كلب وهم على ماء يقال له بنات قَيْن ، وقال غير أبي مخنف : هو ماء عند جبل يقال له بنات قين ، فقتلوا منهم مائة وثمانين ، ويقال : نَيِّفاً وخمسين ، وكان قائداً القوم : سعيدَ بن عُيَينة بن حِصن ، وحَلْحَلَةَ بن قيس بن الأَشْيَم بن سيّار من بني العُشَرَاء من فزارة .

فقال عُويف القوافي ابن معاوية :

فسائِلْ جَحْجَبَى وبني عَدِيٍّ وتَيْمَ اللاّتِ مَنْ عَقَدَ الخِزاما
فـإنّا قـد جَمْعْنا جَمْـعَ صِـدْقٍ يُفَرِّجُ عَنْ مَناكِبِـهِ الزِحـاما

في أبيات .

وبلغ عبد الملك أنّ كلباً جمعت لِتُغير على قيس وفزارة خاصّةً ، فكتب إليهم يُقسم لهم بالله لئن قتلوا من بني فزارة رجلاً ليقيدنّهم به ، فكفّوا وكتب عبد الملك إلى الحجّاج بن يوسف ، وهو عامله على الحجاز يأمره بأن يحمل إليه سعيد بن عُيينة ، وحَلْحَلَة بن قيس الفزاريَّين ، فبعث بهما إليه فحبسهما ، وقدم على عبد الملك وفدُ كلب فعرض عليهم الديات فأبَوها ، فقال : إنما قُتل منكم الشيخ الكبير والصبيّ الصغير ، فقال له النعمان بن فُرَيَّة : قُتل منّا مَن لو كان أخاك لاختِيرَ عليك ، فغضب عبد الملك ، وأراد

ضرب عنقه فقيل له : إنّه شيخ كبير خَرِفَ فأمسك ؛ وقال أبناء القيسيّات ، وهم : الوليد وسليمان ابنا عبد الملك، وأبان بن مروان لعبد الملك: لا تُجِبْهم إلاّ إلى الدِيات ، وقال خالد بن يزيد بن معاوية وأبناء الكلبيّات : لا إلا القَتْلَ واختصموا ، وتكلّم الناس في ذلك في المقصورة حتى عَلَتْ أصواتهم ، وكاد يكون بينهم شرّ ، فلما رأى عبد الملك ذلك أخرج سعيد بن عُيينة وحلحلة بن قيس ، فدفع حَلْحَلة إلى بني عبد وُدّ من كلب ، وحلحلة يقول :

إنْ أكُ مَقْتولاً أُقادُ بِـرُمَّتي   فمِنْ قَبْلِ قَتْلي ما شَفَى نَفْسيَ القَتْلُ
وقد تَرَكتْ حَرْبي رُفَيْدَةَ كُلَّها   مُجاوِرُها في داهرها الخَوْفُ والذِلُّ
ومِن عَبْدِ وُدٍّ قد أَبَرْتُ قَبائِلاً   فغادَرْتُهُمْ كَلًّا يُطيفُ به كَلُّ

وقال أيضاً :

إنْ يَقْتُلوني يَقْتُلوني وقد شَفَى   غَليلَ فُؤادي ما أَتَيْتُ إلى كَلْبِ
فقرَّتْ به عَيْني وأَفْنَيْتُ جَمْعَهُمْ   وأَثْلَجَ لمّا أنْ قَتَلْتُهُمُ قَلْبي
شفَى النَفْسَ ما لاقَتْ رُفَيْدَةُ كُلُّها   وأَشياخُ وُدٍّ مِن طِعانٍ ومِن ضَربِ

ووقف حلحلة بين يدي عبد الملك فقال لعبد الملك : ما تنتظر بنا يا بن الزَرْقاء فوالله لو ملكناها منك ما أنظرناك طرفة عين ، فلما قُدّم ليقتل قيل له : اصبر يا حلحلة فقال :

أَصْبَرُ مِن عَوْدٍ بِجَنْبيهِ جُلَبْ   قد أَثَّرَتْ فيه الغُروضُ والحَقَبْ
أَصْبَرُ مِنْ [ذي] ضاغِطٍ عَرَكْرَكِ[1]   أَلْقَى بَـوَابي زَوْرِهِ لِلْمَبْـرَكِ

١ ـ العركرك : الركب الضخم ، والجمل الغليظ . القاموس .

ومدّ عنقه وهو يقول : اجعلها خير الميتَتَيْنْ فقُتل ، وكان الذي تولّى قتله شُعيب بن سُويد ، ودُفع سعيد بن عُيينة بن حِصن إلى بني عُليم من كلب فقتلوه ، ويقال إنّ سعيداً هو الذي قال لعبد الملك:يابن الزرقاء ما تنتظر بنا ؟ .

وقال حين حُبس :

فَإنْ أُقْتَلْ فقد أَقْرَرْتُ عَيْني وقد أَدْرَكْتُ قَبْلَ المَوْتِ ثَأْري
وما قَتْلٌ على حُرٍّ كَريمٍ أَبادَ عَدُوَّهُ يَوْماً بِعارِ
فإنْ أُقْتَلْ فَقَد أَهْلَكْتُ كَلْباً ولَسْتُ عَلَى بَني بَدْرٍ بِزارِ

وقال حلحلة وهو في الحبس :

لَعَمْري لَئِنْ شَيْخاً فَزارَةَ أُسْلِما لقد حَزِنَتْ قَيْسٌ وقَدْ ظَفِرَتْ كَلْبُ
فلا تأْخُذوا عَقْلاً وخُصُّوا بِغارةٍ بَني عَبْدِ وُدٍ بَيْنَ دُومَةَ والهَضْبِ
سَلامٌ عَلَى حَيَّيْ هِلالٍ ومالِكٍ جَميعاً وخُصُّوا بِالسَلامِ أَبا وَهْبِ

أبو وهب زَبّان بن سيّار بن عمرو ، أحد بني العُشَراء من فزارة ، ومالك بن سعد بن عديّ بن فزارة ؛ وقال زبّان حين بلغه شعر حلحلة : رحم الله أبا ثَوابةَ قد كفانا النار والعار ، وأدرك بالثأر ، ولنا في القوم فضل فلم يحرّضنا عليهم ؛ وقال بعض الفزاريّين : لقد وفى أبو الذبّان[1] لكلب وآثرهم على بني عمّه .

وقال عَليّ بن الغَدير الغَنَوي في قتل سعيد وحلحلة :

---

١ ـ أي عبد الملك بن مروان .

وحَلْحَلَةُ القَتيلُ مَعَ ابْنِ بَدْرٍ وأَهْلُ دِمَشْقَ أَنْجِيَةٌ عـزين
فبَعْـدَ اليَـوْمِ أَيّـامٌ طِـوالٌ وبَعْـدَ خُمـودِ فِتْنَتِكُمْ فُتـونُ
خَليفَـةُ أُمَّـةٍ قُسِـرَتْ عَلَيـهِ تَخَمَّطَ[1] فاسْتَخَفَّ بِمَنْ يَدِينُ

وقال أرطاة بن سُهَيَّة :

ألا أَبْلِغْ بَني مَـرْوانَ عَنّـا فقـد أُعْطِيتُمُ كَـرَماً وخِـيرا
أيُقْتَـلُ شَيْخُنا ويُـرَى حُمَيْدٌ رَخِيَّ البالِ يَسْتَبِىءُ الخُمورا
فنـاكَتْ أُمَّهـا قَيْسٌ جِهـاراً وعَضَّتْ بَعْدَها مُضَرُ الأيورا
ولا واللهِ ما كَرُمَتْ ثَقيفٌ ولا كانوا عَلَى كَلْبٍ نَصيرا

يقول حين حمل الحجّاج سعيداً وحلحلة .

وقال رجل من كلب :

ونَحْنُ قَتَلْنا سَيِّدَيْهِمْ بِشَيْخِنا سُوَيْدٍ فما كانا وَفاءً به ذمًّا

سويد بن زمان بن ماطل .

حرب قيس وتغلب

قالوا : لما انقضى أمر مرج راهط ، وصار زُفَر بن الحارث إلى قَرقِيسِيَاء صار معه عُميربن الحُباب بن جَعْـدَة السُلَمي ، وهو ابن الصَمْعاء ، والصمعاء أُمّه أوجدته، وكانت سوداء، فجعلا يطلبان كلباً واليمانيّة بقتلى مرج راهط وكان معهما قوم من بني تغلب يدلونهما ويقاتلون معهما إذا أغارا ، فطلبت كلب قوماً أغاروا عليهم من بني تغلب مع زُفَر ، ففي ذلك يقول غِياث الأخطل بن غَوْث :

---

١ ـ تخمط : تكبر وغضب . القاموس .

نُبِّئْتُ كَلْباً تَمَنَّى أَنْ تُحارِبَنا وطالَ ما حارَبونا ثم ما ظَفِروا[1]

وحدثني داوود بن عبد الحميد قاضي الـرَّقَّة عن مشايخ القيسيّين قالوا :

لما انقضى أمر المرج بايع عُمير مروان بن الحَكَم وفي نفسه ما فيها من أمر قتلى قيس يوم المرج، فلما عقد مروان لعبيدالله بن زياد وجّهه إلى الجزيرة والعراق ، وشخص عُمير في جيشه ، فجعله على إحدى مُجَنِّبَتَيه وهي الميسرة ، وكان معه يوم لقي ابن صُرَد بعين الوَرْدة ، وأتى معه قرقيسياء فكان عمير يثبُطه عن المُقام عليها ويشير عليه بتلِقّي جيش المختار بن أبي عُبيد الثقفي قبل أن يدخل الجزيرة ، فأغذّ ابن زياد السير حتى لقي ابراهيم بن الأشتر ، فمال عُمير مع ابن الأشتر حتى فُضّ عسكر عبيدالله بن زياد وقُتل عند نهر يقال له الخازِر بقرب الزابي ، وكره عمير أن يصير إلى المختار ، فأتى قرقيسياء ، فأقام بها مع زُفَر بن الحارث ، فكانا يغيران على كلب واليمانيّة ، وشُغل عبد الملك عن زفر فلم يَسِرْ إليه ، ولم يوجّه جيشاً ، وملّ عمير المُقام بقرقيسياء فطلب الأمان من عبد الملك فآمنه وكان عليه في نفسه ما كان ، ووشى به إليه مع ذلك واشٍ فحبسه فاحتال حتى هرب من الحبس ، فيقال : انّه اتّخذ سُلَّماً من خيوط قِنَّب وتسلّق به حتى تخلّص من حبسه على سلّم من خيوط من كوّة البيت وأنشأ يقول :

عَجِبْتُ لِما تَظَنَّتْهُ المَوالي بِخَرّاجٍ مِنَ الغَمَراتِ ناجِ
ونَـوَّمَ شُرْطَـةَ الـرَّيّـانِ عَنّي كُمَيْتُ اللَّوْنِ صافِيَةُ المِزاجِ

---

١ ـ ديوان الأخطل ص ١٨٨ مع فوارق .

والرّيان مولى عبد الملك وصاحب حرسه ، وكان عمير محبوساً عنده ، فسقى أعوانه نبيذاً حتى أسكرهم ونجا ، ويقال : بل كُلّم فيه فَخَلاّه ، والأوّل أثبت ؛ فعاد إلى الجزيرة وكان منزله على النهر المعروف بالبَليخ ، فاجتمعت إليه قيس فكان يُغير بهم على كلب واليمانيّة ، وكان مَن معه من القيسيّة يُسيئون جِوارَ بني تغلب ويسخّرون مشايخهم من النصارى ، فهاج ذلك بينهم شرّاً لم يبلغ الحربَ وذلك قبل شخوص عبد الملك إلى زُفَر والمصعب بن الزبير ، وكانت قيس زبيريّة وتغلب مروانيّة .

وقال أبو عمرو الشيباني الراوية فيما أخبرني عنه ابنه عمرو بن أبي عمرو : أغار عُمير بن الحُباب على كلب ، ثم انكفأ راجعاً فنزل ومَن معه من قيس بِثَنْيٍ من أثناء الفُرات ، ويقال : على الخابور ، والخابور نهر يخرج من رأس العين ويصبّ في الفرات ، وكانت منازل بني تغلب فيما بين الخابور والفرات ودجلة ، وكانت بحيث نزل عمير وأصحابه امرأة من بني تميم ناكح في بني تغلب يقال لها أمّ دَوْبَل ولها غُنيمة ، فأخذ غلام من بني الحَريش بن كعب بن ربيعة بن عامر عنزا منها فذبحها ، فشكت ذلك إلى عُمير فلم يُشكِها ، وقال : هذا من مَغْمَرة الجيش فلما رأى الحَرَشيّون أنّ عميرا لم يغيّر على صاحبهم شدّوا على باقي الغُنيمة فذبحوها وأكلوها ، ومانعهم قوم من بني تغلب حضروهم فقُتل رجل منهم يقال له مجاشع التغلبي ، وجاء دَوْبَل وهو من بني مالك بم جُشَم بن بكر بن حُبيب ، وكان من فرسان بني تغلب ، فأخبرته أمه بما أصيبت به ، فسار في قومه ، فشكا إليهم ما صنع بغنم أمه ، وجعل يذكرهم تعالي قيس عليهم ، وسوء جوابهم لهم ، فاجتمعت منهم جماعة ، وأمروا عليهم شعيث بن مليل التغلبي ، ثم أغاروا

على بني الحَريش ، ومع بني الحريش حينئذ قوم من إخوتهم بني قُشير بن كعب ، فقتلوا منهم واستاقوا ذَوْداً لامرأة من بني الحَريش يقال لها أمّ الهَيْثم ، فلم يقدر القيسيّون على تخلّصه من أيديهم ؛ فقال الأخطل وبلغه الخبر وهو براذان[1] :

أتاني ودوني الزابيانِ كِلاهُما ودِجْلَةُ أَنْباءٌ أَمَرُّ مِنَ الصَبْرِ
أتاني بِأَنَّ ٱبْنَيْ نِزارٍ تَضاغَنا وتَغْلبُ أَوْلَى بالوَفاء وبِالغَدْرِ[2]

وقال الأخطل أيضاً :

فإنْ تَسْأَلونا بالحَريشِ فإنّنا بُلينا بِنُوكٍ مِنْهُمُ وفُجورِ
غداةَ تَحامَتْنا الحَريشُ كَأَنَّها كِلابٌ بَدَتْ أَنْيابُها لِهَريرِ
وجاؤوا بِجَمْعٍ ناصِري أُمّ هَيْثَمٍ فما رَجَعوا مِن ذَوْدِها بِبَعيرِ[3]

وقال عمرو بن الأَهْتَم التغلبي :

وإنّا يَوْمَ سارَ بِنا شُعَيْثٌ قَرَيْناهُمْ وأَيَّ قِرىً قَرَيْنا
نَصَصْنا الخَيْلَ والراياتِ حتى قَضَيْنا مِن هَوازِنَ ما قَضَيْنا
وما أَبْقَيْنَ مِن قَيْسٍ شريداً وما غادَرْنَ لِلْجُشَمِي دَيْنا

فرد عليه نُفيع بن صَفّار المُحاربي بعد مقتل شُعيث بن مُليل فقال :

وإنا يَوْمَ لاقَيْنا شُعَيْثاً قَرَيْناهُ فأَيَّ قِرىً قَرَيْنا

في أبيات .

---

١ ـ راذان الأسفل وراذان الأعلى : كورتان بسواد بغداد . معجم البلدان .
٢ ـ ديوان الأخطل ص ١٧٥ .
٣ ـ ديوان الأخطل ص ١٥٢ .

وقال القُطامي وهو عُمير بن شِيَيْم .

وإنّـا يَـوْمَ نـازَلَهُمْ شُعَيْثٌ   كَلَيْثِ الغِيلِ أَصْحَرَ ثُمَّ ثارا
وتَغْلِبُ جَدَّعوا أَشْرافَ قَيْسٍ   وذاقـوا من تَخَمُّطِها البَوارا
بِضَرْبٍ يَقْعَصُ الأَبْطالَ مِنْهُمْ   ويَمْتَكِرُ اللِحَى منه آمْتِكارا[1]

المَكْر المَغْرة .

ومن رواية أبي عُبيدة فيما أخبرني عنه عليّ بن المغيرة الأثرَم : أن غنم أم دَوْبَل ، وهي فيما ذكر تغلبيّة ، نفشت في زرع لرجل من قيس في بعض الليالي ، فشكا القيسي ذلك إليها فلم تُشكِه وضحكت به ، ثم نفشت في زرعه ليلة أخرى ، فأخذ عنزا منها فذبحها ، فلما جاء ابنها دوبل اعلمته ذلك فأتى وأخٌ له وعدّة معهما من بني تغلب الرجلَ القيسي فذبحوه على دم العنز ، فأغار قومه على بني تغلب فقتلوا منهم اثني عشر رجلاً فيهم مجاشع التغلبي ، وأغارت بنو تغلب وعليها شُعيث بن مُليل على قوم من بني قُشير فقتلوا منهم خمسة وعشرين رجلاً ، ولم يذكر أبو عبيدة بني الحَريش البَتّةَ .

وقوم يزعمون : أنّ شُعيثاً كان بآذربيجان وكان يرى رأي الخوارج ، فأرسلت إليه تغلب تستنجده ، فأقبل في أَلفَيْ فارس ومعه ثعلبة بن نياط فعبر دجلة إلى لِبَّى وهي بين تكريت والموصل ، وأتى الثَرْثار فوجد قيساً مجتمعين عليه وتغلب بإزائهم وعليهم ابن هَوْبَر التغلبي ، فكره أن يسير تحت لواء ابن هوبر ، فقصد قصد قيس ، وأتت عُمير بن الحُباب طلائعهُ فأخبرته بخبر شُعيث ، فانفرد له في جمع كبير من قيس ، وخلّف مَن يكيفه أمر ابن هوبر

١ ـ امتكر : اختضب . القاموس .

والتغلبيّين ، فلقي شُعيثاً ، فأقتتلا فظهر عمير على شعيث ، فقُتل وأصحابه فلم ينجُ منهم إلاّ عدة يسيرة لحقوا ببني تغلب ، وكان ثعلبة بن نياط فارق شعيثا ولحق ببني تغلب فقاتل معهم ؛ والخبر الأوّل أثبت ، والشعر على صحته أَدَلُّ .

يوم ماكسين

قالوا : استحكم الشر بين قيس وتغلب ، وعلى قيس عُمير بن الحباب وعلى تغلب شُعيث بن مُليل ، فغزا عمير بني تغلب وجماعتَهم بماكِسين وهي قرية من قرى الخابور ، بينها وبين رأس العَيْنْ يوم أو يومان ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، وهي أوّل وقعة لهم تزاحفوا فيها ، فقُتل من بني تغلب خمسمائة ، وقُتل شعيث بن مُليل ، وكانت الوقعة عند قنطرة هناك ، فقال نُفيعِ بن صَفّار المُحاربي :

وأَيّامَ القَناطِرِ قد تَرَكْتُمْ رَئيسَكُمُ لنا غَلِقاً رَهينا
تركْنا الباكِياتِ على شُعَيْثٍ سَواجِمَ عَبْرَةً ما يَنْقَضينا

وكان زُفَر بن الحارث قال حين أغارت تغلب على بني الحَريش ومن معهم من قشير : شغلت قيس بغَزَل نسائها عن هؤلاء النصارى ، فقال عُمير بن الحُباب :

ما هَمُّنا يَوْمَ شُعَيْثٍ بِالغَزَلْ يَوْمَ آنْتَضَيْناهُنّ أَمْثَالَ الشُعَلْ
وهُنَّ يَرْدِينَ كَعُقْبانِ الخَيَلْ مِن بَيْنِ دَهْماءَ وطِرْفٍ ذي خُصَلْ

وزعموا أنّ رِجْل شُعيث قُطعت يومئذ ، فجعل يقاتل حتى قُتل وهو يقول :

قد عَلِمَتْ قَيْسٌ ونَحْنُ نَعْلَمُ　　أَنَّ الفتَى يَقْتُلُ وَهْوَ أَجْذَمُ

وقال نُفيع بن صَفّار :

وبشاطىء الخابورِ صَبَّحْنَاكُمُ　　بِالْمُرْهَفاتِ البيضِ يَفْرِينَ الذرى

وقال جرير بن عَطِيّة :

تركوا شُعَيْثَ بَني مُلَيْلٍ مُسْنَداً　　والآسِيَيْنِ وأَقْعَصُوا شُعْرُورَا[1]

وقال نُفيع بن صفّار المُحاربي :

ما بَعْدَ قَتْلِ شُعَيْثٍ في سَراتِكُمُ　　وبَعْدَ قَتْلِ أَبي أَفْعَى وشُعْرُورِ

وقال تميم بن أَبي [بن] مُقْبِل العَجْلاني :

قل لابنة الأَخْطَلِ المَسْلوبِ مِئْزَرُها　　يَوْمَ الفَوارِسِ لمّا رَاثَ فاديها
ولست سائِلَها إلّا بِواحِدَةٍ　　ما رَدَّ تَغْلِبُ عَنْها إِذْ تُناديها[2]

وقال عبيد بن حُصين النُميري الراعي :

أَبا مالِكٍ لا تَنْطُقِ الشِعْرَ بَعْدَها　　وأَعْطِ القِيادَ القائدينَ على كَثْرِ
ونَحنُ تَرَكْنا تَغْلِبَ ابْنَةَ وائِلٍ　　كَمُنْكَسِرِ الأَنْيابِ مُنْقَطِعِ الظَهْرِ[3]

يعني بما كان بينهم يوم الخابور ويوم ماكِسين .

---

١ ـ ديوان جرير ص ٢٢٥ مع فوارق .
٢ ـ ليسا في ديوانه المطبوع ،
٣ ـ ديوان الراعي النميري ـ ط . بيروت ١٩٨٠ ص ١١٦ ـ ١١٧ .

يوم الثرثار الأول

والثَرْثار نهر ينزع من هِرْماسِ نَصيبين ويفرَغ في دجلة بين الكُحيل ورأس الإِيل[1] .

قالوا : استمدّت تغلب بعد يوم ماكِسين وحشدت واجتمعت إليها النَمِر بن قاسِط ، وأتاها المُجَشِّر بن الحارث من ولد أبي ربيعة بن ذُهْل بن شَيبان ، وكان من سادات بني شيبان بالجزيرة ، وأتاها زمام بن مالك الشَيباني في جمع ، وأتت جماعة منهم مالكَ بن مِسْمَع قبل يوم الجُفرة وقبل مصيره إلى ناحية اليمامة والبحرين ، فشكوا إليه قيساً وما كان منهم يوم ماكِسين وقبله ، فقال : ما أحسبكم إلاّ من نبيط تكريت ، ولو كنتم من بني تغلب لدافعتم عن أنفسكم وحُرَمكم ، فقالوا: إنّا حيٌّ فينا ما قد علمتَ من النصرانيّة ، ومُضَر مُضَر وأيّ السلطانَيْن غلب فهو مع قيس ، فقال مالك : اذهبوا فإن أَمدّهم السلطان بفارس فلكم عليٌّ فارسان ، وإنْ أَمدّهم برجل فلكم رجلان ، إنّ السلطان اليوم لفي شغل عنكم وعنهم ، فانطلَقوا وقد غضبوا وجعلوا عليهم بعد شُعيث بن مُليل زياد بن هَوْبَر ، ويقال يزيد بن هوبر التغلبي ، وقال ابن الكلبي : هو حنظلة بن قيس بن هوبر أحد بني كنانة بن تيم بن أُسامة بن مالك بن بكر بن حُبيب ، وكان على قيس عُمير بن الحُباب السُلَمي ، فلما رأى من مع بني تغلب ، استنجد تميماً وبني أسد فلم يأته منهم أحد فقال عمير :

---

١ ـ بهامش الأصل : رأس الأيل ، اسم جبل .

أيا أَخَوينْا مِن تَميمٍ هُديتُما ومِن أَسَدٍ هَلْ تَسمعَانِ المُنادِيا
أَلَمْ تَعْلَما إذْ جاءَ بَكْرُ بن وائِلٍ وتَغْلِبُ أَلْفافاً تَهُزُّ العَوالِيا
إلى قَوْمِكُمْ قد تَعْلَمونَ مَكانَهُمْ وكانوا جَميعاً حاضِرين وباديا

وزعموا أنّ عبيدالله بن زياد بن ظَبْيان البَكْري ممّن أنجدهم من ربيعة ، فلذلك حقد عليهم المصعب بن الزبير حتى قتل أخاه النابىء ولم يقتل صاحبه ، وكانت القَيسيّة زُبيريّة ، وأنجد بني تغلب أيضاً ركضةُ بن النعمان الشَيباني .

قالوا : ثم إنّ الرَبَعيّين والقيسيّين التقوا على الثَرْثار فاقتتلوا قتالاً شديداً وجعل بنو تغلب يقولون :

نَنْعَى بِأَطْرافِ القَنا المُجاشِعا فإنّه كانَ كَريماً فاجِعا
وآبْنَ مُلَيْلٍ شَيْخَنا المُدافِعا

ثم إنّ قيساً انهزمت وقتلت بنو تغلب وأُلفافُهم منهم مقتلةً عظيمة ، وبقروا بطون ثلاثين امرأة من بني سُليم .

وقالت ليلى بنت الحُمارِس التغلبيّة ، ويقال قالها الأخطل :

لَمّا رَأَوْنا والصَليبَ طالِعا ومَارَ سَرْجيسَ وسَمّاً ناقِعا
والخَيْلَ لا تَحْمِلُ إلّا دارِعا والبِيضَ في أَيْمانِنا قَواطِعا
خَلَّوْا لنا الثَرْثارَ والمَزارِعا وحِنْطَةً طَيْساً وكَرْماً يانِعا[1]
كأنّما كانوا غُراباً واقِعا

ويُروى : زاذان والمزارعا

---

١ ـ ديوان الأخطل ص ١٩٨ ـ ١٩٩ مع فوارق .

وقال الأخطل .

عَتَبْتُمْ عَلَينا آلَ عَيْلان كُلُّكُمْ   وأيُّ عَدُوٍ لم نُبتْهُ على عَتْبِ[1]

في قصيدة له .

فأجابه جرير بن عَطِيّة في قصيدة له :

سَتَعْلَمُ ما يُغْني الصَليبُ إذا غَدَتْ   كَتائِبُ قَيْسٍ كالمُهَنَّأةِ الجُرْبِ

لعَلَّكَ يا خِنْزيرَ تَغلِبَ فاخِرٌ   إذا مُضَرٌ يَوْماً تَسامَتْ بها الحَرْبُ[2]

وقال الأخطل في شعر طويل :

لَعَمْري لقد لاقَتْ سُلَيْمٌ وعامِرٌ   إلى جانِبِ الثَرْثارِ راغِيَةَ البَكْرِ

وقال نُفيع بن صفّار المُحاربي :

أبا مالِكٍ لا تَدَّعِ الفَخْرَ بالمُنَى   فما بِسِفاهِ القَوْلِ يُغْضَبُ لِلْوِتْرِ

ولٰكِنْ بِحَدِّ المَشْرفيَّةِ يُنتَمى   بها لِلْمَعالي والمُثَقَّفَةِ السُمْرِ

فيقال : انّه بَهَتَهُ بهذا الشعر ، بل قاله له وقد ادّعى الأخطل باطلاً في بعض أيامهم .

يوم الثرثار الثاني

قالوا : ثم إنّ قيساً تجمعت واستمدّت واستعدّت ، وعليها عُمير بن الحُباب وهم في عسكر ، فأتاهم زُفَر بن الحارث من قَرْقِيسِيَاء وعبد الملك مشغول عنه ، فكان في عسكر آخر ، وكان رئيس بني تغلب والنِمَر ومن معهما ابنُ هَوْبَر ، فالتقوا بالثَرْثار فاقتتلوا أشد قتال اقتتله الناسُ ، فانحازت

١ ـ ديوان الأخطل : ص ٢٧ .
٢ ـ ديوان جرير ص ٥٥ مع فوارق .

بنو عامر وكانت في إحدى المُجَنِّبَتَيْن ، وصبرت بنو سُلَيم وأعْصَرت حتى انهزمت بنو تغلب ، وقُتل ابنا عبد يسوع بن حرب ومحكان ، وعبد الحارث من بني الأوس بن تغلب ؛ فقال عُمير بن الحُباب :

فِدىً لِفَوارِسِ الثَّرْثار نَفْسي ... وما جَمَّعْتُ مِن أَهْلٍ ومالِ
وَوَلَّتْ عـامِرٌ عَنّـا فـأَجْلَتْ ... وحَوْلي مِن رَبيعَةَ كـالجِبالِ
أُكاوِحُهُمْ[1] بِدَهمٍ مِن سُلَيْمٍ ... وأَعْصِرُ كـالمَصاعيبِ النِهـالِ

وقال زُفَر بن الحارث :

أَلا مَن مُبْلِغٌ عَنّي عُمَـيْراً ... رِسـالَةَ نـاصِحٍ وعليـه زارِ
أَتَتْرُكُ حَيَّ ذي يَمَنٍ وكَلْباً ... وتَجْعَلُ حَدَّ نابِكَ في نِـزارِ
كمُعْتَمد عَلَى إحـدَى يَدَيـهِ ... فخـانَتْـهُ بِـوَهْـنٍ وَٱنْكِـسـار

يوم الفدين

قالوا : وأغار عُمير بن الحُباب على الفُدَيْن ، وهي قرية على شاطىء الخابور ولها حصن ، فاكتسح ما فيها وقتل عامّة اهلها ، ويقال : بل قاتل فيها جميع بني تغلب ، وكانوا بها مزاحَفةً مهزمهم ؛ فقال ابن صفّار :

لو تُسألِ الأَرْضُ الفَضاءُ بِأَمْرِكُمْ ... شَهِدَ الفُدَيْنُ بِهُلْكِكُمْ والصُوَّرُ
كَذَبَتْكَ شَيْبانُ الأُخُوَّةَ وَٱنَّفتْ ... أَسْيافَكُمْ بِكُمُ سَدُوسُ ويَشْكُرُ

والعامّة تُسَمّي هذه القرية الصُوّر ، وهي قريبة من الفُدَيْن بينهما نحو من أربعة فراسخ .

---

١ ـ كوحه : قاتله فغلبه ، وأذله ورده وشاتمه . القاموس .

يوم السُّكير

وهو يسمَّى اليومَ سُكير العبّاس ؛ قال : ولقي عُمير بن الحُباب تغلب والنَمِر وعليهم ابن هَوبْرَ بالسُّكير، وهي قرية تَشْرَع على الخابور ، ومنها ناحية تشرع على الفُرات فاقتتلوا فانهزمت تغلب والنَمِر ، وهرب عُمير بن جَنْدَل وكان من فرسان تغلب ؛ وقال عُمير بن الحُباب :

وأَفْلتَنَا يَوْمَ السُكَيْر ابنُ جَنْدَلٍ … على سابحٍ غَوْجِ اللَبانِ[1] مُثابِرِ
ونحن كَرَرْنا الخَيْلَ قُبّاً شَوازِبا … دِقاقَ الهَوادي دامِياتِ الدَوائِرِ

وقال ابن صفّار :

صَبَحْناكُمْ بِهِنَّ على سُكَيْرٍ … فَلاقَيْتُمْ هُناكَ الأَقْوَرينَا

يوم المعارك

والمعارك بين الحَضْر والعقيق من أَرض الموصل ، قال : اجتمعت تغلب يوم السُكير بهذا المكان ، فالتقوا وقيس به ، واشتدّ قتالهم فانهزمت تغلب ؛ فقال ابن صفّار :

ولقد تَرَكْنا بِالَمعارِكِ مِنْكُمُ … والحَضْرِ والثَرْثارِ أجساداً جُثّا

فيقال : إنّ يوم المعارك والحَضْر واحد ، هزموهم إلى الحضر فقتلوا منهم بشَراً ، وقال بعضهم : هما يومان مختلفان كانا لقيس والله اعلم .

---

١ ـ فرس غوجِ اللبان : واسع جلد الصدر . القاموس .

يوم لِبَّى

قالوا : والتقوا أيضاً بلِبَّى عند ديرها ، ولِبَّى فوق تكريت من أرض الموصل ، فتناصفوا فقيس تقول كان الفضل لنا وتغلب تقول كان الفضل لنا .

يوم بلد

وقال أبو الوليد الكلابي : كانت بين قيس وتغلب وقعة ببلَد تكافأوا فيها ، وقال أبو عيسى القيسي : كانت لِقيس .

يوم الشرعبية

قالوا : التقوا بالشَرْعَبِيّة وعلى قيس عُميربن الحُباب ، وعلى تغلب وألفافها ابن هَوْبَر ، فكان بينهم قتل شديد وقُتل يومئذ عمّار بن المُهَزَّم وعاصم السلميان،وكان يوم الشرعبيّة لتغلب على قيس ، فقال الأخطل :

ولقد بَكَى الجَحّافُ لَمّا أَوْقَعَتْ ... بِالشَرْعَبِيَّةِ إِذْ رَأَى الأَهْوالا[1]

والشرعبيّة من بلاد بني تغلب ، وبناحية مَنْبج أيضاً شرعبيّة . فبعضهم يقول إنّ هذه الواقعة كانت بناحية منبج وذلك غلط .

يوم البليخ

قالوا : اجتمعت تغلب وسارت إلى البليخ وهناك عُمير والقيسيّة ، والبَليخ نهر بين الرَقَّتَيْنْ ، فالتقوا ، وعلى قيس عُمير ، وعلى تغلب ابن

١ ـ ليس في ديوانه المطبوع .

هَوْبَر ، فهُزمت تغلب وقُتلت وبُقرت بطون نساء من نسائهم كما فعلوا يوم الثَّرْثار ، وفي ذلك يقول ابن صفّار :

زُرْقُ الرِماحِ ووَقْعَ كُلّ مُهَنَّدٍ زَلْزَلْنَ قَلْبَكَ بِالبَليخِ فزالا

وأنشدني أبو الوليد الكلابي لبعضهم :

تَسامَتْ جُموعُ بَني تَغْلبٍ إلَيْنا فكُنّا عَلَيْهِمْ وبَالا
بَقَّرْنا النِساءَ غَداةَ البَليخِ إذا جِئْنَنا وقَتَلْنا الرِجالا

يوم الحشاك ومقتل عمير بن الحباب السلمي

قالوا : لما رأت تغلب إلحاحَ عُمير بن الحُباب عليها ، جمعت حاضرتها وباديتها وصاروا إلى الحَشّاك ، وهو نهر يأخذ من الهِرْماس ، وعلى الحَشّاك تِلال وقُور[1] وبقربه الشَرْعَبيّة وإلى جنبه برَاق ويقال بِراق ، ودلف إليهم عُمير في قيس ومعه زُفَر بن الحارث والهُذيل ابنه ، وعلى تغلب ابن هَوْبر ، فاقتتلوا عند تلّ الحشّاك أشدَّ قتالٍ وأَبْرَحَهُ حتى جنّ عليهم الليل ثم تفرّقوا ، فاقتتلوا من الغد إلى الليل ، ثم تحاجزوا ، وأصبحت تغلب في اليوم الثالث فتعاقدوا ألا يفرّوا ، فلما رأى عُمير جدّهم وأنّ نساءهم معهم قال لقيس : يا قوم أرى لكم أن تنصرفوا عن هؤلاء فإنّهم مستقتلون ، فإذا اطمأنّوا وصاروا إلى سَرْحهم وَجَّهْنا إلى كلّ قوم منهم مَن يغير عليهم ، فقال له عبد العزيز بن حاتم بن النعمان الباهلي : يا بن الصَمْعاء قُتِلَتْ فرسان قيس أمس وأول من أمس ثم مَلِئَ سَحْرُك وجَبُنْتَ ، ويقال : إنّ عُيَيْنة بن أسماء بن

١ ـ بهامش الأصل : قور جمع قارة .

خارجة الفزاري ، وكان أتاه مُنجداً له ، قال ذلك ، فغضب عمير من قوله وقال كأنّي بك لو حَمِسَ الوَغى أوّل فارٍ ، فنزل عُمير وجعل يقاتل راجلا وهو يقول :

أنـا عُمَـيْرٌ وأبـو المُغلّسْ قد أَحْبِسُ القَوْمَ بِضَنْكِ المَحْبِس

وانهزم زُفَر يومئذ وهو اليوم الثالث فلحق بقَرْقِيسيَاء ، وذلك أنّه بلغه أنّ عبد الملك قد عزم على الحركة إليه بقرقيسياء ، فبادر لإحكام أمره والتأهُب بما يحتاج إليه ، ويقال : أنّه ادّعى ذاك حين فرّ تحسُّناً به ؛ وركبت تغلب ومن معها أكساء[1] القيسيّة وجعلوا يقولون :

أما تَعْلَمونَ أنَّ تَغْلِبَ تَغْلِبُ

وشدّ على عمير جميلُ بن قيس من بني كعب بن زُهير فقتله ؛ فقال الأخطل لزفر :

لَعَمْرُ أَبيكَ يا زُفَرَ ابْنَ لَيْلَى لقد أَنْجاكَ جَـدُّ بَني مُعاز
ورَكْضُكَ غَيْرَ مُنْقَلِبٍ إِلَيْنـا كَأَنَّكَ مُمْسِكٌ بِجَناحِ بازي[2]

ويقال : بل تَعاوَى على عُمير غلمان من بني تغلب فرموه بالحجارة وقد أعيا حتى أثخنوه ، وكرّ عليه ابن هَوْبَر فقتله ، وأصابت ابن هوبر يومئذ جراحة فلما انقضت الحرب أوصى بني تغلب وهو لِمَآبِهِ من جراحته بأن يولّوا أمرهم مرّار بن علقمة الزُهيري .

ورُوي أيضاً : أنّ ابن هَوْبَر جُرح في اليوم الثاني من أيامهم هذه الثلاثة ، فأوصى بني تغلب بأن يؤمّروا عليهم مرّاراً ، ومات من ليلته فكان

---

١ ـ ركب اكساءه : سقط على قفاه . القاموس .
٢ ـ ديوان الأخطل ص ١٩٤ .

مرّار رئيسهم في اليوم الثالث ، فعَبأهم على راياتهم ، وأمر كلّ بني أب أن يجعلوا نساءهم خلفهم ، فلما أبصرهم عُمير قال لأصحابه : يا معشر قيس إنّ تغلب حيّ كثير العدد ، وقد اجتمعوا لقتالكم ونساؤهم معهم فأطيعوني وانصرِفوا فإذا تفرّقوا شدَدْنا عليهم حَيّاً حَيّاً ، فقيل له القول الذي قيل له وفعل ما فعل حتى قتله جميل الزُهيري ، قال الشاعر :

أَرِقْتُ بِأَثْناءِ الفُراتِ وشَفَّني نَوائِحُ أَبْكاها قَتيلُ ابْنِ هَوْبَر
ولم تَظْلِمي إنْ نُحْتِ أُمَّ مُغَلّسٍ قَتيلَ النَصارَى في نَوائِحَ حُسَّرِ

وقال بعض الشعراء ينكر قَتْل ابن هَوْبَر عُميراً :

وإنَّ عُمَيْراً يَوْمَ لاقَتْهُ تَغْلِبُ قَتيلُ جَميلٍ لا قَتيلُ ابْنِ هَوْبَر

قالوا : وكانت ابنة الحُمارِس تنشر شعرها وتحرّض الناس وهي تقول :

إيهـاً بَني تَغْلِبَ إيهـاً إيهَـا نَحْنُ بنو الحَرْبِ نَشَأْنا فيها

واستحرّ القتل يومئذ ببني سُليم وغَنِيّ خاصّةً ، وقد قُتل من غيرهم من قيس بشر كثير .

وقال عُمير في أوّل يوم لاقى بني تغلب فيه فصابروه فيما ذكر بعضهم :

وكُنّا حَسِبْنا كُلَّ بَيْضاءَ تَمْرَةً لَيالِيَ لاقَيْنا جُـذاماً وحِمْـيَرا
فلما قَرَعْنَا النَبْعَ بِالنَبْعِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ أَبَتْ عيدانُنا أَنْ تَكَسَّرا
وإنّا لَقينا مِن رَبيعَةَ مَعْشَراً يَقودونَ خَيْلاً لِلْمَنِيَّةِ ضُمَّرا
سَقَيْناهُمُ كَأْساً سَقَوْنا بِمِثْلِها عَلَى أَنَّهُمْ كانوا عَلَى المَوْتِ أَصْبَرا

ويقال : أنّه لغيره والله أعلم .

---

١ - بهامش الأصل : سوداء .

وقال زُفر :

أَلا يا كَلْبُ غَيْرُكِ أَوْجَعوني ... وقد أَلْصَقْتُ خَدَّكِ بالتُرابِ
أَلا يا كَلْبُ فانْتَشِري ونامي ... فقد أَوْدَى عُمَيْرُ بَني الحُبابِ

وبعثت بنو تغلب برأس عُمير بن الحُباب إلى عبد الملك وهو بغُوطة دمشق مع وفد منهم ، فأعطى الوفدَ وكساهم ، فلما صالح عبد الملك زُفَرَ بعد ذلك واجتمع الناس عليه ، قال الأخطل شعراً يقول فيه :

بني أُمَيَّةَ قد نـاضَلْتُ دونَكُمُ ... أَبْناءَ قَوْمٍ هُمُ آوَوْا وهُمْ نَصَروا
وقَيْسَ عَيْلانَ حَتَّى أَقْبَلوا رَقَصاً ... فبايَعوا لك قَسْراً بَعْدَ ما قُهِروا
ضَجُّوا مِنَ الحَرْبِ إذْ عَضَّتْ غَوارِبَهُمْ ... وقَيْسُ عَيْلانَ مِن أَخْلاقِها الضَجَرُ
فلا هَدَى اللهُ قَيْساً مِن ضَلالَتِها ... ولا لَعاً لِبَني ذَكْوانَ إِنْ عَثَروا
ولم يَزَلْ لِسُلَيْمٍ أَمْرُ جاهِلِها ... حَتَّى تَعايا بها الإيرادُ والصَدَرُ
فقد نُصِرْتَ أَميرَ المُؤْمنينَ بِنـا ... لَمّا أَتاكَ بمَـرْجِ الغُوطَـةِ البُقَرُ
يُعَرِّفُونَكَ رَأْسَ ابْنِ الحُبابِ فقد ... أَضْحَى ولِلسَيْفِ في خَيْشُومِهِ أَثَرُ[1]

وقال الأخطل في قصيدة له :

أَلا مَن مُبْلِغٌ قَيْساً رَسولاً ... فكَيْفَ وَجَدْتُمُ طَعْمَ الشِقاقِ
فَإن يَكُ كَوْكَبُ الصِمّاءِ نَحْساً ... به وَلَدَتْ وبِـالقَمَرِ المُحاقِ
ولاقَى ابْنُ الحُبابِ له حُمَيّاً ... كَفَتْـه كُـلَّ حـازِيَـةٍ وراقِ
فَـأَضْحَى رَأْسُهُ بِبِـلادِ عَكٍّ ... وسـائِرُ خَلْقِـهِ بِجَبَـا بِـراقِ

---

١ ـ ديوان الأخطل ص ١٠٠ ـ ١١٠ مع فوارق .

وإلَّا تَـذْهَبِ الأَيّامُ نَـرْفِـدْ جَميلَةَ مِثْلَهـا قَبْـلَ الفِـراقِ
مَـلأْنا جـانِبَ الثَّرْثـارِ مِنْهُمْ وجَهَّــزْنـا أُمَيْمَــة لانْـطِلاقِ

أُميمة امرأة عُمَير بن الحُباب .

يوم الكحيل
من أرض الموصل في عبر دجلة المغربي

قالوا : لما قُتل عُمير بن الحُباب تجمّعت قيس بناحية حَدَث الرِقاق وهي بناحية قيس ؛ فقال الأخطل :

ضَرَبْناهُمْ على المَكْروهِ حَتَّى حَدَوْناهُم إلى حَدَثِ الرِقاقِ[1]

قالوا : ثمّ إنّ تميم بن الحُباب أتى زُفَرَ بن الحارث ، فسأله أن يطلب له بثأره فامتنع من ذلك ، فقال له الهُذيل ابنه : والله لَئِن ظُفِرَ بهم إنّ ذلك لعار عليك ، وإن ظَفروا وقد خذلَتهم إنّ ذلك لأشدّ ، فاستخلف زُفر على قَرْقِيسيَاء أَخاه أَوْس بن الحارث ، وعزم على أن يُغير على بني تغلب ويغزوهم ، فوجّه يزيد بن حُمران في خيل إلى بني فَدَوْكَس ، فقتل رجالهم واستباح أموالهم ، حتى لم يبق غير امرأة واحدة يُقال لها حميدة أَعاذها ابن حُمران وقد استعاذت به ؛ وبعث الهُذيلَ بن زُفَر إلى بني كعب بن زهير ، فقتل فيهم قتلا ذريعاً ، وبعث مُسْلمَ بن ربيعة أخا بني عُقيل إلى قوم من بني تغلب مجتمعين فأكثر فيهم القتل ، ثم قصد لِبني تغلب وقد اجتمعوا بالعَقيق من أرض الموصل ، فلما أحسّت به بنو تغلب ارتحلت تريد عبور دجلة ، فلما

---

١ ـ ديوان الأخطل ص ٢٠٧ ـ ٢١٠ .

صارت بالكُحيل ، لحقهم زُفَر بن الحارث في القيسيّة فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وترّجل أصحاب زُفر اجمعون وبقي زفر على بغل له فقتلوهم ليلتهم وبقروا بطون نساءٍ منهم ، وغرق في دجلة أكثر ممّن قُتل بالسيف ، وأتى فَلُّهم لِبِّى ، فوجّه زفر إليهم الهُذيل بن زفر فأوقع بهم إلاّ مَن عبر فنَجَا ، وأسر زفر منهم مائتين فقتلهم صَبْراً ؛ فقال زفر :

ألا يا عَيْنُ جودي بِانْسِكابِ ... وبَكّي عاصِماً وابْنَ الحُبابِ
فان تَكُ تَغْلِبٌ قَتَلَتْ عُمَيْراً ... ورَهطاً مِن غَنِيٍ في الحِرابِ
فقد أَفْنَى بَني جُشَمٍ بْنِ بَكْرٍ ... وَنْمُرَهُمُ فَوارِسُ مِن كِلابِ
قتلنا مِنْهُمُ مِائَتَيْنِ صَبْراً ... وما عَدَلوا عُمَيْرَ بْنَ الحُبابِ
فقتلانا نَعُدُّهُمُ كِراماً ... وقَتْلاهُمْ تُعَدُّ مَعَ الكِلابِ

وقال أيضاً :

قتلنا مِن بَني جُشَمٍ جُموعاً ... فما عَدَلَتْ جُموعُهُمُ عُمَيْرا

وقال ابن صفّار المُحاربي :

ألم تَرَ حَرْبَنا تَرَكَتْ حُبَيْباً ... مُحالِفُها المَذَلَّةَ والصَّغارُ
وقد كانوا أُولي عِزٍّ فأَضْحَوْا ... وَلَيْسَ بِهِمْ مِنَ الذِلّ انْتِصارُ

حدثني عبّاس بن هشام الكلبي عن أبيه حدثنا ابن الجصّاص قال : وقف عكرمة بن رِبْعِي التَيْمي من ربيعة على أسماء بن خارِجة الفزاري بالكوفة فقال :

قتلت بنو تغلب عُميرَ بن الحُباب ، فقال أسماء : لا بأس إنّما قُتل في ديار القوم مقبلا غير مدبر ، ثم قال :

يدي لَكَ رَهْنٌ عَنْ سُلَيْمٍ بِغارَةٍ تَشيبُ لها أَصْداغُ بَكْرِ بْنِ وائِلِ
وتترك أَوْلادَ الفَدَوْكَسِ عالَةً يَتامَى أَيامَى نُهْزَةً لِلْقَبائِلِ

وحدثني الأَثْرَم عن خالد بن كلثوم عن المفضَّل الضَّبِّي وغيره قالوا : أسر القطامى في يوم من أيّامهم ، وأُخذ ماله ، فقام زُفَر بأمره حتى ردّ عليه ماله وجميع ما أُخذ منه ووصله فقال فيه :

إنِّي وإنْ كانَ قَوْمي لَيْسَ بَيْنَهُمُ وبَيْنَ قَوْمِكَ إلاّ ضَرْبَةُ الهادي
مُثْنٍ عَلَيْكَ بما أَوْلَيْتَ مِن حَسَنٍ وقد تَعَرَّضَ مِنِّي مَقْتَلٌ بادي

في شعر طويل .

وقال أيضاً :

فَمَن يَكُنِ اسْتَلامَ إلَى ثَوِيٍّ فقد أَحْسَنْتَ يا زُفَرُ المَتاعا
أَأَكفُرُ بَعْدَ دَفعِ المَوْتِ عَنّي وبَعْدَ عَطائِكَ المِائَةَ الرِتاعا

وقال عَوانة بن الحَكَم وغيره : لما ولّى مصعب المهلّب بن أبي صُفْرة الموصل والجزيرة بعث إلى بني تغلب وكانوا مَرْوانيّة : إن تُبايعوا أمير المؤمنين عبدالله بن الزبير وإلاّ أتاكم جيش يُنسيكم قيساً ويُلحقكم بمن قتلتم منهم وقتلوا منكم فعُزل قبل أن يُحدث فيهم حَدَثا ، فلذلك قال القُطامي :

أَتاني مِنَ الأَزْدِ النَذيرَةُ بَعْدَ ما تَناشَدَ قَوْلي بالحِجازِ المَجالِس
فقالوا عَلَيْكَ ابْنَ الزُبَيْرِ فعُذْ بِهِ أَبَى اللهُ أَنْ أَخْزَى وعِزٌّ خُنَابِس[1]
وما جَعَلَ اللهُ المُهَلَّبَ فارِساً ولكِنَّ أَمْثالَ الهُذَيْلِ الفَوارِس

١ ـ الخنابس : الكريمة المنظر ، والأسد ، والقديم الشديد الثابت ، ومن الليالي الشديد الظلمة . القاموس .

يوم البشر

والبِشر جبل في عبر الفرات الغَرْبي

قالوا : وفد الأخطل على عبد الملك بن مروان فدخل عليه الجحّاف بن حُكيم بن عاصم بن قيس السُلَمي ، والأخطل عنده فقال له عبد الملك : أتعرف هذا يا أخطل ؟ قال : نعم هذا الذي أقول فيه :

ألا سائِلِ الجَحّافَ هَلْ هُوَ ثائِرٌ بِقَتْلَى أُصيبَتْ مِن سُلَيْمٍ وعامر[1]

وأنشد القصيدة حتى فرغ منها فتغالظا في الكلام ، فنهض الجحّاف يجرّ مِطْرَفاً كان عليه حتى أتى الديوان فنظر إلى مقادير القراطيس التي تُكتب فيها العهود ، ثم لطف لبعض الكُتّاب حتى كتب له عهداً مفتعَلاً على صدقات بكر وتغلب بالجزيرة وقال لأصحابه : إنّ أمير المؤمنين قد ولّاني هذه الصدقات فمن أراد اللحاق بي فليفعل وسار حتى أتى الموضع الذي يُدعى اليوم برُصافةِ هشامٍ ، وهو بقرب الرّقة فاجتمع إليه أصحابه بها ، فقال لهم : إنّ الأخطل أتعبني وأسْمَعَني ، ولستُ بوالٍ فمن كان يحبّ أن يرحضَ عنّي العارَ وعن نفسه فيَّ فليصحبْني فإنّي آليت أن لا أغسل رأسي أو أُوقِعَ ببني تغلب ، فرجعوا غَيْر ثلاثمائة قالوا له : نموت معك ونحيا ، فسار ليلته حتى أصبح الرَحُوبَ وهو ماءٌ لبني جُشَم بن بكر قوم الأخطل فصادف عليه جماعة عظيمة من بني تغلب فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأُخذ الأخطل وعليه عباءة وسخة فظنّ آخِذُه أنّه عبد وسُئل فقال : أنا عبد فخلّى سبيله فرمى بنفسه في جُبّ من جبابهم مخافةَ أن يراه من يعرفه من قيس فيُقتل ، وقُتل أبوه يومئذ ؛

---

١ ـ ديوان الأخطل ص ١٣٠ .

فلما انصرفت القيسيّة خرج من البئر وجعلت عَبْلَة امرأته تسله أن يعود إلى البئر خوفاً عليه من كرّتهم وعودتهم فقال :

يا عَبْلَ أكْرَمَ حُرَّةٍ في قَوْمِها حَسَباً وأرْعَاهَا لِكَهْلٍ سَيِّدِ
قـامتْ تُتَبِّعُنا دُمـوعـاً قـرّة منها بِطرْفِ غَضِيضَةٍ لَمْ تَبْرُدِ

ثم إن الجحّاف استخفى فطلبه عبد الملك بن مروان فمضى حتى دخل بلاد الروم مما يلي أرمينية .

وأرادت بنو تغلب دفن موتاهم فقال لهم الشَمَرْذَى : إنّكم إن دفنتموهم ، فرأى الناس كثرتهم غَزَوْكم استقلالاً لكم واجترأوا عليكم فأحرقوهم .

وقال الجحّاف للأخطل :

أبا مالكٍ هَلْ لُمْتَني إذ حَضَضْتَني على القَتْل أمْ هَلْ لامَني لَكَ لائِمُ
ألم أُفْنِكُم قَتْلاً وأُجْدَعْ أُنوفَكُمْ بِفِتْيانِ قَيْسٍ والسُيوفِ الصَوارِمِ
بِكُلِّ فَتىً يَنْعَى عُمَيْراً بِسَيْفِـهِ إذا آعْتَصَمَتْ أَيمانُهُمْ بِالقَوائِمِ
فإنْ يَطْرُدوني يَطْرُدوني وقد جَرَى بِيَ الوِرْدُ يَوْماً في دِماءِ الأَراقِمِ
نَكَحْتُ بِسَيْفي مِن زُهَيْرٍ ومالِكٍ نِكاحَ آغْتِصَابٍ لا نِكاحَ الدَراهِمِ
لقد أُوقِدَتْ نارُ الشَمَرْذَى بِأرْؤسٍ عِظامِ اللِحَى مُعْرَنْزِماتِ[1] اللَهازِمِ
تُحَشُّ بِأَوْصَالٍ مِنَ القَوْمِ بَيْنَهَا وبَيْنَ الرِجالِ المُوقِـدِيها مَحَـارِمُ
فلا تَحْمَدوا إلّا الإمامَ لِتَرْكِكُمْ تُمَشّون بِالخابورِ دَسْمَ العَمائِمِ

في أبيات .

---

١ ـ لم أقف لها على معنى في معاجم اللغة .

وقال نُفيع بن صَفّار المُحاربي :

لقد رَفَعَتْ نارُ الشَمَرْذَى لِقَومِهِ شَناراً وخِزياً طارَ كُلَّ مَطار

ولم يزل الجحاف ببلاد الروم حتى طُلب له الأمان من عبد الملك فآمنه ؛ وسمعتُ مشايخ من أهل أرمينية يذكرون : انّ الجحاف أقام بطرابِزُنْدة ثم اتى كَمْخَ ثم أتى قالِيقَلا وبعث إلى بطانة عبد الملك من القَيسيّين حتى أخذوا له أمانا .

قالوا : فلما صار إليه حَمَّلَهُ ديات مَن قتل ، وأخذ منه الكفلاء ، وأمره بالسعي والاضطراب فقال : أسأل قومي ، فأتى الحجّاج بن يوسف فحجبه فلقي أسماء بن خارجة فقال له : إنّي لا أعْصِب لومَها إلّا بك ، فدخل على الحجّاج بن يوسف فكلّمه فأذِن له ، فلما دخل عليه حمد الله وأثنى عليه ثم قال : إنّي أَعْمَلْتُ المَطِيَّ إليك من الشام لأنّه ليس أمامك مذهب ولا وراءك مطلب وليست يد دون الله تحجزك ، وأنت أمير العراق ، وسيّد قيس ففُكَ رهني وتَلافَ أمري ؛ فيقال أنّ الحجاج قال له : يا جحّاف أعملتَ المطيّ من الشام فقلت آتي الحجّاج فإنْ أعطاني شكرتُ وإنْ منعني بخّلتُ وذممتُ ، والله ما أُعطيك مال الله فقال : تعطيني عمالتك ، فقال : هذا نَعَمْ فتركها له ؛ ويقال إنّ الحجّاج قال له : أَعَهدتَني خائناً ؟ فقال : لا ولكّنك سيّد قومك ، ولك عمالة واسعة ، فقال : لقد أُلْهِمْتَ الصدق ، ونظرتَ بنور الله ، فأمر له بمائة ألف درهم ، وكانت عمالة الحجّاج خمسمائة ألف درهم ؛ ثم أقبل الحجّاج عليه يضاحكه ويسأله عن خبره وخبر بني تغلب والأخطل ، فلما وَلّى قال: لله رجال قيس !

وقال الجّحاف :

رَحَلْتُ إلى الحَجّاجِ أَطْلُبُ رِفْدَهُ على ثِقَةٍ بِالله والرَهْنُ قد غَلِقْ
فأَحْفَى سُؤالي ثم أَقْبَلَ ضاحِكاً إليَّ وأَعْطاني الوَفاءَ مِنَ الوَرِقْ

فلما أدّى الجحّاف ما ألزمه عبد الملك أظهر التوبةَ وأصحابُه ومضى حاجّاً ؛ فذكروا أنّ محمد بن سُوقة قال : مرّ بي الجحّاف وأنا في دكّاني في السوق فاشترى منّي خزاً قسمه في أصحابه ، وإذا هو وأصحابه قد زمّوا[1] انفسهم. قلت: ما هذا الذي أراك وأصحابكَ صنعتموه فقال: جعلنا ما ترى لنذكر خطيئتنا في قتل القوم الذين قتلناهم ، ونحن نريد الحجّ فلعلّ الله يرحمنا ويتوب علينا ؛ وقدم الجحّاف مكة وأصحابه معه فتعلق بأستار الكعبة فجعل ينادي اللهم آغفر لي وما أظنّ أن تفعل ، فسمعه محمد بن الحنفيّة فقال : يا شيخ القنوطُ شرّ من الذنْب ، ثم سأل عنه فقيل : هذا الجحّاف .

وقال الأخطل :

لَقَدْ أَوْقَعَ الجَحّافُ بالبشْرِ وَقْعَةً إلى الله مِنْها المُشْتَكى والمُعَوَّلُ
فإلّا تُغَيِّرْهـا قُرَيْشٌ بِمُلْكِهـا يَكُنْ عَنْ قُرَيْشٍ مُسْتَمازٌ ومَرْحَلُ
فإنْ تَحْمِلوا عَنْهُمْ فما مِن حَمالَةٍ وإنْ ثَقُلَتْ إلّا دَمُ القَوْمِ أَثْقَلُ[2]

وزعموا أنّ عبد الملك قال له لما انشده :

يَكُنْ عَنْ قُرَيْشٍ مُسْتَمازٌ ومَرْحَلُ

قال : إلى أين ويلك ؟ قال: إلى النار .

---

١ ـ أي شدوا أنوفهم . القاموس .
٢ ـ ديوان الأخطل ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ .

خبر مصعب بن الزبير بن العوام ومقتله

حدثني أحمد بن إبراهيم الدَوْرَقي حدثنا وَهْب بن جرير بن حازم حدثنا أَبي عن صعب بن زيد : أن المصعب بن الزبير لما فرغ من قتال المختار ، كان إبراهيم بن الأشتر على الموصل والجزيرة وآذربيجان وأرمينية فعزله ووّجهه لقتال الأزراقة ، ووجه المهلب بن أبي صُفْرة على عمله ، ثم عزل المهلَّب وردّ إبراهيم بن الأشتر على العمل ، ووجّه المهلّب لقتال الأزراقة .

قال : وبلغ المصعب إقبال عبد الملك نحوه وهو يومئذ بالبصرة قد قدم من عند أخيه بعد أن وفد عليه ، فسأل أهلَ البصرة النهوضَ معه وكانت الحَروريّة قد نزلت سوق الأهواز وعليهم قَطَرِيّ بن الفُجاءة ، فقالوا : أصلح الله الأمير كيف نسير معك فهذه الحَروريّة مُطِلّة علينا وعلى ديارنا وأموالنا ؛ وقال المهلّب للمصعب : اعلَمْ أنّ أهل البصرة والكوفة قد كاتبوا عبد الملك وكاتبهم وأنّه انّما اجترأ على المسير إلى العراق بكُتُبهم ، فقال له المهلّب : لا تُنَحِني عنك واجعلني منك قريباً ، فقال له المصعب : إنّ أهل

البصرة قد أَبَوا أن يسيروا حتى ابعثك لقتال الحَروريّة ، وأنا أكره إذا أقبل عبد الملك إليّ أَلا أسير إليه فاكفني هذا الثغر ، فقال المهلّب : إني لست آمَنُ غَدْرَ القوم بك ، وإن فعلوا فأبعدهم الله .

وحدثنا أبو خَيْثَمة زهير بن حَرْب وأحمد بن إبراهيم قالا : حدثنا وهب بن جرير عن أبيه عن محمد بن الزُبير الحَنظلي عن معاوية بن صَعْصَعة بن معاوية وهو ابن اخي الأحنف بن قيس ـ قال : والله إني لواقف مع عمّي بالحيرة في ظل قصر بني بُقَيلة ، إذ أقبل زياد بن عمرو العَتَكي حتى وقف إلى جنب الأحنف فذكر المصعبَ وسوء رأيه فيما بينه وبينه وعابه ، فقال له الأحنف : أظنّك والله يا زياد وأصحابَك سُتدْخِلون علينا ذِلّاً و بلاءً عظيماً ، أحسبكم والله ستُدخلون علينا أهل الشام فيقتلونا وينزلون دُورَنا ، فمهلاً يا زياد ! فقال زياد : إنّ حالي قد اشتدّت وإنّ عليّ دَيْنا ، فقال الأحنف : وهل تكفيك عشرة آلاف أُكلّم المصعب فيأمر لك بها ، وأَيْمُ الله إنّي لأعلم أنّها لا تنفعه عندك ، فكلّمه الأحنف فأمر بها له فكان زياد عند ذلك أَسوَأَ ما كان رأياً وأشدَّه على المصعب .

قال أحمد بن إبراهيم : قال وهب : قال أَبي : هذا حين دخل مصعب الكوفة لقتال عبد الملك ، وفي تلك الأيام مات الأحنف بالكوفة ، ألا ترى أنّ الأحنف قد كان رجع إلى البصرة بعد مقتل المختار ، وكتب في حمزة بن عبدالله مع من كتب فيه من أهل البصرة .

حدثنا أبو خَيْثَمة وأحمد بن ابراهيم قالا : حدثنا وهب بن جرير عن أبيه ، قال وهب:ولا أُعلمه ألاّ عن صعب بن زيد : إنّ اشراف أهل العراق

كتبوا إلى عبد الملك يدعونه إلى أنفسهم ، ويَخبرونه أنّهم مبايعوه ، فلم يبق بالبصرة شريف إلاّ كاتبه غير المهلّب .

وحدثنا أبو خَيْثَمة وخَلَف بن سالم المخزومي وأحمد بن إبراهيم قالوا : حدثنا وهب بن جرير حدثنا محمد بن أبي عُيَينة قال : سار المصعب يريد عبد الملك حتى انتهى الى بَاجُمَيْرَا ، ثم التقى هو وعبد الملك فغدر أهل البصرة بالمصعب فقتل ، واجتمع الناس على عبد الملك .

وحدثنا خَلَف وأحمد بن إبراهيم قالا : حدثنا وهب حدثني أَبي قال : كتبوا إلى عبد الملك يسألونه المسير إليهم ويُخبرونه أنهم لو قد رأوه مالوا إليه بمن تبعهم ، فأقبل عبد الملك وخرج إليه مصعب فلما صُفّوا للقتال مال أهل العراق إلى عبد الملك ، وبقي المصعب في خِفٍّ من الناس ، فقال لابنه عيسى : أي بُنَيَّ انصرف ، فأبى وقال : والله لا آتي قريشا فأُخبرهم عن مصرعك أبداً ، قال : فتقدّمْ إذاً فتقدم فقُتل .

وأقبل عبيدالله بن زياد بن ظَبْيان فقال للمصعب كيف ترى الله صَنَع بك وأخزاك ، قال : بل أخزاك ، والمصعب راجلٌ وابن ظَبيان راكب ؛ قال : فقتل ابن زياد المصعب ، واحتزّ رأسه فأتى به عبد الملك فألقاه بين يديه وهو يقول :

نعاطي المُلوكَ الحَقَّ ما قَسَطوا لَنا وليس عَلَيْنا قَتْلهُمْ بِمُحَّرمِ

فخر عبد الملك ساجدا ، فكان ابن ظبيان يقول : ما ندمت على شيء قطّ ندامتي على ألا اكون ضربت رأس عبد الملك حين أتيتُه برأس المصعب ، فأَرَحْتُ الناسَ ، وأكون قد قتلت مَلِكَي العرب في يوم واحد .

وحدثني أحمد بن إبراهيم الدَوْرَقي حدثنا وهب بن جرير حدثنا الأسود بن شيبان عن خالد بن سُمير بحديث طويل فاختصرتُه قال : لم يكن لأحد من الناس مثل منزلة عبدالله بن أبي فَرْوة عند المصعب ، فلما قُتل المصعب رحل إلى عبدالله بن الزبير ، فجعل عبد الملك لمن ردّه عليه مائة ألف درهم ، فلم يقدر عليه حتى قدم مكة فقال له عبدالله بن الزبير : يا بن أبي فَرْوة أَخبِرْني عن الناس قال: يا أمير المؤمنين خرجنا حتى إذا واقفنا عبد الملك مال داود بن قَحْذَم براية بكر بن وائل ، ومال فلان براية بني فلان ، فلما رأيتُ المصعب قد بقي في رِقة من الناس أتيته بأفراس قد أضمرتُها فهي مثل القداح فقلت له : اركبْ فآلحق بأمير المؤمنين فدثّ في صدري دثة وقال : ليس أخوك بالعبد ، وأحببتُ الحياة فانصرفتُ ، فقال ابن الزبير : حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ثلاث مرار .

حدثني العُمَري عن الهَيْثَم بن عَديّ عن مجالد عن الشعبي قال : قدم مصعب حين ولي العراقَيْن فبدأ بالبصرة ، وولّى القُباع الكوفة ، وكان خليفة القباع بها عمرو بن حُريث ، ثم شخص إلى الكوفة فقتل المختار ومعه الأحنف بن قيس ، ثم عزله أخوه عن البصرة ، وولّاها حمزة ابنه فغضب وأقرّ على خلافته القُباعَ ومضى إلى أخيه فردّه على المصرْيَن ، وأقام بالبصرة حتى شخص منها إلى الكوفة واستخلف عبّاد بن الحُصين ، ويقال : انّه استخلف سِنان بن سَلَمة ، وجعل عبّادا على شُرَطه وكان الأحنف مع مصعب ، فمات الأحنف بالكوفة ، ثم إن مصعبا شخص إلى مَسْكِن فقُتل بها .

وقال الهَيْثَم : ثم خرج عبد الملك يريد العراق لمحاربة مصعب في خمسين الفا فقصد لزُفَر بن الحارث حتى آمنه وخرج معه إلى مصعب فشهد حربه ولم يقاتل ، وقال غيره ، لما صالح عبد الملك زُفَر بن الحارث رجع إلى دمشق ثم شخص قَصْداً فواقع مصعباً .

وحدثني هشام بن عمّار عن الوليد بن مسلم وغيره أن عبد الملك صالح زُفَر بن الحارث ، ثم قدم دمشق فأصلح أمر مَلِك الروم والجَراجِمة الذين خرجوا عليه ، ثم استشار في المسير إلى مصعب بن الزبير فقال له بعض من معه : إنّك قد واليت بين سَنَتْين ، شخصت فيهما فخسرتَ خيلك ورجالك ، وعامُك هذا عام جَدْب فأَرْجِ الأمر سنةً أو سنتين ، وآسترح ثم آشخص فقال : الشام بلد قليل المال ، ولا آمَنُ نَفاده ، وقد كتب إليّ أشراف أهل العراق يدعوني إليهم .

قال : وكان يشاور يحيى بن الحَكَم بن أبي العاص ، ثم يخالفه ويقول : من أراد صواب الرأي فليخالف يحيى بن الحكم فيما يشير به عليه ، فدعاه فاستشاره فقال : أرى أن ترضى بالشام وتقيم به ، وتدع مصعباً والعراق ، فلعن الله العراق ، فضحك عبد الملك ، ودعا بخالد بن عبدالله بن خالد بن أَسيد فشاوره فقال : يا أمير المؤمنين غزوتَ مرّة فنصرك الله ، ثم ثانية فزادك الله عزا ، فأَقم عامك هذا ، ثم قال لمحمد بن مروان أخيه : ما ترى ؟ قال : أرجو أن ينصرك الله أَقَمْتَ أو غزوت فاغزُ عدّوك وشمِّر في طلب حقّك ، فأَمَرَ الناس بالاستعداد للمسير ، وقدّم محمد بن مروان ومعه خالد بن عبدالله بن خالد بن أَسيد ، وبِشّر بن مروان وقال : قد استعملتُ عليكم سيّد الناس محمد بن مروان أخي ونصيحي .

وحدثني عباس بن هشام عن أبيه عن عوانة قال : بعثت عاتكة بنت يزيد ، امرأة عبد الملك ، وهي أمّ يزيد ابنه : ما رأيتُ خليفة قط غزا بنفسه فوجِه الناس وأقِمْ ، فقال : والله لو بعثتُ إلى مصعب جميع أهل الشام لفضّهم وفلّهم ما لم أكن معهم ، وتمثّل :

ومُستْخَبِرٍ عَنّا يُريدُ بِنا الرَدَى ومُسْتَخْبِراتٍ والعُيونُ سَواكِبُ

وقال ابن الكلبي والهَيْثَم قال عَوانة : لما بلغ مصعباً إقبال عبد الملك إليه وأن قد قدَّمَ مقدمته وهو بالبصرة ، أراد المسير إليه بأهل البصرة ، فأبوا أن يسيروا معه وقالوا : عدوّنا من الخوارج مطِلّ علينا ، فأرسل إلى المهلَّب وهو عامله على الموصل والجزيرة فولاه قتال الخوارج وخرج فقال بعض الشعراء :

أكلَّ عامٍ لَكَ بَاجُمَيْرَا تَغْزو بِنا ولا تُفيدُ خَيْراً

وباجُمَيْرَا موضع كان إذا بلغ مصعباً إقبالُ الملك نحوه خرج إليه من الكوفة ، فيبلغه انصراف عبد الملك فينصرف .

وقال أبو مخنف: ولّى عبدالله مصعباً أخاه العراقَيْن، ثم إنّ مولى لبني عِجْل أتى عبدالله بن الزبير بعد مقتل المختار فأشار عليه باستعمال حمزة ابنه على البصرة وقال له : إنّ ذلك يعجب أهلها ويحبّونه فولّاه إيّاها ، فأراد المصعب الامتناع من تسليمها ، فقال الأحنف : إن رأيتَ أن لا يكون بينك وبين أخيك ما تتضارّان فيه فافعل فإنّ ضَرَرَ ذلك يَنالنا ، فقدم حمزة البصرة فأقام سنة أو نحوها ، فكان إذا عُرض عليه ما يُرتفع من الخراج قال : فأين خراج الزاوية ؟ فكان الأحنف بن قيس ومالك بن مِسْمَع يقولان : أمّا الفتى فيُخبرنا أنّه لا يستوفي عندنا سنة حتى يُعزَل ، وخرج مصعب مغضَباً إلى أخيه

فردّه على المصرَيْن ، فأشخص حمزة إلى أبيه ، ويقال بل قدم حمزة إلى أبيه فردّ مصعباً ، فكتب مصعب من الكوفة إلى المهلَّب وهو عامله بالموصل والجزيرة أن يقدم ، فقدم عليه فضمّه إلى حمزة فولّاه قتال الخوارج وسار إلى الكوفة وكان خليفته بها القُباع ، وكان سبب خروجه إلى الكوفة أنّه بلغته حركة عبد الملك فأقام بها والأحنف معه ، فمات بالكوفة قبل مصير مصعب إلى مَسْكِـنْ ، ومشى في جنازته ، وظفر مصعب بإبراهيم بن حَيّان فقطع يده ونفاه ، فصار إلى الروم فجنى هناك جناية فقطعوا رجله .

قال عوانة : وكان إبراهيم بن الأشتر عاملاً للمختار حين قُتل على الموصل ونواحيها ، فكتب إليه المصعب يدعوه إلى طاعته والبيعة لعبدالله بن الزبير فسارع إلى ذلك ، وقدم عليه فولّى المهلَّب ما كان يليه من الموصل والجزيرة ثم عزله وأعاد إبراهيم بن الأشتر إلى عمله .

فلما صحّ عنده وصول عبد الملك يريده بعث إلى ابن الأشتر فأقدمه عليه ، فجعله على مقدّمته وسار حتى أتى دِمّا ، وهي من عمل الأَنْبار ، ثم قطع منها حتى نزل بقرب أُوَانَا وهناك دُجَيْل ودَيْر الجاثليق وبَاجُمَيْرا فعسكرهُ وموضع وقعته بين هذه المواضع ، وكاتب عبدُ الملك وجوهَ أهل الكوفة والبصرة ورغّبهم في الأموال والأعمال ، وكتب إليه جماعة منهم يستجعلونه على نصرتهم إيّاه وانحرافهم عن المصعب ولايةَ أصبهان ، فكان يسأل عنها ويقول : ما أصبهان هذه أَتَنْبُتُ الذهب والفضّة ، لقد كُتب إليَّ فيها أربعون كتاباً ، وكتب عبد الملك إلى إبراهيم بن الأشتر فجعل له ولاية العراقَيْن ، فأخذ كتابه فدفعه إلى المصعب وقال له : أُصلح الله الأمير إنّ عبد الملك لم يكتب إليّ بهذا الكتاب إلاّ وقد كتب إلى هؤلاء الوجوه بمثله وقد أفسدهم

عليك ، فأنا أرى أن تأخذ وجوه أهل المصرَيْن فتشدّهم بالحديد ، فقال له : يا أبا النعمان أتأخذ الناس بالظنّة ؟ قال : فاجمعْهم في أبْيَض المدائن لِئَلا يشهدوا الحرب معك ، قال : إذاً أُفْسِدُ قلوب عشائرهم ، قال : فابعث بهم إلى أخيك بمكّة ، فقال : ليس هذا برأي ، قال : فإن لقيتُ العدوّ فلا تُمدّني بأحد منهم وأتّهمهم .

قالوا : وبكت عاتكة بنت يزيد بن معاوية حين أراد عبد الملك المسير نحو العراق ، وبكى جواريها فقال ؛ كأنّ كُثَيّر عَزَّة كان يرى ما نحن فيه حين يقول :

إذا ما أرادَ الغَزْوَ لم تَثْنِ رَأْيَهُ   حَصَانٌ عَلَيْها نَظْمُ دُرٍّ يَزِيُنها
نَهَتْهُ فلَمّا لم تَرَ النَهْيَ عاقَهُ   بَكَتْ فبَكَى مِمّا شَجاها قَطِينُها[1]

فسار عبد الملك حتى نزل الأحيونِيَّة وهي بين مَسْكِن وتكريت ، ونزل مصعب دير الجاثليق وهو بمَسْكِن ، وبين العسكرين ثلاثة فراسخ ، ويقال: فرسخان ، وخَنْدَقَ مصعب خندقاً على عسكره وعسكرهُ اليومَ يُعرف بخربة مصعب ، وقال مصعب : رحم الله أبا بَحْر ـ يعني الأحنف بن قيس ـ لقد كان يقول لي: لا تلقَ بأهل العراق عدوّاً فإنّهم كالمُومِسة تريد كلّ يوم بَعْلاً ، وهم يريدون كلّ يوم أميراً .

وكان عِكْرِمة بن رِبْعِي أحد بني تيم الله بن ثعلبة ، وحَوْشَب بن يزيد بن الحارث بن يزيد بن رُويم الشيباني يتباريان في إطعام الطعام فقال مصعب : دَعوهما فليُنفِقا من خيانتهما وفجورهما .

---

١ ـ ديوان كثير ـ ط . بيروت ص ٢٣١ .

وأرسل عبد الملك إلى مصعب رجلاً من كلب فقال له : أَقْرِىء ابن أُختك السلامَ وقُلْ له : يَدَع دُعاءَه إلى أخيه ، وأَدَعُ دعائي إلى نفسي ونصيّر الأمر شُورَى ، فقال مصعب : قل له: السيف بيننا .

فقدّم عبد الملك محمد بن مروان ومعه بِشْر بن مروان وقال : اللهم انصر محمدا ، اللهم انصر خَيْرنَا لهذه الأمّة ، وقدّم مصعب إبراهيم بن الأشتر للقائه فالتقيا وبين عسكر مصعب وبين عسكر ابن الأشتر فرسخ ، فتناوش الفريقان فقُتل صاحب لواء محمد ، وجعل عبد الملك يمدّ محمدا ، وجعل المصعب يمدّ إبراهيم ، وجعل محمد يكفّ أصحابه عن مناجزة القوم فوجّه إليه عبد الملك يشتمه ، فوقّف محمد رجلاً في جماعة وأمره أن يمنع من يأتيه من جهة عبد الملك من دخول عسكره ، فوجّه عبد الملك خالد بن عبدالله بن خالد بن أَسيد فردّه أشدّ الردّ حتى إذا كان قرب المساء قال محمد للناس حَرّكوهم فتهايج القوم .

ووجّه المصعب إلى إبراهيم بن الأشتر عتّاب بن وَرْقاء الرِياحي، وكان قد بايع عبد الملك ووعده أن يكيد له المصعب ، فلما رآه إبراهيم غمّه أمره وقال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون قد سألتُه أن لا يمدّني بهذا ونُظَرَائه ، وانهزم عتّاب على مُواطَأَةٍ منه لأهل الشام ، فوقعت الهزيمة وقُتل ابن الأشتر وهو يقول : قد قلت : أَعْفِني من عتّاب وذوي عتّاب ، وكان الذي قتل ابن الأشتر مولى لبني عُذْرة له عُبيد بن مَيْسَرة ، واحتزّ رأسه وأتى به عبد الملك ، وأحرق جُثّتَه موالي حُصين بن نُمير ، وقال عَوانة : لما واقع محمد بن مروان ابنَ الأشتر قال ابن الأشتر لأصحابه : لا تنصرفوا حتى ينصرف أهل الشام عنكم ، فقال عتّاب بن وَرْقَاء : ولِمَ لا ننصرف ، فانصَـرَف وانهزم الناس

حتى أتوا مصعباً ، وصبر إبراهيم بن الأشتر حتى قُتل ، فلما أصبح محمد بن مروان وجّه إلى عسكر مصعب رجلاً وقال : انظر كيف تراهم فلم يعرف الطريق ، فدلّه عليه إبراهيم بن عَرَبيّ الكناني فأتى العسكر ثم انصرف ، فقال : رأيتهم منكسرين ، وقاتل مع مصعب شعيث بن ربيع بن حُشيش العنبري فصبر .

قالوا : وأصبح مصعب فدنا من محمد ، ودنا منه حتى التقوا فنزل قوم من أصحاب مصعب ، وأتوا محمدا ، فدنا محمد من المصعب ، وناداه : أنا ابن عمّك محمد بن مروان فاقبلْ أمان أمير المؤمنين فقد بذله لك ، فقال : أمير المؤمنين بمكّة ، يعني عبدالله أخاه ، فقال : يا بن عمّ إنّ القوم خاذلوك ، فأبى ما عرض وجعل يقول :

إنّ الأُلى بالطَفّ مِن آل هاشِمٍ تَأَسَّوْا فسَنّوا لِلْكِرامِ التَأَسِيَا

والشعر لابن قَتَّة .

ودعا محمد عيسى بن مصعب ، فقال له مصعب : انظر ما يريد عمك فدنا منه فقال:إنّي لكم ناصح ، ولك ولأبيك الأمانُ وناشده ، فرجع إلى أبيه فأخبره بما قال له ، فقال : إنّي أظنّ القوم سَيَفُون فإنْ أحببتَ أن تأتيهم فافعلْ ، فقال : لا تتحدَث نساء قريش بأنّي خذلتك ورغِبتُ بنفسي عنك ، قال : فتقدَّم حتى احتسبك ، فتقدّم وناس معه فقُتل وقُتلوا ، ونظر مصعب إلى عتّاب بن وَرْقَاء فقال : لا يُبْعِد الله ابن الأشتر فقد كان حَذَّرَنيك ، وترك الناس مصعباً وخذلوه حتى بقي في سبعة نفر ، وجاء رجل من أهل الشام ليحتزَّ رأس عيسى بن مصعب فشدّ عليه مصعب فقتله ، وشدّ على الناس

فانفرجوا عنه ، ثم جاء إلى مرفقة ديباج فجلس عليها ، ثم قام فشدّ على الناس فانفرجوا عنه .

وبذل له عبد الملك الأمانَ ، وقال له : إنه يَعِزُّ عليَّ أن تُقْتَلَ فاقبلْ أماني ولك حكمك في المال والولاية ، فأبى وجعل يضارب ، فقال عبد الملك : هذا والله كما قال القائل :

ومُدَجِجٍ كَرِهَ الكُماةُ نِـزالَهُ لا مُمْعِنٍ هَرَباً ولا مُسْتَلِئِمِ

هذا والله الذي لا يجيبنا إلى أماننا ، ولا يصدف عنّا ،ودخل مصعب سُرادِقه ، فيقال : إنّه تحنّط ، فرمى السرادق حتى سقط ، وخرج فقاتل .

وأتاه عبيدالله بن زياد بن ظَبْيان فدعاه إلى المبارزة ، فقال له : يا كلبُ اغْرُبْ مثلي يبارز مثلَك ، لعمري لقد أَلْجَأني الدهرُ إلى مبارزتك ، وشدّ عليه مصعب فضربه على البَيْضة فهشمها وجرحه ، فرجع عبيدالله فعصب رأسه ، وأتى عبدالله بن أبي فَرْوة مصعباً ، وكان كاتبه فقال له : جُعلت فداك تَركك الناس وهذا الرجل ، يعني عبد الملك ، مستديم لك لعلّك تقبل أمانه وعندي خيل مقدَّحة فاركب أيَّها شئت وانْجُ بنفسك فدَثَّ في صدره ، ورجع ابن ظَبْيان إلى مصعب فحمل عليه ، فضربه مصعب وهو مُثْخَنٌ لِما أصابته من الجراحة ، فلم تعمل ضربتُه فيه ، وضربه عبيدالله بن ظَبْيان حتى مات ، ويقال : انّ ابن ظَبْيان ضربه وزرقه زائدة بن قُدامة الثَقَفي أو رماه ، ونادى يا لثارات المختار فسقط ميّتاً واحتزّ ابن ظَبْيان رأسه ، ويقال : بل أمر غلاماً له دَيْلَميّا فاحتزّ رأسه وحمله إلى عبد الملك ، فوضعه بين يديه وهو ينشد .

نُعاطي المُلوكَ الحقَّ ما قَسَطوا لَنا وليْسَ عَلَيْنـا قَتْلُهُمْ بِمُحَرَّمِ

فسجد عبد الملك ، فكان ابن ظَبيان يقول : لقد هممت أن أضرب رأس عبد الملك وهو ساجد ، فأكون قد قتلت مَلِكَي العرب وأرَحْتُ الناس منهما ، وقال عبد الملك لقد هممت أن أقتل ابن ظبيان فأكون قد قتلت أفْتَكَ الناس بأشجع الناس .

وقال الهَيْثَم بن عَديّ : كتب عبد الملك إلى إبراهيم بن الأشتر ، وهو مع مصعب ، كتابا فأتى به المصعب قبل أن يقرأه ، فلما قرأه قال له : يا أبا النعمان أتدري ما فيه ؟ قال : لا ، قال يعرض عليك ما سقَتْ دِجْلة أو ما سقى الفُرات، فإنْ أَبَيْت جَمَعهما لك، وإنّ هذا لَمَا يُرغَب فيه، فقال إبراهيم : ما كنت لأتقلَّدَ الغدر والخيانة ، وما عبد الملك من أحد بأَيْأسَ منه منّي ، وما ترك أحداً ممّن معك إلاّ وقد كتب إليه ، فابعثْ إليهم فاضرب أعناقهم ، وإلاّ فأَوْقِرهم حديداً ، ثم أَلْقهِم في أبْيَض كِسْرَى ووِكّل بهم حَفَظَةً ، فإن ظفِرتَ عفوتَ عنهم أو عاقبت ، فقال : يا أبا النعمان إني أخاف في هذا القالة ، ووالله لو لم أجدْ إلّا النَمْلَ لقاتلت به أهل الشام .

قال : فلما اصطفّ الناس مال عَتّاب بن وَرْقاءَ فذهب ، وكان على خيل أهل الكوفة ، وجعل ابراهيم يقول لرجلٍ رجلٍ: تقدَّمْ فيأبون عليه ، فيتقدّم هو فيقاتل فلم يزل يفعل ذلك حتى قُتل ، ثم تقدم مصعب فخذله الناس ، فقال لحَجّار بن أَبْجَر : تقدَّم يا أبا أسيد إلى هؤلاء الأَنْتَان ، قال : ما تتأخّر إليه أَنْتَنُ ، ثم قال للغضبان بن القَبَعْثَرَى : تقدّم يا أبا السِمْط ، فقال ما أرى ذاك ، فالتفت إلى قَطَن بن عبدالله الحارثي ، وهو على مَذْحِج ، وأَسَد فقال : تقدّم فقال : أُسفكُ دماء مذحج في غير شيء ، فقال : أُفٍّ لكم ، ثم أقبل في عدّة ، فلما برز قال زياد بن عمرو العَتَكي

لعبد الملك : يا أمير المؤمنين إنّ أبا البَخْتريّ إسماعيل بن طلحة بن عبيدالله كان لي صديقا ، وقد خفتُ أن يُقتَل فآمِنْه ، قال : هو آمن .

ودنا محمد بن مروان فأعطى مصعباً الأمان ، فأباه ورُمِيَ مصعب من كلّ جانب فأُثخن ، وقاتل ابنُه عيسى حتى قتل ، وقتل ابن ظَبْيان مصعباً ، ويقال : ضربه غلام له على جبينه واعتوره الناس فقُتل ووقف ابن ظَبْيان فاحتزّ رأسه وأتى به عبد الملك .

قالوا : وقتل يحيى بن جَعْدة فأُتي عبد الملك برأسه فقال : ما لآل جعدة وآل الزبير ، وقتل عبدالله بن شدّاد بن الهادِ الكِناني ، ويقال : لم يقتل ولكنّه مات في تلك السنة ، وقُتل يحيى بن مبشّر اليربوعي ، وشدّ رجل على مسلم بن عمرو الباهلي فطعنه فأذراه عن فرسه ، فمرّ به رجل وهو مُرْتَثّ فقال : هذا صنيعة من صنائع بني أمية يُقْتَل تحت رايات آل الزبير ، وقال عَوانة : أُتي به عبد الملك وقد طُلب له منه الأمان وهو مُثْقَل فقال : يا مسلم ويحك نسيتَ بلاء يزيد بن معاوية عندك .

قالوا : وكان قتل مصعب في سنة اثنتين وسبعين .

قال ابن الزبير الأسدي في إبراهيم بن الأشتر :

سَأَبْكي وإنْ لم تَبْكِ فِتْيانُ مَذْحِجٍ فَتاها إذا اللَيْلُ التِمامُ تَأَوَّبا
فَتىً لم يَكُنْ في مُرَّةِ الحَرْبِ جاهِلاً ولا بمُطيعٍ في الوَغى مَن تَهَيَّبا
أَبانَ أُنوفَ الحيِّ قَحْطانَ قَتْلُهُ وأَنْفَ نِزارٍ قد أَبانَ فأَوْعَبا
فَمن يَكُ أَمْسَى خائِناً لأَميرِهِ فما خانَ إبْراهيمُ في المَوْتِ مُصْعَبا

ولما قُتل مصعب قال عبد الملك : متى تغذو النساء مثل مصعب لقد حَرصنا على استبقائه ولكنّ الله أبى ذلك .

وقال عَديّ بن الرِقاع العامِلي ، ويقال البَعِيثُ اليَشْكُري :

وَنَحْنُ قَتَلْنا آبْنَ الحَوارِيِّ مُصْعَباً أخا أَسَدٍ والمَذْحِجِيَّ اليمانيا
ومَرَّتْ عُقابُ المَوْتِ قَصْداً بِمُسْلِمٍ فأَهْوَتْ له ظُفْراً فأَصْبَحَ ثاوِيا(١)

يعني مسلم بن عمرو الباهلي .

ولعَديّ بن الرِقاع قصيدته التي يقول .

لَعْمري لقد أَصْحَرَتْ خَيْلُنا بِـأَكْنـافِ دِجْلَـةَ لِلْمُصعـب
إذا شِئْتُ نازَلْتُ مُسْتَقْدِمـاً إلى المَوْتْ كَالجَمَلِ الأَجْرب
فمَن يَـكُ مِنّـا يَكُنْ آمِنـاً ومَن يَكُ مِن غَيْرِنا يَهْرب(٢)

وقال عبيد الله بن قيس الرُقَيّات :

لقد أَوْرَثَ المِصْرَيْنِ خِزْياً وذِلَّةً قَتيـلٌ بِدَيْـرِ الجـاثِليقَ مُقيم
فما قاتَلَتْ في الله بَكْرُ بْنُ وائِلٍ ولا صَبَرَت عِنْدَ اللِقاءِ تميم(٣)

في أبيات .

وقال ابن قيس أيضاً :

إنّ الـرَزِيَّـةَ يَـوْمَ مَـسْـكِنَ والمصيبَـةَ والـفَـجيـعَـهْ
بِـآبْـنِ الحَـوارِيِّ الـذي لـم يَعْـدُهُ يَـوْمُ الـوقيعَه
يـا لَهْـفَـتي لَـوْ أنَّ لـي بالـدَيْرِ يَوْمَ الدَيْرِ شيعَـهْ(٤)

---

١ ـ ليسا في ديوان عدي المطبوع .
٢ ـ ديوان عدي بن الرقاع العاملي ـ ط . بيروت ١٩٩٠ ص ٥٨ ـ ٦٠ مع فوارق .
٣ ـ ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ص ١٩٦ ـ ١٩٧ .
٤ ـ ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ص ١٨٤ .

وقال الأُقَيْشِر الأَسَدي :

حمى أَنْفَهُ أَنْ يَقْبَلَ الضَيْمَ مُصْعَبٌ ... فماتَ كَرِيماً لم تُذَمَّ خلائِقُهْ
ولو شاءَ أَعْطى الضَيْمَ مَن رامَ هَضْمَهُ ... فعاشَ ملُوماً في الرِجالِ طَرائِقُهْ
ولكِنْ مَضى والمَوْتُ يَبْرُقُ خالُهُ ... يُساوِرُهُ مَرّاً ومَرّاً يُعانِقُهْ
تولّى كريماً لم تَنَلْهُ مَذَلَّةٌ ... ولم يَكُ رَغداً تَطَّبيهِ نَمارِقُهْ[1]

وقال عَرْفَجَة بن شَريك أحد بني قيس بن ثعلبة

ما لِابْنِ مَرْوانَ أَعْمَى اللهُ ناظِرَهُ ... ولا أُصابَ رَغيباتٍ ولا نَفَلا
يرجو الفَلاحَ آبْنُ مَرْوانٍ وقد قَتَلَتْ ... خَيْلُ آبْنِ مَرْوانَ خِرْقاً ماجِداً بَطَلاً
يا بْنَ الحَوارِيِّ كَم مِن نِعْمةٍ لَكُمُ ... لَوْ رامَ غَيْرُكُمُ أَمْثالَها شُغِلا
حملتمُ فحَمَلْتُمْ كُلَّ مُعْضِلَةٍ ... إنّ الكَريمَ إذا حَمَّلْتَهُ آحْتَمَلا

وقال الحارث بن خالد المخزومي :

هَلاَ صَبَرْتُمْ بَني السَوْداءِ أَنْفُسَكُمْ ... حتّى تَموتوا كما ماتَتْ بنو أَسدِ

وقال سُويد بن مَنْجوف السَدُوسي من أهل البصرة يحذّر مصعباً غدرَ أهل الكوفة :

ألا آبْلِغْ مُصْعَباً عَنّي رسَولاً ... ولَنْ تَلْقى النَصيحَ بِكُلّ وادِ
تَعلَّمْ أَنَّ أَكْثَرَ مَن تُناجِي ... وإنْ أَدْنَيْتَهُمْ فهُمُ آلأَعادِي

وقال الأُقَيْشِر في أبيات له ، ويقال : ابن الزَبير :

من كان أَمْسَى خائِناً لأَميرِهِ ... فما خانَ إبْراهيمُ في الحَرْبِ مُصْعَباً[2]

---

١ ـ ليست في ديوان الأقيشر المطبوع .
٢ ـ ليس في ديوان الأقيشر المطبوع .

وقال موسى شَهَواتٍ :

قد مَضَى مُصْعَبٌ فوَلَّى حَميداً وابنُ مَروانَ آمِنٌ حَيْثُ سارا
مصعبٌ كانَ مِنْكَ أَوْرَى زِناداً حينَ تَغْشَى القَبائِلُ الأَقتارا

وقال سالم بن وابصة الأَسَدي :

أَبْلِغْ أَميرَ المُؤْمِنينَ رِسالةً ليس المُبَلِّدُ كَالجَوادِ المُسْهِبِ
لا تَجْعَلَنَّ مُؤَنَّثاً ذا سُرَّةٍ ضَخْماً سُرادِقُهُ وَطِيءَ المَرْكَبِ
يَغْدو إذا ما الحَرْبُ أُطْفِيءَ نارُها ويَروحُ مَزْهُوّاً عَظيمَ المَوْكِبِ
كَأَغَرَّ يَتَّخِذُ السُيوفَ سُرادِقاً يَمْشي بِرايَتِهِ كَمَشْيِ الأَنْكَبِ
ومُشَهَّرٍ في الحَرْبِ فَرَّجَ سَيْفُهُ غَمَراتِ تَخْشي الرَدَى مُتَهَيِّبِ
فاَذْكُرْ ولاتَجْعَلْ بَلاءَ مُحَمَّدٍ والخاذِلِيهِ لَدَى الحُروبِ كَجُنْدَبِ
يُدْعَى إذا ما الخَيْسُ أُحْسِنَ أُدْمُهُ وإذا تَكونُ عَظيمَةٌ لم يُنْدَبِ
وَإِلى آبْنُ مَرْوانَ الأَغَرُّ مُحَمَّدٌ بَيْنَ آبْنِ أَشْتَرِهِمْ وبَيْنَ المُصْعَبِ
نَفْسي فِداءُكَ يوم ذٰلِكَ مِن فَتًى يَكْفي بِمَشْهَدِهِ حُضورَ الغُيَّبِ

وهي في ديوانه طويلة .

المدائني ، قال : سار مصعب وحوله نفر يسير وقد خذله أهل العراق ، لِعِدَة عبد الملك إيّاهم ، وَعَدَ حجّارَ بن أَبْجر ولاية أصبهان ، ووعدها غَضْبان بن القَبَعْثَرَى ، وعتّاب بن ورقاء ، وقَطَن بن عبد الله الحارثي ، ومحمد بن عُمير بن عُطارد .

قال:وقال عُرْوة بن المغيرة : خرج مصعب يسير فوقعت عينه عليَّ فقال : يا عروة كيف صنع الحسين فأخبرته بإبائه النزولَ على حُكْم ابن زياد وعزمه على الحرب فقال :

إنّ الأُلَى بِالطَفِّ مِن آلِ هاشِمٍ تَأَسَّوْا فسَنُّوا لِلْكِرامِ آلتَّأَسِّيا

والبيت لسليمان بن قَتَّه .

قال : وقال قيس بن الهيثم لأهل البصرة وَيْحكم لا تُدخلوا أهل الشام عليكم فوالله لئن تَطعَّموا بعيشكم لَيُضَيِّقُنَّ عليكم منازلكم ادفعوهم عن داركم ، فوالله لقد رأيتُ سيّد أهل الشام على باب الخليفة يفرح بأن أرسله في حاجة ، ولقد رَأيتُنا في الصوائف وإنّ زاد أَحدنا على عدّة أَجمال وإنْ أحدهم ليغزو على فرسه وزادُه خَلْفَهُ .

قال : والتقى القوم فقُتل مُسْلم بن عمرو الباهلي ، وقُتل يَحْيَى بن مبشِّر أحد بني ثعلبة بن يربوع فقال جرير :

صَلَّى الإلَه عَلَيْكَ يا بْنَ مُبَشِّرٍ إمَّـا ثَـوَيْتَ بِمُلْتَقَى الأَجْنـادِ
مَأوَى الضَريكِ إذا السِنونَ تَتابَعَتْ وفَتَى الطِعانِ عَشِيَّةَ العِصْوادِ
والخَيْلُ ساطِعَةُ الغُبارِ كَأَنَّها قَصَبٌ تُحَرَّقُ أَوْ رَعيلُ جَرادِ[1]

قالوا : ولما أُخبر ابن خازم بمسير مصعب يريد عبد الملك قال : أَمَعَهُ عمر بن عُبيد الله بن مَعْمَر ؟ قالوا : لا استعمله على فارس ، قال : أَفمَعَهُ المهلّب ؟ قيل : لا استعمله على الموصل ، قال : أفمعه عبّاد بن الحُصين ؟ قيل : لا استخلفه على البصرة ، قال : وأنا بخراسان .

خذيني فجُرّيني ضِباعُ وأَبْشِـري بِلَحْمِ آمْرِيءٍ لَمْ يَشْهَدِ اليَوْمَ ناصِرُهْ

وقال ابن الكلبي : لما أُخبر بأنّ ابن مَعْمَر والمهلَّب غائبان عن مصعب ، قال :

---

١ ـ ديوان جرير ص ٩٨ مع فوارق .

فلَوْ بِهِما حَكَّتْ رَحا الحَرْبِ بَرْكَها لَقاما ولَوْ كانَ القِيامُ عَلَى رِجْلِ

وحدثني العمَري عن الهَيْثَم بن عَديّ عن عَوانة قال : قال عبد الملك يوما لجلسائه : من أشدّ الناس ؟ قالوا : أمير المؤمنين ، قال : اسلكوا غير هذه الطريق ، قالوا : عمير بن الحُباب ، قال : قبّح الله عميرا لصٌّ ثوبٌ ينازع عليه أعزُّ عنده من نفسه ودينه قالوا : فشَبيب ، قال : إنّ للحَروريّة طريقاً ، قالوا : فمن ؟ قال : مصعب كانت عنده عقيلتا قريش : سُكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة ، ثم هو أكثر الناس مالاً ، جعلت له الأمان ، وضمِنتُ أن أوّليه العراق ، وعَلِمَ أنّي سأفي له لِصَداقةٍ كانت بيني وبينه فأبى وَحمِيَ أنْفاً وقاتل حتى قُتل ؛ فقال رجل : كان يشرب الشراب ، قال : ذاك قبل أن يطلب المروءة ، فأمّا مذ طلبها فلو ظنّ أنّ الماء ينقص من مروءته ما ذاقه .

وقال المدائني : أُتي عبد الملك بجيفة مصعب فجعل ينظر إلى جسده ويقول : متى تغذو النساءُ مثلَك على نِفاقك ، وكانت على رأسه جارية تذبّ عنه فبدا لها ذَكَرُه ، وأوّلُ ما يعظُمُ من الميّت ويستمدّ جُردانُه[1] فقالت يا سيّدي : ما أَغْلَظَ أُيور المنافقين فقال : آغربي قبّحكِ الله .

حدثنا أبو بكر الأعْيَنَ حدثنا أبو نُعيم الفَضْل بن دُكين حدثني عبد الله بن الزبير[2] عن عبد الله بن شَريك العامري قال : إنّي لواقف إلى جنب مصعب فأخرجتُ اليه كتاباً من قَبائي فقلت : هذا كتاب عبد الملك ، فقال : اصنَعْ ما شئتَ .

---

١ الجردان : قضيب ذوات الحافر . القاموس .
٢ ـ بهامش الأصل : هذا أبو أبي أحمد الزبيري .

وأخذ رجل من أهل الشام جارية له فصاحت : واذُلّاهْ ، فنظر إليها فأعرض عنها .

قال أبو نعيم : وقُتل مصعب وهو ابن ستّ وثلاثين سنة .

وقال الهَيْثم عن ابن عيّاش : استأمن زياد بن عمرو العَتَكي لإسماعيل بن طلحة ، وقال : إنّه كان يدفع شرّ المصعب عنّي فآمَنَه ، فدنا فصاح به وكان زياد ضَخْما فأتاه وكان اسماعيل نحيفا فضرب بيده إلى مِنطقته ، وكانت مناطقُهم حواشيَ محشوَّة فاقتلعه من سرجه فقال : انشدك الله أبا المغيرة فإنّ هذا ليس بوفاءٍ لمصعب ، فقال زياد : هذا والله أحبّ اليَّ من أن أراك غدا مقتولا .

قال : خرج عبيد الله بن زياد بن ظَبْيان ، وداود بن قَحْذَم القيسي ، وبسطام بن مَصْقلة بن هُبيرة الشَيْباني ، وعمر بن ضُبيعة إلى عبد الملك برأس إبراهيم بن الأشتر .

وقال الهَيْثم : لما قتل عبد الملك مصعباً نزل النُخيلة أربعين ليلة ، فوجّه الحجّاج إلى عبد الله بن الزبير ، وولّى بِشْراً الكوفة ، وولّى خالد بن عبد الله بن خالد بن أَسيد البصرة ، ووجّه أُمَيَّة إلى أبي فُديك فهزمه ، فقدم البصرة في ثلاث ، فوجّه عبد الملك عمر بن عبيد الله بن مَعْمر إلى أبي فُديك ، ووجّه معه ابن عِضاه الأشعري وأفرشه ديوانَ المِصْرَيْن فانتخب منه ، فقتل أبا فديك ، وكتب بالفتح إلى بشر بن مروان ؛ فقال العَجّاج :

لَقَدْ شَفاكَ عُمَرُ بْنُ مَعْمَرِ مِنَ الحَروريّينَ يَوْمَ العَسْكَرِ
وَقْعَ آمْرِىءٍ لَيْسَ كَوَقْعِ الأَعْوَرِ[1]

١- ليست في ديوان العجاج المطبوع .

يعني عبد الله بن عُمير اللَيْثي ، وكان وَجّه إلى نَجْدة فلم يصنع شيئاً .
وقال غير الهيثم : وجّه خالدُ أخاه أميّة ، ووجّه عبد الملك إبراهيم بن عَرَبيّ إلى اليمامة أميراً عليها ؛ فخرج عليه نوح بن هُبيرة ، وكان معه من أهل الشام ألفٌ فقتلهم .

المدائني ، قال عبد الملك : لله مصعب لو كان لأخيه سخاؤه ، وله شجاعة أخيه ، وشدّة شكيمته ما طُمع فيهما ، على أنّ مصعباً كان شُجاعاً أبِيّاً لقد أعطيناه أمانا لو قبله لَوَفينا له به ، ولكنّه آثر الموت صابراً عن الحياة .
وحدثني الحِرْمازي عن أبي زيد عن أبي عمرو بن العَلاء قال : ذكر رجل مصعباً عند عبد الملك ، فوقع فيه وصغّر شأنه فقال عبد الملك : اسكُتْ فإنّ من صغّر مقتولاً صغّر قاتله .

حدثني عبّاس بن هشام الكلبي عن أبيه عن عوانة عن رجل من أهل مكة قال : لما أتى عبدَ الله بن الزبير مقتلُ مصعب أضرب عن ذكره أيّاماً ، ثم تحدث به الإماء بمكة في الطريق ، ثم صعد المنبر فجلس عليه مَليّاً لا يتكلم ، وإذا الكآبة بادية في وجهه وجبينُه يرشَح عَرَقاً ، قال : فقلت لصاحب لي : ألا تراه ، أتراه يَهاب المَنْطقَ والله إنّه لخطيب جريءٌ فما تظنّه تَهَيَّب ، قال : أراه يريد ذكر مصعب سيد العرب ، فهو يَفْظَع ذكره ، ثم قام فقال : الحمد لله الذي له الخلق والأمر ، وملك الدنيا والآخرة ، يُؤْتي المُلْكَ مَنْ يَشَاء وَيَنْزِعُ المُلكَ مِمَّن يَشَاءُ ويُعِزُّ مَنْ يشاء ويُذلُّ مَنْ يَشَاءُ بِيَدِه آلْخَيْرُ وهو عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ [1] ، ألا وإنّه لم يذل امرؤٌ كان معه الحَقّ وإنْ كان

١ ـ انظر سورة آل عمران ـ الآية : ٢٦ .

فَرداً ولم يُعزّ أحد من أولياء الباطل ولو كان الناس معه طُرّاً ، إنّه أتانا خبر من العراق حَزَنَنا وأفرحنا ، وساءنا وسَرَّنا ، أتانا قتل مصعب بن الزبير رحمه الله ، فأمّا الذي حزننا من ذلك فأنّ لِفراقِ الحَميم لوعة يجدُها حميمُهُ عند المُصيبة ، ثم يَرْعَوي ذا الرأي والدين والحِجَى والنُهَى إلى جميل الصبر، وكريم العَزاء ، وأمّا الذي سرّنا من ذلك فإنّا قد علمنا أنّ قَتْله شَهادة وأنّ الله جاعل ذلك لنا وله خِيرَة ، إنّ أهل العراق أهل الغدر والنفاق أُسلموه وباعوه بأقل ثمن وأخسِّه فقُتل . وإنْ قُتَلَ فمَهْ ، قد قُتِل أبوه وعمّه[1] وهما من الخيار الصالحين ، إنّا والله ما نموت حَبَجاً ، ما نموت إلاّ قَتْلاً قَعْصاً بأطراف الأسِنّة وظُباة السيوف ، ليس كما يموت بنو مروان في حِجالهم ، فوالله ما قُتل منهم رجل قطّ في جاهليّة ولا إسلام ، ولئن ابتُليتُ بالمصيبة بمصعب ، لقد ابتُليتُ قبله بالمصيبة بإمامي عثمان بن عفّان ، ألا وإنّما الدنيا عاريّة من المَلِك الجبّار الذي لا يزولُ مُلكه ، ولا يبيد سلطانه فإنْ تُقْبِلْ عَلَيَّ لا آخُذْ الأشرِ البَطِرِ ، وإنْ تُدْبِرْ عَنّي لا أبْكِ عليها بكاء الخَرِفِ الهتِر[2] ؛ ثم نزل وهو يقول :

خُذيني فجُرّيني ضِباعُ وأَبْشِري بِلَحْمِ آمْرِىءٍلم يَشْهَدِ اليَوْمَ ناصِرُهْ

قالوا : وتمثّل عبدالله حين قُتل مصعب :

لقد عَجِبْتُ وما بالدَهْرِ مِن عَجَبٍ أَنَّى قُتِلْتَ وأَنْتَ الحازِمُ البَطَلُ

١ ـ بهامش الأصل : يعني السائب بن العوام قتل يوم اليمامة .
٢ ـ الهتر : ذهاب العقل من كبر أو مرض أو حزن . القاموس .

وقال عبدالملك : إنّ عبدالله بن الزبير لو كان خليفة كما يقول لخرج فآسى بنفسه ، ولم يغرز ذَنَبَهُ في الحَرَم ، ثم قال : لله درُّك يا مصعب ما كان أسْخى نَفْسَك بنَفْسِك .

وقال أعْشى هَمْدان ، وهو عبدالرحمن بن الحارث بن نِظام قصيدة طويلة أوّلُها :

أَلا مَن لِهَمٍّ آخِرَ اللَّيْلِ مُنْصِبِ ... وأمْرٍ جَليلٍ فادِحٍ لِي مُشيّب

وفيها :

أَلا بَهْلَةُ[1] الله الذي عَزَّ جارُهُ ... على الغادِرينَ الناكثِين بمُصْعَبِ
جَزَى الله حَجّاراً هُناكَ مَلامَةً ... وفَرْخَ عُمَيْرٍ مِن مُناجٍ مُؤَلِّبِ
وما كانَ عَتّابٌ له بمُناصِحٍ ... ولا كانَ عَنْ سَعْيٍ عليه بمغرب
ولا قَطَنٌ ولا آبْنُهُ لم يُناصِحَا ... فَتَباً لِسَعْيِ الحارِثيِّ المُخَبَبِ
وضارَبَهُمْ يَحْيى وعيسى ذَمامَةً ... وضارَبَ تَحْتَ الساطِعِ المُتَنَصِّبِ
وأَدْبَرَ عَنْهُ المارِقُ آبْنُ القَبَعْثَرَى ... فما كان بِالحامي ولا بِالمُذَبِّبِ
ولا العَتَكِيُّ إِذْ أَمالَ لِواءَهُ ... فوَلَّى بِهِ عَنْهُ إلى شَرِّ مَوْكِبِ
ولا آبْنُ رُوَيْمٍ لا سَقَى الغَيْثُ قَبْرَهُ ... فَباءَ بِجَدْعٍ آخِرَ الدَهْرِ مُوعِبِ
وما سَرَّني مِن هَيْثَمٍ فَعْلُ هَيْثَمٍ ... وإنْ كانَ فينا ذا غَناءٍ ومَنْصِبِ
ولا فِعْلُ داودَ القَليلِ وَفاؤُهُ ... فقد ظَلَّ مَحْمولاً على شَرِّ مَرْكَبِ
ولٰكِنْ على فَيَّاضِ بَكْرِ بْنِ وائلٍ ... سَأُثْني وخَيْرُ القَوْلِ ما لم يُكَذَّبِ

يعني بفَرْخ عُمير محمد بن عُمير بن عُطارِد ، ويعني بالهيثم الهيثم بن الأسْوَد بن الهيثم النخعي ، ويعني بفيّاضِ بَكْرٍ عِكْرِمة بن رِبْعيّ من بني تيم

---

١ - البهل : اللعن . القاموس .

الله بن ثعلبة بن عُكابة وكان جوادا ، ويعني بعيسى عيسى بن مصعب وبيحيى يحيى بن مُبَشِّر اليربوعي من بني تميم ، ويعني بحَوْشَب حوشب بن يزيد بن رُوَيم ، ويعني بداود داود بن قَحْذَم .

وقال أبو السفّاح من ولد عميرة بن طارق اليربوعي :

صَلّى على يَحْيَى وأَشْياعِهِ رَبٌّ غَفورٌ وشَفيعٌ مُطاعْ
يا سَيِّدا ما أَنْتَ مِن سَيِّدٍ مُوَطَّإِ الرَحْلِ رَحيبِ الذِراعْ
قَوّالِ مَعْروفٍ وفَعّالِهِ عَقّارِ مَثْنَى أُمَّهاتِ الرِباعْ

وقال المدائني : كان أبو العبّاس الأعمى يهجو آل الزبير ويمدح مصعباً من بينهم ، ويمدح بني أميّة ، وكان عثمانياً فقال له عبدالملك : أنشدني شعرك في مصعب فإنّا لا نتّهمك فأنشده :

رَحِمَ الله مُصْعَباً إنَّهُ عا شَ جَواداً وكانَ فينا كَريما
طَلَبَ المُلْكَ ثُمَّ ماتَ فَقيداً لَمْ يَعِشْ باخِلاً ولا مَذْموما

فقال عبدالملك : صدقت والله كذا كان .

وقال هشام ابن الكلبي : تزوّج مصعب فاطمة بنت عبدالله بن السائب ، أحد بني أسد بن عبد العُزّى ، فولدت له عيسى بن مصعب وعُكّاشة فقُتل عيسى يوم دُجيل ، ونجا عكّاشة بنفسه فقال الشاعر :

ولَوْ كانَ صُلْبَ العُودِ أَوْ ذا حَفيظَةٍ رَأَى ما رَأَى في المَوْتِ عِيسَى بْنُ مُصْعَبِ

والثبت أنّ البيت قيل في حوشب بن يزيد بعد هذه الأيّام وهو:

ولَوْ كانَ حُرًّا حَوْشَبٌ ذا حَفيظَةٍ رَأَى ما رَأَى في المَوْتِ عِيسى بْنُ مُصْعَبِ

وقالوا:قال عَوانة : اشترط زُفَر في صلحه ألّا يقاتل مع عبدالملك وابنُ الزبير حيٌّ ، ولم يدخل الهُذيل في الشرط ، فلما سار عبدالملك إلى مصعب

سار الهذيل بن زُفَر معه ، ثم تحوّل إلى مصعب وقاتل مع ابراهيم بن الأشتر يوم دُجيل ، فلما قُتل استخفى بالكوفة في قومه ، ثم إنّ زُفَر طلب له الأمان فآمنه عبدالملك وبايعه .

ويقال : إنّه قدر عليه بغير أمان فقال له عبدالملك : ما ظَنّك بي ؟ قال : ظنّي أنّك قاتلي ، قال : فقد أكذبَ الله ظنّك بل قد عفوتُ عنك ، وكان يحبّه لشجاعته .

قالوا : وبويع عبدالملك بدير الجاثليق ، ودُفنت جُثّة مصعب هناك فقبرُه معروف بمَسْكِن بقرب أُوَانَا ، ويُعرف موضع عسكره ووقعته بخَرِبة مصعب ، وبصحراء مصعب ، وزعموا انّها لا تُنْبِت شيئاً .

وبعث عبدالملك برأس مصعب إلى الكوفة ، أو حمله معه ، ثم بعث به الى عبدالعزيز بمصر ، فلما رآه وقد حذى السيف أنفه قال : رحمك الله أما والله لقد كنت من أحسنهم خَلْقا ، وأشدّهم بأسا ، وأسخاهم نفسا ، ثم ردّ رأسه إلى الشام فنُصب بدمشق ، وأرادوا أن يطوفوا به في نواحي الشام ، فأخذته عاتكة بنت يزيد بن معاوية وهي أمّ يزيد بن عبدالملك فغسلته وطيّبته ودفنته ، وقالت : أما رضيتم بأن صنعتم ما صنعتم حتى تطوفوا وتنصبوه في المدن هذا بَغي .

قالوا : وكان محمد بن مروان أخذ جارية لإبراهيم بن الأشتر كُرديّة فواقعها فولدت على فراشه مروان بن محمد الجعدي ، فلذلك قيل لمروان ابن أمة النخع .

وحدثني عبّاس بن هشام الكلبي عن أبيه عن جدّه ، وأبي محنف ، أنّ مصعب بن الزبير قُتل في سنة اثنتين وسبعين ، فشخص عبدالملك إلى الكوفة

وجعل على شُرطه قطن بن عبدالله بن الحصين الحارثي ، فكان قائماً بأمرها ، ثم ولّاها عبدالملك بِشْر بن مروان ، وولّى خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد البصرة ، وكان قطن عثمانيّا لم يملْ إلى عبدالملك أحدٌ مَيْلَه ؛ ومضى عبدالملك إلى الشام ، ثم إنّه جمع العراقَيْن لبشر ، فأتى البصرة فأقام بها أربعة أشهر ، ويقال : ستّة أشهر ، وهو عليل ومات ؛ فولّى عبدالملك الحجّاج العراق ومات عبدالملك في سنة ست وثمانين ؛ فكانت ولايته بعد قتل مصعب أربع عشرة سنة .

وقال أبو اليقظان : عاش عبدالملك بعد قتل المصعب أربع عشرة سنة .

المدائني عن مسلمة بن محارب وعَوانة : أنّ عبدالملك قدم الكوفة حين قتل المصعب فقال للهيثم بن الأسود : كيف رأيت صَنَعَ الله ؟ قال : صنع يا أمير المؤمنين خيراً ، فخفِّف الوطء وأقل التّثْريب ، فوالله ما نِيلَ فضلٌ قط إلّا بعفو وصبر واحتمال .

وتقدّم رجل من الأنصار فأنشده :

الله أَعْطاكَ التي ما فَوْقَها وقد أَرادَ المُلْحِدونَ عَـوْقَها
عَنْكَ ويَأبَى الله إلّا سَوْقَها إلَيْـكَ حتى قَلَّدوكَ طَوْقَهـا
وحَمَّلوكَ ثِقْلَها وأَوْقَها (١)

قالوا : وهيَّأ عمرو بن حُريث ـ وكان خليفة المصعب على الكوفة حين شخص إلى مَسْكِن ، وكان مائلا الى عبدالملك وقد كاتبه فيمن كاتبه ـ

١ ـ الأوق : الثقل : القاموس .

لعبدالملك طعاماً فدخل عبدالملك قصر الكوفة من النُخيلة فقال له عمرو تأذن لخاصّتك أم تجعله إذنا عامّا ؟ فقال : بل اجعله إذناً عامًّا ، فأذن للناس ووُضعت الموائد فأكل عبدالملك وأكلوا ؛ ويقال : انّ عبدالملك اجلس عمرا معه على المائدة فقال له : أي الطعام أحبّ إليك وأطيب عندك ؟ فقالَ : عناقٌ حمراء قد أُجيد تَمليحها وأحكم نضجُها فقال عبدالملك : ما صنعتَ يا أبا سعيد رحمك الله شيئاً ، فأين أنت عن عُمْرُوس [1] راضع قد أُجيد سَمْطه ، واحكم شَيُّه إذا اختلجتَ منه عضواً تبعك العضو الذي يليه ؛ فلما فرغوا من طعامهم أقبل عبدالملك يدور في القصر ومعه عمرو بن حُريث ، وجعل يسأله عمّا أحدث فيه رجلٌ رجل ، ويسأله أيضاً عمّا أشرف عليه من قصور الكوفة فيقول : هذا لفلان ، وهذا لفلان ، وأحدث هذا فلان ، وجعل عبدالملك ينشد :

فكُلُّ جَديدٍ يا أُمَيْمَ إلى بِلًى   وكُلُّ آمْرِىءٍ يَوْمَاً يَصيرُ إلى كانْ

ثم استلقى على فراشه وأنشد

إِعْمَلْ على مَهْلٍ فإِنَّكَ مَيِّتُ   وآكْدَحْ لِنَفْسِكَ أَيُّها الإِنْسانُ
فكَأَنَّ ما قد كانَ لَمْ يَكُ إِذْ مَضى   وكَأَن ما هُوَ كائِنٌ قَدْ كانْ

وقال بعضهم : إنّ عبدالملك أمر فاتُّخذ له الطعام ووُضعت الموائد فجاء عمرو بن حُريث يتَريبَل [2] في مِشْيته فاستدناه وأكل معه وسأله عن أطيب الطعام فأجابه بما ذكرنا ، وأنَّ الطعام كان بالخَوَرْنَق ، قال : فلما أكل

---

١ ـ بهامش الأصل : حمل .
٢ ـ يقال لص ريبال وذئب ريبال وهو من الجرأة وارتصاد الشر ، والريبال الأسد ، والمقصود أنه جاء يمشي على حذر . انظر اللسان .

عبدالملك وأكل الناس أقبل يطوف ويسأل عمراً عن الخورنق ، وعمّا أشرف عليه من الأبنية فيخبره بذلك ثم أنشد الشعر .

وولّى عبدالملك الحجّاج بن يوسف محاربة عبدالله بن الزبير ، وأنفذه من الكوفة .

وقال ابن الكلبي والهَيْثَم بنْ عديٍ وغيرهما : لما دخل عبدالملك الكوفة قصد الى المسجد فخطب خطبة ذكر فيها صُنْع الله له ، ووعَدَ المُحْسِنَ ، وتوعّد المُسيءَ وقال : إنَّ الجامعة التي وضعتْ في عنق عمرو بن سعيد عندي ، والله لا أَضَعُها في عنق رجل فأنزعها إلا صُعْدًا لا أفكها عنه فكًّا ، فلا يَتَّقِينّ آمرؤ الاّ على نفسه ولا يُولِغَنّي دمه .

المدائني ، قال : دعا عبدالملك بالنُخيلة إلى البيعة ، فجاءت قُضاعة فرأى قلّتها فقال : يا معشر قضاعة كيف سلِمتم من مُضَر مع قلّتكم ؟ فقال عبدالله بن يَعْلَى النهدي: نحن أعزّ منهم وأمنع، قال: بمن؟ قال: بمن معك يا أمير المؤمنين ، ثم جاءت مذحج وهمدان فقال : ما أرى لأحد مع هؤلاء بالكوفة شيئاً ، ثم جاءت جُعْفِيّ ، فلما رآهم قال : يا معشر جعفيّ اشتملتم على ابن اختكم وواريتموه ، يعني يحيى بن سعيد بن العاص ؟ قالوا : نعم قال : فأتوني به ، قالوا : وهو آمن ؟ قال : وتشترطون أيضاً ؟! فقالوا : إنا والله ما نشترط جهلاً بحقّك ، ولكنّا نتسحَّب عليك تسحُّبَ الولد على والده ، قال : أما والله لنِعْمَ الحيُّ أنتم إنْ كنتم لَفرساناً في الجاهليّة والإسلام ، نَعَم هو آمن ، فجاءوا به ، فقال له ـ وكان يكنى أبا أيّوب ـ: بأيّ وجه تلقى ربك وقد خلعتني ؟ قال : بالوجه الَّذي خَلَقَ فَسَوَّى ، فقال عبد الملك : لله درّه أي ابن زوملة هو ، يعني عَرَبِيّة .

وتقدّم رجل من عَدْوان فقال له : ممّن أنت ؟ قال : من عدوان ، فقال عبد الملك :

غَـديرَ الحَيِّ مِن عَـدْوا نَ كـانـوا حَيَّـةَ الأَرْضِ
بغى بَـعْـضُـهُـمُ بَـعْـضـاً فلَمْ يَـرْعَـوْا عَـلَى بَعْضِ
ومِـنْـهُـمْ كـانَـتِ الـسـادا تُ والمـوفـونَ بِـالقَـرْضِ

ثم قال للرجل : إيهٍ ؟ فقال : لا أدري ، فقال مَعْبَد بن خالد الجُدَلي

ومِـنْـهُـمْ حَـكَـمٌ يَـقْضي فـلا يُـنْـقَضُ مـا يَـقْضي
ومِنْهُمْ مَـن يُجيـزُ الحَـ ـجَّ بِالسُّنَّةِ والفَـرْضِ

فقال للرجل : لمن هذا ؟ قال : لا أدري ، قال معبد : هو لذي الإِصْبَع العَدْواني واسمه حرثان بن محرّث بن الحارث بن شَباب ، فقال للرجل : كم عطاؤك ؟ قال : سبعمائة ، وقال لمعبد : في كم أنت ؟ قال في ثلاثمائة ، فأمر فحُطّ الرجلُ أربعَمائة ، وزِيدَها معبدٌ ، فصار في سبعمائة ، والآخر في ثلاثمائة وقال : هذا لِجَهْلك ؛ ثم أوصى به عبد الله بن اسحاق بن الأشعث ، وقال لبِشْر : اجعله في صحابتك .

وولّى عبد الملك قَطَن بن عبدالله الكوفة أربعين يوماً ، ثم عزله وولّى بشْراً وقال : قد ولّيت عليكم بشراً وأمرته بالإحسان إلى مُحْسِنكم ، واللين لأهل الطاعة والشدّة على أهل المعصية والريبة منكم ، فاسمعوا له وأطيعوا وأحسنوا مكانفته ومعاونته ، وولّى محمد بن عُمير همدانَ وحَوْشب بن يزيد بن رُويم الريّ ، وبعضهم يقول : ولّى يزيد بن رويم الريّ ، وذلك وَهْم ، لأنّ يزيد قُتل قبل مقتل الزُبير بن عليّ الخارجي ، وخروج قَطَريّ ، وذلك

قبل قتل مصعب ، وقال بعضهم : ولّى الريّ وهمدان محمد بن عمير ، وهو أشبه ، وفرّق العُمّال ولم يَفِ لأحد وعده بولاية أُصبهان .

وقال المدائني : لجأ عبدالله بن يزيد بن أسد إلى عليّ بن عبدالله بن العبّاس ، ولجأ إليه أيضاً يحيى بن مَعْيُوف الهمداني ، ولجأ الهذيل بن زُفَر بن الحارث وعمرو بن يزيد الحَكَمي إلى خالد بن يزيد بن معاوية ، فآمنهم عبد الملك بن مروان .

حدثني محمد بن سعد عن أبي نُعيم حدثنا يونس بن أبي اسحاق عن أبي اسحاق قال : كنت أنا والأسود بن يزيد في الشُرَط أيّام مصعب ، قالوا : ولما أراد عبد الملك الشخوص إلى الشام خطب الناس فعظّم عليهم حَقّ السلطان ، وقال لهم هو ظِلّ الله في الأرض ، وحثّهم على الطاعة والجماعة ، وذكر ابن الزبير وخلافه وخروجه ممّا دخل الناس فيه من بيعة يزيد وغيره وحُكمَ الله له عليه ، وقال : إنّه لو كان خليفة كما يزعم لأَبدى صَفْحته وآسى أنصارَه بنفسه ولم يَغْرِز ذَنبه في الحَرَم ، ثم أعلمهم أنّه قد ولّى مصرهم أخاه بشراً وآثرهم به وأمره بالإحسان إلى مُحْسنهم ومُطيعهم ، والشدّة على أهل المعصية والريبة منهم وأمرهم بالسمع والطاعة له ، وأن يُحسنوا مُوازرته ومكانَفته ويَخفّوا لِما أَهاب بهم إليه ، وولّى خالد بن عبدالله بن خالد بن أَسيد البصرة .

وأنشدني محمد بن الأعرابيّ الراوية في بيعة عبد الملك لرجل من بَلْقَين :

بِدَيْرِ الجاثِليقِ على دُجَيْلٍ   عَقَدْنا بَيْعَةَ المَلِكِ الهُمامِ
عَقَدْنا بَيْعَةً لا إثْمَ فيها   سَيَحْوي فَخْرَها أَهْلُ الشّآمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

أمر عبد الله بن الزبير في أيام عبد الملك ومقتله

قال الواقدي وغيره : لما بويع عبد الملك وهو بالشام بعث إلى المدينة عروة بن أُنيف في ستّة آلاف من أهل الشام وأمره أن لا ينزل على أحد وأن لا يدخل المدينة ، وأن يعسكر بالعَرْصة[1] ففعل ، وكان عامل عبدالله بن الزبير على المدينة الحارث بن حاطب بن الحارث بن مَعْمَر الجُمَحي ، ولاّه إيّاها بعد عزله مقوم الناقة لتشاؤم الناس بمُقَوِّم الناقة ، وغلاء السِعْر في ولايته ، حتى بلغ مُدّ النبي ﷺ درهمَيْن ، فهرب الحارث وكان ابن أُنيف يدخل فيصلّي الجُمعة بالناس ثم يعود إلى مُعَسْكرَه ، فأقام وأصحابُه شهراً لا يبعث إليهم ابن الزبير أحدا ، ولم يلقوا كيْدا ، فكتب عبد الملك إلى ابن أُنيف ومن معه في القفول إلى الشام فلم يتخلّف منهم أَحد ، وكان يصلّي بالناس بعده عبد الرحمن بن سَعْدِ القَرَظِ ثم عاد الحارث بن حاطب إلى المدينة ، ووجّه ابن الزبير سليمان بن خالد الزُرَقي من الأنصار ، وكان رجلاً

١ ـ عرصة عقيق المدينة ، من أفضل بقاعها وأكرم نواحيها وأنزه أصقاعها . المغانم المطابة .

صالحاً ، وجدُّه ممّن شهد العَقَبَة ، إلى الحارث ، وأمره بتوليته خيبر وفَدَك ، فخرج سليمان فنزل في عمله .

وبعث عبد الملك عبد الواحد بن الحارث بن الحَكَم بن أبي العاص ، ويقال عبد الملك بن الحارث بن الحكم وهو الثبث ، في أربعة آلاف إلى المدينة فلما نزل أول عمل ابن الزبير ممّا يلي الشام ، هرب عُمّاله ، وسار عبد الملك حتى نزل وادي القُرَى ووجّه منها خيلاً عليها أبو القمقام إلى سليمان بن خالد فوجدوه قد هرب ، فطلبوه حتى لحقوه فقتلوه ومن معه ، فلما بلغ ذلك عبد الملك اغتم وقال : قتلوا رجلاً مسلماً مُحْرِماً صالحاً بغير ذَنْب ، ودخل عليه قَبيصة بن ذؤيب بن حَلْحَلة بن عمرو الخُزاعي ، وكان يتولّى خاتم عبد الملك ، ورَوْح بن زِنْباع الجُذامي فنعاه إليهما فارتاعا لذلك ، وترحّما عليه .

وعزل ابن الزبير ابنَ حاطب الجُمَحي ، وولّى مكانه جابر بن الأسود بن عوف الزُهْري ، فوجّه جابرٌ أبا بكر بن أبي قيس في ستّمائة وأربعين فارساً إلى خيبر ، فوجدوا أبا القمقام ومن معه وهُم الخمسمائة الذين قتلوا سليمان الزُرَقي مقيمين بفَدَك يعسفون الناس ويأخذون أموالهم ، فقاتلوهم وانهزم أصحاب أبي القمقام ، وأُخذ منهم ثلاثون رجلاً أُسرى فقتلهم أبو بكر صَبْراً ، ويقال : بل قتل الخمس المائة أو أكثر هم ، وكان عبد الملك قد وجّه طارق بن عمرو مولى عثمان بن عفّان ، وهو الذي يقول فيه الشاعر :

ولَـوْ تَكَلَّمْنَ ذَمَمْنَ طـارِقـا والدَهْرُ قد أَمَّرَ عَبْـداً آبِقا

وأمره أن ينزل بين أَيْلة ووادي القُرَى ،فيمنع عُمّال ابن الزبير من الانتشار ، ويحفظ ما بينه وبين الشام ، ويسدّ خَلَلاً إن ظهر له ، فوجّه طارق إلى أبي بكر خيلاً فاقتتلوا ، فأُصيب أبو بكر في المعركة ، وأصيب من أصحابه

أكثر من مائتي رجل ، وكان ابن الزبير قد كتب إلى القُباع أيّامَ كان عامله على البصرة في البعث إليه بألْفَي رجل ليعينوا عامله على المدينة ، ويقيموا معه بها فوجّه رجلاً في ألفين فكان مع جابر .

فلما قُتل أبو بكر بن أبي قيس ، كتب ابن الزبير إلى القادم من البصرة يأمره أن يخرج في أصحابه فيلقى طارقا ، وبلغ طارقا الخبر ، فصار نحو المدينة فالتقيا بموضع يُعرف بشَبَكَة الدَوْم ، فقُتل البصريُّ وقُتل أصحابُه قتلاً ذريعاً ، فطلب مُدْبرهم وأجهز على جريحهم ولم يَسْتَبْقِ أسيرهم ولم يَنْجُ منهم إلّا الشريد ، فلما بلغ ابن الزبير مقتله كتب إلى عامله على المدينة يأمره أن يفرِض لألْفَيْ رجل من أهل المدينة وما والاها ليكونوا رِدْءاً لها ، ففرض الفرض ولم يَأْتِه مال فبطل فسُمّيَ ذلك الفَرْض فرض الريح .

قال الواقدي : ويقال إنّ هذا الفرض كان في ولاية ابن حاطب .

ورجع طارق إلى وادي القُرَى فكان سيّارةً فيما بين المدينة ووادي القرى وأيله ، وكان عامل ابن الزبير مقيماً بالمدينة ؛ قال : وعزل ابن الزبير جابر بن الأسود وولّى في صفر سنة سبعين طلحة بن عبدالله بن عوف ، الذي يعرف بطلحة النَدَى ، فلم يزل على المدينة حتى أخرجه طارق بن عمرو ، وقد قدمها يريد الحجّاج والحجّاج بمكة ، وكان طارق حسن العفو والتقيّة له رِفْق .

وقال الواقدي : لما قتل عبد الملك مصعب بن الزبير وأتى الكوفة ، وجّه منها الحجّاج بن يوسف إلى عبدالله بن الزبير في ألفَين ، ويقال : في ثلاثة آلاف ، ويقال في خمسة آلاف من أهل الشام ، وذلك في سنة اثنتين وسبعين ، فلم يعرض للمدينة ولا طريقها ، وسار على الرَبَذة حتى أتى

الطائف ، فكان يبعث البعوث إلى عَرفة ، ويبعث ابن الزبير إليه أصحابه فيقتتلون هناك وكُلَّ ذلك تُهْزَم خيل ابن الزبير ، وترجع خيل الحجّاج إلى الطائف .

وقال عَوانة بن الحَكَم : دخل عبد الملك بن مروان الكوفة حين قتل مصعباً فأقام بها أيّاماً ، ثم وجّه جيشاً إلى ابن الزبير ، وهو بمكة واستعمل عليه الحجاج بن يوسف الثقفي ، فأقبل عليه الهَيْثَم بن الأسود النَخعي فقال له : يا أمير المؤمنين أوصِ هذا الغلام الثقفي بالكعبة ، ومُرْه أن لا ينفّر أطيارها ، ولا يَهْتِك استارها ، ولا يرمي أحجارها ، وأن يَأخُذ على ابن الزبير بشعابها وفجاجها وأنفاقها ، حتى يموت فيها جوعاً أو يخرج عنها مخلوعا ، فقال عبد الملك للحجاج : افعَلْ ذلك واجتَنِب الحَرَم وانزل الطائف .

فسار الحجاج حتى نزل الطائف ، ثم إنّه كتب إلى عبد الملك إنّك متى تَدَع ابن الزبير وتكفّ عنه ولا تأمر بزَحْمه ومصادمته يكثر عَدَدُه وعُدَدُه وسلاحه فَأْذَنْ لي في قتاله ومناجزته فكتب إليه : افعَلْ ما ترى ، فأمر أصحابه أن يتجهّزوا للحجّ ، ثم أقبل من الطائف ، وقدّم مقدّمته ، فنصبوا المنجنيق على أبي قُبيس ، فلما هبطوا إلى مِنىً رأى مَن في عسكر الحجاج المنجنيق منصوبة فقال الأُقَيْبِل بن شِهاب الكلبي ، وهو يُنسَب في القَيْن بن جَسْر ، فيقال القَيْني :

لَعَمْرُ أَبي الحَجّاجِ لو خِفْتُ ما أَرَى ... مِنَ الأَمْرِ ما أُلْفِيتُ تَعْذُلُني نَفْسي
فلَمْ أَرَ جَيْشاً غُرَّ بِالحَجِّ قَبْلَنا ... ولم أَرَ جَيْشاً مِثْلَنا غَيْرَ ما خُرْسِ

يقول لا يتكلم ولا يُنْكِر :

خَرَجْنا لِبَيْتِ الله نَرْمي سُتورَهُ وأَحْجارَهُ زَفْنَ الوَلائِد في العُرْسِ
دَلَفْنَا له يَوْمَ الثَلاثاء مِن مِنىً بِجَيْشٍ كَصَدْرِ الفيلِ لَيْسَ بِذي رَأْسِ
فإلّا تُرِحْنا مِن ثَقيفٍ ومُلْكِها نُصَلِّ لأَيّامِ السَباسِبِ والنحْسِ

فبلغ الحجاج الشعر ، فطلبه ليقتله ، فهرب حتى لحق بدمشق ، فضرب على قبر مروان بن الحكم خيمة مستجيراً به ، فدعا به عبد الملك ، فلما صار بين يديه أنشده :

إنّي أعوذُ بِقَبْرٍ لَسْتَ مُخْفِرَهُ ولا أعوذُ بِقَبْرٍ بَعْدِ مَرْوانا

فقال عبد الملك : وأنا لا أُعَوِّذُ به أحداً بعدك ، وأمر كاتبه أن يكتب له إلى الحجاج بأن يُمسك عنه ، ويُعلمه أنّه قد آمنه ، فقال له الكاتب : عُدْ إليَّ ، فلما خرج أمره عبد الملك أن يكتب إليه إني قد صرفت إليك الأُقَيْبِل فاعمَلْ فيه بما ترى فإنك محمود الرأْي مُوَفَّق للصواب فكتبه وختمه ، فلما أخذه وانطلق به متوجّهاً يريد مكة فكر في أمره ، فقال لعلّ الكتاب مثل صحيفة المُتَلَمِّسِ ففتحه ودفعه إلى من قرأه له فأنشأ يقول :

لَأَطْلُبَنَّ حُمولاً قد عَلَتْ شَرَفاً كَأَنَّها في الضُحَى نَخْلٌ مَواقيرُ
فقد عَلِمْتُ وعِلْمُ المَرْءِ يَنْفَعُهُ أَنّ انطِلاقي إلى الحَجّاجِ تَغْريرُ
مُسْتَحْقِباً صُحُفا تَدْمَى طَوابِعُها وفي الصَحائِفِ حَيّاتٌ مناكيرُ
لَئِنْ أَتَيْتُكَ يا حَجّاج مُعْتَذِراً إذاً فلا قُبِلَتْ تِلْك المَعاذيرُ
وإنْ ظَهَرْتُ لِحَجّاجٍ لِيَقْتُلَني إنّي لأَحْمَقُ مَن تُحْدَى به عِيرُ

ثم لحق بقومه في باديتهم ، فلم يزل معهم حتى هلك .

وحصر الحجاج ابن الزبير في المسجد ، وألحّ عليه بالمنجنيق ، وصيّر على رماتها رجلاً من خَثْعَم فجعل يرمي البيت وهو يقول :

خَطَّارَةٌ مِثْلُ الفَنِيقِ المُزْبِدِ نَرْمِي بها عُوَّاذَ هذا المَسْجِدِ

وقد كان رُماة المنجنيق يقولون مثل هذا في حصار حُصين بن نُمير أيّام يزيد بن معاوية .

وقال الواقدي : كتب الحجاج من الطائف إلى عبد الملك يسأله المَدَد ويستأذنه في حصار ابن الزبير ودخول الحرم ويُعلمه أنّه قد رُوخِيَ له في خِناقه ، وأنّه في فُسْحة من أمره ، فأذن له في ذلك ، وكتب إلى طارق بن عمرو يأمره باللحاق به ، فقدم المدينةَ في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين ، فخرج عامل ابن الزبير عنها ، وصيّر عليها طارق بن عمرو رجلاً من أهل الشام يقال له ثعلبة ، فكان ثعلبة يَنْكُت المُخّ على منبر رسول الله ﷺ ويأكله ، ويأكل التمر على المنبر ليغيظ بذلك أهل المدينة ، وكان مع ذلك شديداً على أهل الريبة ، فأمِنَت الطُرقُ وكان أصحابه يتعبّثون فيضربهم بالسياط ، وأخذ قوماً تناولوا من شعير لرجل قد دقّ شعيره فضرب كل امرىء منهم خمسمائة سوط ، وأُتي برجل اغتصب امرأةً نَفْسَها فضربه بالسياط حتى مات ، ثم صلبه على باب المرأة ، وقال جابر بن عبدالله لما رأى صنيعه على منبر رسول الله ﷺ : رحم الله عثمان أنكروا من أمره ما قد رأوا أَعْظَمَ منه أَضْعافاً ، وإنْ كانت سيرة طارق صالحة .

قال : وكانت العِيرُ تحمل إلى أهل الشام من عند عبد الملك السَويق والكعك والدقيق ، لا تَفْتُرُ حتى أَخْصَبوا .

قال : ونحر ابن الزبير ونفرٌ معه البُدُنَ عند المَرْوة إذ لم يقدروا على إتيان مِنىً وعَرَفَة ، وسأل الحجاج ابنَ الزبير أن يطوف بالبيت فلم يَأْذَنْ له في ذلك إذ لم يأذن له الحجاج في حضور عرفة .

وكان عبد الملك يُنكر رَمْيَ البيت في أيّام يزيد بن معاوية ، ثم أمر بذلك ، فكان الناس يتعجّبون منه ويقولون خُذل في دينه ، وحجّ عبدالله بن عمر في تلك السنة ، فأرسل إلى الحَجّاج أن اتَّقِ الله واكفُفْ هذه الحجارة عن الناس ، فإنّك في شهر حرام ، وبلد حرام ، وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض يضربون آباط الإبِل ويمشون على أقدامهم ليُؤدُّوا فريضة أَوْ يزْدادوا مُزداد خَيْرٍ ، فإنّ المنجنيق قد منعَتْهم من الطواف ، فكَفَّ عن الرَمْي حتى قَضَوْا ما يجب عليهم بمكة .

وخرجوا إلى مِني وعَرَفة فوقف بالناس بها وشهد معهم المشاهد ولم يعرض ابن الزبير للحُجّاج في الزِيارة وغيرها ، ونادى منادي الحَجّاج في الناس أن انصرفوا إلى بلادكم ، فإنّا نعود بالمنجنيق على المُلْحِد ابن الزبير ، وتحلّب الناس إلى ابن الزبير ليقاتلوا معه إعظاماً للبيت وحُرمته ، وقدم عليه قوم من الأعراب تُقعقع وِفاضُهم ، وقالوا : قدمنا لنقاتل معك فأَعِنّا على قتال أعدائك ، فإذا مع كلّ امرىءٍ منهم سيف كأنّه شَفْرة قد خرج من غِمْدِهِ فقال : يا معشر الأعراب لا قرّبكم الله ، فوالله إنّ سِلاحكم لرَثّ ، وإنّ حديثكم لغث ، وإنّكم لعيال في الجَدْب ، وأعداء في الخِصْب فتفرّقوا عنه .

وقال الواقدي في روايته : قدم على ابن الزبير حُبْشان من الحَبَشة فقاتلوا معه ، فكانوا يرمون بمزاريقهم فلا يقع لهم مِزراق إلاّ في رجل ، فقتلوا من الشاميين جماعة ونَهَكوا ، فحمل عليهم أهل الشام فانكشفوا

وجعلوا يعتذرون إلى ابن الزبير ويقولون : لسنا بأصحاب مواجهة ، ولكنّا أصحاب اتّباع بالمزاريق إذا ولوا ، فلم يزل بعد ذلك يواجه الشاميينّ بأصحاب السيوف ويتقدّم ، وإذا وَلِّى القومُ أمر أصحاب المزاريق فرموهم ، ثم إنّهم فارقوه لضيق الأمر عليهم .

قال : وكان مع ابن الزبير قوم قدموا مع ابن عُديس من مصر ، ثم صاروا خوارج ذَوو شجاعة وبأس فقاتلوا معه دافعين عن البيت مُعظمين لِحُرْمته وكانت لهم نكاية في أهل الشام ، فبلغه عنهم ما يقولون في عثمان رضي الله تعالى عنه فقال : والله ماأُحِبُّ أن أستظهر على عدويّ بمن يُبْغِض عثمان ، ولا بأَنْ أَلْقَي الله إلا ناصراً له ، وجعل يماكرهم ، فقالوا : والله ما نرى أن نقاتل مع رجل يكفّر أسلافنا ، وما قاتلنا إلاّ لحرمة هذا البيت ، وأَنْ نَرُدَّها شُورَى فتفرّقوا عنه فاختلّ عسكره وعَرِيَتْ مصافّه ودنا منه عدوّه حتى قاتلوه في جوف المسجد ، فقال عبيد بن عُمير : عَجَباً لك ولِمَا صنعت لهؤلاء القوم ، وهم أهل البلاء الحسن والأثر الجميل هَلاّ سكتَّ عنهم واحتملتَهم إلى أن يصنع الله وتَضَعَ الحبُ أوزارها ، وقد قلتَ: لو أنّ الشياطين أعانتني على هؤلاء القوم لقَبِلْتهم وقد كان رسول الله ﷺ يستعين في حربه بالمنافقين واليهود .

قال : وأصابت الناس مجاعة شديدة حتى ذبح ابن الزبير فرساً له وقسم لحمه في أصحابه .

وقال الواقدي : حدثني ابن جُريج عن عَطاء قال : رأيت العُبّاد من أصحاب ابن الزبير يأكلون لحوم البراذين في حصر ابن الزبير .

وقال الواقدي في روايته : وبِيعَت الدجاجة بعشرة دراهم ، ومُدّ الذُرَة بعشرين درهماً ، وإنّ بيوت ابن الزبير لمملوءة قَمْحاً وشعيراً وذُرة وتمراً .

وقال ابن الكلبي وغيره : كان أهل الشام ينتظرون فَناءَ ما كان عند ابن الزبير من الطعام ، فكان يحوط ذلك ولا ينفق منه إلّا ما يُمسك الرَمَق ويقول : أنفسُهم قويّة ما لم يَفْنَ ، يعني أنفُس أصحابه .

قالوا : ولما صدر الناس عن الحجّ أعاد الحجاج الرمي بالمنجنيق ، فلقد كان الحجر يقع بين يدي عبدالله بن الزبير وهو يصلّي فلا يبرح .

وحدثني أحمد بن ابراهيم الدَوْرَقي حدثنا محمد بن كثير حدثنا حمّاد بن سَلْمة عن قتادة قال : كان حجر المنجنيق يجيء عبدالله بن الزبير فيقال له تَنَحَّ فيقول :

سَهِّلْ عَلَيْكَ فإنّ الأُمورَ بِكَفِّ الإلهِ مَقاديرها
فلَيْسَ بِآتيكَ مَنْهِيُّها ولا قاصِرٌ عَنْكَ مَأمورها

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن ابن أبي الزِناد عن هشام بن عروة عن أبيه قال : رأيت حجارة المنجنيق يُرْمَى بها الكعبة حتى كأنها جيوب النساء ، ولقد رُمِيَت بكَلْب فكَفَأ قِدْراً لنا فيها جشيشة[1] فأخذناه فوجدناه كثير الشحم ، فكان أشدّ إشباعاً لنا من الجشيشة .

وقال عوانة : رُمِيَت الكعبة حتى ارْتَجّتْ ووَهَتْ فارتفعت سحابة ذاتُ بَرْقٍ ورَعْدٍ فسقطت صاعقةٌ على المنجنيق فأَحْرَقَتْها وقَتَلَت من أصحابها اثني عشر رجلاً ، فذُعر أهل الشام من ذلك ، وكفّوا عن القتال ، فقال الحجاج

١ ـ الجشيش : السويق وحنطة تطحن جليلاً فتجعل في قدر ويلقى فيها لحم أو تمر فيطبخ . القاموس .

إنها تِهامة ، وهي بلاد كثيرة الصواعق فلا يَروعنّكم ما تَرَوْنَ فإنْ من قبلكم كانوا إذا قرّبوا قُرباناً بُعثت نارٌ فأكلتْه ، فيكون ذلك علامةَ تقبُل ذلك القربان ، فأتي بمنجنيق أخرى وعاود الرَمْيَ .

المدائني عن مسلمة عن أشياخ له قال : رمى الحجاج البيت ، فسقطت على المنجنيق صاعقةٌ في يوم مَطير فقال : لا يروعنكم فإنّها صواعق تهامة .

قال : وجعل أهل الشام يقولون وهم يرمون :

يَا بن الزُبَيْر طالَ ماعَصَيْكا وطـالَ مـا عنيتنـا اليكـا
لَتُجْـزَيَنَّ بَـالـذي أَتَيْكـا لَنَضْـرِبَنْ بسيفنـا قفيكـا

وجعلوا يقولون كقولهم في أيّام حصار حُصين بن نمير :

كيف ترى صَنيعَ أُمِّ فَرْوَهْ تَقْتُلُهمْ بَيْنَ الصَفَا والمَرْوَهْ

وكان مع الحجاج ممّن مع الحُصين .

حدثني محمد بن سعد و الوليد بن صالح قالا : حدثنا الواقدي حدثني اسحاق بن يحيى بن يوسف قال : رُمي بالمنجنيق فرعدت السماء وبرقت فتهيّب ذلك أهل الشام فرفع الحجاج بيده حجراً ووضعه في كِفّة المنجنيق ورمى بعضُهم ، فلما أصبحوا جاءت صاعقة فقتلت من أصحاب المنجنيق اثني عشر رجلا فانكسر أهل الشام ، فقال الحجاج : يا أهل الشام لا تُنكروا ما تَرَوْن فإنّما هي صواعق تهامة ، وعَظَّم عندهم أمر الخلافة ، وطاعة الخلفاء .

وقال ابن الكلبي : اصابت الناس مجاعة في ايّام ابن الزبير وكان عامله على وادي القرى الجَرّاح بن الحُصين بن الحارث الجُعْفي ، وكان لابن الزبير

بها تمر كثير من تمر الصدقة ، فأنهبه فلما قدم عليه جعل يضربه بدِرّته ويقول : أكلت تمري وعصيت أمرى ، فلما كان حصار الحجاج إيّاه ، دعا الحجاج الجّراح بن الحُصين فقال له حدثني حديث المُلِحْد وحديثك فدعا وجوهَ من معه فقال : اسمعوا أهذا ممن يرجى لخير؟!

قال:وقدم عبدالله بن دَرّاج ، مولى معاوية مكة ، فاتّهمه ابن الزبير فقتله ، فقال ابن الزبير الأسدي :

أيها العائذ في مكّةَ كَمْ مِن دَمٍ أَجْرَيْتَهُ في غَيْرِ دَمْ
أيدٌ عائذة مُعْصِمَةٌ ويَدٌ تَقْتُلُ مَن جاءَ الحَرَمْ

قالوا : ولما كان قبل مقتل عبدالله بن الزبير بيومٍ ، خطب الحجاج أصحابَه وحضهم وقال : هذا الفتح قد حضر ، وقد ترون خفّة مَن مع الملحد ابن الزبير مِن الرجال وقلتهم وما فيه أصحابه من الضيق والجهد ، ففرحوا واستبشروا وملأوا ما بين الحجون إلى الأبواب .

وقالت أسماء بنت أبي بكر، أُمّ عبدالله بن الزبير رضي الله تعالى عنهم : والله ما أنتظر إلّا أن تُقْتَلَ فأحتسبك ، أو تَظْفَرَ فأُسرُّ بظَفَرك فإنْ كُنْتَ على حق وبَصيرة في أمرك فما أَوْلاك بالجدّ ومُنازَلَةِ هؤلاء القوم ، وإلّا فالسِلْم منهم أولى بك ، فقال : يا أُمَّهْ إنِّي أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثّلوا بي ويصلبوني، فقالت: يابُنَيَّ إنّ الشاة إذا ذُبحت لم تَألَم السَلخ ، فَامْضِ على بصيرتك فاستِعن بالله ربك فخرج ابن الزبير ، فدفع أهلَ الشام دفعة مُنْكَرة ، وقتل منهم ثم انكشف وأصحابه فرجع ، وبلغ أمّه الخبر فقالت: خذلوه وأحبّوا الحياة ولم ينظُروا لدنياهم ولا آخرتهم ، ثم قامت تصلّي وتدعو فتقول : اللهم إنّ عبدالله بن الزبير كان معظماً لحُرمتك ، وقد جاهد فيك

أعداءك وبذل مُهْجة نفسه لِرَجاء ثوابك فلا تخيّبه ، اللهم أظْهِره وآنصُرْه ، اللهم ارحَمْ طُولَ ذلك السجود والنَحيبِ ، وذلك الظمأ في الهواجر ، وما أقول هذا القول تزكيةً له ، ولكنّه الذي أعلَمُه منه وأنت أعلم بسريرته وعلانيته ، اللهم إنّه كان بَرّاً بوالدَيْه فآشْكُر ذلك له ، فلما كان يوم الثلاثاء ، وهو اليوم الذي قُتل فيه ، جاء إلى امّه وعليه دِرْعه ومِغْفَره فوَدَّعَها وقبّل يدها فقالت : لا تبعَدْ إلاّ من النار ، وقال يا أُمَّهْ خذلني الناس إلاّ ولدي وأهل بيتي ، وكان الحجاج قد بسط الأمان للناس ، فاستأمن إليه خلق واعتزلوا ابن الزبير .

قالوا : وخرج ابن الزبير من عند أُمّه فقاتل أشدّ قتال وضرب رجلاً من أهل الشام فقال : خذها وأنا ابن الحَواريّ ، فقتله ، وضرب آخر وكان حبشياً فقطع يده وقال : اصبِرْ أبا حُمَمَهْ ، اصبر ابن حَام .

وقال أبو مخنف : جعل يقاتل يومئذ قتالاً لم يُرَ مثله وهو يقول :

صَبْـراً عِفـاقُ إنَّـهُ شَرُّ بـاقْ
قَبْلَكَ سَنَّ الناسُ ضَرْبَ الأَعْناقْ
قد قامَتِ الحَرْبُ بِنا عَلَى ساقْ

المدائني عن يزيد بن عياض عن صالح بن كيسان قال : برز عبدالله بن الزبير في اليوم الذي قُتل فيه فدُمِيَ وهو يقول :

لَسْنا على الأَعْقابِ تَدْمَى كُلومُنا ولكِنْ على أَقْدامِنا يَقْطُرُ الدَما

وهذا البيت لخالد بن الأَعْلَم . حليف بني مخزوم ، وهو عُقيليّ ، وكان أُسِر يوم بَدْر ، فقدم في فدائه عِكْرِمة بن أبي جَهْل ، وقال بعضهم : هو لأبي عَزّة الجمحي .

قالوا : ورأى الحجاج الناس يَخيمون عن ابن الزبير ، فغضب وترّجل ، وأقبل يسوق الناس ويصمُد بهم صَمْدَ صاحب عَلَم ابن الزبير ، وهو بين يديه فتقدّم ابن الزبير صاحب عَلَمه ، وضاربهم فانكشفوا ، وعرّج فصلّى ركعتين عند المقام فحملوا على صاحب عَلَمه فقتلوه عند باب بني شيبة ، وصار العَلَم في أيدي أصحاب الحجاج فلما فرغ من صلاته تقدّم فقاتل بغير عَلَم ، والحجاج يَذمر الناس ، وقد شُحنت الأبواب ولم يتخلّف من أهل عسكر الحجاج أحد من أصحابه وأصحاب طارق ، فأصابت ابن الزبير رمية فسقط ، وصاحت امرأةٌ : واأمير المؤمنيناه ، وتعاووا عليه فقتلوه .

وقال أبو مخنف وغيره : أتى عبد الرحمن بن زيد بن الخطّاب ابنَ الزبير ليلة الثلاثاء فعرض عليه أن يخرج إلى الحجاج على أن يأخذ له أمانا ، وقال : خرجتُ منكراً للظُلم ، متّبعا لِهَدْيِ الصالحين ، وقد قُتل على ذلك قوم معي مستبصرين ، فإن قتلت فإنّي سأجتمع وقاتلي بين يدي الحَكَم العَدْل ، فلما أصبح سمع الحجاجَ يقول : خذوا الأبواب لا يَهْرُبْ ، فقال : لقد ظنّ ابن الخبيثة بي ظنه بأبيه ونفسه يوم فرّ من الخَنْتَف بن السِجْف .

وقال أبو مخنف في روايته : دخل ابن الزبير على أُمّه فقبّل يدها وعانقها ، وكانت عمياء ، فلما مسّت الدِرْع قالت : هذه تثقلك فنزعها وشمّر ثيابه وأَدْرج كُمّه ، فقالت : والله ما أُحبّ أن أموت يومي هذا حتى أعلم إلى ما يصير أمرك إليه من الظَفَر الذي أَرجوه ، أو الأُخرى ، فأحتَسِبُك وَتَمَضّ لسبيلك على بصيرتك ونِيّتك .

وجعل أهل الشام ينادونه : يا بن العَمْياء يا بن ذات النِطاقَيْن فأنشد :

وعَيَّرَها الواشُونَ أنّي أُحبُّها وتلك شَكاةٌ ظاهِرٌ عَنْكَ عارُها

وقاتل وهو يقول :

شَـيْـخٌ كَـبـيرٌ عَـلّ قـد عـاشَ حَـتّى مَـلّ

وقال ابن الزبير ـ وأُخبر أنّ بني سَهْم قد مالوا برايتهم إلى الحجاج فدخلوا في أمانه ، وأنّه قال:من دخل دار الحارث بن خالد ودار شَيْبة الحَجَبي فهو آمن ـ فقال :

فَرَّتْ سَلامانُ وفَرَّتِ النَمِرْ وقد تَلاقَى مَعَهُمْ فلا تَفِرْ

وفي رواية الواقدي : أنّ أسماء كانت تقول : وابنُ الزبير يقاتل الحجاج : لمن كانت الدولةُ اليوم ، فيقال : للحجاج ، فتقول : ربما أُمِرَ بالباطلُ ، فإذا قيل هي لعبدالله قالت : اللهم انصر أهل طاعتك ، ومن غضب لك .

وفي روايته أيضاً : أنّ إسحاق بن عبيدالله الأَسْلَمي قال : شهدت حصار ابن الزبير الآخِرَ ، فكان يباشر القتال بنفسه ، ولقد رأيته يقتل بيده مثل جميع من يقتله أصحابه ، ورأيته اليوم الذي قُتل فيه وهو يوم الثلاثاء ، وإنّه لبَيْنَ الرُكن والمَقام يقاتلهم أشدّ القتال حتى إنّهم لَيغشونه من كلّ ناحية حتى قُتل ، وكان يُدْعَى إلى تَبْييت الحجّاج ، فيقول : البَياتُ لا يصلح ولا نستحلّه .

قالوا : وعُرض على ابن الزبير أن يدخل الكعبة ، فقال : والله إنّي لأكره أن أدخلها فأوخذ كما تُؤخذ الضَبُعُ من وَجارها ، ولكنّي أقاتل بسيفي هذا حتى أقتل ، والله ما باطن الكعبة عند الحجاج إلاّ كظاهرها ، وكان

يَحْمِلُ على رِجْلَيْه حتى يبلغ الأبطح كأنّه أَسَد في أَجَمَة ، ثم يرجع إلى المسجد ، وقد جعل الحجاج يومئذ على كل باب أهل جند من أجناد الشام ، وجعل ابن الزبير يقول :

إنّي إذا أَعْرِفُ يَوْم أَصْبِرُ والصَبْرُ أَوْلَى بِالفَتَى وأَعْذَرُ
وبَعْضُهُمْ يَعْرِفُ ثم يُنْكِرُ

وقال أبو مخنف وعَوانة في روايتهما : قال حمزة بن الزبير لعبدالله : لو رقيتَ فوق الكعبة يا أمير المؤمنين قاتلنا حولك حتى نُقتل جميعاً قبلك ، فقال ابن الزبير :

أبَى لابْنِ سَلْمَى أَنَّهُ غَيْرُ خالِدٍ حِذارُ المَنايا أَيَّ وَجْهٍ تَيَمَّما
فلستُ بِمُبْتَاعِ الحَياةِ بِسُبَّةٍ ولا مُرْتَقٍ مِن خيفَة المَوْتِ سُلَّما

ثم قال لأصحابه : أَيُّكم طلبني ، فإنّي في الرعيل الأوّل .

وقيل له لو لحقت بموضع كذا ؟ فقال : لبئس الشيخ أنا في الإسلام لئن أُوقعت قوماً فقتلوا ، ثم فررت عن مثل مصارعهم ، وقال لمن بقي معه: غضواً أبصاركم عن البارقة ، وعَضُّوا على النواجذ ، ولينظر رجل كيف يضرب ، ولا تخطئوا مضاربها فتكسروها ، فإنّ الرجل إذا كان أعضَب لا سيف معه أُخِذَ أَخْذاً كما تؤخذ المرأة وكان يقول :

لا عَهْدَ لي بِغارةٍ مِثْلِ السَيْلْ لا يَنْقَضِي غُبارُها حَتَّى اللَيْلْ

قالوا : وقاتل ابن مطيع حتى قُتل وهو يقول :

أنا الذي فَرَرْتُ يَوْمَ الحَرَّةْ والحُرُّ لا يَفِرُّ إلاّ مَرَّةْ
فاليَوْمَ أَجْزِي فَرَّةً بِكَرَّة

ويقال : إنه أُصابته جراح فمات منها بعد أيّام ، وذلك أثبت .

قالوا : وشرب ابن الزبير الصَبِر أياماً ، ثم المسك مخافة أن يصلب فيُشَمَّ نتنه وقال طارق ، ورأى ابن الزبير : ما ولدت النساء أُذكر من هذا ، فقال الحجاج اتقرظ مخالفا لأمير المؤمنين وطاعته ؟ قال : ذلك أُعذر لنا في محاصرته سبعة أشهر ونصفا ، أو قال : ستة أشهر ونصفا ، وهو في غير حصن ولا منعة ، فبلغ ذلك عبد الملك ذلك فصوب طارقا .

وقال الواقدي : حُصر ابن الزبير في غُرّة ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين ، وقُتل يوم الثلاثاء في جمادى الآخِرة سنة ثلاث وسبعين ، وكان الحصار ستّة أشهر وسبع عشرة ليلة ، وحجّ الحَجّاج بالناس في سنة ثلاث وسبعين حجّاً تامّاً ، وقُتل ابن الزبير وهو ابن ثلاث وسبعين سنة .

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن هشام بن عُروة قال : رَمَى عبدَالله بن الزبير رجلٌ من السَكون بآجُرّة فأثبته فوقع ، وتولّى قتله رجل من مُراد وحمل رأسه إلى الحجاج ، فسجد الحجاج وأوفد السَكوني والمُراديَّ إلى عبد الملك فأعطى كلّ واحد منهما خمسمائة دينار ، وفرض لكلّ واحد منهما في مائتي دينار ، ونصب عبد الملك رأس ابن الزبير ، وأمر فبُعث به إلى النواحي .

وحدثني محمد بن سعد عن محمد بن عمر الواقدي عن خالد بن إلياس عن أبي سَلَمة الحضرمي قال : دخلتُ على أسماء بنت أبي بكر يوم الثلاثاء ، وبين يديها كَفَنٌ قد أعدّتْه ونشرته ودخّنته ، وأمرت جوارِيَ لها أن يَقُمْنَ على أبواب المسجد فإذا قُتل عبدالله صِحْنَ ، فلما قُتل سمعَت صياحهنّ فأرسلت لِتَحمله ، فوجدت الحجاج قد حزّ رأسه فبعث به إلى عبد الملك وصلبه مُنَكَّساً ، وإذا هي تقول : قاتل الله المُبير يحول بيني وبين جُثّته أن أُوارِيَها .

وحدثني رَوْح بن عبد المؤمن حدثنا عارم بن الفضل حدثنا حمّاد بن زيد عن أيّوب عن نافع : انّ ابن عمر مرّ بجِذْع ابن الزبير ، فقال : أهو هو ، قلت : نعم ، قال : لقد كان عن هذا غنيًّا .

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن شرحبيل بن أبي عَوْن عن أبيه قال : لما أحسّ ابن الزبير بالقتل تمسّك ، وكانت له سجّادة كَرُكْبَةِ العَنْز ، فلما قتله الحجاج صلبه على الثَنِيّة اليُمْنى بالحَجون ، فأرسلت أسماء إليه : قاتلك الله على ماذا صلبته ؟ فقال : إنّي استبقت أنا وهو إلى هذه الخشبة ، فكانت اللَبْجَةُ به ، فسبقني إليها ، فاستأذنَتْه في تكفينه ، ودَفْنِه فأبى ووكّل بجثّته مَن يحرسها ، وكتب إلى عبد الملك بصلبه إيّاه ، فكتب إليه عبد الملك يلومه على صلبه ، ويقول : ألا خَلَّيت بينه وبين أمه فأذن لها الحجّاج فوارَتْه بمقبرة الحَجون ، وصلّى عليه عروة بن الزبير ، ويقال غيره .

وقال عَوانة بن الحكم : مرّ عبدالله بن عمر حين أُخبر بصلب ابن الزبير فجعلت ناقته تَحْتَكُّ بخشبته ، أو قال : بجذعه ، ورائحة المسك تسطَع منه فقال : رحمك الله أبا خبيب ، رحمك الله أبا خُبيب ، والله لقد كنتَ صوّاماً قوّاماً ، ولكنّك رفعت الدنيا فوق قدرها وأعظمتَها ، ولم تكن لذلك بأهل ، وإنَّ قوماً أَنْتَ من شِرارِهم لقومُ صِدْقٍ أَخْيارٌ .

وقال عوانة : بلغني أنّ الحجاج ربط إلى ابن الزبير هرّة ميّته ، ويقال : كلبة ميتة ، فكانت رائحة المسك تغلب على ريحها ، قال : وتُوفيّت أمّه بعده بقليل .

---

١ ـ لبج : صرع وبالعصا ضرب . القاموس .

قال : ولما قُتل ابن الزبير كبّر أهل الشام ، فقال ابن عمر : لَمَن كبّر من الأخيار لِمَوْلِده أكثر ممّن كبّر من الأشرار لقتله ، وكان أوّل مولود وُلد بالمدينة من أبناء المهاجرين .

وقال عوانة وغيره : لما قتل الحجاج ابنَ الزبير وصلبه بعث إلى أمّه أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقَيْن لتأتَيه ، فأبت أن تفعل ، فبعث إليها لتُقبلنّ أو لأبعثنّ إليك مَن يجُرّك بقرونك فقالت لرسوله : قل لابن أبي رِغال : لستُ أفعل أو تبعثَ إليّ مَن يجُرّني بقروني ، فلبس سِبْته وجعل يتوذّف[1] في مشيته حتى دخل عليها فقال: كيف رأيت ما صنعتُ بطاغيتك؟ قالت: من عَنَيْتَ ؟ قال : عبدالله ، قالت : رأيتك أفسدت عليه دنياه ، وأفسد عليك آخرتك ، وإنّ أعجب ممّا فعلت تعييرك إيّاي بالنطاقين ، فليت شعري بأيّ نطاقَيّ عيّرتني ، أبِالذي كنت أحمل به الطعام إلى رسول الله ﷺ ، وهو في الغار ، أم بنطاقي الذي تنتطق الحُرّة بمثله في بيتها ، أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يكون في ثقيف مُبير وكذّاب» ، فأمّا الكذّاب فقد رأيناه ، وأمّا المبير فأنت هو ، فانصرف وهو يقول : مبير المنافقين ، مبير المنافقين ، قالت : بل عمودهم .

قالوا : وكتب الحجاج إلى عبد الملك يسأله أن يبعث إليه بعُروة بن الزبير ، وكان عروة بن الزبير قد شخص إلى عبد الملك حين قُتل أخوه وذَكَر أنّ أموال عبدالله عنده ، فلما وصل الكتاب إليه قال للحَرَسيّ : خذ بيده ، وكان عروة في مجلسه، وقد آمنه فقال عروة: ما على هذا أتيتك؟! فقال: لابدّ

١ - يتوذف : يقارب الخطو ، ويحرك منكبيه متبخترا ، أو يسرع . القاموس .

من الحجاج فنهض عروة وهو يقول : ليس الذليل من قتلتموه ، ولكنّ الذليل من مَلكتموه ، فاستحيا عبد الملك وقال للحرسيّ : خَلِّ عنه ، وكتب إلى الحجاج ينهاه عن الكتاب فيه فكفّ عنه ، وكانت أمّ عروة أيضاً أسماء .

المدائني عن عبدالله بن فائد، قال: ركب عروة ناقة لم يُدْرَك مثلها، فقدم الشام قبل قدوم رسل الحجاج بقتل عبدالله بن الزبير على عبد الملك ، فأتى باب عبد الملك فاستُؤذن له ، فلما دخل سلّم عليه بالخلافة فردّ عليه عبد الملك ورحّب به وعانقه وأجلسه على السرير ، ثم قال عروة :

نَمُتُّ بِأَرْحامٍ إلَيْكَ قَريبَةٍ ولا قُرْبَ لِلأَرْحامِ ما لم تُقَرَّبِ

ثم تحدّث حتى جرى ذكر عبدالله ، فقال عروة : إنّ أبا بكر بانَ ، فقال عبد الملك : وما فعل ؟ قال : قُتل رحمه الله ، فخرّ عبد الملك ساجداً ، فقال عُروة : فإنّ الحجاج صلبه فهَبْ جثّته لأُمّه ، قال : نعم ، وكتب إلى الحجاج يُعظم ما بلغه من صلبه ، وكتب إليه إيّاك وعروةَ فقد آمنتُه فكان مسيره من الشام راجعاً إلى مكة ثلاثين يوماً ، فأنزل الحجاج جثّة عبدالله عن خشبته ، وبعث بها إلى أمّه فغسلته فلما أصابه الماء تقطّع ، فقال : قيل لي في المنام يا أُمّ المقَطَّع ، فكنت أظنّه المُنْذِرَ لأنّه جُدّع بالسيوف ، ولم أظنّه ابني فغسلتْه عضواً عضواً فاستمسك ودفنته ، وصلّى عليه عروة .

المدائني عن عامر بن حفص ، قال : صلب الحجاج ابن الزبير وقرن به كلباً ميتاً .

قال : وكتب الحجاج في عُروة إنّ عروة كان مع أخيه ، فلما قُتل عدوّ الله أخذ مالاً من مال الله ، وهرب فكتب إليه عبدالملك : إنّه لم يهرب ولكنّه

أتاني مبايعاً ، وقد آمنتُه وحَلَلْتُه ممّا كان ، وهو قادم عليك فإيّاك وعروةَ فعاوَدَه ، فكتب إليه أُعرِضْ عنه ولا ترادِّني فيه .

المدائني ، قال:قال عوانة : أكثر الحجاج الكتبَ في عروة حتى همّ عبد الملك أن يُشخصه إليه ، فقال عروة : ليس الذليل من قتلتموه ، ولكنّه من ملكتموه .

قال أبو الحسن المدائني : ويقال إنّ عروة قال : ليس بِمَلوم من صبر حتّى مات كريماً ، ولكنّ الملوم من خاف من الموت ، وسمع مثل هذا الكلام فقال : لن تَسمع أبا عبدالله منّا شيئاً تكرهه .

قال عامر بن حفص : ووفد عروة مع الحجاج فقال يوماً : قال أبو بكر ، فقال الحجاج : لا أُمّ لك أتكني منافقاً عند أمير المؤمنين ، فقال له : أَلِي تقول لا أُمَّ لك ، وأنا ابن عجائز الجَنّة ، أُمّي أسماء بنت أبي بكر الصدّيق ، وجدّتي صفيّة بنت عبد المطّلب ، وخالتي عائشة وعمّتي خديجة بنت خُوَيْلِد ؟!

وقال الواقدي في بعض روايته : ركبت أسماء دابّتها ووقفت على ابنها مصلوباً ، فقالت : لأُثْنِيَنَّ عليك بعلمي لقد قتلوك مسلماً مُحْرِماً ظَمآنَ الهواجرِ ، مصلّياً في ليلك ونهارك ، ودعت له طويلاً وما تقطر من عينها قطرة ، ثم انصرفت وهي تقول : من قُتل على باطل ، فلقد قُتِلْتَ على حقّ ، وأنت مَنيع بسيفك فلا تبعَدْ .

وفي بعض رواية الواقدي : أنّ الحجاج وقف على أسماء فقال : كيف رأيتِ نصر الله الحقَّ ؟ قالت : إنّه ربّما أُديل الباطل على الحقّ ليجعل الله ذلك فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، قال : إنّ ابنك ألحد في البيت ، وقال الله :

﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بالحاد بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[١] وقد أذاقه الله ذلك العذاب ، قالت : كذبت لقد كان أوّل مولود في الإسلام بالمدينة ، فسُرّ به المسلمون ، وكبّروا يومَ وُلد ، ولقد سُررتَ أنت وأصحابك بقتله ، فلَمن فرح به يومئذ خير منك ومن أصحابك ، ولقد كان صوّاماً قوّاماً تعوّذ بالبيت فما أعذتموه وانتهكتم حرمته ، يا بن أُمّ الحجاج إنّ الله للظالمين بمرصاد ، وبلغ عبد الملك ما جرى بينه وبين أسماء فكتب إليه : ما لك ولابنة الرجل الصالح .

وقال الواقدي : شخص عروة مستأمناً إلى عبد الملك ، وكان له صديقاً ومجالساً في مسجد المدينة أيّام تنسّك عبد الملك ، فآمنه عبد الملك وطلبه الحجاج منه ، فأراد أن يبعث به إليه ، ثم تذمم فتركه وأرسل معه رسولاً إلى الحجاج في ترك التعرّض له ، وأن لا يراجعه فيه بكتاب وأن يُنزل عبدالله من خشبته ، ويخلّي بين أهله وبين دفنه ، فأُنزل وصلّى عليه عروة .

قال الواقدي : وقد سمعت أنّه أُنزل وعُروة غائبٌ ، فصلّى عليه غيره ، والأوّل أثبت .

قال الواقدي : وأمّا أبو الزناد فكان يقول : حال الحجاج بينهم وبين الصلاة عليه وقال : إنّما أمر أمير المؤمنين بإنزاله ودفنه .

وحدثني هشام بن عمّار قال : حُدّثت عن الزُبيري عن الزهري أنّه قال : كان من أعظم ما أُنكر على عبدالله بن الزبير تَرْكُهُ ذكر رسول الله ﷺ في خطبته ، وقوله حين كُلِّم في ذلك: إنّ له أُهَيْلَ سُوءٍ إذا ذُكر استطالوا ومدّوا أعناقهم لذكره .

---

١ ـ سورة الحج ـ الآية : ٢٥ .

وقال الواقدي : قُتل مع عبدالله بن الزبير عروة بن عبدالله بن الزبير ، ومعاوية بن المنذر بن الزبير ، وحمزة بن الزبير ، مات من جِراح أصابته ، وعبدالله بن صفوان بن أُميّة الجُمَحي ، وعبدالله بن مُطيع العَدَوي ، مات من جراح بعد المعركة ، وصلّى الحجاج عليه ، فقيل أتصلّي عليه وأنت قتلته ؟ فقال : أتدرون ما قلت ، إنّما قلت : اللهم إنّه كان يعادي أولياءَك ويوالي أعداءك فأَصْلِهِ النارَ ، وعُمارة بن عمرو بن حزم الأنصاري ، وبعث الحجاج برؤوس : عبدالله بن الزبير ، وعبدالله بن صفوان ، وعُمارة بن عمرو بن حزم إلى المدينة ، فنُصبت بها ، ثم أُنفذت إلى عبد الملك ، فلما رأى رأس ابن صفوان قال : ألم يكن أعرج حائنا(1) ؟.

وقال جابر بن عبدالله الأنصاري لعبد الله بن عُمير بعد مقتل ابن الزبير : كيف أنت يا أبا عاصم ؟ فقال : بِخَيْرٍ مِن رجل قُتل إمامُه وظهر عليه عدوّه ، فقال جابر : اللهم ﴿لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾(2) .

المدائني في اسناده ، قال : نظر ثابت بن عبدالله بن الزبير إلى أهل الشام فشتمهم، فقال له سعيد بن خالد بن [عمرو بن] عثمان بن عفّان: إنّما تُبغضهم لأنّهم قتلوا أباك ، قال : صدقت لقد قتلوا أبي ، ولكنّ المهاجرين والأنصار قتلوا أباك .

وقال الواقدي : لما فرغ الحجاج من أمر ابن الزبير ، كنس المسجد الحرام من الحجارة والدم ، وأتته ولاية مكة والمدينة ، وكان عبدالملك حين

---

١ ـ الحائن : الأحمق ، والحائنة : النازلة المهلكة . القاموس .
٢ ـ سورة يونس ـ الآية : ٨٥ .

بعثه لقتال عبدالله بن الزبير عقد له على مكة ، ولكنه أحبَّ تجديد ولايته إيّاها ، فشخص الحجاج إلى المدينة واستخلف على مكة عبدالرحمن بن نافع بن عبدالحارث الخُزاعي ، فلما قدم المدينة أقام بها شهراً أو شهرين فأساء إلى أهلها واستخفّ بهم ، وقال : أنتم قَتَلَةُ أميرِ المؤمنين عثمان ، وختم يدَ جابر بن عبدالله برصاص وأيدي قوم آخرين كما يُفعل بالذِمّة ، ثم عاد فبنى الكعبة على ما هي عليه اليوم وذلك لوِرود كتاب من عبدالملك عليه في ذلك ، وغيّر بناءها الذي بناها عليه عبدالله بن الزبير بعد حصاره الأوّل ، فكان عبدالملك يقول بعد ذلك : لوددت أنّي قلدت ابنَ الزبير من أمر الكعبة ما تقلّد ، وكان المتولّي لبنائها والنفقة عليها عبدالرحمن بن نافع ، ويقال : إنّه كتب إلى عبدالرحمن من المدينة أن يأخذ في بنائها ، فابتدأه ثم قدم الحجاج مكة فاستُتِمّ بحضرته .

وقال الواقدي : استخلف نافعَ بن علقمة الكناني، خال مروان ، ولما رجع إلى مكة استخلف على المدينة عبدالله بن قيس بن مَخْرَمَة بن المطّلب بن عبدمناف ، وكان إليه القضاء .

ورُوي : أنّ الحجاج لما فرغ من أمر ابن الزبير وبناء الكعبة شخص إلى عبدالملك واستخلف على مكة عبدالرحمن بن نافع ، وعلى المدينة عبدالله بن قيس ، وأشخص معه محمد ابن الحنفيّة بأمر عبدالملك ، فأمره أن لا يكون له عليه أَمْرٌ وردّه مُكْرَماً ، وسأله عمّن استخلف بالمدينة فقال : عبدالله بن قيس ، فقال عبدالملك : استخلفَته مِن أحمق أهل بيت مِن قريش ، ثم رجع الحجاج بعد ذلك فلم يزل واليّاً على الحجاز حتى أتته ولايته على العراق حين مات بِشْر بن مروان بالبصرة .

وقال قوم : كان الحجاج قد وفد إلى عبدالملك ، فأتاه نعيّ أخيه وهو عنده ، فولّاه العراق ، فشخص من الشام إلى الكوفة ، وذلك في سنة خمس وسبعين ، وولّى عبدالملك مكة عبدالرحمن بن نافع أقرّه عليها ، وولّى المدينة يحيى بن الحَكَم بن أبي العاص ، ثم بعده أبان بن عثمان بن عفان .

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي في اسناده قال : لما خرج الحجاج من المدينة قال:الحمد لله الذي أخرجني من أم نَتْن ، أهلها أخبث أهلٍ ، أَغَشُّه لأمير المؤمنين وأحسده له على نعمته ، والله لولا ما كان يأتيني مِن كُتُب أمير المؤمنين فيهم لجعلتها مثل جوف الحمار أَعْوادٌ يعوذون بها ، ورِمَّة قد بلِيَت ، يقولون منبر رسول الله وقبر رسول الله ، فبلغ جابر بن عبدالله قوله فقال : إنّ أمامه ما يسوءه ، قد قال فرعون ما قال ، ثم أخذه الله بعد أن أَنْظَره .

وقال المدائني : لما قتل الحجاج ابنَ الزبير دخل المسجد فصلّى ركعتين ، ثم وقف على ابن الزبير فرآه صريعاً فأمر به فصُلب منكّساً ، قال : وكان الحجاج رأى كأنّه أَخذ ابنَ الزبير فسلخه ، ويقال : بل رأى أنّه نكحه ، فذلك كان سبب تولية عبدالملك الحجاج حَرْبَه .

قال : وقال ابن الزَبير يوم قُتل انا ابن اثنتين وسبعين سنة وأشهرٍ ، ثم قاتل وهو يقول :

أنا آبْنُ أَنْصارِ النبِيِّ أَحْمَدِ عَبْدِ الإلٰهِ والرَسولِ المُهْتَدِي
أَضْرِبُ مِنْهُمْ كُلَّ وَغْدٍ قُعْدُدِ

قال : وقاتل عروة يوماً فقال :

أَبَى الحَــوارِيّـون إلّا مَجْـدا مَنْ يُقْتَلِ اليَوْمَ يُلاقِ رُشْدا

وقال ابن الزبير :

فما مِيتَةٌ إنْ مِتُّها غَيْرَ عاجِزٍ بعارٍ إذا ما غالَتِ النّفْسَ غُولُها
أَرَى المَوْتَ يَغْشاني عِيانا وإنَّما رَأَيْتُ مَنايا الناسِ يَشْقَى ذَليلُها

قالوا : وأخّر الحجاج الصلاة يوماً فقال ابن عمر : إنّ الشمس لا تنتظرك . ووطىء ابنُ عمر زُجّ رمح ، فكان ذلك سبب موته فقال الحجاج : مَن بك ؟ قال : أنت قتلتني وأصحابُك .

وقال النَهْشَلي

نَحْنُ وَفَيْنا مَقْتَلَ الإمامِ بِآبْنِ الزُبَيْر وبَني هِشام
حتى جَعَلْناهُمْ مَعَ الحَمامِ بَيْنَ مُصَلَّى النـاسِ والمَقام

المدائني عن عامر بن حفص وغيره ، قالوا : قاتل عَطاء بن أبي رَباح مع ابن الزبير .

قالوا : وقال عروة لعبدالله : قد دعاك هؤلاء القوم إلى الأمان وخيروك نزول أيّ بلد شئت من البلدان ، وخيّروك من الولاية ما أحببت ، وقد صالح الحسنُ فكُنْ مثله ، قال : أفلا أكون مثل الحسين مات كريما .

قالوا : وكتب ابن الزبير بعد مقتل مصعب إلى أهل العراق يدعوهم إلى طاعته وبعث بكتابه إليهم مع رجل من الأنصار ، فرُفع ذلك إلى بِشْر بن مروان فأخذ الأنصاريَّ فقتله ، وكان هذا الأنصاري نازلاً على نُعيم بن القَعْقاع بن معبد بن زُرارة بن عُدُس وكان نُعيم يذمّ بشرا وينسبه الى الفسق والأفَن ، ويقرّظ ابن الزبير ، ويدعو إلى طاعته سرّاً ؛ ويقال : إنّه كان مع الأنصاري كتاب من ابن الزبير إليه في معاونته على أمره ، فَسَعى بالأنصاري

وبنُعيم إلى بشر بن مروان حَوْشب بن يزيد بن الحارث بن يزيد بن رُويم الشيباني فقتله وقتل الأنصاريَّ .

وقال بعض الرواة : سعى بهما يزيد بن الحارث نفسه ، وذلك غلط ، لأنّ يزيد قُتل بالرَيّ في أيّام مصعب ، قتله الزُبير بن عليّ الحارثي .

وبعث بشر بالكتاب الذي كتبه ابن الزبير إلى عبدالملك ، فكتب إلى الحجاج ، والحجاج بالطائف أنْ سِرْ إلى ابن الزبير فآنزل معه وأشْغِله ، فقدم مكة وحصره ورماه بالمنجنيق .

وقال جوّاس بن القعطل الكلبي :

إنَّ الخِلافَةَ يا أُمَيَّةُ لم تَكُنْ أَبـداً تَدُرُّ لِغَيْـرِكُمْ ثَدْيـاهـا
فخُذوا خِلافَتَكُمْ بِأَمْرٍ حازِمٍ لا يَحْلُبَنَّ المُلْحِـدونَ صَراها
سيروا الى البَلَدِ الحَرامِ وشَمِّرُوا لا تُصْلِحوا وسِواكُمُ مَوْلاها
لا تَتْـرُكُنَّ مُنـافِقِـينَ بِبَلْدَةٍ إلَّا أَمَلْتُمْ بِالسُيوف طُـلاها

قالوا : ووجد الحجاج في بيت مال ابن الزبير عشرة آلاف ألفِ درهم فأخذها .

وقال عبدالله بن زُهير بن أبي أميّة لابن الزبير : إنّ الناس قد خذلوك فإن أحببت أن نأخذ لك أماناً أخذناه ؟ فقال : خذ لنفسك أمانا إن أردت ، فأمّا أنا فلا حاجة لي في أمانهم ، وقال له الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة ، وهو القُباع : أما والله لو قبلت أمان القوم كان خيراً لك ممّا أنت فيه ، فقال : يا آبن آكِلَة حمام مَكّة أَلِي تقول هذا ، ويحك إنّ مَوْتاً في عِزّ خير من حياة في ذلّ ، وطلب عبدالله بن عمرو بن عثمان الأمان من الحجاج فأُومِن ، وأتى حمزة بن عبدالله وخُبيب بن عبدالله الحجاجَ ، فقال عبدالله لابنه الزبير :

إن أردت أن تذهب فاذهب فَلأنْ تَحيْوا أحبُّ إلي من أن تُقتلوا ، فقال : لَبِئسَ الولدُ أنا لك إنْ لم أُواسِكَ بنفسي حتى يصيبني ما أصابك ، فقُتل مع أبيه .

المدائني ، قال : قاتل غلام لابن الزبير ، أو مولى له ، وهو يقول :

العَبْدُ يَحْمي رَبَّهُ ويَحْتَمي

وقُتل ابن صفوان ، وحمزة بن الزبير ، وابناه عروة ، والزبير ، وأمّ عطاء بن أبي رباح من ضربة ضُرِبَتْها .

المدائني ، قال : لما بلغ عبدالملك مقتل ابن الزبير سجد ودعا بمَقَصّ فأخذ من ناصيته ، وأخذ من نواصي صغار أولاده ، وأخذ من ناصية رَوْح بن زِنباع ، وقال أنت منّا .

المدائني عن أبي طالب بن ميمون عن ابن أبي عَتيق ، قال : كان ابن الزبير مضطجعاً في المسجد وولدُه وأهل مكة يخرجون إلى الحجاج ، وأنا عند رِجْله فقال : ما هذه الأصوات ، أين يذهبون ؟ قلت : إلى الحجاج ، قال : فما يمنعهم أن يكفّوا أصواتهم فقد منعونا النومَ ، فقلت في نفسي : أتُراه جَادًّا ، ثم سمعت غَطيطه ؛ قال : ووقف الحجاج على جُثّة ابن الزبير ومعه نافع بن جُبير بن مُطعم ، فقيل لنافع : ما قال لك ؟ قال : أُريد صلبه ، فنَهَيْتُه .

وقال أبو دَهْبَل

أَتارِكةٌ عُلْيَا قُرَيْشٍ سَراتَها ... وساداتِها عند المَقام تُـذَبَّحُ
وهُمْ عُوَّذٌ بِالله جيرانُ بَيْتِهِ ... به مُعْصِمونَ أَنْ يُباحوا ويُفْضَحوا

المدائني ، قال : كتب عبدالملك إلى ابن عمر أَنْ بايعِ الحجاج فإنّ فيك خصالاً لا تصلح لك معها الخلافة ، منها : البخل ، والعِيّ ، فقال ابن عمر : ﴿سَمِعْنَا وأَطَعْنَا غفرانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرِ﴾ [1] يُعيّرني ابن مروان بالبخل والعي ، فوالله لو وليتُ فأَعطيت الناس حقوقَهم ما كان ذلك من مالي ، وما من قرأ كتاب الله وترك القول فيما لا يعنيه بعيي .

وقال جرير بن عَطِّية في ابن الزبير

دَعَوْتَ المُلْحِدينَ أبا خُبَيْبٍ جِماحاً هل شُفيتَ مِنَ الجماحِ [2]

وقال الراعي :

ما إنْ أَتَيْتُ أَبا خُبَيْبٍ راغباً أَبَداً أُريدُ لِبَيْعَتي تَحْويلا
ولا أَتَيْتُ نُجَيْدَةَ بْنَ عُوَيْمِرٍ أَبْغي الهُدَى فَيزيدُني تَضْليلاً [3]

وقال سليمان بن سلّام الحَنَفي :

إنّا دَعَوْنا سَميعاً فَٱسْتَجابَ لنا وما به حينَ يَدْعو العبدُ من صَمَمْ
أَراحَنا مِن بَني العَوّامِ إذْ قَسَطوا وٱسْتَخْلَفَ الله عَدْلاً مِن بَني الحَكَمِ
مُجَرَّبَ الوَقْعِ لا تَنْبُو مَضارِبُهُ يُمْسي العدُوُّ له لَحْماً على وَضَمٍ
بِٱبْنِ الزُبَيْرِ جُنونٌ لا شِفاءَ له إلاّ سُرَيْجيَّةٌ تَشْفي مِنَ اللَمَمِ
رامَ الأُمورَ فأَعْيَتْهُ مَطالِعُها حتّى أَحَلَّ بِرُكْنِ البَيْتِ والحَرَمِ
وغَرَّنا بِكِتابِ الله يَدْرُسُهُ ولَمْ يَدَعْ بَطْنُهُ تَمْراً لِمُجْتَرِمٍ
وغالَ أَعْطِيَةَ المِصْرَيْنِ يَأْكُلُها ولم يَخَفْ نَقْمَةَ الرَحْمنِ ذي النِقَمِ

في أبيات .

١ ـ سورة البقرة ـ الآية : ٢٨٥ .
٢ ـ ديوان جرير ص ٧٨ .
٣ ـ ديوان الراعي ص ٢٣٣ مع فوارق .

المدائني ، قال : قال ابن عمر : أهل الحجاز أسرع الناس إلى فتنة ، وأهل الشام أطْوع الناس لمخلوق في معصية الخالق ، وأهل العراق أسأل الناس عن صغيرة ، وأَرْكَبُهم للكبيرة ، يسألون عن قتل جرادة وقد قتلوا ابن بنت نبيهم .

وتزوج عبد الله بن الزبير أم الحسن بنت الحسن بن عليّ وعائشة بنت عثمان بن عفّان ، فولدت بكرا ؛ وتزوج قَهْطَم بنت منظور فولدت حمزة ، وخُبيبا ، والزبير ، ومنذرا ، وثابتا ، وعبّادا ؛ ثم خلف على أُختها أمّ هاشم ؛ وتزوّج رَيْطَة بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فولدت له عبد الرحمن ؛ وتزوّج حَنْتَمة بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فولدت له موسى ، وعامرا . وسوّدت أم الحسن وجواريها على عبد الله حين قُتل .

أمر الخوارج
فيما بين موت يزيد بن معاوية
وولاية عبد الملك بن مروان

الأزارقة ومقتل نافع

قالوا: كان نافع بن الأزرق من بني حنيفة، ويقال: إنه كان مقيما معهم فنسب إليهم، وكان يكنى أبا راشد، وكان مع نجدة بن عامر ففارقه.

حدثني حفص بن عمر عن الهيثم بن عدي قال: كان نافع مع نجدة بن عامر، فأحدث المحنة، وقتل في السر، فعابت ذلك الخوارج وقالوا: أحدثت مالم يكن عليه السلف من أهل النهروان وأهل القبلة، فقال: هذه حجة قامت علي لم تقم عليهم، ففارقه الخوارج، فسموا أهل الوقوف، لأنهم وقفوا عند الشبهة. وكان ابن الأزرق ممن حبس من الخوارج، فَدُلّ ابن زياد علي رجل اتهم برأي الخوارج فحبسه، فقال له نافع: لم حبسك ابن زياد؟ قال حبسني في ظنة الحرورية لعنهم الله ولعن من كان على دينهم، فقال له نافع أنت والله ظالم مظلوم ولم يزل نافع محبوسا حتى مات يزيد بن معاوية وهرب ابن زياد.

وقال أبو الحسن علي بن محمد المدائني: بايع أهل البصرة ابن زياد بعد موت يزيد، وفي السجن أربعمائة من الخوارج، فكلم فيهم ابن زياد

فأخرجهم فأفسدوا الناس حتى نكثوا بيعته، فتحول عبيد الله بن زيادإلى الأزد، وأقبل الخوارج يأتون المربد كل يوم فيقفون به فيعيبون الظلم ويدعون إلي قتال السلطان والجبابرة وليس لهم رأس منهم، حتى قتل مسعود الأزدي، وحاربت الأزد وبكر تميما، ثم أمروا عليهم نافع بن الأزرق، وأمر الناس يومئذ بالبصرة إلي عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، الذي يعرف بِبَبَّة، وخرجوا إلى الأهواز في آخر شوال سنة أربع وستين، فتوافوا بالأهواز وهم ثلاثمائة وخمسون فيهم نجدة بن عامر بن عبد الله بن سيار بن المطرح بن ربيعة من بني حنيفة وبنو الماحوز التميميون ثم السليطيون فأخرجوا عمال الأهواز، وأقاموا شهرا لايهيجون أحدا، وليس بينهم اختلاف، ثم إن مولى لبني هاشم كلمهم فقال: إن الإستعراض وقتل الأطفال لنا حلال، فمال نافع بن الأزرق إلى مقالته فقال: ﴿اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾[1] ورأى قتل الأطفال [وقال بالاستعراض] وتأول قول الله تعالى: ﴿إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولايلدوا إلا فاجرا كفارا﴾[2] وضيق التقية لقول الله عز وجل ﴿فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس﴾[3] وقوله ﴿يجاهدون في سبيل الله ولايخافون لومة لائم﴾[4] وبريء من القعد واستحل قتلهم تأولا لقول الله جل وعز: ﴿وجاء المعذرون من

---

١ ـ سورة التوبة ـ الآية: ٥ .
٢ ـ سورة نوح ـ الآية: ٢٧ .
٣ ـ سورة النساء ـ الآية: ٧٧ .
٤ ـ بالأصل: يقاتلون في سبيل الله، وهو خطأ. سورة المائدة ـ الآية: ٥٤ .

الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾[1]. وامتحن المهاجر وقال لايحل لنا مناكحة قومنا ولا موارثتهم ولا أكل ذبائحهم، والدار دار كفر.

فخالف نجدة نافعا، فقال نجدة: البقية واسعة، والمقام في دار الكفر حلال، وليس لنا أن نمتحن من جاء مقرا بالإيمان، فبايع نجدة قوم فصار نجدة إلي اليمامة، وبريء وأصحابه من نافع بن الأزرق ونزل بإباض[2]، وكان أبو طالوت سالم بن مطر بالخضارم[3] وقد بايعه قوم فخلعوه وبايعوا نجدة.

وأبـو طالوت في قول ابن الكلبي مطر بن عقبة بن زيد بن جهينة بن الفِنْد، وهو سهل بن شيبان. قال: ويقال سالم بن مطر، وقد قال غيره: هو سالم بن مطر مولى بني زمان.

وقال الهيثم: هو حنفي.

وكتب نجدة إلي نافع كتابا يدعوه فيه إلي معاودة ماكان من قوله الأول وترك ما أحدث وقال: إنه قد قعد على عهد رسول الله ﷺ قوم فلم يكفروا، وأنزل الله جل وعز: ﴿لايستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله﴾ إلى قوله ﴿وكُلاً وعد الله الحسنى﴾[4] فكتب نافع

١ ـ سورة التوبة ـ الآية: ٩٠.

٢ ـ إباض: اسم قرية بالعرض، عرض اليمامة، لها نخل لم ير نخل أطول منها. معجم البلدان.

٣ ـ الخضارم: واد بأرض اليمامة، أكثر أهله بنو عجل، وهم أخلاط من حنيفة وتميم، ويقال له جو اليمامة. معجم البلدان.

٤ ـ سورة النساء ـ الآية: ٩٥

إلى نجدة كتابا يقول فيه إن المؤمنين من أهل مكة كانوا يومئذ مقهورين لايستطيعون أن يعلنوا دينهم، وقد أظهر الله الدين، وقمع النفاق، وقد قعد قوم على عهد رسول الله ﷺ فسماهم كفارا فقال جل وعز: ﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ وقال حين شكوا الضعف فقالوا:كنا مستضعفين في الأرض: ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾[1].

وكتب نافع إلى عبد الله بن الزبير يدعوه إلى أمره ويقول له: إنك تتولى عثمان، وكان أبوك وعلي وطلحة أشد الناس عليه حتى قتل، وأنت تتولى أباك وطلحة فكيف تجتمع ولاية قاتل ومقتول في دين الله، وقد بايع أبوك وطلحة عليا، ثم نكثا بيعته وحارباه فاتق الله الذي إليه المصير ولاتتول الظالمين.

وكتب نافع إلي من بالبصرة من الحرورية يدعوهم إلي الجهاد، ويرغبهم فيه، ويحذرهم الدنيا وغرورها، وينهاهم عن القعود، فلما أتاهم الكتاب قال أبو بيهس هيصم بن جابر الضبعي بقوله: في أن الدار دار كفر والإستعراض مباح وإن أصيب الأطفال فلا حرج على من أصابهم.

وقالت الصفرية وهم أصحاب عبيد الله بن قَبِيص، ويقال إنهم أصحاب عبيد الله بن صفار التميمي، وإنما سموا صفرية لصفرة وجوههم: لايحل قتل الأطفال تعمدا، ولا الإستعراض، وقال نصر بن عاصم الليثي:

فارقت نجدة والذين تزرقوا   وابن الزبير وشيعة الكذاب
والصفر الآذان حين تخيروا   دينا بلا علم ولا بكتاب

---

١ ـ سورة النساء ـ الآية: ٩٧ .

وقال عبد الله بن إباض: القوم كفار بالنعم، وليسوا بمشركين، فقال له ابن بيهس أما نافع فغلا في الدين فكفر بغلوه، وأما أنت فقصرت فكفرت بتقصيرك، إن آخر هذا الأمر كأوله وعدونا كعدو رسول الله ﷺ، وقد تحل لنا التقيّة ومناكحة قومنا وموارثتهم لما تمسكوا به من الدعوة وكفروا بما أنزل من الأعمال.

قال:فأقام نافع بالأهواز، ونجدة باليمامة، وكتب ابن إباض والصفرية إلى نافع ينكرون عليه شهادته على القعد بالكفر، واستحلاله المال قبل المحاربة، وقتل الأطفال، وما كان عنده من أمانة، وقالوا: إنما أحل لرسول الله ﷺ دماء عدوه وأموالهم إذا ناصبوا القتال، فأما على وجه الأمانة وقبل الحرب فلا، قد قتل رسول ﷺ كعب بن الأشرف في داره فلم يغنم ماله والأمانة مؤداة إلى البر والفاجر.

وحدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي قال:حدثنا وهب بن جرير عن أبيه ان أصحاب نافع بن الأزرق ونافعا خرجوا بعد مقتل مسعود بن عمرو الأزدي إلى الأهواز فغلبوا عليها، فبعث إليهم عبيد الله بن عبيد الله بن معمر، وكان خليفة أخيه عمر بن عبيد الله بن معمر، أخاه عثمان بن عبيد الله في جيش، فلقيهم بدولاب، وهي قرية دون سوق الأهواز، فقتل عثمان، وهزم جيشه وقتل منهم ناس كثير.

وحدثني أبو خيثمة وأحمد بن إبراهيم قالا: حدثنا وهب بن جرير عن محمد بن أبي عيينة عن سبرة بن نَخْف ان ابن الأزرق خرج في أربعين وصار إلى دولاب، فبعث إليهم عبيد الله أخاه عثمان في سبعة آلاف من أهل البصرة فهزموا جنده وقتلوه فقال ابن سهم التميمي.

فلو شهدتنا يوم دولاب أبصرت طعان امريء في الحرب غير سؤوم
غداة طفت في الماء بكر بن وائل وعجنا صدور الخيل نحو تميم

وحدثني أبو خيثمة وأحمد قالا: حدثنا وهب عن أبيه إن أهل البصرة بعثوا إليهم جيشا بعده عليهم حارثة بن بدر الغداني فلما نظر إليهم عرف أنه لاطاقة له بهم فقال لأصحابه:

كرنبوا ودولبوا وحيث شئتم فأذهبوا

وانتدب في الجيش القراء، والفقهاء والأغنياء، والفقراء، وأنفقوا أموالهم، واستعملوا عليهم مسلم بن عبيس الكريزي.

وقال المدائني: لما بلغ أهل البصرة قول نافع بن الأزرق، وما دان به من القتل والإستعراض فزعوا إلى الأحنف بن قيس فقالوا: ليس بيننا وبين هذا العدو إلا ثلاث ليال، وقد جرد السيف، وعاث في الأرض، فقال الأحنف: حكمهم في مصركم كحكمهم في سوادكم، فاستعدوا لجهادهم وحض الأحنف الناس فتسارعوا إليه، واجتمع عشرة آلاف فكلم وجوه أهل البصرة عبد الله بن الحارث ببة، فأمر عليهم مسلم بن عبيس بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس فخرجوا في جمادي الآخرة سنة خمس وستين، فلما كانوا بجسر البصرة قال لهم مسلم: أيها الناس إنا لسنا نخرج بالذهب ولا بالفضة، إنما نسير إلى قوم إن ظهرنا عليهم كانت غنائمهم أطراف الأسنة، وإنما يقدمون على الموت ويلقون المنايا، فمن أحب المضي فليمض ومن كرهه فلينصرف من قريب، فتفرقت عنه جماعة، وخرج فيمن بقي معه، فلقي نافعاً بالأهواز، ونافع في ستمائة، فاقتتلوا فقتل مسلم بن عبيس، وقد كان قال لأصحابه: إن قتلت فأميركم ربيع بن عمرو الغداني، وهو

الأجذم جذمت يده بكابل مع عبد الرحمن بن سمرة، فقاتل نافعا وأصحابه بدولاب فكانت بينهم قتلى، وقتل رجال من بني تميم قدموا على الخوارج، وقتل رجال من بني سدوس فَزَمَّرَهُم رجل من بني سدوسٍ وقال: يابني سدوس مابال هؤلاء أَجَدُّ في باطلهم منكم في حقكم، أراهم سراعاً إلى النار وأنتم بطاء عن الجنة، وحمل وكسر الناس، فقتل نافع بن الأزرق وقام بأمر الخوارج حين قتل ابن الأزرق عبيد الله بن بشير بن الماحوز السليطي، فقاتلهم ربيع بن عمرو عشرين يوما، ثم قتل وأخذ الراية الحجاج بن ناب بعد أن طلب إليه في أخذها فلم يفعل، وقال: إنها مشؤومة، فقاتل الحجاج بن ناب حتى قتل، وأخذ الراية بعده حارثة بن بدر الغداني.

وقال هشام بن محمد الكلبي: قول من قال حارثة بن بدر غلط، إنما هو حارثة بن بدر بن ربيعة بن بدر بن سيف بن جارية بن سليط بن الحارث بن يربوع، وهو الذي قال:

كرنبوا ودولبوا وحيث شئتم فأذهبوا

وجاءت خيل المحكمة من ناحية اليمامة، تكون أربعين، ويقال مائتين، فمشي ابن بدرٍ برايته القهقرى، وعدل نحو دجيلٍ فغرق يومئذٍ دغفل بن حنظلة أحد بني شيبان، وصار ابن بدر بناحية نهر تيري، ولم يتبعه الخوارج لما بهم من الجراح، وأقام عبيد الله بن بشير بن الماحوز بالأهواز ثلاثة أشهر، فقال صالح بن عبد الله العبشمي:

لعمرك إني في الحياة لزاهد وفي العيش ما لم ألق أم حكيم
لعمرك إني يوم ألطم وجهها لمستسرع في الغي غير حليم
رأت فتية باعوا من الله عهدهم بجنات عدن عنده ونعيم

فلو شهدتني يوم دولاب أبصرت طعان امرىءٍ في الحرب غير مليم
غداة طفت في الماء بكر بن وائل وألفافها من يَحْمَدٍ وسليم
ومال الحجازيون نحو بلادهم وعُجْنا صدور الخيل نحو تميم
وكان بعبد القيس أول حدها وولَّتْ شيوخ الأزد ثم تعوم
فلم أر يوما كان أكثر مقعصا يمج دما من كاظم وكليم

قالوا: وكان على الأزد يوم ابن عبيس قبيصة بن أبي صفرة، جد هزار مرد، وقال بعض الشعراء:

يرى من جاء ينظر في دجيل شيوخ الأزد طافية لحاها

وقال الشاعر يرثي مسلم بن عبيس والحجاج بن ناب الحميري:

ألا يا عين ويحك أسعديني بدمعك ليس ذا حين الجمود
على النفر الأُلى قتلوا جميعا بدولاب علي دين المجيد
هم صبروا على حر المنايا ولما يرهبوا جمع الجنود
ثوى ابن عبيس الماضي حميداً إله الناس صَلِّ على الشهيدِ
إذا نسبت قريش كان فرعا قديم العز في البيت المشيد
وما أُلْفَوا ربيعا ثَمَّ نكسا ولا رعديدة عند الورود
غلام من غدانة في ذراها بحيث الناس في الحسب التليد
وحجاج بن ناب غادرته رماح القوم ملقى بالصعيد
غلام حميري لم يخنه قراف الأمهات ولا الجدود

وقال بعض الخوارج في مقتل نافع بن الأزرق:

شِمْتَ ابن بدر والحوادث جمة والجائرون[1] بنافع بن الأزرق

---

١ - بهامش الأصل: ويروى «والحائرون».

قد مات غير مداهن في دينه ومتى يُمَرُّ بذكر نار يصعق
والموت حتم لامحالة واقع من لايصبحه نهارا يطرق
فلئن أمير المؤمنين أصابه ريب المنون فمن يصبه يعلق

وقالت عمرة أم عمران بن الحارث الراسبي وكان عمران بن الحارث الراسبي مع ابن الأزرق فقتل:

الله أيد عمراناً وأسعده وكان عمران يدعو الله في السحر
يدعوه جهرا وإسرارا ليرزقه شهادة بيدي ملحادة غُدُر
ولى صحابته التسعون إذ دهموا وشد عمران كالضرغامة الهَصِرِ
أعني ابن عمرة إذ لاقى منيته يوم ابن ناب يحامي عورة الدبر

في أبيات

قالوا: وقتل مع ابن الأزرق عوف بن أحمر الضُّبَعي فبكاه الحارث بن كعب الشني فقال:

أجيهان[1] قد أبلى عظامي وشفها وأسهر ليلي ذكر عون بن أحمر
فتى كان لايخشى سوى الله وحده ويطمع في معروفه كل مُعْتَرِ
يجاهد في الله ابن أحمر صادقا إذا ماارتضى بالجور كل مُقَصِّر

في أبيات:

وكان عوف ممن شهد النهر فاعتزل، ثم شهد النخيلة فنجا، فقتل مع نافع، وكان الحارث بن كعب الشَنِّي مع نافع فنجا، ثم أخذه الحجاج بن

---

١ ـ جيهان بالفارسية الدنيا.

يوسف بعد فقطع يديه ورجليه وصلبه، فطرق حرسه الخوارج ليلا فاستنزلوه، ولم يعرضوا للحرس حتى مضوا به فدفنوه.

حدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي قال:حدثنا وهب بن جرير عن محمد ابن أبي عيينة قال: حدثني معاوية بن قرة قال: خرجنا مع ابن عبيس ونحن نحو من عشرين ألفاً، فقام ابن عبيس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إنا إنما خرجنا حسبة، فمن كان منكم على مثل رأينا فلينهض معنا، ومن لايك على مثل رأينا فليرجع عنا، فحصلنا في ألفين فسرنا حتى لقيناهم بدستوا فاقتتلنا، فقتل منا خمسة أمراء، وكانت الحرورية خمسمائة، فلما أمسينا بقيت شرذمة نحو من ستين، وقتل ابن الأزرق وابن عبيس، قال: فقمنا وقاموا ينظرون إلينا وننظر إليهم ما منا رجل يبسط يده للقتال من اللغوب، فقال الناس: أمسكوا عنهم حتى يسود عليهم الليل، وقال بعضهم: لانقتلهم على غرةٍ، فاستقام رأيهم على تركهم حتى يصبحوا.

قال: وطرقهم مدد من اليمامة، وكان نافع يبقر النساء،ويقتل الصبيان.

وقال الهيثم بن عدي عن ابن عياش والمجالد ويونس بن أبي إسحق قالوا: قال الشعبي: خاف أهل البصرة نافع بن الأزرق وأصحابه حين جاؤوهم، فقربوا الإبل ليرتحلوا عنها، والمتولي لأمر البصرة إذ ذاك عبد الله بن الحارث ببة، وذلك عند هرب ابن زياد، وكان أهل البصرة كتبوا إلى عبد الله بن الزبير بارتضائهم إياه، فأقره سنةَ ثم عزله، وكان يكنى أبا محمد، فعقد ببة لمسلم بن عبيس، ووجه معه القراء والمستبصرين في قتال الحرورية، فأتوا دولاب، فاقتتلوا فقتل مسلم وقتل نافع أيضاً، فرأس أهل البصرة

عليهم ربيعا الأجذم، أحد بنى سليط ورأست الأزارقة عليهم عبيد الله بن الماحوز التميمي، فقتل الأجذم، فرأسوا عليهم الحجاج بن ناب الحميري حليف قريش فقتلا جميعا، فرأس أهل البصرة عليهم حارثة بن بدر، ورأست الحرورية الزبير بن الماحوز فقال حارثة بن بدر:

كرنبوا ودولبوا ياأهل البصرة وحيث شئتم فاذهبوا.

فلست لكم بصاحب، وقتل من أهل البصرة بشرٌ كثيراً فقال عبيد بن هلال:

لعمرك إني في الحياة لزاهد[1]

الشعر الذي قد كتبناه

وقال المدائني: الأزارقة لايكفرون من أهل الكبائر في دار هجرتهم إلا القاتل، فيقولون: القاتل قصد قطع الحجة لأن المسلم حجة.

وقال المدائني: حدث أبو عمران الجوني واسمه عبد الملك بن حبيب عن أبي الجلد جيلان بن فروة الجوني قال: أتاني نافع بن الأزرق قبل أن يخرج، فقال: أريد الخروج، فقلت: لاتفعل فقال: قد طال مقامنا بين هؤلاء الذين أماتوا السنة، وأحيوا البدعة، قال: فقلت له: أما إذ أبيت إلا الخروج، فإني رُوِيْت أن لجهنم سبعة أبواب باب منها للحرورية فاخرج إن شئت أو دع، فخرج إلى الأهواز.

المدائني عن عامر بن عبد الملك قال: جاء نافع بن الأزرق إلى مالك بن مسمع وعليه سيف عريض قصير، فقام إليه ابن مسمع فأخذ

١ ـ نسبه من قبل لصالح بن عبد الله العبشمي.

بحمائل سيفه فقال له: يامالك خل عن سيف ابن عمك، فقال مالك: يانافع ألا تعيننا على أمرنا هذا؟ فقال: إني لاأرى القتال معكم.

وروي عن الجارود بن أبي سبرة قال: خرج نافع إلى الأهواز فأقام وأصحابه سبعة أشهر لايستعرضون الناس وسيرتهم حسنة، ثم استعرضوا وبسطوا، فقتل نافع في جمادي الآخرة سنة خمس وستين، فقام بأمر الخوارج عبيد الله بن بشير بن الماحوز، وعلى أهل البصرة ربيع الأجذم.

المدائني عن هشام بن قحذم قال: خرج قوم من الأزارقة بموقوع[1]، فقيل لببة: إن بموقوع خوارج، فقال: دعونا نمسي ونرى رأينا، فأرسل إليهم خيلا ليلا فالتقطوا.

قال: ومات الأزرق أبو نافع، وكان رجلا سُنِّياً صالحاً، فقدم نافع من سفرٍ له وقد مات أبوه فلم يصل عليه وقال: دونكم صاحبكم، فلما بلغ ابن زيادٍ ذلك أخذه فحبسه، فقال لرجلٍ محبوسٍ معه: لأي شيءٍ حبسك ابن زياد؟ فقال أخذني بظنة الخوارج لعنهم الله، فقال نافع: هذا الظالم المظلوم يحبسه ابن زيادٍ ويشتم الخوارج.

قال: ولقي نافع اِمرأة على حمارٍ لها، وذلك في أيام الطاعون فقال لها: أين تريدين؟ قالت: أفر من الطاعون قال:ويلك أتفرين من الله على حمار؟!.

وقال سلامة الباهلي: قتلت نافعا فطالبتني بثأره امرأة كانت تدعوني إلى البراز ونحن نقاتل عبيد الله بن الماحوز.

---

١ ـ موقوع: ماء بناحية البصرة. معجم البلدان.

أمر عثمان بن عبيدالله ابن معمر في قتال ابن بشير ابن الماحوز

قالوا: أقام عبيد الله بن بُشَيْر بن الماحوز بالأهواز بعد مقتل مسلم وأصحابه ثلاثة أشهر، وهاب الناس بالخوارج وكره بية القتال، فلزم منزله فكتب أهل البصرة إلى ابن الزبير في ذلك، فكتب إلى أنس بن مالك في تولي الصلاة، فصلي أربعين يوما، ثم ولى ابن الزبير البصرة عمر بن عبيد الله بن معمر، وكتب إليه بعهده عليها وكان يريد العمرة، فقلد خلافته عبيد الله بن عبيد الله أخاه، وندب عمر بن عبيد الله لقتال الأزارقة وهم بالأهواز، أخاه عثمان، ويقال إن عبيد الله ندبه وبلغ الخوارج ذلك فأقبلوا من الأهواز يريدون البصرة، فقال حارثة بن بدر: ماعذرنا عند أهل مصرنا إن وصل إليهم الخوارج ونحن دونهم إليهم، فأقبل من نهر تيرى، وكان بها، فعبر دجيلا، وأقبل الخوارج فقاتلهم حتى رجعوا إلى دولاب، وقدم عثمان بن عبيد الله بن معمر في عشرة آلاف من أهل البصرة، فسار ومعه ابن بدرٍ إلى ابن بشير بن الماحوز. فلما التقى العسكران قال عثمان لحارثة بن بدر: أما الخوارج إلا من أتاني؟ فقال حارثة: حسبك هؤلاء، فقال: لاجرم لاأطعم

طعاما حتى أناجزهم، فقال حارثة: أذكرك الله إن هؤلاء لايقاتلون بالتعسف، فاستبق نفسك وجندك فقال: أبيتم يا أهل العراق إلا جبنا وماهؤلاء الأكلب، فقال حارثة: أنا أعلم بهؤلاء منك، فقال عثمان: أنت بغير الحرب أعلم، فغضب حارثة واعتزل، وناهضهم عثمان بعد الظهر فاقتتلوا حتى غابت الشمس، وقد قتل عثمان قتله ابن برز مولى عبد القيس، ويقال إنهم: تحاجزوا عند المساء، ثم بيتهم الخوارج فقتل عثمان، وقال حارثة: أيها الناس أنا حارثة بن بدر، فقاتل الخوارج ومنعهم من اتباع الناس، وبلغ قتل عثمان أهل البصرة وذلك في ذي القعدة سنة خمس وستين، ورجع الخوارج إلى الأهواز، ورجع حارثة إلى نهر تيرى فقال رجل يرثي عثمان بن عبيد الله، وكان مقتله بدولاب أيضاً:

ونال الشهادة منهم فتى بدولاب كالقمر الأزهر
طويل النجاد رفيع العماد كَهَمِّكَ من فارس مسعر
أطاع الكتاب رجاء الثواب وقاتل عن دبر المدبر
ليعذره الله والمسلمون ومعذرة الله للمعذر

في أبيات:

وقال رجل من بني تميم:

مضى ابن عبيس صابراً غير عاجز وأعقبنا هذا الحجازي عثمان
فأرعد من قبل اللقاء ابن معمر وأبرق والبرق اليمانيُّ خوَّان
فلم يُنْكَ عثمان جناح بعوضة فأضحى عداة الدين حربا كما كانوا
فلولا ابن بدر للعراقين لم يقم بما قام فيه للعراقين إنسان
إذا قيل من حامي الحقيقة أومأت إليه معد بالأكف وقحطان

قالوا: ثم عزل عبد الله بن الزبير عمر بن عبيد الله بن معمر، وولى البصرة الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، وهو القباع، سنة ستٍ وستين وحارثة بن بدر بنهر تيرى، فكتب إلى القباع يسأله توليته قتال الخوارج، وأن يمده بجيش فهم أن يفعل ثم أنشد فيه:

ألم تر أن حارثة بن بدر يصلي وهو أكفر من حمار
وإن المال يعرف من وعاه ويعرفك البغايا والغفار[1]

فكتب إليه القباع: أن اشخص إلى مصرك فإني مُوَلٍّ هذا الأمر غيرك، فقال: لاأبرح حتى يقدم من يقوم مقامي، فرفضه أصحابه، وقفلوا حتى بقي في عصيبة من قومه فقال: لاصحبكم الله:

كرنبوا ودولبوا وحيث شئتم فاذهبوا

وقال حارثة:

أير الحمار فريضة لنسائكم والخصيتان فريضة الأعراب
ولدى الموالي جلد أير أبيهم والأنثيان قلادة وسخاب[2]

ولما علم الخوارج خفة من مع حارثة قطعوا إليه دجيلا فبيتوه، وأتى دجيلا فركب سفينة ولحق به قوم من بني تميم فرسبت السفينة فغرقوا جميعا.

وقال المدائني: قال أبو أمية بن يعلى: ركب حارثة سفينة فجاء شكيم التميمي وقد دفع الملاح فناداه ياحارثة إن مثلي لا يُضَيَّع، فقال للملاح: أدن سفينتك فقربها إلى جرف فرمى بنفسه من الجرف وعليه سلاحه، فمالت السفينة ودخلها الماء فرسبت وغرقت، وغرق حارثة ومن معه.

١ ـ الغفار: القفا. القاموس.
٢ ـ السخاب: قلادة. بلا جوهر. القاموس.

قالوا:وأقام عبيد الله بن بشير بن الماحوز بعد غرق حارثة بنهر تيرى يجبي ماحوله، وبعث الزبير بن علي، وهو ابن عمه، إلى الفرات فجباه، وكان في جماعة، ثم إنه أتي الجسر الأكبر بالبصرة، فقطع الناس الجسر الأكبر فعقده، وعبر فصار بين الجسرين، وخرج الناس إليه في السفن وعلى الدواب، فلما انتهوا إليه خرج الناس من السفن فاسودت الأرض، فلما رأى كثرة الناس قال: أبى قومكم إلا كفرا، ورجع حتى عبر الجسر.

وفزع الناس إلى الأحنف بن قيس فأتى الأحنف القباع، فشكا إليه ما الناس فيه، فقال: أشيروا علي بمن أولي؟ فأشار قوم بمالك بن مسمع الجحدري،وأشار قوم بزياد بن عمرو العتكي، فقال الأحنف: لاأرى لهم غير المهلب، فكلم القباع المهلب وقال له: إن أهل مصرك قد ارتضوك ورجوك وأملوا أن يقمع الله هذا العدو بك، فقال المهلب: لاحول ولاقوة إلا بالله إني عند نفسي لدون ماقالوا، وقد ولاني أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير خراسان، وأمرني بأمر فأنا أكره ترك أمره، فقال الأحنف: ياأبا سعيد لو أتيت عملك لم تنتفع به مع هؤلاء لاطلاهم على مصرك ومن تخلف من أهلك، ونحن نكتب إلى أمير المؤمنين فيعفيك مما ولاك، وتكتب إليه فتستعفيه وتعلمه مارغبنا فيه إليك، فكتبوا وكتب فأجابهم ابن الزبير إلى ماسألوا، ويقال إنهم زوروا كتابا، واشترط المهلب أن ينتخب من أحب من المقاتلة فقالوا له: ذاك لك، وأن يكون والي كل بلد تغلب عليه، فقال له القباع: ذاك لك، ويقال: إنه سأل أيضاً خراج ماغلب عليه فقال له القباع: ذاك للمسلمين، فإن أخذته كنت وعدوهم سواء، ولكن لك مافضل من أعطيات أصحابك، فكتب له بما سأل كتاب وضع على يد الصلت بن حريث

الثقفي، فانتخب المهلب اثني عشر ألفا من جميع الأخماس، وعسكر بالجسر، وأعان المهلب الناس، واتخذ ألوية ورايات، وقاتل الخوارج فهزمهم، وعقد الجسر، وأمر أن لايتبعوا، فصاروا إلى نهر تيرى وانضموا إلى عبيد الله بن بشير بن الماحوز فقال رجل من الأزد:

أبا سعيد جزاك الله صالحة عن العراق ليالي الحرب تلتهب
والناس في فتنة عمياء مظلمة والدين مهتضم والمال منتهب
لولا دفاعك إذ حل البلاء بهم لأصبحوا عن جديد الأرض قد ذهبوا

وجبى المهلب خراج الفرات وغيره، وأعطى الناس وانضم إليه محمد بن واسع الأزدي الناسك، وأبو عمران الجوني، وعبد الله بن رياح الأنصاري، وكان معه معاوية بن قرة المري، ووعظ المهلب الناس فقال: هذا عدوكم الذي لاريبة في أمره، ولاتوقف عنه، وقد لقيهم قبلكم مسلم بن عبيس الصابر المحتسب، وعثمان بن عبيد الله بن معمر العجلي المفرط، وحارثة بن بدر العاصي المخالف فالقوهم رحمكم الله بصبر وعزم، وجعل المهلب على تميم الحريش بن هلال، وسار حتى نزل بنهر تيرى، وقد صار الخوارج إلى الأهواز، فجبى خراج السوس ومناذر، واستخلف أخاه المعارك، فبعث عبيد الله بن بشير إلى المعارك مولى لأبي صفرة يقال له فايد من سبي الجاهلية في خمسين من الخوارج، فيهم صالح بن مخراق، فقتلوا المعارك وصلبوه، فبعث المهلب ابنه المغيرة فأنزل عمه ودفنه، وسار المهلب فأتى سولاف من مناذر، وقد صار الخوارج إليها، فقاتلهم فكشف المهلب، وقتل عبد الرحمن الإسكاف مولى الأزد، ويقال من أنفسها، وكان فارسا رامياً، رمى طائرين فشكهما، فقيل خرزهما فسمي إسكافا فقال الشاعر:

بسولاف أضعت دماء قوم وطرت على مواشلة[١] درور

ثم إن بعض المنهزمة رجعوا، وأتى المهلب سِلَّى وسِلَّبْرَى وهما من مناذر الصغرى وقد ثاب الناس إليه، فأقام المهلب ثلاثا بسلى وسلبرى فقال عبيد الله بن بشير للخوارج: ماتنتظرون بعدوكم، فحاربهم المهلب ثلاثة أيام، وقاتل بيديه أشد قتال، وقدم ابنه المغيرة فقاتل ومر على القبائل يحضهم على القتال ويحرضهم، وأمر أصحابه أن يكثروا الرمي بالحجارة، فجعلت تصرع الراجل، وترد الفارس، فقتل عبيد الله بن بشير بن الماحوز، وكان أمره ستة عشر شهرا، وكان مقتله في شوال سنة ست وستين، وقتل من أصحاب المهلب أكثر ممن قتل من الخوارج وقام بأمر الخوارج الزبير بن علي بن الماحوز، وكان المهلب ربما افتعل الحديث ينشط به الناس إلى القتال فقال الشاعر:

أنت الفتى كل الفتى لو كنت تصدق ماتقول

وسماه بعضهم الكذاب وقال بعض الخوارج:

كم من قتيل تنقر الطير عينه بسولاف غرته المنى والجعائل

وقال مجاهد المنقري:

تبعنا الأعور الكذاب نمشي نزجي كل أربعة حمارا
فيا لهفي على تركي عطائي معاينة وأخذيه ضمارا
كأن دموع عينك يابن عصم خرير المنجنوق[٢] سقي الديارا

---

١ - وشل يشل وشلاً - سال أو قطر. القاموس.
٢ - المنجنوق: هو المنجنيق، القاموس.

وقال ابن قيس الرقيات:

ألمت وعرض السوس بيني وبينها ورستاق سولاف حمته الأزارقه
إذا نحن شئنا قارعتنا كتيبة حرورية فيها من الموت بارقة[1]

وقال بيهس بن صهيب:

بِسَلَّى وسِلَّبْرَى مصارع فتية كرام وعقرى من كميت ومن ورد

وقال آخر:

قل للأزارقة الذين تمزقوا بسلى وسلبرى لقيت نحوسا
قتل المهلب جمعكم وأخذتم من رسله بعد المساء رؤوسا

وكان المهلب بعث برأس عبيد الله بن بشير بن الماحوز ورؤوس قومٍ من أصحابه إلى القباع مع رسول له من الأزد، فلقيه بنو بشير فقالوا: هل من خبر؟ فقال: نعم قتل هذا المارق، وهذا رأسه معي، فأخذوا راس أبيهم فدفنوه، وحفروا حفيرة فدفنوا الرؤوس الباقية فيها، وأخذوا الأزدي فقتلوه ومن معه وهربوا، فلما كان الحجاج أخذ ابناً لعبيد الله بن بشير فقتله، وقد أتاه مسلما عليه، ودفع ابنين له آخرين إلى ورثة الأزدي.

وكتب المهلب إلى القباع مع الرُّقَاد بن عبد الله والصعب بن زيد عم جرير بن حازم: «إنا لقينا الأزارقة بسلى وسلبرى فكانت في الناس جولة، ثم ثاب أهل الدين والعزم والحفاظ، فرزقنا الله النصر عليهم، ونزل القضاء بأمر الله فجازت النعمة فيه الأمل فصاروا دريئة رماحنا، وضرائب سيوفنا، وقتل الله صاحبهم عبيد الله بن بشير بن الماحوز في رجال من فرسانهم

---

١ ـ ديوان ابن قيس الرقيات ـ ط. دار صادر بيروت ص١٦٢ مع فوارق.

وحماتهم، وبقيت منهم بقية شذوا عن عسكرهم ليلاً، وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأولها. فكتب إليه القباع: «هنيئا لك ياأخا الأزد، شرف الدنيا وعزها، وثواب الآخرة وفضلها. قال المهلب: ماأجفا أهل الحجاز أما تراه عرف اسمي.

وقال بعض الخوارج في المهلب:

أتانا بأحجار ليقتلنا بها وهل تقتل الأقران ويحك بالحَجَرْ

وكان المهلب قال: ارموهم بالحجارة فإنها تنفر الخيل، وتصرف وجوهها، وتحير الرجالة وتعقرهم، وكان الخوارج أكثر سلاحا من البصريين وطعن رجل من الخوارج رجلا من أهل البصرة فذكر أمه فقال الخارجي:

أمك خير لك مني صاحبا تسقيك محضا وتعل رائبا

وقال بعضهم في قتل عبيد الله بن بشير بن الماحوز:

ويوم سلى وسلبرى أحاط بهم منا صواعق لاتبقي ولاتذر

حتى تركنا عبيد الله منجدلا كما تجدل جذعٌ مال منعقر

قال أبو الحسن المدائني: عبيدالله بن بشير بن يزيد - وهو الماحوز طعن رجلا فقيل: محزه محزاً كما يمحز الحمار - ابن مساحق بن زبيد بن ضباب بن سليط، والزبير بن علي بن يزيد بن مساحق ويزيد أخو الحارث بن مساحقٍ.

أمر الزبير بن علي
من آل الماحوز

قالوا: لما قتل عبيد الله بن بشير، استخلف من الخوارج الزبير بن علي، فرأى جزع أصحابه على ابن بشير ومن قتل منهم فقال: لاتجزعوا على من صار إلى الجنة وأذكروا أيامكم: قتلتم ابن عبيس. وربيع الأجذم. والحجاج بن ناب. وحارثة بن بدر. والمُعَارك والحرب سجال ﴿والعاقبة للمتقين﴾[1] وخرج فنزل في تخوم أصبهان فأقام شهرا ثم أتى السوس فقاتله المهلب، ثم أتى تستر فقاتله المهلب وصار إلى أُرَّجان من فارس، وقدم مصعب بن الزبير على البصرة والكوفة من قبل عبد الله أخيه في أول سنة سبع وستين، والزبير بن علي بأرجان، فكتب مصعب إلى المهلب في القدوم عليه، ووجه بكتابه مع محمد بن الأشعث فقدم واستخلف ابنه المغيرة بن المهلب، وقال لأصحابه: إنكم لاتفقدوني ماكان المغيرة عليكم، فإنه أبو صغيركم في الشفقة، وابن كبيركم في البر والطاعة، فلتحسن طاعتكم له، فما أردت صواباً

١ ـ سورة القصص ـ الآية : ٨٣ .

قط إلا سبقني إليه. وقدم المهلب البصرة وكتب مصعب إلى المغيرة: «إنك إلا تكن كأبيك، فإنك بحمد الله كاف لما وليت، وعليك بالجد في أمرك والحذر لعدوك»، وسار مصعب ومعه المهلب وعمر بن عبيد الله بن معمر إلى المذار، فقتل أحمر بن شميط، ثم أتى الكوفة وهما معه، فقتل المختار بن أبي عبيد، ثم وجه عمر بن عبيد الله إلى البصرة فشهد الحيرة.وولى المهلب بن أبي صفرة الموصل والجزيرة وأرمينية.وأتى البصرة فتلافى أمر أصحاب الجفرة، وولى البصرة عباد بن زيادٍ. ويقال ولاها سنان بن سلمة بن المحبق الهذلي، وجعل عباداً على شرطه، وولى عمر بن عبيد الله فارس، فالفى الزبير بن علي بإصطخر فعسكر على أربعة فراسخ من معسكره، فبيته الزبير والخوارج فقاتلهم فرجعوا ولم يظفروا، وأصاب منهم طرفا، ثم إنه قدم إليهم عبيد الله ابنه، وأمه من ولد قيس بن عدي السهمي من قريش في خيل فقتلوه، وأبوه لايعلم، لأنه كان مشغولا بإصلاح قنطرةٍ هناك تهدمت، ثم سال عن ابنه فقيل قتل والله كريما صابراً، فاحتسبه فاسترجع، وترحم عليه وقال: عند الله أحتسبه.

وقال قطري بن الفجاءة للزبير بن علي: لاتقاتل عمر اليوم فإنه موتور، فأبى وقاتله فقتل من فرسان الخوارج تسعون وطعن عمر بن عبيد الله صالح بن مخراق فشتر عينه، وضرب قطريا على جبينه ففلقه، وانهزم الخوارج، واستشهد يومئذ رجل من ولد معبد بن العباس بن عبد المطلب، يقال له عباس بن عبد الله، وستة من ولد الحارث بن عبد المطلب، وكتب عمر إلى مصعب «إني لقيت هذه العصابة المارقة، فاستشهد عبيد الله بن

عمر، ورجال صالحون، ثم إن الله منحنا أكتافهم فقتلنا من كان يومه حان وكل إلى حَيْنٍ وخسران».

وصار الزبير بن علي إلى سابور، فلقيه عمر بكازرون، وكان معه مجاعة بن سعر، فقتل مجاعة بعمودٍ كان بيده من الخوارج أربعة عشر رجلاً، ودافع عن عمر يومئذٍ، فوهب له تسعمائة ألف درهم، وكان مجاعة أجتباها من خراج إصطخر، ويقال أكثر من ذلك فقال يزيد بن الحكم:

ودعاك دعوة مرهق فأجبته عمر وقد نسي الحياة وضاعا

فرجعت حين دعاك غير معتم تحمي وكنت لمثلها رجاعا

فرددت عادية الكتيبة عن فتى قد كاد يترك لحمه أقطاعا

وولى عبد الله بن الزبير ابنه حمزة البصرة، وكتب إلى المصعب أن يلحق به من معه من رجال أهل البصرة، فألحق به المهلب، وولى مكانه إبراهيم بن الأشتر، فوجه حمزة المهلب لقتال الخوارج لمسألة أهل البصرة إياه ذلك.

وقال قوم: عزل حمزة المهلب عن الموصل ووجهه لقتال الخوارج وهذا قول من زعم أن حمزة ولي البصرة والكوفة، وذلك غلط.

وأتى الخوارج رامهرمز في أيام حمزة، فقاتلهم المهلب، فأتوا أرجان ومضوا إلى أصبهان، وغضب مصعب، فمضى إلى أخيه وعامله على الكوفة القباع، وعلى الموصل ابن الأشتر، فرده أخوه على البصرة والكوفة وعزل حمزة ابنه فقدم مصعب البصرة ولم يعزل حمزة عمر بن عبيد الله عن فارس، وأقبل الزبير بن علي من أصبهان إلى الأهواز، فقال مصعب: «العجب لعمر بن عبيد الله، قطع هذا العدو أرض فارس فلم يقاتلهم، ولو قاتلهم لكان أعذر

له» وكتب إليه: «يابن معمر ماأنصفتني، تجبي الفيء وتحيد عن العدو، فاكفني أمرهم»، فأقبل عمر من فارس، وخرج مصعب من البصرة ومعه المهلب يريدان جميعا الزبير وأصحابه، فبلغهم ذلك، وانحازوا إلى السوس ثم أتوا الكلتانية وخرجوا إلى كُسْكُر، وأتوا المدائن وعليها كَرْدَم بن مزيدٍ الفزاري، فتحصن في القصر فأتوا ساباط فقتلوا أحمر طيء، وكان من فرسان عبيد الله بن الحر فقال الشاعر:

تركتم فتي الفتيان أحمر طيءٍ بساباط لم يعطف عليه خليل
فلو كنت من خلانه لحميته ولكن خلان الصفاء قليل

وقتل يومئذ كاتب الزبير بن عليٍ ومولاه، وبسط الخوارج في القتل، فقتلوا النساء، والصبيان، والأطفال، وقتلوا أم ولد ربيعة بن ناجذ الأزدي وغيرها، وقالت لهم أم ولد ربيعة: أتقتلون ﴿أو من يُنَشَّؤوا في الحلية وهو في الخصام غير مبين﴾[1] فقال لهم رجل منهم: استحيوها، فقالوا: لقد أعجبتك وفتنتك، فأمسك. وسرحوا صالح بن مخراق إلى بكر بن مخنف، وكان عامل مصعب على إستان العال وهو بادوريا والأنبار، وقطربل ومسكنٍ، فلقوه بكرخ بغداد فقتلوه، فقال سراقة يرثيه:

ألا يالقوم للهموم الطوارق وللحدث الجاري بإحدى البوائق
لحى الله قوما عردوا عنك بكرة ولم يصبروا للّامعات البوارق
تولوا فأجلوا بالضحى عن عميدهم وسيدهم بالمأزق المتضايق

١ ـ سورة الزخرف ـ الآية: ١٨ .

وكان مع الأزارقة رجل من بني العم يقال له راشد، شديد البأس، فقاتلهم راشد، وانحاز الخوارج فحماهم فقال الشاعر:

وعبأ راشد العمي خيلا إلي خيل فقاتلهم جهارا
وحامى راشد العمي عنا وقد جازت فوارسنا المذارا

في أبيات.

وأقبل الزبير وأصحابه يريدون الكوفة، وعليها من قبل مصعب القباع، فخرج إلى النخيلة متثاقلاً، فكلمه شبث بن ربعي، وإبراهيم بن الأشتر وغيرهما ـ ويقال إن ابن الأشتر كان بالموصل ـ في أمر العدو، وقالوا: قد أظلنا، فخرج تَجَرْجُراً، فصار إلى دير عبد الرحمن بن محمدٍ، وكان عبد الرحمن يومئذٍ على الموصل وقال الشاعر:

إن القباع سار سيراً نكرا يسير يوما ويقيم شهرا

وجعل يتردد بين دَبَاها ودَبِيْرا.

فقال الشاعرُ:

إن القباع سار سيرا ملسا يسير يوماً ويقيم خمسا

ثم سار إلى الصراة وقال: إذا لقيتم عدوكم فاحسنوا القتال، فإن أول الحرب المشاتمة، ثم الرمي بالنبل، ثم إشراع الرماح والطعان، ثم السلة[1]، فقالوا: لقد أحسن الأمير الصفة.

وأتى الخوارج الصراة فقتلوا سِمَاك بن يزيد السبيعي وابنيه، والقباع معسكر في ستة آلافٍ، فقطع الجسر، ورجع الخوارج، وانصرف القباع إلى

---

١ ـ يقال: أتيناهم عند السلة: أي استلال السيوف. القاموس.

الكوفة، وأتى الخوارج المدائن، ومضوا إلى جوخى فأغاروا ببراز الـروز[1] فقتلوا وأصابوا أموالاً، وأتوا البَنْدَنِيجَيْنْ، ثم حلوان، ومضوا إلى أصبهان، فنزل الزبير بن علي بعقوة عَتّاب بن ورقاء الرياحي، وكان مصعب ولاه إياها، ويقال كان الذي ولاه إياها أبو يزيد الخطمي وابن مطيعٍ، فأقره مصعب، ثم عزله ليحضر معه حرب عبد الملك، فحقد عليه ذلك، وكاتب عبد الملك، فبعث إليه عتاب ماأغراك بي وأنا ابن عمك؟ فقال: إن البعيد والقريب من المشركين عندنا سواء.

فحصره الخوارج أشهراً، ثم إن الخوارج أتوا الري وعليها يزيد بن الحارث بن يزيد بن رويم الشيباني، وكان المصعب ولاه إياها، وأقرّه عليها، فحصره شهراً، ثم قاتله، فقتله الزبير بن علي، ونادي يزيد ابنه حوشب بن يزيد، فهرب ولم يلو على أحد، وقتل الخوارج لطيفة أم حوشبٍ، وكان علي بن أبي طالبٍ صلوات الله عليه دخل على يزيد يعوده، فقال له علي: إن عندي جارية لطيفة الخدمة فبعث بها إليه فسماها لطيفة، وقال بعض الشعراء بعد قتل مصعبٍ:

مـواطننا في كـل يوم كـريهـةٍ أسر وأسنى من مواطن حوشب
دعـــاه يـزيــد والأسنـة شرع فلم يستجب إن الفتى غير مجْرَب
ولو كان حراً حوشب ذا حفيظةٍ رأى ما رأى في الموت عيسى بن مصعب

وقال بشر بن مروان ذات يومٍ، ومعه حوشب بن يزيد، وعكرمة بن ربعي: من يدلني على فرسٍ جوادٍ؟ فقال عكرمة: فرس حوشب فإنه نجا

١ ـ من طساسيج السواد ببغداد من الجانب الشرقي. معجم البلدان.

عليه يوم الري فضحك بشرٌ، وقال: بشر يوما: من يدلني على بغلةٍ قويةٍ ظهيرةٍ؟ فقال حوشب: بغلة واصل بن مساور بن رياب حملت مساورا وواصلاً، وكان عكرمة يتهم بامرأة واصلٍ، وإنما عناها بقوله: «بغلة واصل» فضحك بشرٌ، وقال: لقد انتصف.

وقيل في حوشب بن يزيد:

نجى حليلته وأسلم شيخه تحت الأسنة حوشب بن يزيد

وقيل أيضاً:

نجى حليلته وأسلم شيخه لّما رأى وقع الأسنة حوشب

وأتي الزبير أصبهان منحطاً من الري، فحارب عتاب بن ورقاء أشهراً.

وقال رجل من أصحاب عتاب يكني أبا هريرة:

قل لابن ماحــوز وللأشرار كيف تـرون ياكـلاب النـار

شـد أبي هـريـرة الهـرار

فكمن له عبيدة بن هلال فضربه فصرعه، ثم حامى عليه أصحابه، فسلم فكان الخوارج ينادونهم: ما فعل الهرار؟ فيقولون: ماعليه بأس وخرج إليهم فقال:

أنـا أبـو هـريـرة الهـرار

ثم إن عتاب بن ورقاء عقد لواءً لياسمين جاريته، وقال: من أراد الهوينا فليأت لواء ياسمين، ومن أراد الصبر فإلي، وخرج إلى الخوارج فقاتلهم وهو في ألفين، ويقال ألفين وسبعمائة، فاقتتلوا أشد قتال وقتل الزبير بن عليٍ وبشرٌ معه وفشت فيهم الجراح، ومضى فله، فلم يتبعوا، وقال

الأعشى في قتل الزبير ـ وذكر أن الحارث بن عميرة الهمداني قتله ـ في قصيدة أولها:

إن المكارم أكملت أسبابها لابن القُيُول الزُّهْرِ من قحطان
حتى تداركهم أغر سميدع فحماهم إن الكريم يمان
الحارث بن عميرة الليث الذي يحمي العراق إلى قرى نجران[1]

وقال رجل من ضبة:

خرجت من الكتيبة[2] مستميتاً ولم أك في كتيبة ياسمينا
وآثرت الحياء على حياتي ولم أترك لها حسباً ودينا
ولم أك في المدينة ديدباناً أُرَجِّم في نواحيها الظنونا
أعاذ الله قومي أن يكونوا مع السمك الذي بالفارقينا

وقال ابن حسان[3] يزيد:

صبحنا بَزَار[4] الروز منا بغارةٍ كورد القطا فيها الوشيج المقوم
وملنا على جابي المدينة كردم فأفلتنا فوت الأسنة كردم
ونجى ابن ورقاء الرياحي سابح شديد مناط القصرتين[5] عثمثم
ونحن شفينا من يزيد صدورنا ومن خيله وصاحب الحرب مغشم

وقال رجل من أصحاب عتاب:

---

١ ـ ليست في ديوان الأعشى المطبوع.
٢ ـ بهامش الأصل: المدينة.
٣ ـ ديوان شعر الخوارج ص٩٨ ـ ٩٩ .
٤ ـ بزار: قرية على فرسخين من نيسابور . معجم البلدان .
٥ ـ القصرة: العنق وأصل الرقبة، والعثمثم: القوي الشديد. النهاية لابن الأثير.

نحن قتلنا الزبير مارقكم فأصبح الفل منكم مزقا
وذلك الفعل فعلنا أبداً إذا جهول من قومنا مرقا

وولى الخوارج بعد قتل الزبير بن علي قطري بن الفجاءة، واسم الفجاءة مازن بن زياد بن يزيد بن حنثر بن كابية بن حرقوص بن مازن بن مالك بن عمرو بن بن تميم، ويقال مازن بن زياد بن يزيد بن حنثر بن حارثة بن صعير بن خزاعي بن مازن.

وقال الشرقي بن القطامي: اسم الفجاءة جعونة.

وكانوا قد أرادوا تولية أمرهم عبيدة بن هلال، فقال لهم: أنا أدلكم على من هو خير مني، قطري، فبايعوه سنة إحدى وسبعين. فسار قطري، ويكنى أبا نعامة من أصبهان حتى أتى الأهواز، ثم رفع إلى كرمان فقال بعض أصحابه:

هربنا نريد الخفض من غير كلةٍ وللحرب ناب لايفل ومخلب

فلما بلغه البيت انحط إلي إيذج من كور الأهواز.

وبلغ مصعباً أن عبد الملك مجد في الحركة إليه، فكتب إلى عماله في النواحي من الوجوه فجمعهم إليه غير المهلب، وعمر بن عبيد الله، ويقال إن المهلب كتب إليه يسأله أن يكون بقربه، وقال له: قد بلغني أن وجوه المصرين قد كاتبوا عبد الملك، فقال له: إن أهل المصر سألوني أن لاأصرفك عن وجهك، وأبوا أن يخرجوا معي إن أخليت هذا الوجه منك.

وواقع المهلب قطرياً فنحاه عن إيذج وعن الأهواز كلها وقال الأحنف وهو بالبصرة، قبل أن يدخل مصعب الكوفة للتوجه إلى مسكنٍ وقد ذكر

قطري أنه أبو نعامة: إن ركب بنات سجاح وقاد بنات صَهّال[1] وأمسي بأرض وأصبح بأخرى، وجبى المال، طال أمره فأبلغ قطرياً ذلك رسول كان له بالبصرة، فنادى في عسكره: ألا لايصحبنا إلا رجل معه بغل، فكان ذلك مما ينكر على الأحنف، وقاتل قطري عمر بن عبيد الله بن معمرٍ بفارس، ثم أتى أصبهان، ثم الأهواز، وقتل مصعب في سنة اثنتين وسبعين والخوارج برامهرمز، والمهلب بإزائهم.

وقال الهيثم بن عديٍ والمدائني: برز المصعب لحرب عبد الملك، والمهلب في وجوه الخوارج وهو يحمي البصرة والأهواز منهم، وعمر بن عبيد الله بفارس، وعباد بن الحصين بالبصرة، فبلغ ذلك عبد الله بن خازمٍ فاسترجع، وقال: أنا بخراسان، وفي إبراهيم ابن الأشتر ماسِدُّ بعض المَسْد وأنشد:

خذيني فجريني ضباع وأبشري بلحم امرىء لم يشهد العام ناصره

وكان مقتل قطري في أيام الحجاج، وسأذكر ذلك في موضعه إن شاء الله.

قال: وكان الخوارج يَسألون أصحاب المهلب عن ابن الزبير فيقولون إمام هدىً، فلما قام عبد الملك سألوهم عنه فقالوا: إمام هدىً، فقالوا لهم: ياكفرة قلتم بالأمس قولاً تقولون اليوم خلافه، لعنكم الله ياعبيد الدنيا.

١ ـ لم أقف لسجاح على اسم في كتب أنساب الخيل، وذكر الغندجاني في كتابه أسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها ـ ط. بيروت ١٤٠٢هـ ص١٤٩ «الصهال ـ لرجل من غطفان يقال له أنيف الذئب».

أمر نجدة
ابن عامر الحنفي

قال ابن الكلبي: هو نجدة بن عامر بن عبد الله بن سيار بن المُطَرَّح بن ربيعة بن الحارث بن عبد الحارث بن عدي بن حذيفة، وسمي المطرح لأن بني كلابٍ أصابوه وهو غلام فأخذوه، وكان شهاب بن حبيب بن الحارث بن عبد الحارث يغير على القبائل فقال له ربيعة بن الحارث: أنت تغير، وابني في بني كلاب مطرح.

وكان نجدة مع نافع بن الأزرق ففارقه مع قومٍ فارقوه لتبرئه من القعد، وامتحانه المهاجر إليه، وتحريمه التقية في دار قومه، وصار نجدة إلى اليمامة فنزل بإباض، ودعا أبا طالوت، وهو في قول الكلبي مطر بن عقبة بن زيد بن جهينة بن الِفنْد، وهو شهل بن شيبان بن ربيعةِ بن زِمّان بن مالك بن صعبٍ ودعا سالم بن مطرٍ مولى بني مازن بن مالك بن صعب بن علي بن بكر بن بن وائلٍ إلى نفسه، فبايعه خمسون على أنهم إن وجدوا من هو خير لهم منه بايعوه وبايعه معهم.

ثمّ إنّ أبا طالوت صار إلى الخضارم وكانت لبني حنيفة، فأخذها معاوية بن أبي سفيان، فصير فيها رقيقاً مبلغهم ومبلغ أولادهم ونسائهم أربعة آلافٍ، ويقال كانوا أربعة آلاف بيتٍ، فأخذ سالم ذلك الرقيق فقسمه في أصحابه وأقام اشهراً، وذلك في سنة خمسٍ وستين، وأتاه الناس، وكثر أصحابه، وخرجت عيرٌ من البحرين أربعين راحلةً تحمل مالاً وغير ذلك يراد بها ابن الزبير، فخرج نجدة في عشرة آلافٍ فلحقهم بجبلة من أرض بني تميم، وهي على خمس ليالٍ من هجرٍ فأخذ العير بما فيها؛ وقال بعضهم: خرجت العير من البصرة يراد بها عبد الله بن الزبير، وفيها ثلاثون رجلاً من شيعته وأكرياؤهم من بني تميمٍ، فخرج إليهم نجدة في ستين راكباً، ومعهم ثور بن حليلة بن ثورٍ الحنفي، فساق العير حتى أتى بها أبا طالوت بالخضارم، فقال نجدة: اقتسموا هذا المال واجعلوا غلة هذه الشيوخ لكم ولمن لحق بكم، وردوا هذا الرقيق فدعوهم كما كانوا يعتملون الأرض ويعمرونها، فإن ذلك أرد وأنفع، فاقتسموا المال، وقالوا لأبي طالوت: إنا كنا بايعناك على أنا إن وجدنا خيراً منك بايعناه وبايعته، ونجدة خير لنا منك، فبايعوه على مايبايع عليه الخلفاء أن لايخلع إلا عن جورٍ ظاهرٍ، ولم يبايعوه على مابايعوا عليه أبا طالوت، وبايعه أبو طالوت أيضاً وذلك في سنة ستٍ وستين ونجدة يومئذٍ ابن ثلاثين سنةً.

وخرج سراج بن مجاعة الحنفي إلى عبد الله بن الزبير ليأخذ لقومه أماناً، فقال له ابن الزبير: ياسراج ألم تر ماصنع قومك والله لأوجهن إليهم جيشاً، فقال: والله ماصنع هذا إلا حرورية.

قالوا وأقام نجدة أشهراً، وكثر أصحابه فقالوا: لو غزونا، فسرح نصر بن مباركٍ الحنفي في ثلاثمائة إلى البحرين، وقال: إن قتل فأميركم أبو سعدة العجلي، وعلى البحرين يومئذٍ سعيد بن الحارث الأنصاري، وكان من قبل يزيد بن معاوية فبقي بها، فمنعهم سعيد بن الحارث من دخولها، فوجه نجدة قدامة بن المنذر بن النعمان في ثلاثمائة وقال: إن قتل فأميركم أبو سعدة، فإن قتل فأميركم إساف اليشكري، فإن قتل فأميركم المطرح بن نجدة، فإن قتل فأميركم أبو سنانٍ حُيَيّ بن وائل اليشكري.

وقال بنو كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، لكلاب بن قرة بن هبيرة القشيري: إنها فتنة فلو أتينا سوق المجاز فأغرنا، فإن بها بزا منشورا، وتمرا منثوراً، فأجابهم كلاب ومعه أخوه غطيف، فكتب نجدة إلى ابن المنذر، وأبي سعدة والذين وجههم إلى البحرين فردهم، ووجه حر بن وائل إلى ابن كعبٍ وهم بالمجاز، وقدامة بن النعمان في ثلاثمائة، واتبعهم نجدة في أربعمائة، ويقال خمسمائة، فالتقوا بذي المجاز، فهزمهم نجدة، وقتلهم قتلاً ذريعاً، وصبر كلاب وغطيف ابنا قرة، وجعل كلاب يقول لأخيه:

صبراً غطيف إنها الشهادة   كل امرىءٍ مفارق أولاده

وصبرا حتى قتلا وانهزم قيس بن الرقاد الجعدي، فلحقه أخوه لأمه معاوية بن قرة، فسأله أن يحمله ردفا فلم يفعل، وقدم جفينة بن قرة على أهله خفيةً، فأتته امرأته بزبدٍ وتمرٍ فجعل يأكل وهي تسأله عن إخوةٍ لها وإخوته فلم يجبها فقالت: اجْتَحِفْ وأُخْبِر فقال:

لايستوي الجحفان جحف بزبدةٍ   وجحف حروري بأبيض صارم

فلما فرغ قال: سلي، فلم تسأله عن أحد من إخوته وإخوتها إلا نعاه، فشقت جيبها وقالت: ويحك ألا صبرت حتى تقتل معهم، وقال معاوية:

ياقاتل الله قيس الجعد كيف دعا كعباً لأسباب أمر غير ميمون
حتى إذا التقت الأبطال واطعنوا فعل الديافية المطلية الجون
طَـرَّحَ رايتنا قيس وبَـرَّزَهُ[1] عن الطعان طويل الشخص ملبون[2]

في أبيات

وقال قيس:

أسأل معاوية بن قرة إذ دنت منه الأسنة أي فعلٍ يفعل
فإذا أتيت أباك فاَشْتُرْ مثله إن الرداف عن الأحبة يشغل

يريد مثل فرسه.

وقال جفينة - وهو جفنة - يحرض ابن الزبير:

على أي شيء أنت بالركن واقفٌ مقيم وقد سارت بهن الركائب
ولا شيء إلا الموت إذ برزت لنا حنيفة أرباب السيوف القواضب

في أبيات

قالوا: ورجع نجدة إلى اليمامة وكثر أصحابه، فصاروا ثلاثة آلافٍ، فخاف أن يطأ الجنود اليمامة، وأن يغزى أهلها، فاستخلف باليمامة عمارة بن سلمى من ولد الدُّول بن حنيفة، وهو عمارة الطويل وأتى البحرين في سنة سبعٍ وستين، فقالت الأزد: نجدة أحب إلينا من ولاتنا، لأنه منكر للجور،

---

١ - برزه تبريزا: أظهره وبينه. القاموس.
٢ - الملبون: من به كالسكر من شرب اللبن. القاموس.

ولاتنا يجورون، فعزموا على مسالمته، واجتمعت عبد القيس ومن بالبحرين غير الأزد على محاربته، فقال بعضهم: نجدة أقرب إليكم منه إلى الأزد فلا تحاربوه، وقال بعضهم: أندع نجدة وهو حروري مارق تجري أحكامه علينا، فالتقوا بالقطيف، وأقبل وكيع أحد بني جذيمة من عبد القيس يرتجز ويقول:

يا أم يعقوب تجنبيني لاتحذري علي واحذريني
إن عليّ واقياً يقيني أنا وكيع لست بالهجين
اليوم أحمي حسبي وديني ما ملكت قائمه يميني

فقتل وكيع وجماعة من العبديين، وسبى نجدة من قدر عليه من أهل القطيف.

قال الشاعر:

نصحت لعبد القيس يوم قطيفها وما نفع نصحٍ قيل لايتقبل

وأقام نجدة بالقطيف، ووجه ابنه المُطَرَّح إلى فلّ أهل القطيف من عبد القيس، فقاتلوه بالثوير[1] فقتل المطرح وجماعة من النجدية، فقال جمال بن سلمة الشاعر:

إن تقتلونا بالقطيف فإننا قتلناكم يوم الثوير وصحصحا
وإن تقتلوا منا وكيعا وعاصما فإنا قتلنا طارقا والمطرحا

١ ـ موقع وعر من جبال حمى ضرية، وضرية: قرية في طريق مكة من البصرة من نجد. معجم البلدان.

ووجه نجدة رجلا من عكلٍ يقال له ذُوّاد إلى الخُطّ[1] فظفر بهم، فقال سويد بن كراعٍ العكلي:

صبحت الخط بنا صباحا تحمل من عكلٍ فتى وضاحا

مهرية ترى بها مراحا

وأقام نجدة بالبحرين، فلما قدم مصعب بن الزبير البصرة سنة تسعٍ وستين، بعث إليه عبد الله بن عميرٍ الليثي الأعور في أربعة عشر ألفا، ويقال في عشرين ألفاً، ويقال إنّ حمزة بن عبد الله بن الزبير الموجه له حين ولي البصرة، فجعل ابن عميرٍ يقول: اثبت ياأبا المطرح فإنا لانفر، فقدم ونجدة بالقطيف فنزل على ميلٍ من عسكره، وصير البحر خلفه، والأثقال أمامه، وأناخ الإبل أمام الأثقال، وقال لآخذنَّ نجدة أخذاً، وحضّ نجدة أصحابه، فرغبهم في الشهادة والجنة، وزهدهم في الدنيا، واعتزل قومٌ من أصحابه منهم ذَوّاد العكلي فلم ينهض معه، فقال نجدة: إن إخوانكم هؤلاء أحبوا البقاء وثبت نجدة فيمن بقي معه وأتى ابن عميرٍ في عسكره وهو غار فقاتلهم طويلاً، وأصبح ابن عميرٍ فهاله أمر من رأى في عسكره من القتلى والقطعى والجرحى، وتشاغل ومن في عسكره بموتاهم وجرحاهم، فأتاهم نجدة فحمل عليهم فلم يلبثوا أن انهزموا فلم يلو أحد منهم على أحدٍ، وحوى نجدة العسكر، وأصاب جواري لابن عميرٍ وفيهن أمُّ ولدٍ له، فعرض نجدة عليها أن يردها عليه، فقالت: لاحاجة لي فيمن فَرَّ عني، وورد ابن عميرٍ البصرة فاراً، فقال الفرزدق:

---

١ - الخط - كما يبدو - خط عبد القيس بالبحرين، وهو كثير النخل. معجم البلدان.

ما فر من جيش أمير برايةٍ فيدعى طوال الدهر إلا منافقا
تمنيتهم حتى إذا مالقيتهم تركت لهم دون النساء السرادقا
وأعطيت ماتعطي الحليلة بعلها وكنت حُبارَى إذ رأيت البوارقا[1]

وقال العجاج حين قتل عمر بن عبيد الله بن معمر، أبا فديك:

لقد شفاك عمر بن معمر من الحروريين يوم العسكر
وقع امرىءٍ ليس كوقع الأعور[2]

يعني عبد الله بن عميرٍ في حرب نجدة.

وبعث نجدة بعد هزيمة ابن عميرٍ عطية بن الأسود الحنفي إلى عمان وقد غلب عليها عياذ بن عبد الله وهو شيخ كبير، وابناه سعيد وسليمان يعشران السفن ويجبيان البلاد، فمانعوه وقاتلوه فقتل عياذ وغلب عطية على عمان فأقام بها أشهراً، ثم خرج منها واستخلف رجلا يكنى أبا القاسم فقتله سعيدٌ وسليمان ابنا عياذ وأهل عمان، وخالف عطية نجدة فعاد إلى عمان فلم يقدر عليها فركب البحر وأتى كرمان، وضرب دراهم كان يقال لها العطويّة، وأقام بكرمان، فيقال إن المهلب بعث إليه جيشاً فلحق بسجستان، ثم صار إلى السند فقتلته خيل المهلب بقندابيل، ويقال إن الخوارج قالوا له: هاجر فقال أنا مهاجر على ديني فقتلوه.

وسمع أبو حزابة امرأةً كانت مع عطية تقول وهو بكرمان: هل من سيفٍ، هل من رمحٍ، فقال: أتريدين نيزكاً فرفعته إلى عطية فضربه أسواطاً، وقال الفرزدق لبني حنيفة:

١ ـ ديوان الفرزدق ج٢ ص٤٧ مع فوارق كبيرة. والحباري: طائر. القاموس.
٢ ـ ليس في ديوان العجاج المطبوع.

وهم من بعيدٍ في الحروب تناولوا عياذ بن عبد الله والخيل شحب[1]

قالوا ووجه نجدة بعد هزيمة ابن عميرٍ إلى البوادي من يأخذ من أهلها الصدقة، فكانوا يدعون القوم فإذا أجابوهم أخذوا الصدقة منهم، فقاتل أصحابه بنو تميم بكاظمة وأعانهم أهل طويلع[2]، وقتلوا رجلاً من الخوارج، فوجّه نجدة إلى أهل طويلع من أغار عليهم وقتل منهم نيفاً وثلاثين رجلاً وسبى، ثم إنه دعاهم بعد ذلك فأجابوه وأخذ منهم الصدقة، وقال الفرزدق:

لسنا بأقوامٍ يبيعون دينهم إذا علموا أن لاسبيل إلى التمر

وما كنت مذ شدت على السيف قبضتي لانقض بيعاً بين زمزمٍ والحجر[3]

يعني بيعة ابن الزبير.

قال علي بن محمدٍ المدائني: وخرج نجدة إلى صنعاء في خفٍ فبايعه أهلها، وخافوا أن يكون وراءه جمع كثير، فلما أقام أياماً ولم يروا مدداً يأتيه ندموا على بيعته، وبلغه ذلك فقال: إن شئتم أقلتكم بيعتكم وجعلتكم في حلٍ منها وقاتلتكم، فقالوا: ماكنا لنستقيل بيعتنا، فبعث إلى مخاليفها، فأخذ منهم الصدقة، ووجّه نجدة أبا فديكٍ إلى حضرموت فجبى صدقات أهلها، وحج نجدة في سنة ثمانٍ وستين، ويقال في سنة سبعين، وهو الثبت، وقد كان في أيام يزيد بن معاوية قاتل مع ابن الزبير غضباً للبيت، وماانتهك من حرمته، فلمّا حج مرته هذه كان في ثمانمائة وستين رجلاً، ويقال في ألفين

---

١ ـ ديوان الفرزدق ج١ ص٧٤ مع فوارق.

٢ ـ طويلع: ماء لبني تميم. معجم البلدان.

٣ ـ ليسا في ديوانه المطبوع.

وستمائة، فصالح ابن الزبير على أن يصلي كل واحدٍ بأصحابه ويقف بهم ويكف بعضهم عن بعض على مثال ماكانت الأزارقة عليه أيام مقاتلتها معه.

فلما صدر نجدة عن الحج توجه إلى المدينة، فتأهب أهلها لقتاله، وتقلد عبد الله بن عمر السيف، فلما كان نجدة بنخل، وأخبر بلبس ابن عمر السلاح رجع نجدة إلى الطائف وأصاب ابن بحذج ابنة لعبد الله بن عمرو بن عثمان كانت عند ظئرٍ لها، فضمها نجدة إليه، فقال بعضهم: إن نجدة ليتعصب لهذه الجارية، فامتحنوه بأن سأله بعضهم بيعها منه، فقال: قد أعتقت نصيبي منها فهي حرة، قال: فزوجني إياها، قال: هي بالغ، وهي أملك بنفسها، فأنا أستأمرها، فقام من مجلسه ثم قال قد استأذنتها فكرهت الزوج، وقيل إن عبد الله بن الزبير كتب إليه: «والله لئن أحدثت فيها حدثاً لأطأن بلادك وطأة لايبقي بها معها بكري»، وكتب نجدة إلى ابن عمر يسأله هل ساروا بين يدي رسول الله ﷺ بالحربة واللواء، وعن الرجل يغشى المرأة في الحيض، فقال: سلوا ابن عباس، فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمن أين كان يوم حنين قد سير بذلك بين يدي رسول الله ﷺ مرجعه من حنين، وأما الذي يغشى المرأة في الحيض في أوله فدينار والذي يغشي في الكدرة[1] فنصف دينار، فبعث إليه نجدة: فإن لم يجد؟ قال: يقوم الذي يلزمه طعاما، ويصوم لكل مُدٍّ يوماً، وقال ابن عباس: قاتله الله يقتل المسلمين، ويسأل عن المحقرات.

---

١ ـ الكدرة في اللون نقيض الصفاء. القاموس.

ولما رجع نجدة من نخل وقرب من الطائف أتاه عاصم بن عروة بن مسعودٍ فبايعه عن قومه، فلم يدخل نجدة الطائف، فلما قدم الحجاج الطائف لمحاربة ابن الزبير قال لعاصم: ياذا الوجهين بايعت نجدة؟! فقال: اي والله وذو عشرة أوجهٍ أعطيت نجدة الرضا، ودفعته عن قومي وبلدي.

قالوا: وأتى نجدة تبالة ثم شخص عنها واستعمل الحازوق الحنفي وهو ـ حزاق ـ على الطائف وتبالة والسراة، واستعمل سعد الطلائع على مايلي نجران، ووجه إلى بعض أصحابه يقال إنه عمرو بن همامٍ العقيلي، ووجه حاجب بن خميصة لقبض صدقات بني هلالٍ ونمير، فمنعوه إياها، فقاتلهم فقتل منهم رجلان، وتولى قتلهما رجلان من بني كلاب، فطالبوا بدمهما فهرب الكلابيان، ورجع نجدة إلى البحرين فقطع الميرة عن أهل الحرمين من اليمامة والبحرين، فكتب إليه ابن عباس: إن ثمامة بن أثال لما أسلم قطع الميرة عن أهل مكة وهم مشركون حتى أكلوا العلهز[1]، فكتب رسول الله ﷺ إلى ثمامة: «إنّ أهل مكة أهل الله فلا تمنعهم الميرة فخلهم وإياها» وإنك قطعتها عنا ونحن مسلمون، فخلى لهم نجدة الميرة، وأقام عمال نجدة في النواحي حتى وقع الأختلاف بينه وبين أصحابه، فاجترأ الناس عليهم، فأما الحازوق فطلبوه بالطائف فهرب، فلما كان في عقبةٍ في طريقه إذا قوم يطلبونه فرموه حتى قتلوه وهو يقول: أتقتلوني قتلة الزناة، ليبارزني منكم من شاء، وأخذوا فرسه فقالت أخته، أو ابنته تبكيه:

---

١ ـ العلهز: القراد الضخم، وطعام من الدم والوبر كان يتخذ في المجاعة. القاموس.

أعيني جودا بالدموع على الصدر   على الفارس المقتول بالجبل الوعر
فإن تقتلوا الحازوق وابن مطرفٍ   فإنا قتلنا حوشبا وأبا جسر
أقلب عيني في الركاب فلا أرى   حزاقا فعيني كالحِجَاة من القطر
ومن يغنم العام الوشيك ولاحقاً   وقتل حزاقٍ لايزل عالي الذكر

في أبيات

وقال هشام ابن الكلبي : كان عبد الله بن النعمان الدوسي سيد الأزد بالسراة، وهو قتل الحازوق الحنفي أيام نجدة، وكان أوغل في بلاد الأزد، وقال عبد الله بن الزبير حين بلغه قتل الحازوق: إن الازد هم الأسد قتلوا الحازوق وإن من خثعمٍ سلمى، أوتدرون من هي؟ هي امرأة في الجاهلية كانت.

وقالوا: قتل سعد الطلائع ناجية الجرمي، وأراده على الصدقة، فمنعه إياها وقاتله فقتله ناجية.

وقال الكلبي : لقيت رسل نجدة لطلب الصدقة بهدل بن مالك بن الطفيل بن حبيب بن منيفٍ الطائي، ومعه رجال من طيءٍ فاقتتلوا، فقتل نويرة بن بحير الطائي منهم بالأجفر سبعة خوارج، وكانت راية طيءٍ يومئذٍ مع زيد بن حبال بن بشر الطائي، فقتل يومئذٍ عبس بن سمي بن الأغر الطائي، ونافذ بن زهير بن ثعلبة الطائي، وله يقول المعنى الطائي:

ياعين بكي نافذاً وعبسا
يوما إذا كان البراء نحسا

قال: وكان أميرهم في الحرب زياد بن جد بن وبرة قتل من الخوارج اثني عشر، وكانوا يقاتلون أياما.

قالوا: وخالف نجدة أبو سنانٍ حي بن وائلٍ، وذلك لأنه اشار عليه بالبسط على من كان أجابه وتابعه تقيّة فنهره وشتمه نجدة، فهم بالفتك به وحي هو القائل:

أما أقاتل عن ديني على فرس ... ولا كذا رجلاً إلا بأصحاب
لقد لقيت إذاً شراً وأدركني ... ما كنت أزعم في قومي من العاب

ويروي في خصمي من العاب.

فبعث إليه نجدة من ناظره فقال: أكلف الله أحداً علم الغيب؟ قال: لا، قال: فإنما عليه أن يحكم بما ظهر، فقبل منهم ورجع إلى نجدة. وحدثني الكردي وغيره قالوا: كان سبب خلاف عطية بن الأسود على نجدة لأن نجدة وجه سرية برا وسرية بحراً، فأعطى سرية البر أكثرمما أعطى سرية البحر، فنازعه حتى أغضبه فشتمه نجدة فغضب وألب الناس عليه، وقد كان كلم نجدة في رجلٍ فأعطاه فرساً فقال: ألا ترونه يعطي على الشفاعة؟!.

وأعطى نجدة مالك بن مسمعٍ حين هرب إلى ثأج[1] مالاً. وكلم في رجلٍ شرب الخمر في عسكره، فقال هو شديد النكاية، وقد استنصر رسول الله ﷺ بالمشركين.

قالوا: وكتب عبد الملك إلى نجدة يدعوه إلى طاعته وبيعته، على ان يهدر له ماأصاب من الدماء والأموال، وأن يوليه اليمامة وماحولها، فطعن عليه عطية وقال: ماكاتبه عبد الملك حتى علم منه إدهاناً في الدين، فخرج عطية إلى عمان مفارقا له، وخالف نجدة أيضاً قوم استتابوه فحلف أن لايعود ثم

١ ـ ثأج: عين من البحرين على ليال. معجم البلدان.

ندموا على استتابته وتفرقوا، وخالف عليه عامة من كان معه وانحازوا عنه وولوا أمرهم أبا فديك عبد الله بن ثورٍ، أحد بني قيس بن ثعلبة، وكانوا حين فارقوا نجدة بايعوا ثابتاً التمار، ثم قالوا: لايقوم بأمرنا إلا رجل من العرب، وجعلوا الاختيار إليه، فاختار لهم أبا فديك عبد الله بن ثور، واستخفى نجدة، وأرسل أبو فديك في طلبه جماعة من أصحابه وقال: إن ظفرتم به فجيئوني به، وأتى أبو فديك إباض وبرىء وأصحابه من نجدة وقيل لأبي فديك أنك إن لم تقتل نجدة تفرق الناس عنك، فألح في طلبه، وكان نجدة مستخفيا في قريةٍ من قرى حَجْرٍ، ويقال بين حجرٍ وجوٍ، وكان للقوم الذين أخفوه جاريةٌ يخالف إليها راع لهم، فأتاها ليلاً وقد غسل نجدة رأسه ودعا بطيب فأخذت الجارية من الطيب شيئا فمسته، فسألها الراعي عن أمر الطيب فأخبرته خبر نجدة، وغدا الراعي إلى أصحاب أبي فديك فدلهم على مكانه فطرقوه، فنذر بهم، فأتى أخواله من بني تميمٍ فاستخفى عندهم، وقال أتي عبد الملك فأضع يدي في يده، فقالوا: لك عندنا زاد وحملان قال: فأعهد إلى أم المطرح عهداً فأتاها فنذروا به، فأذنوا أصحاب أبي فديك بموضعه، فسبق إليه رجل من بني عقيل من الفديكية فخرج نجدة مصلتا بالسيف فضن به العقيلي عن القتل، فنزل عن فرسه ومشى معه، وقال: إن فرسي هذا فرس لايدركه شيء، فلعلك تنجو عليه، فإن الخيل طالعة عليك، فقال: ماأحب البقاء وقد تعرضت للشهادة في مواطن ماهذا الموطن بأخسِّها، وغشيه الوازع أخو أبي فديك لأمه، وأبو طالوت وأبو هاشم مولى بني مازن، واسمه راشد في ثمانية عشر رجلاً فيهم ثابت التمار وجههم أبو فديك لقتل نجدة، فطعنه أبو هاشم، ويقال طعنه رجل من بني عدي بن

حنيفة، وضربه القوم فقتلوه، وبقي الحنفي الذي يقال إنه طعن نجدة، فلقيه حصين بن نجدة بدمشق فقتله، فوجدوه مقتولا فأتهموا حصينا بقتله فحبسوه، ثم أخرج، وقال رجل من جرم يرثي نجدة:

أَبَعْدَ أبي المُطَرَّح يوم حَجْرٍ يقوم بِسُوْقِها أبدا مجير
فليت سيوفكم ياأهل حجر أتاها يوم نجدة مستعير
فأصبحت اليمامة بعد عز أذل رقابها الأسد العقير
فلم يستبدلوا منه ابن ثور فقد ضاعت بكاظمة الثغور

في أبيات.

وكان الجَرْمي وقوم معه من بني جرم، نزلوا قريباً من ذي المجاز، فأغار عليهم بنو قشير فأصابوا لهم أموالاً، فلما ظفر نجدة ببني كعب، ردّ على الجرميين ماأخذ منهم، فلذلك رثاه الجرمي، وكان نجدة ذا شجاعةٍ وسخاءٍ، فقال نصر بن سيار يوماً لرجلٍ من بني حنيفة: من كان سيدكم؟ قال: مَجَّاعة، قال:ماأدري مامجاعتكم من عصيدكم، والله ما كان فيكم قط أكرم كرماً ولاأعظم سؤدداً من نجدة وهو الذي يقول:

وإن جرَّ مولانا علينا جريرةً صبرنا لها إن الكرام الدعائم

وقال أبو الحسن: كان نجدة استخلف على البحرين هميان بن عدي السدوسي، فلما وافى مالك بن مسمعٍ ثأجٍ بعد الجفرة، كتب هميان إلى نجدة إنه قد ورد علينا قومٌ لهم شرف وقديم، لو قدموا على أبي بكرٍ وعمر لعرفا مكانهم، فإن رأيت أن أعطيهم من سهم المؤلفة فعلت، فكتب نجدة: ليس في عطية المؤلفة وقت معلوم، فأعطهم ماترى أنه يحل ان يعطى مثلهم،

فأعطاهم هميان كل ما كان في بيت المال ثم لحق بهم، وحمل نجدة مالكاً على ناقةٍ وحمل ابنه على فرسٍ، فكان ذلك مما أنكروه عليه.

قالوا: وفارق أبا فديكٍ قوم حين قتل نجدة، فقُتل به مسلم بن جبير، وهو من أهل الحجاز فوجأه اثنتي عشرة وجأة، وقال:

وخــالفت قـومي في دينهم خلاف صبا حين جاءت جنوبا
أرجــي الإلــه وغـفــرانــه ويـرجون درهمهم والجـريبـا

قالوا: فقتل مسلم، وحمل أبو فديك جريحا فبرأ. وسنكتب خبر أبي فديك ومقتله في موضعه إن شاء الله. وكان أبو فديك من الجرميين من ولد قيس بن ثعلبة بن عكابة.

خبر عبد الرحمن ابن بحدج بن ربيعة بن سمير بن عاتك ابن قيس من بني عامر بن حنيفة

قالوا: فارق عبد الرحمن بن بحدج نجدة ناقماً عليه، فأتى فارس فقال الأعلم ـ وهو نعمان بن عبادة بن فياض بن شراحيل النكري من عبد القيس ـ لعمر بن عبيد الله بن معمر، وهو على فارس: إن دخول هؤلاء بلداً أنت فيه وهنٌ، فندب ابن معمرٍ قوماً مع النعمان ووجهه إلى ابن بحدج، فصير النعمان على مقدمته أبا المنازل، وسار الأعلم، وكتب إلى عمر بن عبيد الله:

فلا أَعْرِفَنْكم بعدما تقرع العصا ترومون أمراً منكم متفاقما

فلما قرأ عمر البيت قال: أما النعمان فلا يرجع حتى يظفر أو يموت.

قالوا: وأصاب النعمان كسر في فخذه فأبطأ في السير، وتقدم أبو المنازل فلقي الخوارج فقاتلهم وصبروا جميعاً، ثمَّ تحاجزوا وانحاز الخوارج، ولزموا الطريق، فلقوا النعمان بذي القاف، فقاتلهم النعمان، فانكشف أصحابه وصبر فحمل عليه حسان بن بحدج فضربه فلم يصنع شيئا، وعانقه النعمان فصارا إلى الأرض، فضغطه النعمان إلى الأرض بصلبه حتى قتله النعمان، وحمل عبد الرحمن بن بن بحدج على النعمان فقتل كل واحد منهما صاحبه

ويقال بل حمل عبد الرحمن على النعمان فقتل النعمان وأتاهم أبو المنازل فقاتلهم وهو يقول:

إصبر على حظك فيما مضي فإنما النصر مع الصابر

فقتل عبد الرحمن بن بحدج، وانهزم الخوارج وتفرقوا.

قال المدائني: ذو القاف بين فارس والبحرين، وبعمان أيضاً موضع يقال له ذو القاف، وقومٌ يقولون: إن أبا فديك وجّه ابن بحدج، والخبر الأول أثبت.

وقال المدائني: ولم يزل النعمان النَّكْري مقيما بفارس، ولم يكن هاجر إلى البصرةِ، فلما قدم عمر بن عبيد الله بن معمرٍ فارس واليا للمصعب تلقاه النعمان، وكان جسيماً طويلاً، فقال عمر: إن هذا لخليق للبأس والنجدة، فقال: من أنت؟ قال: النعمان بن عبادة النكري، قال: أصحبني، فأكرمه وولاه شرطته، فلما وجهه إلى ابن بحدجٍ ولى مجاعة شرطته، وتزوجت امرأة النعمان بعده رجلاً من قريش، فقال لها رجل من عبد القيس:

إنك لن تستبدلي أم أيمن طوال الليالي فانكحي أو تأيمي

فكان يمر زوجها في الطريق فينشدون هذا البيت.

وقال الهيثم: ولى عبد الملك حين قتل مصعباً يزيد بن هبيرة المحاربي اليمامة، فخرج عليه خارجي يقال له سوار بن عبيدٍ، فخرج إليه بأهل اليمامة فقتله، وتزوج يزيد امرأةً من آل قيس بن عاصم، فأدخلت عليه وقد ألبست العصب والثياب الرقاق فقال:

للبس عبــاءة وتقــر عيـني أحب إلى من لبس الشفوف
وبكر يتبع الأظعان صعب أحب إلى من بغلٍ زفوف
وبيت تخفق الأرواح فيــه أحب إلى من قصرٍ منيف

وولى بعده أدهم بن عربي.

أمر عبد الملك بن مروان(١)

وأمّا عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، فأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية، وهو الذي جدع أنف حمزة بن عبد المطلب يوم أحدٍ، فقتل على أحدٍ بعد انصراف قريش بثلاثٍ، قتله علي بن أبي طالبٍ بأمر النبي ﷺ . وأمها فاطمة بنت عامر بن حزيم من بني جمحٍ، وأمها سكينة بنت أبي معيط.

بويع له في شهر ربيع من سنة خمس وستين بدمشق، ولعبد العزيز أخيه، واستخلف في شهر رمضان سنة خمس وستين وكانت ولايته بعد مقتل عبد الله بن الزبير ثلاث عشرة سنةً سنةً وثمانية أشهر، وقتل ابن الزبير في سنة ثلاثٍ وسبعين، وكانت فتنته تسع سنين، ومات عبد الملك وله اثنتان وستون سنةً، وصلى عليه الوليد بن عبد الملك، ودفن بمقبرة الباب الصغير وذلك في سنة ستٍ وثمانين، وكنيته عبد الملك أبو الوليد.

---

١ ـ بهامش الأصل: «خلافة عبد الملك بن مروان».

وقال الواقدي: مات وله ثلاثٌ وخمسون سنةً، وكان عبد الملك يلقب «رشح الحجر» لبخله، و«أبا الذبّان» لنتن فمه وفساد عمور أسنانهِ، واجتماع الذبَّان عليها وعلى شفتيه، ولم يزل يتنسك قبل الخلافة، وقد روى الحديث عن عثمان وأبي هريرة وأبي سعيدٍ الخدري، وكان معاوية ولاه ديوان المدينة بعد زيد بن ثابتٍ الأنصاري، ولما ولى عثمان مروان البحرين، ولاه هجر فقال فيه الشاعر:

وبدارين[١] من قريشٍ أميرٌ عبشمي نَفُاعُه ضَرَّارُ

ويقال إنه ولد لسبعة أشهر، وقال فيه ابن قيس الرقيات:

أنت ابن عائشة التي فضلت أروم[٢] نسائها
لم تلتفت للداتها ومضت على غلوائها[٣]

وقال أبو اليقظان: العرب تسمي الأبخر أبا الذبان، فلذلك قيل لعبد الملك أبو الذبّان.

وقال المدائني: كان عبد الملك آدم جميلاً أقنى كأنه من رجال يهوذ في تمامه.

وقال فيه ابن قيسٍ الرقيات:

يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه ذهب[٤]

---

١ ـ دارين: فرضة بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند. معجم البلدان.
٢ ـ الأرومة: الأصل.
٣ ـ البيت الأول فقط في ديوان ابن قيس الرقيات ص١١٨ .
٤ ـ ديوان ابن قيس الرقيات ص٥ .

فسمعه رجلٌ فقال: يعلم والله أنه قد رآه.

فولد عبد الملك: الوليد، وسليمان، ومروان الأكبر، وداود، درجا. وعائشة تزوجها خالد بن يزيد بن معاوية، وأمهم ولادة بنت العباس بن جزء بن بن الحارث بن زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة بن عبس، ولها يقول العجاج:

من بين مروان قريع الإنس وابنة عباس قـريع عبس[1]

وقال بعض الشعراء:

لقد أنجبت له إمامي بلاده فـإنهما مستـخلف ومـؤمـل

ويزيد ومروان الأصغر ومعاوية أمهم عاتكة بنتُ يزيد بن معاوية.

وهشاماً أمه أم هشامٍ واسمها عائشة بنت هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمربن مخزوم.

وأبا بكرٍ أمه عائشة بنت موسى بن طلحة بن عبيد الله.

والحكم وأمه أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان.

وعبد الله، ومسلمة، والمنذر، وعنبسة، ومحمداً، وسعيد الخير، وكان حين استنزل بنهر سعيدٍ [حفر النهر وعمر غيضته فلقب به] وكان يزيد يقول: إن سعيد الخير لأهل لأن أستخلفه.

والحجاج وقبيصة لأمهات أولادٍ شتى.

وفاطمة أمها أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة تزوجها عمر بن عبد العزيز.

---

١ ـ ديوان العجاج ـ ط. بيروت ١٩٧١ ص٤٨١.

وقال أبو اليقظان: سمى عبد الملك المنذر باسم رجلٍ من أهل الشام كان ناسكاً، وقد شهد المنذر هذا قتال حبيش بن دلجة الحنتف بالربذة، ولاأعلم له عقباً، قال وسمى قبيصة باسم قبيصة بن ذؤيبٍ الخزاعي، وكان قبيصةُ على خاتم عبد الملك وبيت ماله، وولد له الوليد بن قبيصة، فدرج ولاعقب له، قال: وسمى الحجاج باسم الحجاج بن يوسف، وقال عبد الملك:

سميته الحجّاجَ بالحجّاجِ
بالناصح المعاون الدماج
نصحا لعمري غير ذي مزاج

فوهب الحجّاج بن يوسف للحجاج بن عبد الملك داراً بدمشق تعرف بدار الحجاج، وكان أبو بكرٍ ضعيفاً، فكان يسمي بكارا، حج من المدينة حين وردها ماشيا على اللبود، وقتله بعد عبد الله بن علي، وولد لعنبسه بن عبد الملك الفيض بن عنبسة لا عقب له. ووجه عبد الملك عبد الله بن عبد الملك إلى الحجاج أيام ابن الأشعث، وإلى أهل العراق، فعرض عليهم عزل الحجاج فلم يقبلوا، فأمر الحجاج بقتالهم، وولاه أخوه الوليد بن عبد الملك حمص، وغزا الصائفة وولاه مصر فمرض، فكتب إليه الوليد أن أكتب لي أموالك فقال: اكتبوها له فليتني لم أعرف الوليد ولاأباه، ومات فقال الوليد: رحم الله عبد الله خاف التبعة في الآخرة وتحرج مما أصاب وقد جعلته من ذلك في حلٍ، فبكاه الشاعر وقال:

فهلا على قبر الوليد أخي الندى ... وقبر سليمان الذي عند دابق
وقبر أبي عمرو أخي وأخيهم ... بكيت لحزنٍ في الجوانح لاحق

وفيه يقول الشاعر:

فإن بمصر عبد الله يأسو ويجبر عظم ذي الكسر المهيض

وأوفد مسلمة بن عبد الملك مروان بن عبد الملك إلى يزيد بن عبد الملك بقتل يزيد بن المهلب، وأوصى عبد الملك الوليد وسليمان أن يستخلفا أحد ابني عاتكة يزيد أو مروان وهو الأصغر فمات مروان وكان ضعيفا وله يقول كثير:

أبا خالدٍ فارقت مروان عن رضا وكان يزين الأرض أن تنزلا معا[1]

وولد لمروان هذا: معاوية بن مروان، فولد معاوية الوليد بن معاوية، وكان من رجالهم ولي دمشق وله عقب.

وللحكم بن عبد الملك بن مروان يقول رؤبة[2]:

ياحكم الوارث عن عبد الملك
ميراث أحساب وجود منسلك
إليك أشكو عض دهرٍ منتهك
بالمنكبين والجران مبترك
وقد علمنا ذاك علماً غير شك
أنك بعد الله إن لم تَدَّرِك
مفتاح حاجاتٍ أنخناهن بك
فالذكر فيها عندنا والأجر لك
مابعدها من طلبٍ ولا دَرَكْ

١ ـ ليس في ديوانه المطبوع.
٢ ـ ديوان رؤبة بن العجاج ـ ط. لايبزغ ١٩٠٣ ص١١٨ مع فوارق.

وقال عبد الملك في بنيه:

يـزيـد زيـادة الـرحمن فينـا وصاحب عزوة الأمر الشديد
ومروان الصفي صفي نفسي شبيـه النفس مني والجـدود
وعبد الله صاحب كل حربٍ وغـزو تحت أبدان الحـديد
فقـد علقت حُبّهم جميعاً عـلى أنَّ الخـلافـة للوليـدِ
سليمان الشعار شعـار قلبي أحبُّ إلى من ذَوْب الشهودِ
ورأيي في هشـام أنَّ فيـه حيـاةً للجنـود وللوفـود

وقالوا: تزوج عبد الملك شقراء بنت مسلمة بن حنظلة الطائي، وصفت له، وكان الواصف لها ابن معرض الطائيّ، فقال: والله لوددت أن الله جعل حظ طيءٍ كلها من نار جهنّم في حر شقراء ليلتها هذه وكانت عظيمة الركب، ويقال بل خرج عبد الملك متنزهاً، فرأى خباءً حريداً فوقف عليه، فخرج إليه أبو شقراء فقال له عبد الملك: ماأنزلك مُتَنَحِّياً؟ فقال إن لي ابنةً لها بهاء قرشيةٍ، وحسن غطفانية، وفم طائيةٍ، وجسم عامريةٍ، فتزوجها فماتت عنده فصالحهم من ميراثها على ألف ألف درهم.

وكتب عبد الملك إلى هشام بن إسماعيل وهو بالمدينة اخطب عليَّ امرأةً من قريش من كمالها ومن طولها ومن بياضها فكتب إليه: إني لاأعلم هذه الصفة إلا في بنات المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وكان المغيرة جميلاً، وكنَّ بناته ذوات جمالٍ وكمال، وللمغيرة يقول الشاعر:

ألا يـاأيها الأعـراب سيروا فـما بعد المغيرة من مقام

المدائني عن إبراهيم بن سعدٍ أنَّ عبد الملك رأى في منامه كأن امرأته المخزوميّة قلعت رأسه، ثم لطعت منه عشرين لطعةً[1]، فبعث إلى سعيد بن المسيب من سأله عن الرؤيا، فقال: تلد منه ولداً يملك عشرين سنةً، فولدت هشاماً فملك عشرين سنةً، ويقال إنه رأى أيضاً كأنه وتدت في ظهره أوتادٌ، فقصت رؤياه على سعيدٍ، فقال: يخرج من صلبه أولاد يلون الخلافة.

وتزوج عبد الملك ابنةً لعليّ بن أبي طالب، وتزوّج أمَّ أبيها بنت عبد الله بن جعفرٍ فطلقها، وقد ذكرنا قصتها فيما تقدَّم من أخبار آل أبي طالب.

وتزوج أم الحكم بنت ذؤيب بن حلحلة بن عمروٍ الخزاعي، وهي أخت قبيصة بن ذؤيب صاحبه.

وأما مسلمةُ بن عبد الملك فسنذكره بعد هذا الموضع إن شاء الله، وكان صاحب رأيهم، وفتح الطوانة وغزا الصوائف غير مرةٍ ومات بالحانوتة من مضر[2] سنة إحدى وعشرين ومائة وكان مولده عام أخرج ابن الزبير بني أمية من المدينة.

---

١ ـ اللطع: اللحس، وأن تضرب الانسان برجلك، ولطعه بالعصا: ضربه. القاموس.

٢ ـ الحانوته أو الناعورة على الفرات قرب الرقة كان فيه قصر لمسلمة بن عبد الملك من حجارة صلدة. بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم ـ ط. دمشق ١٩٨٨ ج١ ص٦٤.

ما قيل في عبد الملك
وأخباره بعد مقتل ابن الزبير

المدائني عن مسلمة قال: رأى معاوية عبد الملك فقال: هذا أبو الملوك.

المدائني عن عبد الله بن بكر السهمي قال: قال عمرو بن العاص: كنت عند معاوية وعنده عبد الملك، فلمّا قام أتبعه بصره، ثمّ قال لله درُّ هذا الفتى ماأعظم مروءته.

المدائني عن المنهال بن عبد الملك قال نظر رجلٌ إلى عبد الملك، وكانت في رأسه شامة مدورةٌ، فقال: أما ليملكنَّ فقال: ليت لنا من عرفجٍ خوصةً[1].

المدائني وغيره قالوا دخل عبد الملك على يزيد بن معاوية فقال ياأمير المؤمنين إنَّ لك أرضاً بوادي القرى ليست لها غلةٌ فإن رأيت أن تأمر لي بها

١ ـ العرفج شجر وقيل هو ضرب من النبات، له ثمرة خشناء كالحسك. معجم أسماء النباتات الواردة في تاج العروس لمحمود مصطفى الدمياطي ـ ط . القاهرة ١٩٦٥ . وانظر المثل في معجم الأمثال العربية لرياض مراد . ط . الرياض ١٩٨٦ . ج ٣ ص ١٥٣ .

فقال يزيد: إنا لانخدع عن صغيرٍ ولا نُبَخَّل بكبيرٍ، قال: فإن فيها كذا وكذا، قال: هي لك، قال: فلمّا ولى قال يزيد: هذا الذي يقال إنه يلي بعدنا، فإن كان ذلك باطلاً فقد وصلناه، وإن كان حقاً فقد صانعناه.

المدائني قال: قال عبد الله بن صفوان رأى عثمان عبد الملك فضمه إليه وقال: رأيتني أخذت برنسي فوضعته على رأسه، وقد ولده أبو العاص مرتين، ولئن خرجتْ مني إليه ماذاك بكبير.

المدائني والحرمازيُّ عن العتبي قالا: قال سعيد بن العاص، وبعضهم يقول عمرو بن العاص: لله درُّ عبدِ الملك مازلت أعرفه آخذاً بأربعٍ تاركاً لثلاثٍ، آخذاً بقلوب الرجال إذا حدث، وبحسن الإستماع إذا حدث، وبترك الجدال إذا خولف، وبإظهار البشر إذا لقي، تاركاً لخلة الظنين في دينه، وملاحاة الغلق خوفاً لشِذَّاته، وللدخول فيما لايعنيه هذا مع حلمٍ وعلمٍ.

المدائني قال: وصف رجلٌ عبد الملك، فقال: إنه ليترك مخالفة الجليس توقّياً لسوء المجالسة، ويدع مماراة اللجوج كراهةً لعداوته.

المدائني عن أبي هاشم الحراني، كاتب بشر بن مروان قال: قال عبد الملك للشعبي، حين وفد عليه وحدثه: لقد حدثتني بأحاديث قد مرت بمسامعي، ولكني أنصت حتى تظن أني لم أسمعها، وإنَّ ذلك لطرفا من الأدب.

حدثني الحسين بن الأسود عنَ يحيى بن آدم، عن وكيعٍ قال: حدثنا الأعمش عن ذكوان قال: كان فقهاء المدينة يعدون أربعةً، منهم عبد الملك بن مروان.

حدثني روح بن عبد المؤمن قال: حدثنا وهب بن جريرٍ عن أبيه عن نافع قال: لقد رأيت المدينة ومابها شاب أشدُّ تشميراً، ولاأملك لنفسه، ولاأظهر مروءة من عبد الملك بن مروان.

قال: وكان يقال لعبد الملك بالمدينة حمامة المسجد لعبادته.

قال: وشُكيَ بعض العمّال إلى ابن عمر، وعبد الملك يصلي إلى ساريةٍ، فقال ابن عمر: لو وليهم عبد الملك هذا مارضوا به، يضرب به المثل في الفضل والصلاح.

المدائني وغيره إن عبد الملك قال حين وجّه يزيد بن معاوية الجيش إلى ابن الزبير: ليت السماء وقعت على الأرض، إعظاماً لذلك، ثم إنه ابتلي بعد ذلك بأن وجّه الحجاج فقتله بمكة ورمى البيت.

وحدثني العمري عن الهيثم بن عدي عن مجالدٍ عن الشعبي قال: دخلت على عبد الملك فقلت: أنا الشعبي ياأمير المؤمنين. فقال: لو لم نعرفك لم نأذن لك، فلم أدر ماأقول، فقال: علم بَنيَّ الشعر، فإنه يُنَجِّدهم ويمجدهم.

وحدثني هشام بن عمار عن أبيه قال: مرَّ ابن زملٍ العذريُّ بسعيد بن المسيب فدعاه فجاءه، وهو في المسجد، فقال: بلغني إنك مدحت عبد الملك فأنشدني ماقلت فيه فأنشده:

فما عابتك في خلقٍ قريش بيثرب حين أنت بها غلامُ

فقال: صدقت كذا كان وهو عندنا.

وقال المدائنيُّ عن الأشياخ: بايع مروان بن الحكم لأبنيه: عبد الملك، وعبد العزيز حين رجع من مصر بالصِّنَّبْرَة[١]، أو بدمشق وولى عبد الملك فلسطين، فلما مات مروان أتاه عبد الرحمن بن أم الحكم، فسلم عليه بالخلافة. وقال المدائني: لما قتل عبد الملك عمرو بن سعيدٍ قال ابن الزبير: إن أبا الذبَّان قتل لطيم الشيطان ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾[٢] وبلغ ذلك ابن الحنفيَّة فقال: ﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾[٣] يرفع له يوم القيامة لواء بغدرته، ويلعنه الله والملائكة.

وقال الواقدي: كان عبد الملك يكنى أبا الوليد عابداً ناسكاً قبل الخلافة، وسمع من عثمان، وأبي سعيدٍ الخدري، وأبي هريرة، ومات بالشام سنة ستٍ وثمانين، وقبض وله ثمانٍ وخمسون سنةً.

وروى مروان عن عمر وعثمان وهاجر النبي ﷺ إلى المدينة وله ثمان سنين، ومات سنة خمسٍ وستين وله ثلاث وسبعون سنةً.

وقالوا:كتب عبد الله بن عمر حين قتل ابن الزبير إلى عبد الملك بن مروان: «من عبد الله بن عمر، سلامٌ عليك، فإني مقرٌّ لك بالسمع والطاعة على سنة الله عزّ وجلّ وسنَّة رسولهِ ما استطعت».

المدائني عن محمد بن صالح عن إسماعيل بن أبي خالدٍ عن الشعبي قال: كتب ابن عمر إلى عبد الملك بالبيعة، فقيل لعبد الملك: أترضى بأن يكتب إليك بمثل هذا؟ فقال: هذا من أبي عبد الرحمن كثير.

---

١ ـ قرب طبرية.
٣ ـ سورة الأنعام ـ الآية: ١٢٩ .
٤ ـ سورة الفتح ـ الآية: ١٠ .

وكتب ابن الحنفية ببيعته، وقد كتبنا خبره وخبر عبد الملك والحجَّاج فيما تقدَّم من خبر ابن الحنفية.

قالوا: ووفد الحجَّاج إلى عبد الملك بعد قتل ابن الزبير، وأوفد معه ابن الحنفية، وعبد الله بن عمرو بن عثمان، وعمر بن عبد الرحمن بن عوفٍ، وعيسى بن طلحة، ومحمد بن سعد بن أبي وقاص في رجالٍ آخرين، قالوا: فدخل عيسى بن طلحة على عبد الملك في هذه الوفادة، ويقال في غيرها، فسأله أن يخليه، فقال: إنه ليس دون الحجَّاج سرٌّ، فقال: والله لئن لم تخلني لاقبلتَّ صلتك ولأرجعنَّ ساخطاً، قد قطعت رحمي فأخلاه، فقال: ياأمير المؤمنين سلطت علينا هذا الغلام من ثقيف، لايعرف لقومك حقاً، فقال: إنكم ماتعرفون منه شيئاً إلا وأنا عارفٌ به، وأنا عازله عنكم عزلاً جميلاً، فلا يسمعن هذا منك أحدٌ فإني أخبره أنك أثنيت عليه، وخرج فأخبر عبدُ الملك الحجَّاج أنَّ عيسى أثنى عليه، فأتى الحجاجَ عيسى فوقف عيسى على بابه ووصله. وقال بعضهم: انَّ المتكلم بهذا الكلام والذي أخلاه عبد الملك عمر بن عبد الرحمن بن عوفٍ.

حدثني حفص بن عمر العمري عن الهيثم بن عدي عن يونس بن يزيد الأيلي عن الزهري قال: سمع عبد الملك بعض أهل الشام ممن توجَّه إلى ابن الزبير أيام يزيد بن معاوية يقول: والله لنرمينَّ البيت بالحجارة والنار إن أقام الملحد ابن الزبير على ماهو عليه، على رغم أنف من رغم، فقال عبد الملك: فإني أشهد الله أنَّ أنفي إن كان ذلك، وأعوذ بالله، أول راغم، قال: فلم يلبث أن رماه الحجَّاج وهو عامله وصاحبه بأمره.

وحدثني أبو مسعودٍ الكوفي عن عوانة عن أبيه قال: كان عبد الملك أول خليفةٍ بُخِّلَ، وكان يقول: إعطاء الشعراء من السرف، ولكنهم قوم يتأتى لهم من الذم الباقي السائر ما لايتأتى لغيرهم فأنا أتقيهم ببعض النوال ولاأتجاوز القصد.

وحدثني المدائني عن مسلمة بن محاربٍ قال: لما مات مروان صلى عليه عبد الملك ودفنه، ثمَّ صعد المنبر فقال: إني والله ماأنا بالخليفة المصانع، ولا الخليفة المستضعف، ولاالخليفة المطعون عليه[1]، إنكم تأمرونا بتقوى الله وتنسون ذلك من أنفسكم، والله لايأمرني أحد بعد يومي هذا بتقوى الله عزّ وجلّ إلا ضربت عنقه ثمَّ نزل.

المدائني عن عوانة قال: قال عبد الملك: زينة الكهل العلم، وَجُنَّتُه الحلم.

المدائنيُّ قال: تزوج عبد الملك ولادة بنت العباس العبسي فولدت له الوليد وسليمان، فقال عثمان بن مسعود العبسي يوماً للحضين بن المنذر: ياحضين أنت عجوز بكر بن وائل، فقال: لاولكني كبيرها وسيدها، وأنت من قومٍ سادهم في الجاهلية عبد يعني عنترة وتقدمهم في الإسلام بحرٌ إن ندى نديتم، وإن جفَّ جففتم.

حدثني الحسين بن علي بن الأسود عن أبي بكر بن عياش عن حصين قال: قال الشعبي: وفدت على عبد الملك، فما أخذت في حديثٍ أرى انه لم يسمعه إلا سبقني إليه، وربما غلطت في الشيءِ وقد علمه فيتغافل عنّي تكرّما.

---

١ - بهامش الأصل: عنى بالمصانع معاوية، وبالمستضعف عثمان، وبالمطعون عليه يزيد.

المدائني قال: أتى رجلٌ عبد الملك فقال له: إنَّ لك عندي يا أمير المؤمنين نصيحة في فلانٍ، فقال له: نسمعها منك على أنك إن كنت صادقاً مقتناك، وإن كنتَ كاذباً عاقبناك، وإن أحببت أن نقيلك أقلناك؟ قال: فأقلني، قال: قد فعلت.

الحرمازيُّ عن جهمٍ السليطي قال: دخل أعرابي على عبد الملك فسألهُ فقال: إنَّ علينا في مالنا حقوقاً هي أوجب من حقك، فقال: والله لو كنت مثلك مامنعت راغباً، فقال: أعطوه، فأبى قبول عطيته وخرج، فقيل له: لم امتنعت من قبول صلته؟ فقال: إن يد البخيل ثقيلة.

وحدثني عباس بن هشامٍ عن أبيه عن عوانة قال: دعا عبد الملك بمؤدب ولده فقال: إني قد اخترتك لتأديب ولدي وجعلتك عيني عليهم وأميني، فاجتهد في تأديبهم ونصيحتي فيما استنصحتك فيه من أمرهم، علمهم كتاب الله عزّ وجلّ حتى يحفظوه وقفهم على مابيّنَ الله فيه من حلالٍ وحرامٍ حتى يعقلوه، وخذهم من الأخلاق بأحسنها، ومن الآداب بأجمعها، ورِوهم من الشعر أعفه، ومن الحديث أصدقه، وجنبهم محادثة النساء، ومجالسة الأظناء، ومخالطة السفهاء، وخوفهم بي، وأدبهم دوني، ولاتخرجهم من علم إلى علم حتى يفهموه، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلةٌ للفهم، وأنا أسأل الله توفيقك وتسديدك، ثم أسمى له الرزق، وبدأه بصلةٍ حسنةٍ.

حدثني أبو أيوب الرقيُّ المؤدب عن أبيه قال: دعا عبد الملك مؤدب ولده فقال له: رو ولدي ما في هذا القرطاس، وإذا فيه وصيةُ معاوية فكانت:

«بسم الله الرحمن الرحيم يابني أمية إنّه لّما قرب مني ماكان بعيداً، وخفت أن يسبق الموت إليَّ، ويسبقكم بي سبقته إليكم بالموعظة، لأبلغ عذراً، وإن لم أردَّ قدراً، إن الذي أخلفه لكم من دنياي أمرٌ تشاركون فيه، أو تقبلون عليه، وإن الذي أخلف لكم من رأيي مقصور عليكم نفعه إن فعلتموه، مخوفٌ عليكم ضرره إن ضيعتموه فاجعلوا مكافأتي قبول نصيحتي، وإن قريشاً شاركتكم في أنسابكم وتفردتم دونها بأفعالكم، فقدمكم ما تقدمتم فيه إذ أخر غيركم ماتأخروا له، ولقد جُهر لي فعلمت، ونُعم لي ففهمت حتى كأني أنظر إلى أولادكم بعدكم كنظري إلى آبائهم قبلهم، إنَّ دولتكم ستطول وكلُّ طويلٍ مملول، وكل مملولٍ مخذول، فإذا انقضت مدتكم كان أول ذلك اختلافكم بينكم، واتفاق المختلفين عليكم، فيدبر الأمر بضد ماأقبل به، فلست أذكر عظيماً يُنال منكم ولاحرمةً تنتهك لكم إلا وماأكف عن ذكره أعظم منه، فلا معول عليه عند ذلك أفضل من الصبر واحتساب الأجر، فيا لها دولةٍ أنست أهلها الدول في الدنيا، والعقوبة في الآخرة، فيمادكم القوم دولتكم تماد العنانين في عنق الجواد، فإذا بلغ الله بالأمر مداه، وجاء الوقت الذي حده رسول الله ﷺ، ضعفت الحيلة، وعزب الرأي وصارت الأمور إلى مصائرها فأوصيكم عندها بتقوى الله عزّ وجلّ الذي يجعل لكم العاقبة إن كنتم متقين».

حدثني هشام بن عمار عن الوليد عن روح بن جناح عن الزهري أن عبد الملك رأى عند بعض ولده حديث المغازي، فأمر به فأحرق، وقال: عليك بكتاب الله فاقرأه، والسنة فاعرفها واعمل بها.

وكان المنصور أمير المؤمنين يقول الخلفاء ثلاثة: معاوية وكفاه زياد، وعبد الملك وكفاه الحجَّاج، وأنا ولا كافي لي.

وقال المنصور أيضاً وذكر ملوك بني أمية: كان عبد الملك أشدهم شكيمة، وأمضاهم عزيمة، وكان هشام رجلهم.

حدثني الحرمازي عن أبي عبيدة قال: كانت عبس تستطيل بتزويج عبد الملك ولادة بنت العباس العبسي، فقال الوليد بن القعقاع العبسي ليزيد بن عمر بن هبيرة: يابن الفرار، فقال يابن الضراط، قال الوليد: يابن اللخناء، قال:

بل أنت نزوة خَوَّارٍ على أَمَةٍ لا يُدرِك الحلباتِ اللؤم والخَوَرُ

قال ابن هبيرة: يابن الفجواء[1] لقد قدمتك أعجاز النساء وقدمني صدور الخيل والقنا.

وحدثني هشام بن عمّار قال: حدثني الوليد بن مسلمٍ قال: سمعت شيخا من أهل دمشق مسنّا يحدّث عن أبي الزعيزعة قال: قال عبد الملك للهذيل بن زفر، وحاتم بن النعمان الباهلي: إني أريد اختصاصكما ومجالستكما، فلا تمدحاني في وجهي، فإني اعلم بنفسي منكما، ولاتطريا عندي ظنيناً فأستغشكما، ولا تكذباني فليس لمكذوب رأي، ولاتغتابا عندي أحداً، وقولا ماشئتما.

وحدثني عمر بن بكيرٍ عن الهيثم بن عديٍ عن ابن عيّاش الهمذاني قال: دعا عبد الملك الهذيل بن زفر بن الحارث الكلابي، وحاتم بن النعمان

١ ـ التفجية: الكشف والتنحية، والفجا: تباعد ما بين الفخذين أو الركبتين، أو الساقين. القاموس.

الباهلي، فقال: إني قد عزمت على ان تجالساني وتسامراني، فلا تمدحاني في وجهي فإني أعلم بنفسي منكما، ولاتطريا عندي فاسقاً فأمقتكما، ولاظنيناً فأستغشكما، ولاتكذباني فإنه لارأي لمكذوب، ولاتغتابا عندي أحداً، وقولا بعد ذلك ماشئتما.

قال: فكان الهذيل يتبع هواه فيما له وعليه مما يشينه ويزينه، وكان حاتم بن النعمان يخالفه فيما خاف عليه عاقبته وضرره، فقال له الهذيل: ياأمير المؤمنين إنما يخالفك حاتم ليري الناس جرأته عليك، فوقع ذلك في نفس عبد الملك فجفاه وحجبه، فبينا عبد الملك يسير في مسيرٍ له: إذ بصر بحاتمٍ في الموكب فدعا به، وقال له: مالي لاأراك في مسيري إذا سرت، ونزولي إذا نزلت؟ فقال: ماأبرح من عسكر أمير المؤمنين أصلحه الله، ولاأخرج عنه، وقال:

إن مسيري في المسير ومنزلي لبالمنزل الأقصى إذا لم أُقَرَّبِ
ولست وإن أدنيت يوماً بقائل مقالة ذي غش لكم لتحبب
وقد عدها قوم كثير تجارةً ويمنعني من ذاك ديني ومنصبي
وإني أرى حق الإمام ونصحه وطاعته فرضاً كما هي للأب

فدعاه وأدناه وسمع منه.

حدثني محمد بن مصفى الحمصي عن الوليد عن بعض ولد عمر بن عبد العزيز قال: قدم عبد العزيز بن مروان علي أخيه عبد الملك من مصر في بعض الأمور، فلما أراد الشخوص إليها قال له: انظر ماأوصيك به فاجعله لك إماماً: ابسط بشرك، وألن كنفك، وآثر الرفق في الأمور فهو ابلغ بك، وانظر حاجبك فليكن من خير أهلك، فإنه وجهك ولسانك، ولايقفنَّ أحد

ببابك إلا أعلمك مكانه لتكون أنت الذي تأذن له أو ترده، وإذا خرجت إلى مجلسك فابدأ جلساءك بالكلام يأنسوا بك، وتثبت في قلوبهم محبتك، وإذا انتهى إليك أمر مشكل فاستظهر عليه بالمشاورة فإنها تفتح مغاليق الأمور المبهمة، واعلم أن لك نصف الرأي، ولأخيك نصفه، ولن يهلك أمرؤ عن مشورة، وإذا سخطت على أحدٍ فأخر عقوبته فإنك على العقوبة بعد التوقف عنها أقدر منك على ردها بعد إمضائها.

حدثني عبّاس بن هشامٍ عن أبيه عن عوانة قال: كان عبد الملك جالساً وعنده قوم من الأشراف، فقال لعبيد الله بن زياد بن ظبيان البكري: ياعبيد الله بلغني أنك لاتشبه أباك؟ فقال: بلى والله إني لأشبه به من الماء بالماء، والقتة بالقتة، والتمرة، بالتمرة، والغراب بالغراب، ولكن إن شئت أخبرتك بمن لم تنضجه الأرحام، ولم يولد لتمامٍ، ولم يشبه الأخوال والأعمام. قال: ومن هو؟ قال: سويد بن منجوفٍ فلمّا خرج عبيد الله وسويد، قال سويد: والله مايسرني بمقالتك له حمر النعم، قال عبيد الله: ومايسرني والله باحتمالك إياي وسكوتك عني سودها، وإنما عرض بعبد الملك، وكان ولد لسبعة أشهر.

قالوا: ودخل أبو العبَّاس الكناني الأعمى على عبد الملك فقال له: أخبرني عن مصعب فأنشده قوله فيه:

يرحم الله مصعباً إنه ما ت كريماً ورام أمراً عظيما
طلب الملك ثمَّ مات حفاظاً لم يعش باخلاً ولا مذموما
ليت من عاش بعده من قريش[1] موتوا قبله وعاش سليما

١ - بهامش الأصل: من بني العوام.

فقال عبد الملك: صدقت كان مصعبٌ نابا من أنياب قريشٍ، وصنديداً من صناديدها.

حدثني أبو هشام الرفاعي عن عمّه كثير بن محمدٍ عن ابن عياشٍ المنتوف قال: قال عبد الملك: شممت الطيب حتى ماأبالي رائحة ما وجدت، وأتيت النساء حتى ماأبالي رأيت امرأةً أم حائطاً، وأكلت الطعام حتى ماأبالي ماأكلت، ومابقيت لي لذة إلا في محادثة رجلٍ ألقي التحفظ بيني وبينه.

وحدثني أبو أيوب الرقي عن الحجاج بن أبي منيعٍ الرصافي قال: أوصى عبد الملك ولده، وأهل بيته، فقال: يابني مروان ابذلوا معروفكم، وكفوا أذاكم، واعفوا إذا قدرتم ولاتبخلوا إذا سئلتم، ولاتلحفوا إذا سألتم، فإنه من ضَيَّقَ ضُيِّقَ عليه، ومن وسع وسع عليه.

المدائني قال: قيل لعبد الملك: قد شبت ياأمير المؤمنين؟ فقال: وكيف لا أشيب وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة - يعني الخطبة -.

حدثني أبو صالحٍ الأنطاكي عن الحجَّاج بن محمدٍ عن ابن جريجٍ عن إسماعيل بن محمدٍ قال: قدم علينا عبد الملك حاجاً في سنة خمس وسبعين، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد ذلكم أيها النَّاس فلست بالخليفة المستضعف - يعني عثمان - ولا بالخليفة المداهن - يعني معاوية - ولا بالخليفة المأفون - يعني يزيد - ألا وإن من قبلي من الولاة كانوا يأكلون ويؤكلون، وإني والله لاأداويكم إلا بالسيف، فمن أحبَّ أن يبدي صفحته فليفعل، فلا تكلفونا أعمال المهاجرين، ولستم تعملون أعمالهم، فوالله مازلتم تزدادون استجراحاً ونزداد لكم عقوبةً، حتى التقينا نحن وأنتم عند السيوف، هذا عمرو بن سعيد قال براسه كذا، فقلنا بسيفنا كذا، ألا فليبلغ

الشاهد الغائب إنه ليست من لعبةٍ إلا ونحن نحتملها، مالم تبلغ أن تكون صعود منبرٍ أو نصب رايةٍ، ألا وإن جامعة عمرو بن سعيدٍ التي جعلناها في عنقه عندنا، وإني أعطي الله عهداً أن لاأجعلها في عنق أحدٍ فأخرجها منه إلا صعداً، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

المدائني عن مسلمة قال: قال عبد الملك: إن الخلفاء قبلي كانوا يداوونكم بأدوائكم، فيأكلون ويؤكلون، وإني والله لاأداويكم، إلا بالسيف، إن الله عزَّ وجلَّ فرض فرائض وحدَّ حدوداً، فما زلتم تزدادون في الذنوب ونزداد في العقوبة حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف، فليبق امرؤ على نفسه.

المدائني عن ابن جعدبة قال: هدم ابن الزبير الدور التي كانت حول الكعبة، وقال: أنتم حللتم على الكعبة ولم تحلَّ عليكم، ولم يعطهم أثمان دورهم، فلما قتل تظلموا إلى عبد الملك فقال: إن كان أخذ حقاً فليس لكم عليه سبيل، وإن كان ظلمكم، فإني لاأحب إخراجه من الظلم.

قالوا: دخل حميد بن ثور الهلالي على عبد الملك فقال له: ماالذي أقدمك ياحميد؟ فقال:

أتاك بنا الله الذي فوق من ترى

قال عبد الملك: وماذا؟ قال:

وفضل ومعروف عليك دليل

قال: وماذا؟ قال:

ومطوية الأقراب أما نهارها فسير وأمَّا ليلها فذميل

فوصله وأعطاه.

المدائني قال: خطب عبد الملك أهل المدينة. وقد قدمها يريد الحجَّ فقال: إني لأعلم أني لاأحبكم ماذكرت قتل عثمان، وأنَّكم لاتحبوني ماذكرتم الحرَّة وحبيش بن دلجة، فأنا وأنتم كما قال الشاعر:

أبى لي قبرٌ لايزال مواجهي وضربة فأسٍ فوق رأسي فاقره

قال: وكان عبد الملك يتهدد أهل بيته بمثل ماصنع بعمرو بن سعيدٍ، فكتب إليه عبد الله بن عمرو بن عثمان: «إنك قد عرفت بلاء عثمان عندك، وعند أهل بيتك، ورفعه أقداركم، وماأوصاك به مروان من قضاء دين عمرو بن عثمان، وتأخيرك ذلك، فإن تؤثر ماأوصاك به أبوك فأهله نحن، وإلا تفعل فسيغني الله عنك والسلام».

وكان مروان أوصى عبد الملك بقضاءِ دين عمروٍ. فكتب إليه عبد الملك: قد أتاني كتابك، وعمرو بن سعيدٍ كان أقرب منك رحماً، وأوجب عليَّ حقاً، فأخطأ موضع قدمه، ففرَّقت بين رأسه وجسده، وقد هممت بأن ألحقك به.

فكتب إليه عبد الله بن عمرو: أتاني كتابك بما ذكرت ممَّا هممت، فإن تفعل فإني رجلٌ معرقٌ لي في الشهادة، أنا ابن أمير المؤمنين عثمان، وابن أمير المؤمنين عمر، وكانت أمُّه حفصة بنت عبد الله بن عمر.

المدائني عن علي بن حمَّاد قال: قال عبد الملك السياسة هيبة الخاصة، مع صدق مودتها، وإفساد قلوب العامَّة بالإنصاف لها، واحتمال هفوات الصنائع، فإن شكرها لأقرب الأيادي إليها.

حدثني عبَّاس بن هشامٍ الكلبي عن أبيه عن أبي مخنفٍ وغيره أنَّ عبد الملك كان فاسد الفم، فوقعت فيه الإكلة، فكان ينادي ياأهل العافية

لاتستقلوها، فيسمع صوته بذلك من عدَّة منازل، فلمَّا اشتدت به العلَّة دعا بنيه فقال لهم حين حضروا: يابني أوصيكم بتقوى الله فإنها عصمةٌ باقيةٌ وجنةٌ واقية، وقروا كبيركم وأرحموا صغيركم، وابذلوا للنَّاس معروفكم، وجنبوهم أذاكم، وأكرموا مسلمة بن عبد الملك فإنه سنكم الذي به تتزينون، ونابكم الذي عنه تفترون، وسيفكم الذي به تصولون، فاقبلوا قوله، واصدروا عن رأيه، وأسندوا جسيم أمركم إليه، وأكرموا الحجَّاج بن يوسف، فإنه وطأ لكم المنابر ودوخ لكم البلاد، قد عرفتم بلاءه في الملحد ابن الزبير، وفي طغاة أهل العراق، واجتهاده في طاعتنا، ومحاماته علينا ولم يلبث أن مات، فصلى عليه الوليد.

المدائني عن عامر بن حفصٍ قال: مرض صديق لعبد الملك بن مروان من جرحٍ كان به، فقال لروح بن زنباعٍ الجذامي: أتيت فلاناً؟ قال: نعم، قال: فأين جرحه؟ قال في عجانه، قال: مه، ثمَّ قال لشبة بن عقالٍ: اذهب فانظر أين جرحه، فمضي ثمَّ أتاه فقال: جرحه بين الثنة والصفنة، وهي جلدة الخصيتين، فقال عبد الملك لروحٍ: قل كذا.

المدائني عن خالد بن يزيد بن بشرٍ عن أبيه: إنّ عبد الملك أتي برجلٍ من قيس فقال له: زبيري عميري يعني عمير بن الحباب، فقال له: والله لايحبك قلبي أبداً، قال: ياأمير المؤمنين إنما يبكي على الحب المرأة، ولكنَّ عدلاً وإنصافاً.

حدثني حفص بن عمر عن الهيثم بن عدي عن عوانة وابن عيَّاش قالا: دخل الهيثم بن الأسود النخعي على عبد الملك، وقد أتي بخارجي من النخع، وعبد الملك يحلف ليقتلنه فقال للهيثم: هـذا رجلٌ من

قومك، قال: ياأمير المؤمنين فهب جاني قومٍ لوافدهم، قال: هو لك، فخرج الهيثم والخارجي معه وهو يقول: تألَّى على الله فَكَذَّبَهُ، وغالب الله عزَّ وجلَّ فغلبه. وقومٌ يزعمون أن الهيثم قال هذا لمعاوية، وقوله إياه لعبد الملك أثبت.

المدائني عن شبيب بن شبَّة قال: قال أمير المؤمنين المنصور - وذكر بني أمية - أمَّا عبد الملك فكان جباراً لايبالي ماأقدم عليه، وأمَّا الوليد فكان مجنوناً، وأمَّا سليمان فكان همَّه بطّنه، وأمَّا عمر بن عبد العزيز فكان أعور بين عميان، وأمَّا يزيد بن عبد الملك فكان ركيكا ماجناً، ورجل القوم هشام.

المدائني عن مسلمة قال: وفد الحجَّاج بن يوسف على عبد الملك، فدخل عليه وعنده خالد بن يزيد بن معاوية فقال له خالد: إلى كم هذا البسط، إلى كم هذا القتل؟ فقال الحجَّاج: مادام بالعراق رجلٌ يزعم أنَّ أباك كان يشرب الخمر، فأسكته.

حدثني أبو مسعودٍ الكوفي عن ابن الكلبي عن عوانة قال: دخل ولد مسلم بن عقبة المري على عبد الملك، فقال لهم: إنَّ أباكم كان جلداً لئيماً، فمضى بجلده وخلف فِيكم لؤمه فلا حاجة لنا بكم.

المدائني عن عوانة إن حسان بن مالك بن بحدل الكلبي، ومنظور بن زبَّان بن سيَّار مرضا، فعادهما عبد الملك، وهو خليفة فبدأ بحسَّان، ثم بمنظور، ثم خرج وهو يقول:

فما لي في دمشق ولا قراها مبيت إن عرضت ولا مقيل
وما لي بعد حسَّانٍ سميرٌ وما لي بعد منظورٍ خليل

وحدَّثني عبَّاس بن هشامٍ الكلبي عن أبيه عن عوانة قال: مرض حسَّان بن مالك بن بحدلٍ، ومنظور بن زيد بن أفعى الكلبي أحد بني حارثة بن عبد ودٍ، فعادهما عبد الملك وقال:

فما لي في دمشق ولا قراها مبيت إن عرضت ولامقيل
وما لي بعد حسَّان سميرٌ وما لي بعد منظورٍ خليل

وهذا أثبت وأصحُّ.

المدائني عن زيد بن عياض بن جعدبة قال: حجَّ عبد الملك، فلقيه عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم الشاعر، فلما سلم عليه قال: ويحك أما ترعوي من فتونك، لقد علمت قريشٌ أنك من أطولها صبوَّةً، وأبطأها توبةً، وجفاه فقال عمر: ياأمير المؤمنين بئست التحية من ابن العم لابن عمه على طول النوى. وقيل له: يا أمير المؤمنين سلم عليك ابن أبي ربيعة، وهو فتى قريشٍ وشاعرها فلقيته بالغلظة والجفوة، فلو دعوته فآنَسْتَ وحشته، وبسطته، فدعاه، فدخل عليه، وجارية تغمز رجله، وأخرى تغمز رأسه، فقال له: إني كنت ضجراً فأسمعتك مالم أكن أحبُّ أن اقول مثله لك فسلني حوائجك، فقال: ياأمير المؤمنين قد علمت قريشٌ أني من أكثرها مالاًوأحسنها حالاً، وأنضها عيناً، وأقلها دَيْناً، وأعظم حوائجي بقاؤك. ثمَّ انصرف، فقيل له: ياأبا الخطاب دعاك أمير المؤمنين، فعرض عليك الحوائج فلم تسأله شيئاً؟ فقال: إنه أجلس القمر عند رجله، والشمس عند رأسه، ثم قال: تَصدُق، وما كان ذاك ليكون أبداً.

قال القاسم بن سلام: يقال أن معاوية أو عبد الملك قال: ماغضبي على من أملك فأنا أقدر عليه وماغضبي على من لاأملك ويدي لاتناله.

وحدثني عمر بن بكير عن هشام ابن الكلبي عن ابن مسكينٍ المديني عن أبيه قال: حج عبد الملك فمرَّ بمنزل حُبَّى المدينيَّة بالمدينة، وكان فتيان قريشٍ يجلسون إليها فيتحدَّثون عندها، فأشرفت عليه ونظر إليها وهي تدعو له، فوقف وقال: ياحبَّى أنا عبد الملك، فقالت: قد علمت فبأبي أنت وأمي، الحمد لله الذي أراني وجهك قبل موتي، كيف أنت ياسيدي؟قال: بخيرٍ ياحبى كيف ماؤك المبرد، ومن كان يغشاك من فتيان قريشٍ؟ قالت: بخيرٍ ياأمير المؤمنين، أقتلت أخاك عمرو بن سعيدٍ؟ قال: نعم والله ويعز عليَّ، ولكنَّه أراد قتلي، قالت: فلا أحاله، فأمر لها بخمسمائة دينارٍ وأهدت له أشياء فقبلها.

حدثني العمري عن الهيثم بن عديّ عن ابن عيَّاشٍ عن الشعبي قال: دخل محمد بن أسامة بن زيدٍ على عبد الملك فقال له: ابن كم كان أبوك حين عقد له النبي ﷺ على الجيش؟ قال ابن سبع عشرة سنةً، قال: فهؤلاء يعيبوننا حين عقدنا للوليد وهو ابن بضعٍ وعشرين سنةً.

المدائني قال: قال عبد الملك: ظلم الناس عروة بن الورد حين قدَّموا عليه حاتم طيءٍ في السخاء، لقد كان سخيّاً حازماً.

حدثني أبو محمدٍ النحوي المعروف بالتَّوَّزي عن الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاءِ قال: نازع رجلٌ من قريشٍ رجلاً من بني تميم، فقال التميمي: أما قريشٌ فلها فضلها ولكن منَّا الأحنف بن قيسٍ أحلم الناس، وإياس بن قتادة أحمل الناس، حمل دماء الأزد، وفارس العرب الحريش بن

هلال، فبلغ ذلك عبد الملك بن مروان، فقال: قد كان الأحنف حليماً، وكان إياس حمولاً، وأمَّا الحريش فإن عبَّاد بن الحصين أولى بما وصفه به منه.

المدائني إن عبد الملك حجَّ فنزل بالمدينة دار مروان، فمرَّ الحجَّاج بخالد بن يزيد بن معاوية وهو قاعدٌ في المسجد وعلى الحجَّاج سيف مجلجل وهو يخطر، فقال رجلٌ لخالدٍ: من هذا الخطَّار؟ قال خالد: بخ بخ هذا عمرو بن العاص، فقال الحجَّاج: أقلت هذا عمرو بن العاص؟ مايسرني أنَّ العاص ولدني ولكنّي إلى الأشياخ من ثقيفٍ والعقائل من قريش، وأنا الذي جمعت مائة ألف سيفٍ بسيفي هذا وكلَّهم يشهد أنَّ أباك كان يشرب الخمر، ويضمر الكفر. ثمَّ ولَّى وهو يقول: بخ بخ هذا عمرو بن العاص.

حدثني محمد بن حبيبٍ مولى بني هاشمٍ عن أبي فراسٍ السلمي عن هشام ابن الكلبيعن عوانة قال: ولَّى عبد الملك الحجاج مكَّة سنتين ثمَّ ضمَّ إليه المدينة وكان يتولاها قبله طارقٌ ثمَّ ولاه العراق، فاستخلف على مكة عبد الرحمن بن نافع بن الحارث بن جبالة بن عميرٍ الخزاعي، وكان نافعٌ قد ولي مكة لعمر بن الخطاب، وولى المدينة عبد الله بن قيس بن مخرمة بن عبد المطَّلب بن عبد مناف، فأمَّا عبد الله بن قيسٍ فعزله عبد الملك، وقال للحجَّاج: وليته وهو من أحمق أهل بيتٍ من قريشٍ؟ وولى المدينة يحيى بن الحكم بن أبي العاص وأقر عبد الرحمن بن نافعٍ على مكة ماشاء الله عزَّ وجلَّ.

وقال أبو الحسن المدائني: كان الحجَّاج على مكَّة سنتين، وكان طارقٌ على المدينة ثم ضمَّها عبد الملك إلى الحجَّاج فاستخلف عليها عبد الله بن قيس بن مخرمة، ثم ولَّى الحجَّاج العراق فاستخلف على مكة والمدينة عبد

الله بن قيس بن مخرمة، فبعث عبد الملك على مكَّة نافع بن علقمة بن صفوان الكنانيَّ، وولى المدينة يحيى بن الحكم، ثمَّ ولَّى عبد الملك المدينة أبان بن عثمان، وولَّى عبد الملك اليمامة يزيد بن هبيرة المحاربي، ثمَّ إبراهيم بن عربي، وولَّى الموصل يوسف بن الحكم بن أبي العاص، ولمَّا مات عبد العزيز بمصر ولاها عبد الملك ابنه عبد الله بن عبد الملك.

وقال المدائني: بلغ عبد الملك أنَّ بعض عماله يقبل الهدايا فأشخصه إليه، فقال له: أقبلت هديةً مذ وليت؟ قال: ياأمير المؤمنين بلادك عامرةٌ، وخراجك زاجٍ وافر، ورعيتك على أفضل حالٍ، قال: أجب عمَّا سألتك عنه؟ قال: نعم قد قبلتُ، فقال لئن كنت قبلت هديَّةً ولم تعوض عليها إنَّك للئيم ولئن كنت أنلتَ مهديها ما كافأته به من مال المسلمين، أو قلدته من عملك ما لم تكن لتقلده إيَّاه قبل هديته إنك لخائنٌ جائرٌ، ولئن كنت عوضت المهدي إليك من مالك ماأَتْهَمَكَ عند من ائتمنك، وأطمع فيك أهل عملك إنك لأحمق، وإنَّ من أتى أمراً لم يخل فيه من لؤمٍ أو حمقٍ لحقيقٌ أن لايصطنع ثمَّ عزله.

المدائني قال: وفد إلى عبد الملك رجلٌ من أهل المدينة كان يألفه أيَّام تنسكه فأذن له وأدخل إليه أسراء فأمر بضرب أعناقهم قبل أن يناظرهم فقال له الرَّجل: ياأمير المؤمنين لقد أقست الخلافة قلبك بعد أن كنت رؤوفاً، قال: كلا إن الخلافة لم تقس قلبي، ولكنّه أقساه احتمال الضغن بعد الضغن.

المدائني قال: خاض جلساء عبد الملك في قتل عثمان فقال رجلٌ منهم: ياأمير المؤمنين في أي سنِّك كنت يوم قتل عثمان؟ قال: دون المحتلم، قال: فما

بلغ من حزنك عليه؟ قال : شغلني الغضب له عن الحزن عليه .

وقال: قدم على عبد الملك عقيل بن عُلَّفَةَ المريُّ فقال له عبد الملك: ماأحسن اموالكم عندكم؟ قال: ماناله أحدنا عن صاحبه تفضلاً، قال: ثمَّ أيها؟ قال: مواريثنا، قال: فما أسرُّها لكم؟ قال مااستفدناه فأكسبنا نعماً، وأفادنا عزّاً، قال: فما مبلغ عزكم؟قال: لم يُطمع فينا ولم تؤمن بوادرنا، قال: فما مبلغ جودكم؟ قال: أحبُّ أموالنا إلينا مااعتقدنا به مِنّةً وأبقي لنا ذكراً، قال: فما بلغ من حفاظكم؟ قال: يدافع الرَّجل منا عن جارهِ كدفاعه عن نفسه، قال: عبد الملك مثلك فليصف قومه.

المدائنيُّ قال: قدم المساور بن هند بن قيس بن زهير بن جذيمة العبسي على الوليد بن عبد الملك، وأمُّه ولادة بنت العبَّاس بن جزي بن الحارث بن زهير بن جذيمة، فنزل على رجلٍ من قومه يدعى برزاً فأقام أشهراً فلم يصنع الوليد به خيراً، فارتحل وقال:

ثلاثة أشهرٍ في دار برزٍ أرجي نائلاً عند الوليد
فلا تشكي الكلال بدار برزٍ ولكن إن نجوت فلا تعودي
وإن ضنَّ الوليد كما زعمتم فما نال الضنانة من بعيد

فبلغت أبياته عبد الملك، فبعث في أثره فرده وقال له: أمن قبلنا جاءته الضنانة، أم من قبلكم؟ قال: لا بل من قبلنا، فقال له عبد الملك: هات حاجتك، قال: عليَّ ثلاثة عشر ألف درهم للتجار فقضاها عنه وقال للوليد: أكانت هذه تفقرك لو دفعتها إليه قبل أن تسمع ماسمعت؟!.

حدثني العمريُّ عن الهيثم بن عديٍ عن ابن عيَّاشٍ قال: كان على شرط عبد الملك ابن أبي كبشة السكسكيُّ، ثمَّ أبو نائلٍ رياحُ الغسانيُّ، ثمَّ عبد الله بن زيدٍ الحكميُّ، ثمَّ كعب بن حامدٍ العبسيُّ، فمات وهو على شرطه، وكان على حرسه الريَّان فمات، فصيَّر مكانه خالد بن الريَّان، وكان كاتبه على الخراج والجند سرجون الرومي، وعلى رسائله أبو الزعيزعة مولاه، وعلى الخاتمِ قبيصة بن ذؤيبٍ فمات قبيصة سنة ستٍّ وثمانين، ويكنى أبا إسحق فصيِّر مكانه عمرو بن الحارث مولى بني عامر بن لؤي.

قالوا: وكتب عبد الملك إلى الحجَّاج بعد يوم دير الجماجم أن يعطي النَّاس عطاءهم، فكتب إليه: «إنَّهم نكثوا العهد، ونقضوا البيعة، وفارقوا الجماعة، وطعنوا على الأئمة»، فكتب إليه: «إنما تجب طاعتنا عليهم، بأن نعطيهم حقوقهم».

المدائني قال: أتي عبد الملك بأسارى، فهمَّ بقتلهم فقال له رجاء بن حيوة: ياأمير المؤمنين أذكرك ألاء الله عندك بالعفو، فعفا عنهم، وأمر بتخليتهم.

المدائنيُّ قال: أراد الحجَّاج قتل من بقي في ديوان ابن الأشعث من أصحابه حين ظفر بهم، فقال له قتيبة بن مسلمٍ: أصلح الله الأمير إنَّ الله قد أعطاك ماتحبُّ من الظفر، فأعطه مايحبُّ من العفو، فبلغ ذلك عبد الملك، فقال: لله درُّ قتيبة لقد أبلغ في الموعظة، ولقد أحسن الحجَّاج في القبول.

المدائني عن مسلمة قال: كتب الحجَّاج إلى عبد الملك إنَّه بلغني أنَّ أمير المؤمنين عطس فشمته من حضر، فأجابهم أن يهديكم الله ويصلح بالكم، فيا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً.

المدائني عن أبي اليقظان عن جويرية بن أسماء قال: قام رجلٌ من أهل اليمن إلى عبد الملك وهو يخطب، فقال: إنَّ محمد بن يوسف ـ يعني أخا الحجَّاج، وكان على اليمن ـ يسفك الدَّم الحرام، ويأخذ المال الحرام، فقال: اجلس فجلس، ثمَّ قام فقال مثل مقالته، فقال له: ويحك اجلس فجلس، ثمَّ قام فقال مثل مقالته فقال له عبد الملك: لقد هممت أن أقتلك، قال: ماقمت هذا المقام إلا وبطن الأرض أحبُّ إليَّ من ظهرها إني سمعتُ أنَّه تكون نبوَّة، ثم خلافةٌ ورحمةٌ، ثمَّ ملكٌ وجبرية، فقد ذهبت النبوة والخلافة، وهذه الجبرية.

المدائني قال: قال عبد الملك بن مروان لأميَّة بن عبد الله بن خالد بن أسيد: مالك ولابن حرثان؟ قال: إنَّه أتى حدّاً فأقمته عليه، قال: أفلا درأت عنه بالشبهة؟ قال: كان الأمر أظهر من ذلك، قال: أما والله لقد أوجعك ولوددت أنّك كنت سلمت منه، وماسرَّني أنّي هجيت، وأنَّ لي مثل كل شيءٍ أصبحت أملكه، وكان الذي قال فيه ابن حرثان:

أضاع أمير المؤمنين ثغورنا   وأطمع فينا المشركين ابن خالد
وبات على حور الحشايا[1] ممهداً   يعانق أمثال المها في المجاسد
وبتنا قياماً في الحديد وتارةً   سجوداً نناجي ربَّنا في المساجد
إذا هتف العصفور ريع فؤاده   وليث حديد الضرس عند الثرائد

وقال أبو اليقظان: حدثنا جويرية بن أسماء قال: كان لعبد الملك بيت مالٍ لايدخله إلا مالٌ طيبٌ لم يظلم فيه مسلمٌ ولامعاهدٌ وقد عرف وجوهه،

١ ـ أي بيض الحشايا. القاموس.

فكان يشتري منه الإماء اللاتي يتخذهنَّ أمهات أولادٍ ويتزوج منه، ويقول لاأستحل إلا طيباً فإنَّ ذلك في الأولاد.

المدائني قال: كان عبد الملك يلبس جبَّةً ورداء، ويجلس للنَّاس، وينظر في أمورهم، ويقف على بنيه في الكتاب فيقول للمعلم: أحسن تأديبهم ويكلمهم، قال: وقال عبد الملك لإسماعيل بن مهاجرٍ، مؤدب مسلمة، ويزيد، وعنبسة: علم بنيَّ القرآن، وخذهم بمكارم الأخلاق، وحثهم على صلة الأرحام، ووقّرهم في الملأ، وأخفهم في السر، فإن الأدب أملك بالغلام من الحسب، وتهددهم بي، وأدبهم دوني ولاتخرجهم من علمٍ إلى علمٍ حتى يفهموه فإنَّ ازدحام الكلام في السمع مضلةٌ للفهم.

المدائني عن بكر بن عبد العزيز قال: قال عبد الملك لإسماعيل[1] مؤدب بنيه: علم بنيَّ الصدق حتى إن قتل أحدهم قتيلاً اعترف به على نفسه، والصق بابن عاتكة - يعني - يزيد فإنَّ مَهْرَ أمه من عرق جبيني. قال: وكان مع سعيد بن عبد الملك معبدٌ الجهني.

المدائني عن علي بن حمادٍ قال: قام رجلٌ إلى عبد الملك فقال له: ياأمير المؤمنين قطعت إليك القفر لأمر ضاق به الصدر، قال: وماهو؟ قال: ابني بثغر كذا، وقد اشتد إليه شوقي، وطال توقي، قال: فكتب في رده فأقفل.

المدائني عن عبد الحليم الأشج عن أبي قرة أن عبد الملك خطب زينب بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشامٍ فقالت: والله لايتزوجني أبو الذِّبَّان،

---

١ - كتب تحتها بالهامش: هو مولى بني مخزوم.

فتزوجها يحيى بن الحكم، فقال عبد الملك: لقد تزوجته أسود أفوه، فقال يحيى أما إنَّها أحبت مني ماكرهت منه.

حدثني عمر بن بكيرٍ عن الهيثم بن عديٍ عن عبد الله بن عياشٍ وأبي جناب قال: رأى الغضبان بن القبعثرى صبيّاً يلعب عند عبد الملك بن مروان، فقال: من هذا الصبيُّ ياأمير المؤمنين؟ قال: ابني من عائشة بنت موسى بن طلحة، قال: سيناله السَّخاء بولادة طلحة له، فقال له: ويحك أو بخيل أنا؟ قال: أي والله الذي لا إله إلا هو لاأستثني، فضحك. وقال ابن عياشٍ: كان عبد الملك أول خليفةٍ بخل.

المدائني عن محمد بن عيسى قال: سأل رجلٌ عبد الملك فألح عليه، وألحف في المسألة، فقال عبد الملك: قد ألحفت في المسألة؟ فقال إنك والله ياأمير المؤمنين لتردُّ السائل الملح بالمنع المصرح.

أراد عبد الملك أن يتزوج زينب بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشامٍ فتزوجها يحيى بن الحكم فغضب، واصطفى كلَّ شيءٍ له فقال يحيى: كَعكة وزينب، فلما رأى عمر بن عبد الرحمن بن عوفٍ أسف عبد الملك عليها، قال له: أدلك على أجمل منها بنت إسماعيل بن هشامٍ، وهو عندك، فخطبها فتزوجها.

الكلبي عن عوانة قال: دخل مسلمة بن زيد بن وهبٍ الفهمي على عبد الملك فقال له: أي الزمان أدركت أفضل وأيُّ من أدركت من الملوك أكمل؟ قال: أما الملوك فلم أر منهم أحداً إلا وله ذامٌ ومادحٌ، وأمَّا الزمان فرأيته يرفع أقواماً ويضع آخرين، وكلُّ الناس إذا صدق نفسه ذمَّ الزمان، لأنَّه يبلي الجديد ويهرم الصغير، وكل مافيه منقطعٌ إلا الأمل، فإنَّه أبداً

جديد، قال: فأخبرني عن فهمٍ، قال: هم كما قال القائل:

درج الليل والنهار على فهـ ـم بن عمروٍ فاصبحوا كالرَّميم
وخلت دارهم فصارت يباباً بعـد عـزٍ وثـروةٍ ونعـيم
وكذاك الزمان يذهب بـالنَّا س وتبقي ديارهم كالرسوم

قال فمن الذي يقول:

رأيت النَّاس قد خلقوا جميعاً يحبـون الغني من الـرجـال
وإن كان الغني قليل خيرٍ بخيـلاً بالقليـل من النَّوال
فما أدري علام وفيم هذا ومـاذا يرتجـون من البخال

قال الكلبي: فَهْمُ بن عمرو بن قيس بن عيلان، وكان الحارث أخو فهم عدا عليه فقتله فسمي عَدْوان.

المدائني عن سفيان الثوري قال: قدم الحجَّاج على عبد الملك وافداً، ومعه معاوية بن قرة أبو إياسٍ، فسأله عبد الملك عن الحجَّاج فقال: إن صدقناكم قتلتمونا، وإن كذبناكم خشينا الله عزَّ وجلَّ، فنظر إليه الحجَّاج فقال له عبد الملك: لاتعرض له ياحجَّاج فغربه إلى السنّد.

المدائني عن سحيم بن حفص قال: كان الحجَّاج يقول سألت قبل أن أقدم العراق عن وجوه رجاله، فذكروا زياد بن عمروٍ العتكيَّ، فما كان أحدٌ أثقل عليَّ منه، فقدمت على عبد الملك وهو معي في ناسٍ من الأشراف، فأثنوا عليَّ فما كان أحدٌ منهم أحسن صفة لي منه، ولاقام أحدٌ منهم مثل مقامه. قال: ياأمير المؤمنين إنَّ الحجَّاج سيفك الذي لاينبو، وسهمك الذي لايطيش، وخادمك الذي لاتأخذه في أمرك لومة لائم، فلقد رأيتني ومأحدٌ من الخلق بعد ذلك اليوم يعدله عندي.

هشام بن عمَّارٍ والمدائني عن أشياخهم قالوا: كان عبد الملك يشتو بالصَّنَّبْرَةِ من الأردن، فإذا انسلخ الشتاء نزل الجابية، وأمر لأصحابه بأنزال ويفرق أغناماً على قدر منازلهم، فإذا مضت أيَّام من آذار دخل دمشق فنزل دير مرَّان[١]، حتى إذا جاءت حمَّارة القيظ أتى بعلبكَّ فأقام بها حتى تهيج رياح الشتاءِ، فيرجع إلى دمشق فإذا اشتدَّ البرد خرج إلى الصنبرة.

قال المدائني: وبها مات يوم مات.

المدائني قال تغدي شَبَّةُ بن عقالٍ يوماً عند عبد الملك فأتي بِخَزيرةٍ[٢]، فضحك شبَّةُ، فغضب عبد الملك وقال: ماأضحكك؟ قال: تعيير جريرٍ مجاشعاً بالخزيرة، وهي مائدة أمير المؤمنين، وإنما ضحك من السخينة التي تعيَّر بها قريشٌ.

المدائني قال: دعا عبد الملك عبيدالله بن زياد بن ظبيان أو غيره إلى الغداء فأكل معه، فجعل يتناول مما بين يديه فقال له عبد الملك ـ ويقال بعض من كان على رأسه: كل مما بين يديك، فقال: أَوَ في مائدة أمير المؤمنين حمىً؟ فقال عبد الملك: لا كل من أيها شئت.

حدثني بعض الشاميين قال: خطب عبد الملك بن مروان وأعرابي يسمع خطبته، فقال له رجلٌ من قريشٍ: كيف ماتسمع؟ فقال لو كان كلامٌ يؤتدم به لكان هذا.

---

١ ـ خارج دمشق عند خانق الربوة حيث قصر الشعب الجديد.

٢ ـ الخزيرة: شبه عصيدة بلحم وبلا لحم، عصيدة أو مرقة من بلالة النخالة، والسخينة: طعام رقيق يتخذ من دقيق ولقب لقريش لاتخاذها إياه، وكانت تعير به. القاموس.

وقال الهيثم بن عدي: تكلم عبد الملك بن عمير عند عبد الملك وأعرابي حاضرٌ فقال: لو أنَّ كلاماً يؤتدم به لكان هذا الكلام.

المدائني وغيره قالوا: كتب عبيد الله بن زياد بن ظبيان إلى عبد الملك: إنه قد كان من بلائي ماقد رأيت ولم يكن من جزائك لي إلا ماعلمت فأنا كما قال الجعدي:

كفينا بني كعبٍ فلم نر عندهم لما كان إلا ماجزى الله جازيا[1]

قالوا: وبلغ عبد الملك قول عبيد الله بن زياد بن ظبيان، حين قال لمّا خرَّ عبد الملك ساجداً، حين أتاه برأس مصعبٍ: هممت بضرب راسه، فأكون قد قتلت ملكي العرب، فحجبه، ثمَّ أذن له، فقال: ياأمير المؤمنين إنَّا والله مانكره سخط من رضاه الجور، فإن يكن لك علينا طاعة فيما أحببت، فإنَّ لنا عليك العدل فيا وليت، فلست مستكملاً طاعتنا إلا بعدلك، فآثر طاعة الله عزَّ وجلَّ فينا تسلم لك نصائحنا، وتخلص نياتنا، ولاتبغ الفساد في الأرض، إنَّ الله بصيرٌ بعملك وإليه مصيرك، فغضب عبد الملك غضباً شديداً وقال: لولا أنَّ خير الأمور مغبّةً، وأكرمها عاقبةً، كريم العفو بعد القدرة لأعلمت هذا الجلف أي موردٍ تورده الجهالة والاستطالة، فقال الوليد بن عبد الملك: يا أمير المؤمنين، ولم تستبقي مثله، ولم ير لك هيبة الخلافة، وجلالة السلطان، وواجب الطاعة وإن كان ذا غناءٍ ودالةٍ ولم يوقرك توقير المسلمين إياك، فقال عبد الملك: ماكلُّ شيءٍ تعلمه، وأنشد عبد الملك:

---

١ ـ ديوان النابغة الجعدي ـ ط. دمشق ١٩٦٤ ص١٧٥ .

ترى الناس أخلاطاً جميعاً وإنهم على ذاك شتى والهوى يتفرق
ترى المرء إن جالسته ذا صناعةٍ وسائر ما فيه سوى ذاك أخرق
وتلقى أصيل اللب ليس لسانه بمخرج ما في قلبه حين ينطق

أبو الحسن المدائني عن عبد الله بن سلمٍ الفهري: أنَّ عبد الله بن يزيد بن أسد بن كرزٍ القشيري من بجيلة، دخل على عبد الملك ومعه ابنه خالد بن عبد الله، فقال له عبد الملك: هذا ابنك؟ قال: نعم، قال ماأشبهه بك. قال: ذاك أحبُّ إليَّ، وأبرأ لساحة أمه.

المدائني قال: قدم الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزومٍ الشاعر على عبد الملك فلم يصله ويقال إنَّه أقام ببابه شهراً لايأذن له فانصرف وهو يقول:

تبعتك إذ عيني عليها غشاوةٌ فلما انجلت قطعت نفسي ألومها
فما بي إن أقصيتني من ضراعةٍ ولا افتقرت نفسي إلى من يسومها
عطفت عليك النفس حتى كأنما بكفيك بؤسي أو لديك نعيمها

فبلغه ذلك، فأرسل إليه فردَّه، فقال: ياحارث أترى على نفسك غضاضةً في وقوفك ببابي؟ فقال: لا والله، ولكن طالت غيبتي، وانكسرت ضيعتي، ووجدت فضلاً من قولٍ فقلت، وعليَّ دينٌ فقال: وكم دينك؟ قال: ثلاثون ألفاً، قال: أقضاء دينك أحبُّ إليك، أم ولاية مكة؟ قال: ولاية مكة، فولاه إياها فبعثت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله بن الحارث، وهي بمكة، وقد أقيمت ذات يومٍ الصلاة، وهي تطوف: إني لم أقض طوافي، فتوقف بالناس حتى فرغت من طوافها، ثم صلى، فبلغ ذلك عبد الملك فعزله، وقال: إني لم استعملك لتنتظر بالناس في صلاتهم طواف عائشة.

قالوا: وكان الحارث يحب عائشة، وكانت تحبه، فخطبها فلم تتزوجه، فقيل لها أحبك رجلٌ وأحببتيه عشرين سنةً، ثمَّ خطبك فلم تتزوجيه؟ فقالت: كان في عيبٌ ما يسرني أنَّ لي طلاع الأرض، وأنَّه اطلع عليه، فكان يُظَنُّ أنه سوء الخلق.

حدثني الحرمازي عن الحسن بن علي العتبي عن أبيه عن أبي المقدام عن رجلٍ من أهل مكة قال: قدمت المدينة فإذا غلمان بيضٌ، عليهم ثيابٌ بياضٌ يدعون الناس إلى الغداء، وكانت بي إليه حاجةٌ فدخلت، فإذا عائشة بنت طلحة على السرير، وإذا الناس يطعمون، قال: فلما أكلت، قالت لي: كأنك غريبٌ؟ قلت: نعم، قالت: فمن أين بك؟ قلتُ: من مكة، قالت: كيف تركت الأعرابي قلت بخير، فلما خرجتُ قلت: عن من سألْتني؟ قالوا: عن الحارث بن خالدٍ، فلما قدمت مكة أخبرته فأنشأ يقول:

من كان يسأل عنا أين منزلنا فالأقحوانة منا منزل قمن
إذ نجعل العيش صفواً ما يكدره طول الحياة ولا ينبو بنا الزمن

قال الحرمازي: وبناحية من الشام موضع يعرف بالأقحوانة[1] أيضاً.

المدائني عن عبدالله بن سلم وغيره قالوا: قدم عمر بن علي بن أبي طالب على عبد الملك، فسأله أن يصير إليه صدقة علي بن أبي طالب، فتمثل عبد الملك قول ابن الحقيق اليهودي:

إنا إذا مالت دواعي الهوى وأنصت السامع للقائل
واعتلج القوم بآرائهم نقضي بحكم عادل فاصل

١ ـ بلدة كانت قرب عقبة أفيق في وادي الأردن ليس بعيدا عن طبرية، أما الأقحوانة الأولى فموضع قرب مكة. معجم البلدان.

ولانجعل الباطل حقاً ولا نلظ[1] دون الحق بالباطل
نخاف أن تسفه أحلامنا فنخمل الدهر مع الخامل

لا لعمري لا أخرجها من ولد الحسين إليك ، ووصله عبد الملك ورجع من عنده .

المدائني قال : قال عبد الملك للهيثم بن الأسود : ما مالك ؟ قال : قوام من عيش وغنى عن الناس ، فقيل له : لو أخبرته ، فقال لو أعلمته مالي لحسدني إن كان كثيراً، أو حقرني إن كان قليلاً، وقوم يقولون أن الهيثم قال هذا لمعاوية ، والثبت أنه قاله لعبد الملك .

وقال الهيثم : كان يقال لا تخبروا قريشاً بمالكم ، فإن كان كثيراً حسدوكم ، وإن كان قليلاً حقروكم .

المدائني عن أبي محمد المقرىء قال : قال عبد الملك لرجل من ثقيف : ما المروءة فيكم ؟ قال: إصلاح المال والمعاش والفقه في الدين ، وسخاء النفس ، وصلة الرحم ، فقال : كذلك هي فينا .

قالوا : وتزوج بكر بن حصين من بني عامر بن لؤي رقية بنت سعيد بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، فتقدمت إلى عبد الملك بن مروان حين حج وهو بالمدينة ، فتكلمت في أمر زوجها ، فقال ومن زوجك ؟ قالت: بكر بن حصين ، قال : انسبي لي أباً آخر فإن عهدي بالقوم بعيد ، قالت : ابن أويس ، قال : ويحك أو تنكح المرأة عبدها ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين :

---

١ ـ اللظ : اللزوم والإلحاح .

إن القبور تنكح الأيامى
النسوة آلأرامل اليتامى
المرء لا تبقى له السلامى

المدائني قال : قال عبد الملك : رأيت الفجور في بني الروميات ، ورأيت الفارسيات أذلق[1] النساء ، وأمنع جانباً ؛ ورأيت بني الهنديات أصبر لصدور العوالي .

ودخل جرير علي عبد الملك وعنده عدي بن الرقاع العاملي[2] ، ولم يكن جرير رآه قبلها ، فقال له عبد الملك : يا جرير أتعرف هذا ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، فمن هو؟ قال : رجل من عامله ، قال : يا أمير المؤمنين هذا من الذين قال الله عزوجل : ﴿عاملة ناصبة﴾[3] ؟ قال : لا ويلك ، فأنشأ جرير يقول :

ويقصر باع العاملي عن العلى ولكن أير العاملي طويل[4]

فقال ابن الرقاع :

أأمك يا ذا أخبرتك بطوله أم آنت امرؤ لم تدر كيف تقول[5]

فقال: بل لم أدر كيف أقول .

---

١ ـ أذلق : أحدّ ، وأقلق ، وأضعف . القاموس .
٢ ـ شاعر كبير من أهل دمشق ، كان مقدما عند بني أمية ، مداحا لهم ، خاصا بالوليد بن عبد الملك . الأعلام للزركلي .
٣ ـ سورة الغاشية : الآية : ٨٨ .
٤ ـ ليس في ديوان جرير المطبوع .
٥ ـ ديوان عدي بن الرقاع العاملي ـ ط . بيروت ١٩٩٠ ص ٩٤ .

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن آبن جعدبة عن صالح بن كيسان أن عبد الملك كتب إلى الحجاج جنبني دماء آل أبي طالب فإن بني حرب لما قتلوا حسيناً نزع الملك منهم .

المدائني عن يزيد بن عياض[1] قال : أراد عبدالله بن جعفر أن يفد إلى عبد الملك بن مروان ، وعلى المدينة أبان بن عثمان بن عفان ، فأرسل إليه بديحاً يستأذنه ، فقال أبان : قل له:فليبعث إلي جاريته فلانة ، فرجع فأخبره بقوله فقال ابن جعفر : لا ، ولا كرامة ، وقال له : ارجع إلى بُقَيْع ـ وكان أبان أبرص أبقع ـ فقل له : أما الجارية فلا ، قال : فليبعث إلي بغلامه الزامر ، فبعث به إليه ، وقال : هو شبيهه ، ثم أذن له ، فوفد على عبد الملك .

المدائني عن محمد بن إبراهيم قال:دخل عبدالله بن جعفر على عبد الملك فحثه علي صلة ابن أبي عتيق ، وهو محمد بن عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وذكر له خلته ، فدخل ابن أبي عتيق على عبد الملك فقال له : يا بن أبي عتيق ، أخبرني عنك عبدالله بضيق من الحال ؟ قال : كذب يا أمير المؤمنين ، ما بي من حاجة وما أنا في ضيقة ، فدخل ابن جعفر على عبد الملك فأخبره بقول ابن أبي عتيق ، فلقيه آبن أبي عتيق ، فقال له ابن جعفر : ويحك اتركت حظك من أمير المؤمنين وقد عطفته عليك ، وحثثته علي برك ؟ فقال : إني دخلت عليه وعنده جارية له ، ما رأيت شيئاً

---

١ ـ هو ابن جعدبه المتقدم ذكره .

قط أحسن منها ، فأخبرني بقولك وهي تسمع وتنطر إلي ، أفكنت ترى لي يا بن أم أن أُقر بالفقر بين يديها ؟!

المدائني وغيره قالوا : نذر عبد الملك دم آبن قيس الرقيات لقوله :

إنمـا مصعب شهاب من اللـ ـه تجلت عن وجهه الظلماء[1]

قال ابن قيس : فسألت عن من أُستعين به عليه ، فقيل لي روح بن زنباع ، فأَتيت روحاً فقال : ما ذاك عندي ؛ فأتيت عبدالله بن جعفر ، فآستجرت به ، فقال : لي أَقم ؛ فإن لي في كل ليلة رجلاً أُدخله معي إلى أمير المؤمنين فكن ذلك الرجل ، فلما كان الليل أُدخلني ، وأمرني أن أُجيد الأكل وآخذ ما بين يديه ، وبين يدي عبد الملك ، فنظر إلي ، فقال : من هذا ؟ قال ابن جعفر هذا القائل

ما نقموا من بني أُمية إلا أنهم يحلمـون إن غضبـوا
وإنهم سـادة المـلوك فـما تصلح إلا عليهم العـرب[1]

فقال عبد الملك : ابن قيس ؟ قال : نعم : فقال أَما دمه فقد حقنه الله عزوجل ، وأَما العطاء فلا عطاء له عندي ؛ فقال آبن جعفر لابن قيس: اللهم غفراً ، إذا خرج العطاء فلك عندي عطاؤك .

وقال كثير يمدح عبد الملك :

يُحَيّون بسامين طوراً ، وتـارة يحيون عباسين شوس الحواجب
من النفر البيض الذين إذا انتجوا أُقرت لنجواهم لؤي بن غالب

---

١ ـ ديوان ابن قيس الرقيات ص ٩١ .

كـريم يؤول الراغبـون ببـابـه إلى واسع المعروف جزل المواهب
إمام هدىً قد سدد الله رأيه وقد أحكمته ماضيات التجارب[١]

وقال فيه أيضاً :

قضى نحبـه مروان ثم وليتنـا فكن يا بن مروان تجود وتدفع[٢]

وقال كعب بن جعيل :

أمـير المؤمنـين هـدى ونـور كـا جلي دجى الـظلم النهار
قـريـع بني أميـة من قـريش هم السر المهـذب والنضار

وقال أبو قطيفة عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط :

نبئت أن ابن القلمس عابني ومن ذا من الناس الصحيح المسلم
فأبصر سُبْلَ الرشد سيد قومه وقد يبصر الرشد الرئيس المعمم
فمن أنتم ها خبرونا من أنتم فقد جعلت أشياء تبدو وتكتم

فقال له عبد الملك : ما كنت أرى أن مثلنا يقال لهم من أنتم ؟ أما والله لولا ما تعلم ، لقلت قولاً يلحقكم بأصلكم الجلائب ، ولضربتك حتى تموت .

وقال أعشى بني شيبان :

عـرفـت أمـيـة كـلهـا لبني أبي العـاص الإمـارة
لَأَبَـرِّهَـا وأحـقـهـا عنـد المشـورة بـالإشـارة
المـانـعـين لمـا ولـوا والـنـافعـين ذوي الضرارة
وهـم أحـقـهـم بهـا عـنـد الحـلاوة والمـرارة

---

١ ـ ديوان كثير ص ٤٤ ـ ٤٦ . وفيه الممدوح : يزيد بن عبد الملك .
٢ ـ ليس في ديوانه المطبوع .

وقال المدائني : قال قبيصة بن ذؤيب ووشى به قوم إلى عبد الملك ، فجفاه وكانت له منزلة عنده :

إن مسيري في المسير ومنزلي لبالمنزل الأقصى إذا لم أُقرب
وما أنا إن قربت يوماً ببائع خلاقي وديني لابتغاء التحبب
ولكن أرى حق الإمام ونصحه وطاعته حقاً كما هي للأب

وهذا باطل وقد نسبنا الشعر إلى صاحبه الذي قاله ، وذكرنا حديثه فيما مضى من أحاديث عبد الملك .

المدائني قال : أمر عبد الملك مسلم بن ربيعة أبا إسحق بن مسلم أن يقتل رجلاً من قيس فأبى فحبسه فقال :

ألا أبلغ سراة الحي قيساً شآميهم ومن هو بالعراق
بأني بالرهاء بها مقيم قصير الخطو مشدود الوثاق
وما كانت عقوبتهم بسجني لمعصية وما خافوا شقاقي
ولكني كرهت دماء قومي وما لي بعد قومي من تلاق

ويقال أن محمد بن مروان أمره بذلك .

المدائني عن علي بن حماد قال : قال الأخطل لعبد الملك بن مروان : يا أمير المؤمنين زعم ابن المراغة أنه يبلغ مدحك في ثلاثة أيام وقد أفنيت في مدحك حولاً بقصيدة قلتها فما بلغت كل الذي أردته ، فقال عبد الملك : فأنشدني قصيدتك فأنشده :

خف القطين فراحوا عنك أو بكروا وأزعجتهم نوى في صرفها غير[1]

---

١ ـ ديوان الأخطل ـ ط . بيروت ١٩٨٦ ص ١٠٠ .

فجعل عبد الملك يتطاول ، ثم قال : ويحك يا أخطل أتريد أن أكتب إلى الآفاق بأنك أشعر العرب ؟ قال : أنا أكتفي بقولك يا أمير المؤمنين ، فأمر له بقصعة مملوءة دنانير ودراهم ، وألقى عليه خلعته وخرج به مولى لعبد الملك وهو يقول : هذا شاعر أمير المؤمنين .

المدائني عن عبدالله بن فائد قال : قال سعيد بن المسيب لعبد الملك : بلغني يا أمير المؤمنين أنك شربت الطلاء؟ قال : والدماء يا أبا محمد فنستغفر الله .

المدائني عن عبدالله بن مسلم الفهري قال:دخل الأخطل على عبد الملك وهو سكران فقال له : يا أبا مالك مالك ؟ قال : إن أبا نسطور وضع في جمجمتي ثلاثاً وأنشد :

إذا شرب الفتى منها ثلاثاً بغير الماء حاول أن يطولا
مشي قرشية لا عيب فيها وأرخى من مآزره ذيولا[1]

المدائني قال:دخل على عبدالملك رجل فتكلم فأحسن حتى سكت ، فأراد أن يسبر عقله ليعرف ما عنده ، فإذا هو مضعوف فقال : زيادة منطق على عقل خدعة ، وزياد عقل على منطق هجنة ، وأحسن ذلك ما زين بعضه بعضاً ، وبعضهم يروي هذا عن سليمان بن عبد الملك ، وهو عن عبد الملك أثبت .

وقال : وذكر تشقيق الخطب والإسهاب عند عبد الملك فقال : من أكثر فأحسن قدر على أن يقل فيحسن .

---

١ ـ ليسا في ديوانه المطبوع .

حدثني أبو مسعود الكوفي عن عوانة قال : كتب عبد الملك إلى الحجاج : أما بعد فإنه بلغ أمير المؤمنين أنك تنفق في اليوم ما ينفق أمير المؤمنين في الجمعة، وتنفق في الجمعة ما ينفق أمير المؤمنين في الشهر، وتنفق في الشهر ما ينفق أمير المؤمنين في السنة ، وهذا ما لا قوام معه يا حجاج .

عليك بتقوى الله في كل حالة وكن لوعيد الله ربك تخشع
ووفر خراج المسلمين وفيئهم وكن لهم حصناً يذود ويمنع

فكتب إليه الحجاج :

أتتني كُتْبُ للخليفة ضمنت قراطيس تطوى كي تصان وتطبع
ومنها كتاب فيه لين وشدة وذكر وفي الذكرى لذي اللب منفع
وكانت بلاداً جئتها ذات فتنة بها كل نيران الحوادث تلمع
فما زلت فيها أعمل الحزم جاهداً فاعطي على حين العطاء وأمنع
فلا تتهمني إنني لك ناصح ولست مع النصح المبين أضيع

فرد عبد الملك عليه كتابه ، وكتب في حاشيته : «صدقت يا أبا محمد وبررت .

المدائني قال : قال عبد الملك : أي الشعراء أشجع شعراً ؟ قالوا : عمرو بن معد يكرب ، قال وكيف وهو يقول :

وجاشت إلي النفس أوّل مرةٍ فردت على مكروهها فاستقرت[1]

فقيل ابن الإطنابة ؟ فقال وكيف وهو القائل :

أقول لها وقد جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

---

١ ـ شعر عمرو بن معدي كرب ـ ط . دمشق ١٩٧٤ ص ٥٤ .

فقالوا عنترة؟ فقال: وكيف وهو يقول:

إذ يتقون بي الأسنة لم أخم عنها ولكني تضايق مقدمي[١]

قيل: فعامر بن الطفيل؟ فقال: وكيف وقد قال:

أقول لنفسٍ لا يجاد بمثلها أقلي مراحاً إنني غير مدبر[٢]

ولكن أشجع الناس شعراً المزني الذي يقول:

وإني لدى الحرب العوان موكل بتقديم نفس لا أحب بقاءها

وعبّاس بن مرداس حين يقول:

أقاتل في الكتيبة لا أبالي أحتفي كان فيها أم سواها

المدائني عن عوانة قال: كتب عبد الملك إلى الحجاج في أمر استشاره فيه واستكتمه إياه فانتشر وبلغ عبد الملك ذلك، فكتب إليه كتاباً عاتبه فيه، وتمثل بهذين البيتين في كتابه:

ألم تَرَ أن وشاة الرجا ل لا يتركون أديماً صحيحاً

فلا تفش سرك إلا إليك فإن لكل نصيحٍ نصيحا

العمري عن الهيثم عن ابن عياش قال: قال عبد الملك للشعبي: لله در ابن قميئة حيث يقول:

كأني وقد خلفت تسعين حجة خلعت بها عني عذار لجام

رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى فكيف بمن يرمى وليس برام

فلو أنها نبلٌ إذاً لا تقيتها ولكنني أرمي بغير سهام

١ - ليس في ديوانه المطبوع.

٢ - ديوان عامر بن الطفيل - ط. دمشق ١٩٩٤ ص ٩٢.

فقال الشعبي : وقد أحسن لبيد أيضاً حين يقول :

كأني وقد خلفت تسعين حجة خلعت بها عن منكبي ردائيا[1]

قال : ففكر عبد الملك ثم أنشد :

إذا ما سلخت الشهر أهللت مثله كفى قاتلا سلخي للشهور واهلالي

قال : ولما قتل مصعب واستقام الأمر لعبد الملك دخل عليه عمر بن عبيدالله بن معمر ، وسويد بن منجوفٍ ، ونعيم بن مسعودٍ التميمي ، وقيس بن الهيثم السلمي بعد أن حبسهم على بابه حيناً ، فقال عبد الملك : إنكم سعيتم مع الشيطان فكنتم حزبه ، فلما نكص نكصتم ، ولم يبق أحد ممن شب نار الفتنة وسعى في الفرقة ، وشتت الألفة إلا أحدث من جرمه توبةً ، وظهرت منه إنابة غير قتادة فكففنا عنه العقوبة أفما ترضون أن تكونوا إسوة من أبصر بعد العمى ، وعرف بعد الجهل واستحق بالإنابة العفو؟

فتكلم سويد بن منجوفٍ فقال : إنا كنا وزراء فأصبحنا أعجازاً ، فخذ بالتي هي أحسن ذكراً ، وأبقى جمالاً .

ثم قال عمر بن عبيدالله : والله ما نعتذر إليك من معصية ، ولا نتوسل إليك بطاعةٍ ، ولقد ولينا لعدوك الأعمال ، وكسبنا الأموال ، وقتلنا الرجال ولأن نكون كنا على ضلال ، فأصبحنا على هدى ، خير من أن نكون على هدى ثم نصبح على ضلال فإن تصطنعنا نكن لك كما كنا لمن كان قبلك .

---

١ ـ ليس في ديوان لبيد المطبوع .

ثم تكلم نعيم بن مسعودٍ فقال يا أمير المؤمنين إنا كنا أمس زبيريين فقد أصبحنا مروانيين ، فأقلل العتاب ، وأكرم الغلبة ، وأقل بعفوك العثرة .

ثم تكلم قيس بن الهيثم فقال : إنا لسنا بالحلو المأكول ، ولا بالمر الملفوظ ، ولا عفوك بمنكر ، ولا عقابك بحتم ، قد والله يا أمير المؤمنين قارعناك عن الدين والدنيا جميعاً ، فليسعنا ما لم يضق عن غيرنا من عفوك ، فمثلنا أسديت إليه العارفة فشكرها ، واتخذت عنده الصنيعة فعرفها قال : فرضى عنهم وأسني جوائزهم .

المدائني قال : أنشد عبدالله بن الزبير قول أنس بن زنيم في مصعب حين تزوج عائشة :

بضع الفتاة بألف ألف كاملٍ ويبيت أرباب الجيوش جياعا
لو أنني عمراً أقول مقالتي وأبثه ما قد أرى لارتاعا

فقال عبدالله: صدق إن مصعب قدم أيره وأخر خيره ، فبلغ عبد الملك قوله فقال : لكنه أخر أيره وخيره .

المدائني عن علي بن حماد قال : أجرى عبد الملك الخيل فحمل مسلمة على فرس ، وكانت أمه أم ولدٍ فجاء سابقاً ، فقال لمصقلة بن رقبة العبدي : إن صاحبكم لقليل المعرفة بأولاد أمهات الأولاد حين يقول :

نهيتكم أن تحملوا هجناءكم على خيلكم يوم الرهان فتدركوا
وما يستوي المرآن هذا ابن حرة وهذا ابن أخرى بطنها متشرك
ترعد كفاه ويسقط سوطه وتفتر فخذاه فلا يتحرك
وتدركه أعراق سوءٍ ذميمة ألا إن عرق السوء لابد مدرك

قال يا أمير المؤمنين : إن من الإماء ذوات شرف فيمن هنَّ منه ، وليس أولئك عَنَى ، وقد يشتري الرجل الجارية فيعتقها ويحصنها فتكون كالحرة ، وإنما عنى جمهور الإماء اللواتي لا مواضع لهن ولا هيئآت .

أخبرني عبّاس بن هشام الكلبي عن أبيه قال : سقى عبد الملك رجلاً من كلب شراباً يزيد في الباه ، ثم انصرف من عنده فأصابه شبق شديد ، فلم يصل إلى منزله حتى أتبعه بجارية وقال لرسوله : قل له : إنا سقيناك شراباً تحتاج معه إلى ما بعثنا به إليك ، وقد كفيت أشتراءها(١) فدونكها .

المدائني عن بكر بن حبيب السهمي قال : ولد لعبد الملك ابن فقال له روح بن زنباع : ياأمير المؤمنين اسقه لبن الإبل، فاشترى عبدالملك لظئر الصبي لقحةً ، فكانت تُحْلَبُ وتشرب الظئر لبنها وقال الحالب : كيف أحلبها أخنفاً ، أم مصراً ، أم فطراً ، والخنف ضم اليد على الضرع ، والفطر أن يحلب كما يعقد ثلاثين والمصر بأطراف الأصابع؟ فقال بل أحلبها مصراً ، ويقال الخنف باليد كلها والفطر أن يحلب يعقد ثلاثين ، والمصر أن لا يقبض على الضرع .

حدثني عباس بن هشام الكلبي عن عوانة قال:توفي أمية بن عبدالله بن خالد بن أسيد بالصنبرة من الأردن ، ومات خالد بن يزيد بن معاوية ، وروح بن زنباع في عام واحد ، فكان يسمى عام الملوك ، فأرسل عبد الملك فأحصى أضياف أمية ، فوجدهم خمسمائة فوصلهم عبد الملك .

١ ـ بهامش الأصل : استبراءها .

وكان أمية لما قدم الشام قال الناس: قدم أمية أخو خالد فقال عبد الملك : أراك ببلدٍ لا تعرف فيه إلا بخالدٍ ، وأنت أعز من بها ، فجعل له حاجتين في كل يوم ، فأصبح الناس على بابه يسألونه الحوائج إلى عبد الملك ولما مات هؤلاء الثلاثة رثاهم عبد الملك :

لعمرك لا أنسى أمية أظلمت علـيَّ به أرضي معاً وسمائيا
ومن يوم روح قد علتني كآبة وبل دموعي بالرشاش ردائيا
وقد كاد ينسينيهما يوم خالد أبي هاشم إذ كدت أنسى حيائيا
أُلاكَ الأخلاء المصافون ما بقوا وكنت لهم ما صاحبوني مصافيا
فقد أوحشت أوطانهم وبلادهم وأوحش منهم مجلسي وفنائيا
أشد بهم ركني سريري وموكبي فكيف بصبري بعدهم وعزائيا

المدائني قال : مرَّ عبدالملك على قبر معاوية ، ومعه عمر بن عبيد الله بن معمر ، وابن بحدل الكلبي فقال : هذا قبر رجل كان يسكته الحلم ، وينطقه العلم ، هذا قبر أمير المؤمنين معاوية ثم أنشد :

وما الدهر والأيام إلا كما أُرى رزيـة مـال أو فـراق حبيب

المدائني عن مسلمة بن محارب قال:دخل علي بن عبد الله بن عباس على عبدالملك في يوم شديد البرد وقد حال بينه وبينه دخان العود فقال : يا أمير المؤمنين أحمد الله على ما أنت فيه من الدفء ، مع ما الناس فيه من البرد ، ودعا له بالبقاء ، فقال له : يا أبا محمد أبعد ابن هند ـ وكان أميراً عشرين سنة وخليفة مثلها ـ أصبحت تهز على قبره يَنْبُوتَهُ ما هو إلا كما قال الشاعر :

وما الدهر والأيام إلا كما أرى رزية مال أو فراق حبيب
وإن امرءاً قد جرب الدهر لم يخف تقلب عصريه لغير أريب

المدائني عن أبي بكر الهذلي قال : ركب عبدالملك فتلقاه محمد بن جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبدمناف ، فمرا يتسايران حتى إذا بلغا المقابر ، عدل عبدالملك فوقف ، ومحمد بن جبير معه على قبر معاوية ، وإذا عليه ثمامة أو عوسجة تهتز ، فقال عبدالملك يرحمك الله أبا عبدالرحمن والتفت الى محمد بن جبير فقال : يا أبا سعيد ما كان علمك به قال : كان علمي به والله أنه كان ممن ينطقه العلم ، ويسكته الحلم ، قال عبدالملك : كذلك والله كان ثم ولى وهو يقول :

وما الدهر والأيام إلا كما أرى رزية مال أو فراق حبيب

ابن الكلبي عن عوانة قال : لمّا أنشد عبدالملك قول خُرَيْم بن فاتك الأسدي :

لقيت من الغانيات العجابا ليالي أدركن مني شبابا
علام يكحلن حور العيون ويحدثن بعد خضاب خضابا
ويبرقن إلا لما تعلمون فلا تحرموا الغانيات الضرابا

فقال عبدالملك : نعم الشفيع لهن خريم .

المدائني عن سحيم بن حفص ، وعلي بن مجاهد قالا : مات عمر بن عبيدالله بن معمر بضمير[1] وهي قرية من قرى دمشق ، فخرج عبدالملك فصلى عليه وقعد على قبره ، فقالت امرأة : يا سيد العرب ، تعني عمر ،

---

١ ـ ما تزال تحمل الاسم نفسه خارج دمشق على الطريق الموصل إلى تدمر .

فقال لها رجل من أهل الشام : اسكتي تقولين هذا وأمير المؤمنين حاضر ؟ فقال عبدالملك : مه دعها فقد صدقت وقال :

ألا ذهب العرف والنائل ومن كان يعتمد السائل
ومن كان يطعم[1] في سيبه غني العشيرة والعائل

ثم قام عبدالملك على قبر عمر فقال : رحمك الله أبا حفص ، فقد كنت لا تحسد غنينا ولا تحقر فقيرنا .

المدائني عن سحيم بن حفص قال:أخذ ابراهيم بن عربي إبلا للبعيث المجاشعي ، فخرج إلى عبدالملك فقال:من تحب أن نأمره بجمع إبلك وردها عليك ؟ فقال : حصين بن خليد العبسي ، وكان على بادية قيس ، فأمره بجمعها ، وردها فقال البعيث :

إني لأبواب الملوك قروع

وقال أبو الحسن المدائني : ويقال ان البعيث أتى شبة بن عقال ، فأدخله على عبدالملك ، فدخل رجل أحمر أزرق فسلم سلاماً جافياً ، فقال عبدالملك : أهو هُوَ ؟ فقال : إي والله لأنا هو ، قد قلت وقيل لي وأنا الذي أقول :

إذا شئت عاطتني الزلال خريدة من البيض شنباء اللثاث شموع
سمت بجدود في العرانين وانتمت بحيث تنمى حاجب ووكيع

قال : فما فرغ من كلامه حتى سرني ، وإني لأستحيي من رثاثة هيئته ومحمد بن عمير جالس ، فقال عبدالملك : يا أبا عمرو زوجتموه ؟ قال : نعم امرأة شبيهة به وهي ابنة خاله .

---

١ ـ بهامش الأصل : يطمع .

المدائني عن محمد بن عدي بن النهاس بن قَهْم قال أصابت الناس قحمة ، أو قال حطمة ، فخرجوا الى الشام يطلبون الريف ، فصارت جارية من العرب إلى بيت من يهود تخدمهم ، فوقع عليها رجل منهم غصبها نفسها ، فضرب عبدالملك عنق اليهودي ، وأخذ ماله فأعطاه أهل الجارية ، ويقال إنه صلب اليهودي حين قتله .

المدائني عن عبدالرحمن بن معاوية الزيادي قال: حج عبدالملك فجعل يطوف بالبيت ومعه الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي ، فلما كان في الطواف السابع دنا من البيت ليلتزمه فجذبه الحارث فقال : مالك يا حار ؟ قال : أتدري أول من فعل هذا ؟ قال : لا ، قال : عجوز من قومك على غير سنّة ، فمضى ولم يلتزمه .

المدائني عن محمد بن صالح عن موسى بن عقبة أن عبدالملك حج فلقيه رجل من ولد عمر ، قد نالته ولادة من أبي بكر ، فسأله فحرمه ، وقال متمثلاً :

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم

فقال الرجل : إذا ذدتَ عن حوضك ابن الفاروق ، وابن الصديق فمن تورده ؟ قال : بَني عبد مناف .

المدائني عن حباب بن موسى عن الشعبي قال : سمعت عبدالملك يدعو : اللهم إن ذنوبي قد عظمت وجلت ، وهي صغيرة يسيرة في جنب عفوك فاغفرها لي برحمتك ، فحسدته .

المدائني عن أبي اسحق بن ربيعة قال : قال عبدالملك لموسى بن طلحة : يا أبا عيسى ما بقي من ظنك ؟ قال : يا أمير المؤمنين مازالت قريش

تَزَنِّني وإياك بذلك ونحن غلمان ، فضحك عبدالملك .

المدائني عن بشر بن أبي عيسى قال : قال عبدالملك للأبرش الكلبي - واسمه سعيد بن الوليد بن عبدعمرو - وهو يتغدى معه : يا أبرش إن أكلك لأكل مَعَدِّي . قال : تأبى ذلك قضاعة .

حدثني العباس بن هشام الكلبي عن أبيه قال : أصحب عبدالملك بن مروان ذبيان بن نعيم بن حصين بن سعدانة الكلبي ، أخاه عبدالعزيز ، حين شخص إلى مصر ، فرأى منه جفوة فكتب إلى عبدالملك :

أبلغ أمير المؤمنين ودونه فراسخ تطوي الطرف وهو حديد
بأني أرى عبدالعزيز مؤخرا يقدم قبلي راسب وسعيد
وقد كنت أدنى في القرابة منهما وأشرف إن كنتَ الشريفَ تريد

فكتب إليه عبدالملك في أمره ، فبره وسهل أذنه وأدنى مجلسه .

الهيثم عن ابن عياش عن أبيه قال : سمعت عبدالملك يقول لعبدالله بن مسعدة الفزاري : إن أفضل النساء السواحر اللاتي يقول أهل الرجل : قد سحرنه ، وغلبن على عقله .

المدائني قال : بينا بنو عبدالملك عنده إذ مد الوليد رجله في حجر أخيه عبدالله بن عبدالملك ، فنبذها وقال: اقبض رجلك ، فقال الوليد : يا أمير المؤمنين ألا ترى إلى ابن البربرية ؟ فقال عبدالله : أجل والله ، إني لابن البربرية ، وإنها لابنة أملاك كرام ، وليست كأمك ابنة الأعرابي الجلف البائل على عقبيه ، فقال الوليد : يا أمير المؤمنين ألا تسمع ؟ فقال عبدالملك : إيها الآن اعرضا عن هذا ، فكفا .

وعبدالله القائل حين احتضر وجاءه مال من مصر : ما لي وله ، ليته والله كان بعراً حائلاً بنجد .

المدائني قال : رأى عبدالملك كأنه بال في الكعبة ، فبعث إلى سعيد بن المسيب من سأله عن ذلك ، وقال له : لا تخبره من صاحب الرؤيا ، فقال له الرجل : رأيت كذا ، فقال له سعيد مثلك لا يرى هذه الرؤيا ، فرجع إلى عبدالملك فأخبره فقال:ارجع إليه فأخبره أنّي رأيتها فرجع إليه فأخبره فقال : يخرج من صلبه من يلي الخلافة .

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن عبدالله بن جعفر عن حبيب بن قنيع قال : جلست إلى سعيد بن المسيب يوماً والمسجد خال ، فجاءه رجل فقال : يا أبا محمد رأيت في النوم كأني أخذت عبدالملك بن مروان فوتدت في ظهره أربعة أوتاد ، وتدا بعد وتد ، فقال : ما أنت رأيت هذه الرؤيا فأخبرني من رآها ؟ قال : أرسلني إليك ابن الزبير بهذه الرؤيا لتعبرها ، فقال : إن صدقت الرؤيا قتل عبدالملك عبدالله بن الزبير ، وخرج من صلب عبدالملك أربعة كلهم يكون خليفة ، قال : فرحلت إلى عبدالملك فدخلت عليه وهو في الخضراء بدمشق فأخبرته الخبر ، فسره وسألني عن سعيد وحاله ، وسألني عن ديني فقلت : أربعمائة دينار ، فأمر لي بها من ساعته ومائة دينار أخرى ، وحملني طعاماً وزيتاً وكسيا ، فانصرفت راجعاً إلى المدينة .

المدائني عن أبي عبدالرحمن الطائي قال : قال عبدالملك لعمرو بن حريث : إني أراك ظاهر الدم لين البشرة ، فليت شعري مم ذاك ؟ فقال طعامي لباب البر ، وصغار المعز ، ولباسي الكتان ، ودهني البنفسج .

المدائني عن عبدالله بن سلم عن أبيه قال : قال عبدالملك للعجاج : أتحسن الهجاء ؟ فقال يا أمير المؤمنين هل رأيت صانعاً إلا وهو على الإفساد أقدر منه على الإصلاح ، قال فما يمنعك من الهجاء ؟ قال إن الله عز وجل أعطانا عزا منعنا من الظلم وحلما منعنا من أن نَظلِم ، فقال عبدالملك : الهجاء أشد من المديح وحرك رأسه .

هشام ابن الكلبي عن عوانة قال : قال عبدالملك : أي النساء يا بن مسعدة أفضل ؟ قال : الساحرة ، يعني قول الرجل : قد سحرتني فقال صدقت .

المدائني عن سحيم بن حفص قال : قال عبدالملك بن مروان : إن من وثائق الحزم أن تحمل الناس بالمال فإنهم أتباعه .

قال : وقال عبدالملك : الحلم يحيا بحياة السؤدد .

حدثني أبو مسعود الكوفي قال : دخل كثير بن الرحمن على عبدالملك ، فقال : أنشدك يا أمير المؤمنين ؟ قال بكم ؟ قال كثير :

بطرف ومذعان وألف وحلة وسيف عتيق من جياد الصفائح [1]

فقال : يا غلام عجل بجميع ما قال الساعة ، فأتي بفرس رائع ، وناقة مذعان ، وحلة وسيف ، ثم أنشده شعره الذي مدحه به فأمر له بمال .

المدائني عن سحيم بن حفص قال : قال عبدالملك لأسيلم بن الأُخيْف[2] ، أبي اليقظان ، وكان مضموماً إلى الوليد : أخبرني عن الوليد ؟

١ ـ ليس في ديوانه المطبوع .
٢ ـ في هامش الأصل : ما جاء في اللحن .

قال : أعفني يا أمير المؤمنين ، قال : لتقولن قال يلحن لحنا فاحشاً يعرفه من لا يبصر العربية ، ويظن ظناً سيئاً أخاف أن يوبقه [1] ويوثقه ويستحيي أن يسأل فَيُعَلَّم ، فقال عبدالملك للوليد : بلغني أنك تلحن لحنا فاحشاً وتسيء الظن وتستحيي أن تسأل فتعلم ، فقال : أما السؤال فما أدعه للحياء منه ، ولكني لا أرى أحداً أهلاً لأن أسأله عن شيء ، وأما سوء الظن فمن ذا ينبغي له أن يحسن الظن بالناس بعد قتل مروان ، وأما اللحن فمر الفصحاء بتقويم لساني .

المدائني قال : قال عبدالملك لربيعة بن الغاز : إني أحب الوليد ، وأريد توليته ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن وليته الجباية فاستقصى ذُمَّ ، وإن قصر عُجِّزَ ، ولكن وَلِّهِ الصوائف فيكون ذلك له شرفاً وذكراً .

قالوا : وقال عبدالملك لأسيلم بن الأخيف : كيف ترى الوليد : فقال : إنه ليلحن لحناً قبيحاً ، قال: إنه كان أحب ولدي إلي ، فلم تطب نفسي بمفارقته فأسترضع له بالبادية ، كما استرضعت لسليمان .

المدائني قال : قال عبدالملك لخالد بن يزيد بن معاوية : ألا تقيمون لسان عبدالله بن يزيد ؟ فقال: يا أمير المؤمنين صعب علينا من تقويم لسانه ما صعب عليكم من تقويم لسان الوليد ، قال : وكان الوليد رديء اللسان ، قال يوماً : يا غلام رد الفرسان الصادان عن الميدان .

---

١ ـ بهامش الأصل : يوقعه .

المدائني عن أبي معاوية بن عامر قال : تكلم عبدالله بن يزيد بن معاوية عند عبدالملك فلحن ، فقال عبدالملك : اللحن من الشريف أقبح من الجدري في الوجه الحسن .

المدائني قال : قال عبدالملك بن مروان : إن المغيرة بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام ليفخم اللحن كما يفخم نافع بن جبير الإعراب .

وكان المغيرة يلحن ويتشدق .

المدائني عن علي بن إبراهيم قال : قال عبدالملك : اللحن هُجْنَةٌ في الشريف والعجب آفة للرأي والخرس خير من البيان بالكذب ، لأن الكذب فساد كل شيء .

المدائني عن سحيم بن حفص قال : صحف عبدالملك بن مروان فقال لقوم من كندة : من كان الميل منكم ؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين هو المثل بن معاوية الأكرمين .

وقال المدائني : لما أنشد الأخطل عبدالملك قوله :

فإلا تغيرها قريش بملكها يكن عن قريش مستمال ومرحل [1]

فقال له عبدالملك : إلى أين يا بن اللخناء ؟ قال: إلى النار. قال: لو قلت غيرها قطعت لسانك .

---

١ ـ ديوان الأخطل ص ٢٣١ .

المدائني عن الوليد بن مسلم قال : كان الحارث الأشعري قاضي عبدالملك ، فأخبر عبدالملك أن امرأته كلمته في رجل فقضى له بقضية وأن الرجل أهدى الى امرأة الأشعري هدية ، فقال عبدالملك :

إذا رشوة من باب بيت تقحمت لتسكن فيـه والأمـانـة فيـه
سعت هربا منـه وولت كأنها حليم تـولى عن جوار سفيـه

بيعة الوليد وسليمان

قالوا : كان مروان بايع لعبد الملك ولعبد العزيز من بعده ، وولى عبد العزيز مصر ، فأراد عبد الملك أن يخلع عبد العزيز ويبايع لابنه الوليد ، فكتب إلى عبد العزيز : «إن رأيت أن تصير هذا الأمر لابن أخيك وولدك» ، فأبى فكتب إليه يسأله أن يجعلها للوليد من بعده ويقول له : لولا أن الوليد أعز الخلق علي أمير المؤمنين لم يسألك هذا له ، فكتب إليه : «إني أرى في أبي بكر بن عبد العزيز ، مثل الذي ترى في الوليد» . فقال عبد الملك : اللهم إنه قد قطعني فاقطعه ، وكتب إليه : «احمل إلي خراج مصر» ، فكتب إليه عبد العزيز : «يا أمير المؤمنين إنا قد بلغنا سناً لم يبلغها أحد من أهل بيتك ، إلا كان بقاؤه بعدها قليلاً ، وإنا لا ندري أينا يأتيه الموت أولاً ، فإن رأيت أن لا تغثث علي بقية عمري فافعل»، فرق له عبد الملك وقال: لعمري لا فعلت ذاك ولا سُؤْتُ أخي ، وقال لبنيه إن يرد الله أن يعطيكم إياها لا يقدر أحد من العباد على ردها عنكم ، وقال لابنيه الوليد وسليمان : هل قارفتما حراماً قط ؟ قالا : لا والله ، قال : الله أكبر وليتماها ورب الكعبة .

قالوا : وشاور عبد الملك قبيصة بن ذؤيب الخزاعي ، فقال : لا تعجل ، فلعل الله سيكفيك ، ولم تظهر غدراً ولم يَسُؤْ عنك السماع ، وكان يلي السكة والخاتم ، فلم يشعر ذات يوم إلا وقد كتب بنعي عبد العزيز ، فأدخل الكتاب علي عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين ، قد جاءك ما كنت أردت ، ولم تقطع رحم عبد العزيز ولم تأت أمراً يعاب .

وقال أعشى بني أبي ربيعة شعراً يحث فيه عبد الملك على بيعة الوليد وخلع أخيه عبد العزيز :

ابنك أولى بملك والده وعمه إن عصاك مطرح
ورثت عثمان وابن حرب ومر وان وكل لله قد نصحوا
فعش حميداً واعمل بسنتهم تكن بخير وأكدح كما كدحوا

في قصيدة .

وأراد عبد الملك البيعة للوليد قبل أمر عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، وكتب الحجاج إلى عبد الملك يزين له بيعة الوليد ، وأوفد وفداً فيهم عمران بن عصام العنزي من بني هميم بن عبد العزى بن ربيعة بن تيم بن يقدم بن عنزة بن أسد بن ربيعة الشاعر ، وقد قتله الحجاج بدير الجماجم بعد ، فقال عمران :

أمير المؤمنين إليك نهدي على النأي التحية والسلاما
أجبني في بنيك يكن جوابي لهم أكرومة ولنا قواما
فلو أن الوليد أطاع فيه جعلت له الخلافة والزماما
شبيهك حول قُبَّتِهِ قريش به يستمطر الناس الغماما
ومثلك في التقى لم يصب يوما لدن خلع القلائد والخداما

فإن تؤثر أخاك بها فإنا ... وجدك ما نطيق لها اتهاما
ولكنا نحاذر من بنيه ... بني العلات إن نسقى السِّماما
ونخشى إن جعلت الملك فيهم ... سحاباً أن يكون لها جهاما

في أبيات .

فقال عبد الملك : إنه عبد العزيز يا عمران ، فقال احتل له يا أمير المؤمنين .

قالوا : وكان الحجاج كتب إلى عبد الملك يشير عليه باستكتاب محمد بن يزيد الأنصاري ، وكتب إليه :

إن أردت رجلاً عاقلاً فاضلاً وديعاً مأموناً مسلماً كتوماً للسر ، تتخذه لنفسك، وتضع عنده سرك، وما لا تحب أن يظهر من أمرك، فاستكتب محمد بن يزيد ، فكتب عبد الملك : أن احمله إلي ، فحمله إليه فاستكتبه . قال محمد : فلم يكن يأتيه كتاب إلا دفعه إلي ، فإني لجالس يوما نصف النهار إذا أنا ببريد قد قدم من مصر ، فقال : الإذن ، قلت : ليست هذه ساعة إذن فأعلمني ما الذي قدمت له، فأبى فقلت: هل معك كتاب؟ فقال: لا، فدخل بعض من حضرني على عبد الملك فأخبره ، فأذن للرجل ، وصرت إليه فقال حين دخل : آجرك الله يا أمير المؤمنين في عبد العزيز ، فاسترجع وبكى ، ووجم ساعة وقال : رحم الله عبد العزيز ، فقد مضى لسبيله ، ولابد للناس من عَلَمٍ يسكنون إليه ، وقائم يقوم بالأمر من بعدي ، فما ترى ؟ قلت : يا أمير المؤمنين سيد الناس ، وأرضاهم عندهم ، وأفضلهم الوليد بن أمير المؤمنين ، قال : صدقت وفقك الله ، فمن ترى أن يكون بعده؟ قلت: ياأمير المؤمنين أين تعدل عن سليمان فتى العرب ؟! قال:

صدقت والله ووفقت ، أما إنا لو تركنا الوليد وإياها جعلها لبنيه ، اكتب عهداً للوليد ولسليمان من بعده ، قال : فغضب الوليد علي حين أشرت بسليمان بعده ، وكان أول من تجبر من الخلفاء ، قال وصير عبد الملك مع ابنيه حين بايع لهما عبيدة بن قيس العقيلي .

المدائني عن ابن جعدبة قال : كتب عبد الملك إلى هشام بن إسماعيل المخزومي ، وهو بالمدينة ، يأمره أن يدعو الناس إلى بيعة الوليد وسليمان ، فبايعوا غير سعيد بن المسيب ، فإنه قال : لا أبايع لأحد وعبد الملك حي ، فضربه هشام ضرباً مبرحاً ، وألبسه المسوح ، وحمله إلى ثنية بالمدينة كانوا يقتلون عندها ويصلبون ، فظن أنهم يريدون قتله ، فلما انتهوا إليها ردوه ، فقال : لو ظننت أنهم لا يصلبوني ما لبست سراويل مسوح ، ولكن قلت يسترني.وبلغ عبد الملك خبر سعيد فقال:قبح الله هشاماً ، إنما كان ينبغي له إذ أبى أن يضرب عنقه ، وكتب إلى هشام يلومه ويقول : إن سعيداً لم يكن ممن تخافه ، وقد كان ينبغي لك أن تدعه .

المدائني قال أبو المقدام : مروا بسعيد بن المسيب علينا ، وإنا في الكتاب ، وعليه تبان شعر .

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي قال : ضرب هشام بن اسماعيل في سنة ست وثمانين سعيد بن المسيب ستين سوطاً ، وطاف به في ثياب من شعر حتى بلغ به رأس الثنية ، فلما كروا به قال:إلى أين تكرون بي ؟ قالوا : إلى السجن ، قال : والله لولا إني ظننته الصلب ما لبست هذا التبان أبداً ، فرده إلى السجن ، وحبسه ، وكتب إلى عبد الملك بخلافه وتركه البيعة للوليد وسليمان من بعده وذلك حين مات عبد العزيز بن مروان بمصر ، فكتب عبد

الملك إليه يلومه فيما صنع ويقول : كان سعيد والله أحوج إلى أن تصل رحمه من أن تضربه ، وإنا لنعلم أنه ما عند سعيد شقاق ولا خلاف .

قال الواقدي : وكان الذي دخل بالكتاب إلى عبد الملك في ضرب سعيد قبيصة بن ذؤيب ، وكان على السكة والخاتم ، فقال : يا أمير المؤمنين كيف يفتات عليك هشام بمثل هذا ، ويضرب ابن المسيب ، ويطوف به والله لا يكون أبداً أمحك ولا ألج منه حين فعل به ما فعل ، أو سعيد ممن يخاف فتقه وغوائله ؟ قال عبد الملك : قد كتبت إليه أعلمه بكراهتي لما صنع به ، وكتبت إلى سعيد أعتذر إليه ، فلما قرأ سعيد كتاب عبد الملك قال : حكم الله بيني وبين من ظلمني ، قال : وصنعت لسعيد ابنته طعاماً كثيراً حين حبس ، وبعثت به إليه ، فأرسل إليها لا تعودي لمثل هذا ، فإني لا أدري ما قدر حبسي ، وإنما غاية هشام بن إسماعيل أن يذهب بمالي فلا تزيديني على القوت الذي كنت آكله في بيتي ، وكان يصوم الدهر ، وكان الوليد سيء الرأي في هشام ، فلما ولي عزله عن المدينة ، وأمر أن يوقف للناس ، فدعا سعيد ولده ومواليه فقال : إن هذا الرجل قد كان أساء إلينا ، فلا يذكرنه أحد منكم بسوء ، ولا يَعرضَنّ له ولا يؤذينه بكلمة ، فقد تركنا مجازاته لله والرحم ، وإن كان ما علمته سيء النظر لنفسه ، فأما كلامه فلا أكلمه أبداً .

قال:وأرسل هشامٌ إلى أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشامٍ : أكفني أمر ابن المسيَّب فإنه رجلٌ عند الناس كما علمت، فقال: لابأس عليك منه، فقال: إنَّه حقودٌ قال: أما ماصنعت به فلن يخرج من قلبه، ولكنك لن ترى منه سوءاً.

وقال محمد بن سعيدٍ لأبيه: خل بيننا وبينه، فقال سعيدٌ: لايعرض له، فإنك إن فعلت لم أكلمك بكلمةٍ أبداً، وحجَّ الوليد، فدخل مسجد المدينة، فأخرج النَّاس ولم يجترىء أحدٌ علٰى إخراج سعيدٍ، وقيل له هذا أمير المؤمنين، فقال: لا والله لاقمت إلا في الوقت الذي كنت أقوم فيه، وجعل عمر بن عبد العزيز يعدل بالوليد عنه، وإنَّ عليه لريطتين[1] ماتساويان خمسة دراهم، وذلك لكراهة عمر أن يراه فينكر جلوسه، وحانت من الوليد التفاتةٌ، فقال: من الجالس؟ قيل: سعيد بن المسيب، ولو علم بمكان أمير المؤمنين لقام إليه، فقال الوليد: قد عرفت حاله، ونحن نأتيه، فنسلم عليه، فجاء الوليد حتى وقف على رأسه وقال: : كيف أنت أيها الشيخ وهو جالسٌ فقال:بخيرٍ والحمد لله، فكيف أمير المؤمنين، وكيف حاله؟ فقال الوليد: خير حالٍ والحمد لله، فانصرف وهو يقول لعمر: هذا بقية الناس، فكان عمر إذا حلف يقول:لا والذي صرف عن سعيدٍ شرَّ الوليد ماكان كذا، ولأفعلن كذا،

وحدثني عبَّاس بن هشامٍ عن أبيه عن جده قال:لمَّا ضرب سعيد بن المسيب لامتناعه من بيعة الوليد، أقيم للنَّاس، فمرت به أمةٌ لبعض أهل المدينة فقالت له: ياشيخ لقد أقمت مقام خزيٍ فقال لها: من مقام الخزي فررت.

ولمَّا مات عبد العزيز قال الشاميُّون: رد علي أمير المؤمنين أمره، فدعا عليه فاستجيب له، لقول عبد الملك: إنَّه قطعني فاقطعه.

---

١ ـ الريطة: كل ملاءة غير ذات لفقين كلها نسج واحد، وقطعة واحدة، أو كل ثوب لين رقيق. القاموس.

المدائني وغيره أنَّ عبد الملك قال لأسماء بن خارجة الفزاري: بلغني عنك خصال كريمةٌ، فأخبرني بها، فقال وصفها من غيري أحسنُ، فقال: لتقولنَّ، قال: أما إذ أبيت ياأمير المؤمنين إلا أن أخبرك فإني لم أمدَّ رجلي بين يدي جليسٍ لي قط كراهة أن يظنَّ أني أرى أنَّ لي عليه طولاً، ولادعوت رجلاً قطُّ إلى طعام فأجابني إلا لم أزل أعرف له الفضل عليَّ، ولاسألني رجلٌ حاجةً قطُّ فرأيت أنَّ شيئاً من الدنيا عوضٌ من بذل وجهه إليَّ فيها واختياره إيَّاي لها، فقال عبد الملك: يَحقُّ لك أن تكون سيداً.

وقال الوليد: ياأمير المؤمنين بلغني أنَّه أتاه الأخطل في ناسٍ من قومه يسألونه ديةً، فلقيهم ببشرٍ وطلاقةٍ، وأمر لهم بثلاث بدرٍ فقال: بدرةٌ لمشاكم، وبدرةٌ لإيثاركم إيَّاي على غيري، وبدرةٌ لصاحبكم، ثم قال لابنيه: مرا للقوم من مالكما بما أحببتما فأمرا لهم بعشرين ألف درهم فقال الأخطل:

إذا مات ابن خارجة بن حصن فلا مطرت على الأرض السماء
ولا رجع البشير بغنم جيشٍ ولاحملت على الطهر النساء
فيوم منك خيرٌ من رجالٍ كثير حولهم نعم وشاء
فبورك في بنيك وفي أبيهم إذا ذكروا ونحن لك الفداء[1]

فأعجب عبد الملك حديثُ الوليد له، وروايته ماروى من شعر الأخطل وقال له: معرفتك بفضل أهل الفضل فضيلةٌ يابني.

---

١ ـ ليست في ديوان الأخطل المطبوع.

حدثني ابن أبي شيخٍ الكوفيُّ عن عبيد الله بن موسى قال: بلغني أن عبد الملك بن مروان قال للحجَّاج: إنه ليس أحدٌ إلا وهو يعرف عيبه، فعزمت عليك لما خبرتني بما فيك من العيوب، فقال: أنا حسودٌ حقودٌ لجوجٌ قال: حسبك فما في الشيطان إلا دون هذه الخلال.

المدائنيُّ عن علي بن مجاهدٍ قال: حبس عبد الملك يحيى بن سعيد بن أبي العاص بعد قتل أخيه أربعين يوماً، ثمَّ دعا به فاستشار من حضره في أمره، فقال بعضهم: أقتله، وقال بعضهم مُنَّ عليه، وقال له عبد الله بن مسعدة بن حكمة الفزاري: ياأمير المؤمنين إن له رحماً وقرابةً والعفو أقرب للتقوى، فمنَّ عليه وسيره إلى عدوّك فلعل الله يكفيك إيَّاه بخيلٍ من خيلك، فلحق بعبد الله بن الزبير، فقال له: إنَّ أخاك كان سيء البلاء عندي فالحق بمصعبٍ، فلحق بالعراق فولده بالكوفة وواسط.

حدَّثني عليُّ بن حمادٍ عن الحزامي عن عبد الله بن نافعٍ قال: وفد عبد الله بن جعفرٍ على عبد الملك بن مروان، وأهدى إليه من ألطاف المدينة فبعث إليه عبد الملك بألطافٍ وكسي وفرس عبد الله بن الزبير الذي يقال له اليعسوب، وكان قتل عنه، فقبل الهدايا، وردَّ الفرس، فبعث إليه عبد الملك يعزم عليه ليخبرنه لم ردَّ الفرس، فقال عبد الله: ماكنت لاقدم على قومي بأسلابهم.

قالوا: وقال عبد الملك لأسماء بن خارجة: زدني من صفة مذاهبك وأخلاقك، قال: ماشتمت رجلاً قط، ولاشتمني إلا حلمت عنه إن كان كريماً، فأنا أولى من غفر زلَّته، وإن كان لئيماً لم أجعل عرضي خطراً له، فقال: أحسنت والله ماشئت.

المدائني قال:دخل تميم بن الحباب السلمي أخو عمير بن الحباب على عبد الملك فقال: أنشدني بعض مارثيت به أخاك عميراً، فأنشده:

وذي ميعةٍ لايستطاع قيـاده مع الخيل إلا ممسكاً بلجام
وزعت به الغارات حتى تركته حزوز[1] الضحى من نهكةٍ وسآم
فكم من دمٍ يوماً هرقت ومن دمٍ حقنت ومن وفدٍ حبوت كرام

فقال عبد الملك: ماكان كما وصفت يابن الحباب، فقال: بلى والله،وإن رغم الراغمون.

المدائني عن عوانة قال : قدم على عبد الملك قادمٌ من العراق، فقال له: كيف تركت بشراً ـ يعني أخاه ـ؟ قال : تركته ليناً في غير ضعفٍ، قويّاً في غير عنفٍ، يعرف موضع العقوبة فيعاقب على قدر الذنب، قال: ذاك ابن حنتمة ـ يعني عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ .

وقال عبد الملك لأعرابي: إنك لحسن الكدنة، فقال: ذاك عنوان نعمة الله عليَّ، إني أدفيء رجلي في الشتاء، وآكل عند الشهوة وأذود غاشية الهم يعني بالشراب .

قالوا: وبعث عبد الملك روح بن زنباعٍ إلى أم البنين، وهي عاتكة بنت يزيد يسألها أن تجعل مالها لابنيها يزيد ومروان الأصغر، فقد أدركا، فقالت: عليَّ بشهودٍ عدولٍ فلمّا دخلوا عليها قالت: اشهدوا أني قد تصدقت بمالي علي فقراء آل أبي سفيان صدقةً بتةً بتلةً، وقالت لروح: ياأبا زرعة أتراني أخاف على ولديَّ العيلة وهما ابنا أمير المؤمنين؟! فأتى عبد الملك فأخبره،

١ ـ أي حين أو وقت.

فغضب فقال له روحٌ: لاتغضب ياأمير المؤمنين فإنّها لم تخط فيما صنعت، ولا في الإتكال على من اتكلت عليه.

وقال الواقدي: كان الناس يصلون ركعات بعد الظهر، وكان عبد الملك أول من مد الصلاة من الظهر إلى العصر، وكان أول خليفة بخل.

المدائني عن عامر بن أبي محمدٍ قال: تنبأ رجلٌ يقال له خالد أيام عبد الملك، فأمر به فصلب حياً، فقال: ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله﴾[1] فطعنه رجلٌ فانثنت الحربة، فسجد أصحابه، فنكت عبد الملك في الأرض، ثم تلا: ﴿ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾[2] ياأبا زرعة اطعن في الجانب الأيسر فإن الشيطان يدفع عن الجانب الأيمن، فطعنه تحت الخاصرة فأخرج السنان من ظهره، فقال عبد الملك: ﴿جاء الحق وزهق الباطل﴾[3].

المدائني قال: قال عبد الملك: السياسة هيبة الخاصة مع صدق مودتها، واقتياد قلوب العامة وانصافها، والاحسان إليها.

المدائني عن عمر بن الحباب قال دخل زفر بن الحارث على عبد الملك بعد الصلح، فقال له: ياأبا الهذيل مابقي من حبك الضحاك بن قيس؟ قال: ما لاينفعه، ولايضرك، قال: لشد ما أحببتموه معاشر قيسٍ، قال: أحببناه، ولم نواسه ولو كنا فعلنا لأدركنا مافاتنا منه، قال: ما منعك من مواساته يوم المرج؟ قال: مامنعك من مواساة عثمان يوم الدار.

---

١ ـ سورة غافر ـ الآية: ٢٨ .
٢ ـ سورة الأحزاب ـ الآية: ٤٠ .
٣ ـ سورة الاسراء ـ الآية: ٨١ .

وقال عبد الملك لزفر: بلغني أنك من كندة قال: وماخير من لاينفى حسداً ولايُدَّعَى رغبةً.

المدائني قال: دخل علي بن عبدالله بن عباس على عبد الملك فتغديا جميعا ثمَّ دعا بشرابٍ فأتي به في عس، فبدا بعلي فسقاه ثم شرب، وقال عبد الملك اللحن هجنة الشريف والعجب آفة، والكذب فساد كل شيء والخرس خيرٌ من الكذب.

المدائني عن أبي خالدٍ التميمي عن أبي لؤلؤة المازني أنَّ عياش بن الزبرقان دخل على عبد الملك، وعنده روح بن زنباعٍ ، وأبو الزعيزعة مولى بني مروان فقال عبد الملك: يا عياش أما ترى هذا اليماني - يعني روحاً - يفخر بملوك اليمن؟ فقال عياش: ياأمير المؤمنين نحن بنو إسماعيل بن ابراهيم فملك إخوتنا بني اسحق بن ابراهيم أعظم من ملكهم، ملك سليمان بن داود مع النبوة، ونحن بنو إسماعيل ففينا النبوة والملك، فملكنا وملك إخوتنا أعظم من ملكهم، والله ياأمير المؤمنين لو متُّ ولم أدع وارثاً، لكان أبو الزعيزعة أولى بي من روحٍ فقام أبو الزعيزعة فقبل رأس عياشٍ وألقى عليه مطرفه فأسكت روحٌ.

قالوا: وقاد عياش بن الزبرقان إلى عبد الملك خمسة وعشرين فرساً، فلما نظر إلى الخيل نسب كلَّ فرسٍ منها إلى أبيه، وحلف على كل فرسٍ منها بيمينٍ غير اليمين التي حلف بها على الفرس الآخر، فقال عبد الملك: ما أعجب من نسبته للخيل ولكن أعجب من حلفه على كل فرسٍ بيمينٍ غير الاخرى.

المدائني قال: دخل أسيلم بن الأخيف الأسدي على عبد الملك فأدناه، ثمَّ قال له: أنشدني بعض ماقيل فيك، فامتنع فعزم عليه فأنشده شعراً:

ألا أيها الركب المجدون هل لكم بسيد أهل الشام تحبوا وترجعوا
أسيلم ذاكم ليس يخفى مكانه على مقلةٍ ترنو وأذن تسمع
جلا المسك والحمام والبيض كالدمى وفرق المذاري[1] رأسه فهو أنزع

فضحك عبد الملك ، ثم قال : ما قال قيس بن الأسلت خير مما قلته ، قال : وقد حصبت البيضة[2] رأسي فما أطعم نوماً غير تهجاع .

وزعموا أن رجلاً من الأعراب أهدى إلى عبد الملك شيئاً ، فقال : كيف أقبل هديتك وأنا أظنك لا تحسن أن تطاف[3] ، فقال : مهلاً يا أمير المؤمنين ، فوالله لأطيل المشي حتى أتوارى كراهة أن أرى ، وأستقبل الريح ، واشتم النسيم ، وأقدم رجلاً وأؤخر أخرى ، وأخوي تخوية الظليم ، وأمسح بالحجر ، وأجتنب المدر ، فضحك منه وقبل هديته ، ووهب له .

حدثني مصعب بن عبدالله الزبيري عن مالك بن أنس قال : قال عبد الملك بن مروان لسعيد بن المسيب : يا أبا محمد صرت أعمل الخير فلا أسر به ، وأفعل الشر فلا أسله ، قال : الآن تكامل فيك موت القلب .

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن مسلم بن حماد عن عمر بن حفص عن الزهري عن قبيصة بن ذؤيب بن حلحلة قال : كنا في خلافة معاوية في آخرها نجتمع في حلقة في مسجد بالليل أنا ومصعب بن الزبير ،

١ ـ النَزَع من الرأس : هو انحسار الشعر من جانبي الجبهة وهو أنزع . ومذره تمذير فتمذر : فرقه فتفرق . القاموس .
٢ ـ الحصبة : بثور .
٣ ـ طاف : ذهب ليغوط . القاموس .

وعروة بن الزبير ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وعبد الملك بن مروان ، وعبد الرحمن بن المسور بن مخرمة وإبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة ، وكنت أنا آتي زيد بن ثابت حتى مات ، وكان عروة يغلبنا بدخوله على عائشة رضي الله عنها ، وكانت أعلم الناس .

المدائني قال : قال عبدالله بن الزبير وسمع رجلاً يشتم الحكم بن أبي العاص : لا تسب الحكم فإنه كان رجلاً وديعاً ، ولكن سب مروان وابن مروان ، ثم قال : أيخوفني عبد الملك بالحرب ، وأنا ابن الحرب وأخوها ، فيها ولدت ، وفيها غذيت .

حدثني عبدالله بن صالح بن مسلم العجلي أخبرني الثقة عن مجالد عن الشعبي قال : دخلت على عبد الملك فصعّد فيّ بصره وصوبه ثم قال : يا شعبي إنك لضئيل ، فقلت : زوحمت في الرحم يا أمير المؤمنين ، وكان توأما ، قال : ثم أنشأت أقول متمثلاً :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
وكأين ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم

قال وكان الأخطل حاضراً فقال :

لا يعجبنك من جليس خطبة حتى يكون مع المقال أصيلا
إن الكلام من الفؤاد وإنما جعل الكلام على العقول دليلا[1]

---

١ ـ ليسا في ديوانه المطبوع .

قال الشعبي : فأنشدته في هذا المعنى غير شعر ، فقال الأخطل : أنا أفرغ من وعاء واحد وأنت تفرغ من أوعية كثيرة .

المدائني عن ثور بن يزيد قال : ذكرت خطباء أهل الشام الخلافة فعظموها ، ثم أطروا عبد الملك ، فالتفت إلى عبد الرحمن بن زرعة الحميري فقال : يا بن زرعة ما منزلتي عند الله عزوجل ؟ قال : أما ترضى أن تكون منزلتك منزلة داود النبي ﷺ قال الله عزوجل : ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى﴾[1] الآية قال : فهذا قول الله عزوجل لنبيه ، فكيف بك ، فأطرق عبد الملك فلم يتكلم .

المدائني قال : دخل رجل من بني تميم على عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين إن لي بلاء ، أصيبت عيني يوم الدار فوصله .

وكان لرجل من جلساء عبد الملك وأحبائه ابن أعور فقال له : إني مدخلك على أمير المؤمنين فقل له كما قال فلان التميمي وأراد أن يضحك عبد الملك منه ، فأدخله عليه فقال كما قال الرجل الأول ، فقال : ومن يعلم صدقك؟ قال: هذا ـ يعني ابن عمه ـ. قال:كذب والله يا أمير المؤمنين ما أصيبت عينه إلا يوم المرج مع الضحاك بن قيس فطرده عبد الملك ، فقال الرجل الذي أدخله : يا أمير المؤمنين هذه ورطة قد وقعت فيها ، قال عبد الملك : وكيف ؟ قال : إن له أربع بنين كالأسود ما آمنهم أن يفتكوا بي فأمر له عبد الملك بمال ، وقال كفهم عن نفسك بهذا ، فلما خرج من عند عبد

١ ـ سورة ص ـ الآية : ٢٦ .

الملك تلقاه بنو الرجل فقالوا : غررت أبانا وغررت به ، قال : لا تعجلوا فالذي صنعت خيرٌ هذه صلة أمير المؤمنين ، فدفعها إلى أبيهم فكفوا عنه .

المدائني قال:قال عبد الملك لأبي الزعيزية مولاهم : هل اتخمت قط ؟ قال:لا ، قال : وكيف ذاك ؟ قال : لأنا إذا طبخنا أنضجنا ، وإذا مضغنا أدققنا ولا نكد المعد ولا نخليها .

المدائني قال : لما بلغ عبد الملك خروج ابن الأشعث ، قال لمحمد بن عمير بن عطارد ، وهو عنده : من بالعراق ممن إن دعا أُجيب ؟ قال : لا أعلمه إلا أن يكون عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث .

المدائني قال عبد الملك : اللحن في الرجل الشريف كالجدري في الوجه الحسن .

وقال عبد الملك لابن له لحن بين يديه : اخْزَ من اللحن كما تخزى من الفاحشة يعلمها الناس . قال : وقال عبد الملك لعبد العزيز أخيه حين أمره بقتل عمرو بن سعيد الأشدق، فلم يفعل: لقد أشبهت أُمك الأعرابية البائلة على عقبيها ، فحلف عبد العزيز أن لا يعطي شاعراً يمدحه حتى يذكر أُمه في مديحه ، فقال ابن قيس الرقيات :

أُمك بيضاء من قضاعة في الـ بيت الذي يستظل في طنبه
وأنت في الجوهر المهذب من عبد مناف يداك في سببه[1]

المدائني عن عبدالله بن فائد قال : كان يقال:معاوية أحلم وعبد الملك أحزم .

١ ـ ديوان عبيدالله بن قيس الرقيات ص ١٤ .

المدائني عن جويرية بن أسماء قال : كتب مروان إلى معاوية يسأله أن يصير إلى عبد الملك ديوان المدينة فصيره ، فلم يزل عليه حتى كانت الفتنة .

المدائني قال عبد الملك : ما رأيت هذا البربط الأقنى الذي يذكرونه قط ، فقال بعضهم : صدق لم يرتفع إلي البربط إنما رأى الطنبور وقال آخر: كذب والله إني لأراه يضرب به .

المدائني عن عبدالله بن سلم قال : فرش لعبد الملك على سطح وهو يشتكي فمه ، فلما استلقى على فراشه قال : يا دنيا ما أطيبك مع العافية ، وكان يصيح حتى يسمع صياحه من خارج القصر : يا أهل العافية لا تستقلوها .

المدائني قال : ركب عبد الملك في يوم شديد البرد ، وعليه جباب خز مظاهرة ، فلقيه علي بن عبدالله بن عباس فقال : يا أبا محمد تدق أم دفر[1] دقا ، يعني الدنيا ، فما أتت عليه جمعة حتى مات .

المدائني عن سحيم بن حفص قال : أوصى عبد الملك بنيه في مرضه الذي مات فيه فقال : أوصيكم بتقوى الله فإنها أزين حلية ، وأحصن كهف ، ليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حق الكبير ، وانظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه فإنه نابكم الذي عنه تفترون ، ومجنكم الذي عنه ترمون ، وأكرموا الحجاج فإنه الذي وطأ لكم المنابر ، ودوخ لكم البلاد ، وأذل الأعداء ، وكونوا بني أم بررة لا تدب بينكم العقارب ، وكونوا في الحرب أحراراً ، فإن القتال لا يقرب منيه قبل وقتها ، وكونوا للمعروف

---

١ ـ أم دفر : الدنيا .

منازل فإن المعروف شيء يبقى آخره وذخره وذكره ، وضعوا معروفكم عند ذوي الأحساب ، فإنهم أصون له ، وأشكر لما يؤتى إليهم منه ، وتغمدوا ذنوب أهل الذنوب ، فإن استقالوا فأقيلوا ، وإن عادوا فانتقموا .

المدائني عن أبي إسحق الزيادي قال : قال بعض أطباء عبد الملك : إن شرب الماء مات ، فاشتد عطشه فقال : يا وليد اسقني قال: لا أعين عليك ، فقال : يا فاطمة اسقيني ، فقامت لتسقيه فمنعها الوليد فقال له عبد الملك لتدعنها أو لأخلعنك ، فقال : لم يبق بعد هذا شيء فسقته فخمد .

المدائني قال : جعل عبد الملك يقول حين احتضر[1]

إن بني صبية صيفيون
أفلح من كان له ربعيون
إن بني صبية صغار
أفلح من كان له كبار

فقال عمر بن عبد العزيز وهو عنده : ﴿قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى﴾[2] قالوا: ودخل الوليد على عبد الملك وعند رأسه فاطمة ابنته وهي تبكي ، فقال : كيف أمير المؤمنين ؟ قالوا : هو صالح ، فلما خرج قال عبد الملك :

ومستخبر عنا يريد أخا الردى ومستخبرات والدموع سواجم

قالوا : وكان عبد الملك يقول : أخاف الموت في شهر رمضان ، فيه ولدت ، وفيه فطمت ، وفيه جمعت القرآن ، وفيه بايع لي الناس ، فمات

١ ـ تحكى هذه القصة عن سليمان بن عبد الملك وقت إحتضاره .
٢ ـ سورة الأعلى ـ الآيتان : ١٤ ـ ١٥ .

للنصف من شوال حين أمن الموت في نفسه ، وكان موته في سنة ست وثمانين ، وهو ابن ثلاث وستين ، بدمشق ، وكانت ولايته بعد مقتل ابن الزبير ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر ، وخمسة عشر يوما ، ودفن خارج باب الجابية بدمشق ، وصلى عليه الوليد فتمثل هشام أو سليمان :

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

فقال له الوليد : اسكت فإنك تتكلم بلسان شيطان ألا قلت كما قال أوس بن حجر :

إذا مقرم مِنَّا ذَرَا حَدُّ نَابِهِ تمخط منا ناب آخر مقرم [1]

وقيل إن سليمان المتمثل بالبيت الأول ، لأن هشاما كان يوم مات أبوه ابن أربع عشرة سنة ، وولد عام قتل مصعب .

قالوا : ولما أخرج عبد الملك احتزم الوليد ومشى بين يدي سريره ، وكان في طريقهم إلى المقابر دار إذا هدمت كان الطريق أقرب إلى المقابر ، فأمر الوليد بهدم الدار قبل أن تخرج الجنازة ، فهدمت[2] .

وخطب الوليد حين رجع من الجنازة ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : لم أر مثلها مصيبة ، ولم أر مثله ثوابا ، فإن لله وإنا إليه راجعون لعظم المصيبة ، والحمد لله على حسن العطية ، إني قد كفيت ما كانت الخلفاء قبلي تتكلم به ، فمن كان في قلبه شك فليمت بدائه ، من أمال أذنه أملنا أذنيه .

١ - ديوان أوس بن حجر : ط . بيروت ١٩٧٩ ص ١٢٢ .
٢ - بهامش الأصل : بلغ العراض بالأصل الثالث ولله الحمد . نصف الكتاب .

قال الشاعر يرثى عبد الملك :

سقاك ابن مروان من الغيث مسيل أَحَشَّ شـمالي يجـود ويهـطل
فما في حياة بعد موتك رغبة لِحُرٍّ وإن كنا الـوليـد نؤمـل

ورثاه كثير وغيره .

خبر رستقاباذ
في أيام عبد الملك وولاية الحجاج
ابن يوسف بن الحكم بن أبي
عقيل العراق

حدثني عباس بن هشام ، عن أبيه، عن لوط بن يحيى ، وعن عوانة : أن بشر بن مروان هلك بالبصرة وهو على الكوفة والبصرة واستخلف خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص على البصرة ، فمكث نحواً من شهرين ، ثم ولى عبد الملك الحجاج بن يوسف العراق كله ، غير خراسان وسجستان ، فإنه كان عليهما أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، فأقره عبد الملك سنتين بعد قدوم الحجاج من الحجاز ، وأبى عبد الملك أن يقر خالداً على عمله، وكلم في ذلك فلم يجب إليه، وقال: أساء التدبير، وعجز عن العراق ، وضعف عن أهل المصر ، فقدم الحجاج من الحجاز ، وكان واليا عليه ، فاقبل حتى دخل الكوفة متلثما فقصد إلى المنبر ، فصعده ، ثم جلس ساعة لا يتكلم ، فقال محمد بن عمير بن عطارد للهيثم بن الأسود : ما له ـ ترحه الله ـ لا يتكلم ؟ ما أعياه وأشنأهُ وأَدَمَّهُ ! والله إني لأظن خبره أسوأ من مرآته ، ثم أخذ كفا من حصى ليحصبه ، فلم يفعل حتى قام الحجاج ، فحسر نقابه ثم قال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متي أضع العمامة تعرفوني

إني لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها .

قد شمرت عن ساقها فشمري ليس هذا أوان عُشِّكِ فادرجي

هذا أوان الشد فاشتدي زيم
قد لفها الليل بسواق حطم
ليس براعي إبل ولا غنم
ولا بجزار على ظهر وضم
قد لفها الليل بعصلبي
مهاجر ليس بأعرابي

إني والله يا أهل العراق لا أحلق إلا فريت ولا أعد إلا وفيت ، والله إني لأحمل الشر بثقله وأحذوه بنعله ، وأجزيه بمثله . إن الله ضرب ﴿مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾[1] . فأنتم أولئك ، أو أشباه أولئك ، فاستوسقوا وآستقيموا ولا تميلوا ، فقد بين الصبح لذي عينين ، والله لأمرينكم بالهوان حتى تدوروا ، ولأعصبنكم عصب السلمة حتي تذلوا ، ولأقرعنكم قرع المروة حتى تلينوا ، ولأضربنكم ، ضرب غريبات الإبل حتي تنقادوا ؛ إنه والله ما يقعقع لي بالشنان ، ولا أغمر تغماز التين ، ولا أجلس على الدَّبَر ؛ إني أمرؤ فررت عن ذكاء ، وجريت إلى الغاية وأنتضيت عن تجربة ، إن أمير المؤمنين عبد الملك نكت كنانته ، ونثلها

بين يديه ، وعجم عيدانها ، فوجدني أمرها معجماً ، وأشدها مكسراً ، فوجهني إليكم ، ورمى بي في نحوركم ، فأنتم أهل بغي وخلاف ، وشقاق ونفاق ، طالما أوضعتم في الضلال ، وسننتم سنن الغي تسائلون ماذا قال أميركم؟ وماذا يقول؟ وها، وها. وإياي وهذه الزرافات والجماعات، وكان ويكون ، وما أنتم وذاك ؟ إني أرى الدماء بين العمائم واللحى ، والذي نفس الحجاج بيده لتسلكُنّ طريق الحق ، ولتستقيمن عليه ، أو لأجعلن لكل امرىء منكم شغلاً في جسده ، فاقبلوا الإنصاف ، ودعوا الإرجاف ، وقول القائل منكم : أخبرني فلان عن فلان ، قبل أن أوقع بكم إيقاعاً يترك النساء أيامى ، والولدان يتامى ، فتقلعوا وقد جنيتم العافية ، وغنمتم حظوظكم من السلامة ، الا ولا يركبن رجل إلا وحده ، ولا يحفظن إلا نفسه . فقال محمد بن عمير : لله أبوه ! لقد كدنا نقع منه في شر ، وجعل الحصا يتناثر من بين أصابعه .

وقال المدائني في إسناده : قدم الحجاج في سنة خمس وسبعين في رجب ، فبدأ بالكوفة ، فخطب أهلها وتوعدهم ، وأرسل إلى وجوههم ، وإلى كثير من العامة ، فقال : أخبروني عن الولاة قبلي ، ما كانوا يعاقبون به العصاة ؟ قالوا : الضرب والحبس ، قال : لكني لا أعاقبهم إلا بالسيف ؛ إن المعصية لو ساغت لأهلها ما قتل عدو ، ولا جبي فيء ، ولا عز دين ، ولو لم يغز المسلمون المشركين ، لغزاهم المشركون . وقد أجلتكم ثلاثاً ، فمن وجدته بعد ثالثة من جيش ابن مخنف ، فبرئت منه الذمة .

وقال ليزيد بن علاقة السكسكي صاحب شرطه : آجعل سيفك سوطاً ، فمن وجدته بعد ثالثة عاصياً فاقتله .

وقيل إن الحجاج قال في خطبته :

جاءت به والقلص الأعلاط[١] تهوي هوي سائق الغطاط[٢]

ليس هذا أوان عشك فادرجي .

وحدثني عبد الله بن صالح العجلي عن ابن كناسة الأسدي ، قال : حدثنا أشياخنا قالوا : قدم الحجاج الكوفة ، فخطب خطبته التي توعد الناس فيها ، ثم قال : إياي وهذه الجماعات والزرافات والإخبار والاستخبار وسوء الأراجيف ، لا يركبن أحد منكم إلا وحده ولا يخافن إلا ذنبه ، إنه لو ساغت لأهل المعصية معصيتهم ، ما جبي فيء ، ولا قوتل عدو ، ولعطلت الثغور ، وأهملت الأمور ، ولو لا أنكم تُغَزُّونَ كرهاً ما غزوتم طوعاً ، وقد بلغني رفضكم المهلب ، وإقبالكم إلى مصركم ، عصاة مخالفين ، وأقسم بالله : لا أجد أحداً بعد ثالثة ممن أخل بمركزه ، إلا ضربت عنقه ، ثم دعا بالعرفاء فقال لهم : ألحقوا الناس بالمهلب ، وأتوني بكتبه بموافاتهم ولا أستبطئكم فأضرب أعناقكم .

فلما كان اليوم الثالث من مقدمه ، سمع في السوق تكبيراً عالياً ، فصعد المنبر ، فقال : يا أهل العراق يا أهل الشقاق والنفاق ، ومساوىء الأخلاق ، إني سمعت تكبيراً ليس بالتكبير الذي يراد به الله في الترغيب ، ولكنه تكبير يراد به الترهيب ، وقد عرفت أنها عجاجة تحتها قاصف ، أيا بني اللكيعة ، وعبيد العصا ، وأبناء الأيامى ، إلَّا يربع أحدكم على ظلعه ، ويحسن حمل

---

١ ـ العلاط : الطوال من النوق . القاموس .

٢ ـ البعير يغط غطيطا : هدر . القاموس .

رأسه ويحقن دمه ، ويبصر موضع قدمه ، فأقسم بالله ليوشك أن أوقع بكم ، وقعة تكونون بها نكالاًلما قبلها ، وأدباً لمن بعدها . فقام عمير بن ضابىء التميمي ثم البرجمي ، فسأله أن يقبل منه بديلاً ، وكان وطىء على بطن عثمان وهو مقتول فضرب عنقه . قالوا : ولقي رجل أعرابياً من بني تميم ، فقال ما الخبر ؟ قال : قدم الكوفة رجل من شر أحياء العرب ، من هذا الحي من ثمود ، حمش الساقين[١] ، ممسوح الجاعرتين[٢] ، أخفش العينين[٣] ، فقدم سيد هذا الحي ، فضرب عنقه .

وقال ابن الزبير لإبراهيم بن عامر الأسدي :

أقـول لإبـراهيم لمـا لقيتـه   أرى الأمر أمسى منهباً متشعبا
تحرز فأسرع والحق الجيش لا أرى   سوى الجيش إلا في المهالك مذهبا
تخير فإما أن تزور ابن ضابىء   عميراً ، وإما أن تزور المهلبا
همـا خطتا سوء ، نجاؤك منهما   ركوبك حوليا من الثلج أشهبا
فأمسى ولو كانت خراسان دونه   رآها مكان السوق أو هي أقربا

قالوا : وأتي الحجاج بعاص من بني سعد ، فقال أما سمعت جريراً يقول :

إذا ظفرت يداه بحبل عاص   رأى العاصي من الأجل اقترابا[٤]

---

١ ـ حمش الساقين : دقيق الساقين . القاموس .
٢ ـ الجاعرة : الاست ، أو حلقة الدبر . القاموس .
٣ ـ الخفش : صغر العين ، وضعف البصر خلقة ، أو فساد في الجفون بلا وجع ، أو أن يبصر بالليل دون النهار . القاموس .
٤ ـ ديوان جرير ص ٢١ مع فوارق .

ثم أمر به فضربت عنقه .

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى : كان الحجاج يفرض في ثلاثمائة ، ففرض للحرنفش - أحد بني ثعلبة بن سلامان - وكان يأخذ من فرض له بفرس جواد ، وسلاح شاك فقال الحرنفش :

يكلفني الحجاج درعا ومغفراً وطرفا كميتا رائعاً بثلاث
وستين سهماً صَنعةً يثربية وقوساً طروح النبل غير لباث
ففي أي هذا أجعلن دراهمي فربي من هذا الحديث غياثي

المدائني عن سحيم بن حفص قال : كان قدوم الحجاج الكوفة يوم جمعة فخطب ونزل فصلى ، وقرأ : ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾[1] . وقال في خطبته : أقسم بالله لتقبلن الإنصاف ولتتركن الإرجاف ، وكان وكان ، وأخبرني فلان عن فلان ، والهبر والهبر لأهبرنكم بالسيف هبراً يدع النساء أيامى ، والولدان يتامى ، وحتى تمشوا السمهى[2] ، وتقلعوا عن ها ، وها ، وأياي وهذه الزرافات والجماعات .

وقال أبو مخنف : لما خطب الحجاج خطبته ، أمر مناديه فنادى : أنْ برئت الذمة من عاص مخل بمركزه ، وجدناه بالكوفة بعد ثلاث ، فألحقوا ببعث المهلب ، وبمكاتبكم[3] من الثغور ، ومغازيكم للخوارج .

---

١ - سورة المعارج - الآية : ١ .
٢ - سمه سموها : جرى جريا لا يعرف الاعياء ، وذهبت إبله السمهى : تفرقت في كل وجه . القاموس .
٣ - أي حيث كتبت أسماؤهم في ديوان الجند .

وجاءه عمير بن ضابىء بن الحارث بن أرطاة البرجمي ، من بني تميم ، فقال : أصلح الله الأمير إني شيخ كبير عليل ، وهذا ابني حنظلة وليس في بني تميم رجل أشد منه ظهراً وبطشاً ، فإن رأيت أن تخرجه مكاني بديلاً فافعل . فقال الحجاج : والله لهذا خير لنا من أبيه ، فقال له عنبسة بن سعيد ، أخو عمرو بن سعيد الأشدق ، وكان أليف الحجاج وجليسه: إن هذا الذي فعل بعثمان كذا ، وقال كذا ، وحدثه حديث ضابىء ، وأنشده شعره ، وقد كتبناه في مقتل عثمان ، فقال الحجاج : أفهلا بعثت حين أردت غزو عثمان بديلاً . أضربوا عنقه . فضربوا عنقه ، فلما ضربت عنق عمير ، تطايرت عصاة الجيوش إلى مكاتبهم التي رفضوها . ولم يبق من أصحاب المهلب أحد إلا لحق به ، وكان بإزاء الخوارج برامهرمز من الأهواز ، فركب العُرَّاض حين عرفوا حضورهم وعرضوهم ، ولحق كل مخل بثغره ومركزه ، فقال عبد الله بن الزبير الأسدي شعره المقدم ذكره وهو :

تخير فإما أن تزور ابن ضابىء ... عميراً وإما أن تزور المهلبا
هما خطتا سوء نجاؤك منهما ... ركوبك حوليا من الثلج أشهبا
فجاء ولو كانت خراسان دونه ... رآها مكان السوق أو هي أقربا

وكان الحجاج أول من ضرب أعناق العصاة .

ثم خرج إلى البصرة فولاهاالحكم بن أيوب بن الحكم بن أبي عقيل ، وخطب فقال : إن العوان لاتعلم الخِمْرة ، فالزموا الطاعة ، تحسن لكم بها العائدة ، ومن كان بالبصرة من جيش المهلب ، فليلحق به فإني إن وجدت منهم أحداً بعد ثالثة ضربت عنقه ، فأتاه شريك بن عمرو اليشكري ، وكان

به فتق ، وكان أعور يضع علي عينه قطنة ، فسمي ذا الكرسف ، فقال له : أصلح الله الأمير إني عرضت على بشر بن مروان ، فأمر العراض أن يوقعوا على اسمي «زمنا» وأعطوني ، فهذا عطائي قد جئتك به ، لترده الي بيت المال ، فقال الحجاج :

إن لها لسائقاً عشنزرا[1]
على نواحيها مزخا[2] مزجرا
إذا ونين ونية تغشمرا

ثم أمربه فضربت عنقه لأستعفائه ، وكان عريفاً ، فلم يبق بالبصرة عاصٍ إلا لحق بالمهلب وبمكتبه ، وقيل أن الحجاج أنشد هذه الأبيات : «إن لها لسائقاً»

بالكوفة في خطبته بها . وقال الفرزدق ويقال كعب الأشعري :

لقد ضرب الحجاج بالمصر ضربة تقرقر منها بطن كل عريف[3]

وبلغ المهلب خبر الحجاج ، فقال : لقد أتى القوم والٍ ذكر .

المدائني قال:كان الحجاج يغدي الناس ، إذ أتى قوم من بني سليم برجل فقالوا : هذا عاصٍ فقال : والله ما شهدت عسكراً قط ، ولا أثبت لي اسم قط في ديوان ، وإنما نساج ، فضرب عنقه فأمسك الناس عن الطعام ، فقال الحجاج ما لي أراكم قد اصفرت وجوهكم ، وخلت أيديكم من قتل

١ ـ العشنزر : الشديد الخلق ، العظيم من كل شيء . القاموس .
٢ ـ أي الحادي : سار سيراً عنيفا . القاموس .
٣ ـ ليس في ديوان الفرزدق المطبوع .

رجل واحدٍ ؟ كلا والله ، إن الذئب يكنى أبا جعدة ، وإنه من لا يذد عن حوضه يهدم[١] .

وخرج الحجاج إلى رستقاباذ ومعه أهل الكوفة وأهل البصرة وبين رستقاباذ والأهواز ثمانية فراسخ ، وبينها وبين المهلب يومئذ ثمانية عشر فرسخاً ، وإنما أراد أن يشد ظهره وظهور أصحابه بمكانه وأن لا يبرح حتى يهلك الله الخوارج . وبعث بالعراض إلى المهلب برامهرمز ، فقال الشاعر :

قل للمهلب قد أتتك معاشر   حشروا إليك كحشر أهل البرزخ
طاروا إليك برأس كل طِمِرَّةٍ   جرداء تحمل كل قرم أبلخ
إني أرى الحجاج يقطع أذرعاً   بأكفها ورؤوس قومٍ تشدخ
أخذ البريء بما جناه غيره   إن السعيد هناك من لم يلطخ
أودى عمير والقتال سبيله   قل للعصاة تحرزي أو دربخي[٢]

وقال سوار بن المُضَرِّب أحد بني ربيعة بن كعب بن سعد ، وكان عاصياً :

أقاتلي الحجاج إن لم أزر له   دراب وأترك عند هند فؤاديا

يريد درأبجرد[٣]

إذا جاوزتْ قصر المجيزين ناقتي   فباسْتِ أبي الحجاج لما ثنائيا

---

١ ـ من قول زهير :
ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه   يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

٢ ـ دربخ : طأطأ الرجل رأسه وسط ظهره . القاموس

٣ ـ در أبجرد : كورة بفارس نفيسة معناه دراب كرد ، دراب اسم رجل ، وكرد معناه عمل، فعرب بنقل الكاف إلى الجيم . معجم البلدان .

فإن كنت لا يرضيك حتى تردني إلى قطري ما إن اخالك راضيا
أترجو بنو مروان سمعي وطاعتي ودوني تميم والفلاة أماميا

قال : المجيزون كانوا يحفظون الطريق ويجيزون السابلة ، ولهم قصر بسفوان البصرة ، يعرف بهم ، كانوا ينزلونه .

قالوا : وقام الحجاج برستقاباذ حين نزلها خطيباً ، فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ، ثم قال : يا أهل المصرين ، هذا المكان والله مكانكم ، جمعة بعد جمعة ، وشهراً بعد شهر ، وسنة بعد سنة ، حتى يهلك الله عز وجل هؤلاء الخوارج المطلين عليكم . فقال له الناس:ولم تحبسنا أصلح الله الأمير بهذا المكان ، سر بنا إلى هؤلاء الكلاب فما هم إذا اجتمع أهل المصرين عليهم بشيء . ودخل عليه الوجوه ذات يوم فرأى الهذيل بن عمران بن الفضيل البرجمي ، وكان من أشراف أهل البصرة ، وكان ينادم بشر بن مروان ، وكانت له منه منزلة ، وهو يجر ثوبه ، فقال : يا هذيل ارفع ثوبك ، فقال : إن مثلي أيها الأمير لا يقال له هذا القول فقال الحجاج : بلى والله ، وتضرب عنقه ، فخرج الهذيل وهو يقول : قاتله الله جذيّاً[1] ما أتيهه في نفسه وفي الهذيل يقول الشاعر :

يا أيها السائل في الرفاق
إن الهذيل سيد العراق

ثم إن الحجاج خطب يوماً فقال : إن الزيادة التي زادكم إياها ابن الزبير ، إنما هي زيادة ملحد منافق فاسق ، ولسنا نجيزها . وكان مصعب قد زاد الناس مائةً مائةً في العطاء ، فقال له عبد الله بن الجارود ، واسم

١ ـ جذياً : يقال رجل جاذٍ أي قصير الباع . العين .

الجارود بشر بن عمرو بن حنش بن المعلى العبدي : أيها الأمير ، ليست بزيادة ابن الزبير ، إنما هي زيادة أمير المؤمنين عبد الملك ، إذ أنفذها وأجازها ، وجرت لنا على يد بشر بن مروان . فقال له الحجاج : ما أنت والكلام لتحسن حمل رأسك أو لأسلبنك إياه . فقال : ولم ؟ والله إني لك لناصح ، وإن قولي هذا لقول مَن ورائي فنزل الحجاج ، ومكث أشهراً لا يذكر الزيادة ، ثم أعاد القول فيها ، فرد عليه ابن الجارود مثل رده الأوّل ، فقام مصقله بن كرب بن رقبة بن خوتعة العبدي ، وهو أبو رقبة بن مصقلة ، الذي يتحدّث عنه[1] ، فقال : إنه ليس للرعية أن ترد على راعيها ، وقد سمعنا ما قال الأمير ، فسمعاً وطاعةً ، فيما أحببنا وكرهنا ، فقال له عبدالله بن الجارود : يا بن الجرمقانية ، وما أنت وما هاهنا ؟ ومتى كان مثلك يتكلم وينطق في مثل هذا ؟ وأتى الوجوه عبدالله بن الجارود ، فصوبوا قوله ورأيه ، في رده على الحجاج ، وإباثه ما أتى به ، وقال له الهذيل بن عمران البرجمي ، وعبدالله بن حكيم بن زياد المجاشعي ، وغيرهم : نحن معك ويدك وأعوانك ، إن هذا الرجل غير كافٍ أو ينقصنا هذه الزيادة ، فهلم نبايعك على إخراجه من العراق ، ثم نكتب إلى عبد الملك نسأله أن يولي علينا غيره ، فإن أبى خلعناه ، فإنه هائب لنا ما دامت الخوارج ، فبايعه الناس سراً ، وأعطوه المواثيق على الوفاء ، وأخذ بعضهم على بعض العهود ، وبلغ الحجاج ما هم فيه ، ففرق بين أخماس أهل البصرة ، وأرباع أهل الكوفة ، وجعل بينهم طرقاً ، وصير فيها حرساً ،

---

١ ـ كتب فوقها بالأصل : الذي يروى عنه الحديث .

وأحرز بيت المال ، والناس في أمرهم . فلما أستتب لهم أمرهم أظهروه ، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ست وسبعين ، وأتى عبدالله بن الجارود عبد القيس ، فأخرجهم على راياتهم ، وخرج الناس معه حتى بقي الحجاج وليس معه إلا خاصته وأهل بيته .

وقال المدائني : كان خروجهم قبل الظهر فقال رجل من بني عجل لعبدالله بن الجارود :

أخلق بعبد الله ان يسوسا
وأن يقود جحفلا خميسا
أهل العراقين الكرام الشوسا
ويخلعوا الخليفة المتعوسا
إذ قلدوا أمرهم الرئيسا
أكرم به من قائد قدموسا
نحن قتلنا مصعبا وعيسى
وكم قتلنا منهم بئيسا

وقطع ابن الجارود ومن معه الجسر ، وكانت خزائن الحجاج من ورائه ، وغلبوا على السلاح ، وأرسل الحجاج أعين صاحب حمام أعين وهو في قول الكلبي مولى بشر بن مروان ، وفي قول أبي اليقظان مولى سعد بن أبي وقاص.إلى عبدالله بن الجارود ، فأتى الصف ، فرد ، فقال : إنما أنا رسول ، فأذن له ، فقال : أجب الأمير ، فقال ابن الجارود : ومن الأمير ولا نعمة عين لابن أبي رغالٍ ؟ ولكن ليخرج عنا مذموماً مدحوراً ، وإلا قاتلناه . فقال أعين: أما إذ لم تجبه فأنه أمرني أن أقول لك : أتطيب نفساً بقتلك

وقتل أهل بيتك وعشيرتك ، والذي نفس الحجاج بيده لئن لم تأتني لأدعن قومك عامة ، وأهل بيتك خاصة كأمة قد بادت ، وحديثاً للغابرين . وكان الحجاج قد حمل أعين هذه الرسالة ، وقال له : إن لم يأتني فأوردها إليه ، فقال ابن الجارود لأعين : والله يا بن الخبيثة لولا أنك رسول لضربت عنقك ، وأمر فوجيء في عنقه ، وأخرجوه .

قالوا : واجتمع الناس لابن الجارود ، فأقبل بهم زحفاً نحو الحجاج ، وكان رأيهم أن يخرجوه عنهم ولا يقاتلوه ، فلما صاروا إليه انتهبوا ما في فسطاطه وأخذوا ما قدروا عليه من متاعه ودوابه ، وجاء أهل اليمن حتى احتملوا امرأته ، ابنة النعمان بن بشير الأنصاري ، وجاءت مضر فاحتملوا امرأته الأخرى أم سلمة بنت عبد الرحمن بن سهل بن عمرو القرشي أخي سهيل فحصنوها مخافة السفهاء .

وقال ابن الكلبي وأبو اليقظان : هي أم سلمة بنت عبد الرحمن بن سهل بن سهيل بن عمرو ، وكانت عند الحجاج ، ثم خلف عليها الوليد بن عبد الملك ، ثم سليمان بن عبد الملك ، ثم هشام بن عبد الملك .

ثم إن القوم انصرفوا عن الحجاج وتركوه ، وأتاه قوم من أهل المصرين ، فصاروا معه ، مستوحشين من محاربة السلطان ومخالفته ، فجعل الغضبان بن القبعثرى الشيباني يقول لعبدالله بن الجارود : تعش بالجدي قبل أن يتغدى بك أما ترى من قد أتاه منكم ؟ ولئن أصبح ليكثرن ناصره وليضعفن مدتكم . فقال : قد قرب المساء ، ولكنا نعاجله بالغداة . وكان مع الحجاج عثمان بن قطن بن عبدالله الحارثي ، وزياد بن عمرو العتكي ، وكان زياد على شرطه بالبصرة، فقال لهما: ما تريان ؟ فقال زياد: أرى أن

آخذ لك من القوم أماناً ، وتخرج حتى تلحق بأمير المؤمنين ، فقد أرفض جمهور الناس عنك ، ولا أرى لك أن تقاتل بمن معك ، ولا أحب لك أن تضيع نفسك وتهلكها، فقال عثمان بن قطن: لكني لا أرى ذلك، إن أمير المؤمنين قد أشركك في أمره ، وخلطك بنفسه ، واستنصحك وسلطك وملكك ، فسرت إلى ابن الزبير ، وهو أعظم الناس خطراً فقتلته ، فولاك الله عز وجل شرف ذلك ، وسناه وذخره وأجره ، وولاك أمير المؤمنين الحجاز ، ثم رفعك إلى ولاية العراقين . أفالآن حين جريت إلى المدى ، وأصبت الغرض الأقصى وهابتك العرب ، تخرج على قعود تدأدى[1] يوجف بك إلى الشام والله لئن فعلتها لا نلت من عبد الملك مثل الذي أنت فيه من السلطان أبداً ، وليتضعن شأنك ، ولتسقطن عنده ، ولتهونن على كل عدوٍ ، ولكني أرى أن نمشي بسيوفنا معك ، فنضارب هؤلاء القوم ، حتى نلقى ظفراً أو نموت كراماً . فقال له الحجاج : قرعتني بما في قلبي قرعاً ، الرأي ما رأيت . فحفظ هذه لعثمان بن قطن ، واحتمل تلك على زياد بن عمرو .

وقال المدائني عن أبي اليقظان : إن عثمان أشار عليه بالقتال ، وان عبد الرحمن بن عبيد بن طارق العبشمي ، وكان على شرطه ، قال له : إنما نحن في عصبة وقد حيل بيننا وبين السلاح . فقال له : إن القليل الطيب خير من الكثير الخبيث وكثيراً ما ينصر الله عز وجل القليل على الكثير .

---

١ ـ دأدأ : عدا أشد العدو ، أو أسرع . القاموس .

قالوا : وأتى الحجاج مالك بن مسمع فقال إني قد أخذت لك من الناس أماناً فجعل الحجاج يرفع صوته ليسمع الناس فيقول : والله لا أومنهم أبداً حتى يأتوا بالهذيل وعبد الله بن حكيم فإنهما سعرا هذه الفتنة ، ودعا الحجاج ابن الغرق مولاه فقال له: ائت عبيد بن كعب النميري فقل له وكان على خمس أهل العالية : هلم إلي فامنعني فقال : قل له: إن أتيتني منعتك ، فقال: لا والله ولا كرامة. وبعثه إلى محمد بن عمير بن عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس فقال له مثل ذلك ، فقال ابن عمير : إن أتاني منعته ، فقال : إنه لا يأتيك ولكنك تأتيه في قومك ، فقال : لا ناقة لي في هذا الأمر ولا جمل ، ثم أرسل إلى عبدالله بن حكيم المجاشعي ، وهو رأس تميم ، يسأله النصر فقال مثل قول أصحابه : يأتيني . وقال له سحيم بن شعيب الحنفي : إن شئت أخذت لك أماناً ولحقت بصاحبك فلم يجبه الحجاج بشيء ، وقال : إن تكلم أو تحرك فاضربوا عنقه ، ثم تكلم الحجاج رافعاً صوته فقال : إن هؤلاء القوم أرسلوا إلي يطلبون مني الأمان ، ولا والله لا أؤمنهم فلم ينطق الحنفي وجلس .

قالوا : ومر عباد بن الحصين الحبطي بابن الجارود والهذيل بن عمران وعبدالله بن حكيم وهم يتناجون فقال : أشركونا في نجواكم ، فقالوا : هيهات أن يدخل في نجوانا أحد من بني الحبط ، فغضب وصار إلى الحجاج في مائة ، فقال له الحجاج : أعلي أم لي ؟ فقال : لك أيها الأمير ، فقال الحجاج : ما أبالي من تخلف بعدك ، وتخاذل الناس وسعى قتيبة بن مسلم في أعصر وقال : والله لا أدع قيسياً على الحجاج يقتل وينتهب ماله وأظاهر ابن الجارود عليه ، فأقبل في نحو من ثلاثين فسلم على الحجاج بالإمرة ، فقال :

أقتيبة بن مسلم ؟ فقال : نعم ، قال : تقدم ، وكان الحجاج قد يئس من الحياة فلما جاءه هؤلاء اطمأن وقد كان هم باللحاق بعبد الملك على كل حال ، ثم أتاه سبرة بن علي الكلابي فسلم وانتسب ، فقال له خيراً ، ثم جاء سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي فسلم عليه ، فقال:ها هنا ادن مني ، وأتاه جعفر بن عبد الرحمن الأزدي فسلم ثم انتسب ، فقال له : قف مكانك أما والله لنعم القوم قومك ، وأرسل إليه مسمع بن مالك بن مسمع إن شئت أتيتك ، وإن شئت أقمت فثبطت الناس عنك ، فبعث إليه : أن أقم فثبطهم .

فلما رأى الحجاج إنه قد اجتمع إليه عدد يمتنع بمثله خرج إليهم ، فكتبهم وعبأهم ، وجعل لهم حرساً ، وتحارس الآخرون أيضاً ، وتلاحق الناس بالحجاج فلما أصبح وطلعت الشمس نظر فإذا حوله نحو من ستة آلاف وذلك الثبت ، وقوم يقولون ألف وستمائة ، وقال عبدالله بن الجارود لعبيدالله بن زياد بن ظبيان : ما الرأي ؟ قال : تركت الرأي أمس حين قال لك الغضبان تعش بالجدي قبل أن يتغدى بك وقد ذهب الرأي وبقي الصبر فدعا ابن الجارود بدرع فلبسها مقلوبة فتطير ، وحرض الحجاج أصحابه وقال : لا يهولنكم ما ترون من كثرة عدد عدوكم فإنه ليس بكم بحمد الله قلة ولا ذلة ، فشدوا عليهم يتطايروا تطاير الأُجَم [1] المنفر ، إنهم أخور من اليراع وإن صدقتموهم الضرب سألوكم الأمان ، فتزاحف القوم وعلى ميمنة ابن الجارود الهذيل بن عمران ، وعلى ميسرته عبيدالله بن زياد بن ظبيان

١ ـ الآجام : الضفادع . القاموس .

وعلى ميمنة الحجاج قتيبة بن مسلم ويقال عباد بن الحصين وعلى ميسرته سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي ، وحمل ابن الجارود وأقدم أصحابه حتى جاز أصحاب الحجاج ، وعطف عليه الحجاج بأصحابه فاقتتلوا ساعة ، ثم إن سَهْمَ غَرْبٍ جاء يهوي حتى أصاب عبدالله بن الجارود وإنه لكالظاهر على الحجاج فوقع ميتاً ، ويقال إنه لما خرج دخل ديراً قريباً منه ومعه قوم من الهجريين ، فأحرق الدير عليهم ، فخرجوا فقتل ابن الجارود والهجريون ، ونادى منادي الحجاج بإيمان الناس إلا الهذيل وعبدالله بن حكيم ، وأمر أن لا يتبعوا ، وقال الأتباع لهم من سوء الغلبة .

ولما هلك ابن الجارود قال عبدالله بن فضالة الأزدي لعكرمة بن ربعي من بني تيم الله بن ثعلبة ، ولابن ظبيان : قد هلك هذا الرجل ، وما أرى لي إلا اللحاق بخراسان ، فقال عكرمة : أما أنا فلاحق بالشام فقد كان لي عند عبد الملك بلاء هو راع له ، وقال ابن ظبيان : وأنا سأمضي إلى بعض النواحي ، فحملوا حتى إذا اختلط الناس وثار الغبار أخذ كل واحد منهم نحو الوجه الذي أراده ، فأتى عكرمة يزيد بن أبي النمس الغساني واستجار به فكلم فيه عبد الملك وذكر له بلاءه ، وقال:هفا وزل ، فآمنه عبد الملك ، وكان ابن أبي النمس أثيراً عند عبد الملك سمعه يوماً يقول هممت أن أقطع كل حَبَلَةٍ بالشام ، فقال : يا أمير المؤمنين من أحب أن يُعصى عصي فضحك عبد الملك .

وأتى ابن ظبيان سعيد بن عباد بن زيد بن عبد بن الجلندى الأزدي بعمان ، فقيل لسعيد : إنه رجل فاتك فأحذره ، فلما جاء البطيخ بعث إليه بنصف بطيخة قد سمها وقال لرسوله : قل له : هذا أول شيء رأيناه من

البطيخ العام ، فأكلت نصف بطيخة ، وبعثت إليك بنصفها فأكل عبيدالله بن زياد بن ظبيان نصف البطيخة فقتلته ، ولما أحس بالسم قال : أردت أن أقتله فقتلني .

وخرج عبدالله بن فضالة إلى أمية بن عبدالله بن خالد بن أسيد إلى خراسان ، فكان عنده ، ثم أخذه حبيب بن المهلب فبعث به إلى الحجاج فخرجت امرأته فكلمت امرأة عبد الملك فيه ، فكلمته فكتب إلى الحجاج في أمره فآمنه ، وكلم عكرمة بن ربعي روح بن زنباع في الغضبان بن القبعثرى ، فسأل عبد الملك أن يؤمنه فآمنه .

وأتي الحجاج برأس عبدالله بن الجارود فقال اغسلوه ثم عمموه ، ففعلوا ذلك به فقال : هو هو .

وقال عباد بن الحصين ، وسعيد بن أسلم بن زرعة ، وقتيبة بن مسلم للهذيل بن عمران ، وعبدالله بن حكيم : نحن نكلم الحجاج فيكما فعجلا إلى الحجاج فأتياه وهما يجران مطرفيهما فلما نظر إليهما قال : اضربوا عدوي الله ، اقتلوهما ، فمشى عبيدة مولى الحجاج إلى عبدالله بن حكيم ، فقال عبدالله بن حكيم :

علي عهد ذي القرنين كانت مجاشع حتوفاً على الأعداء لداً خصومها

فضربه بالسيف فعثر في مطرفه وقال : إن الراحة منكم لراحة ، ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾[1] ، وقتل سريع مولى الحجاج الهذيل بن عمران ، ثم أمر الحجاج بصلبهم فصلب ابن الجارود بين ابن حكيم

---

١ ـ سورة الأحزاب ـ الآية : ٣٨ .

والهذيل ، وبعث برأس ابن الجارود ورؤوس هذين ورؤوس سواها إلى عسكر المهلب ، مع حاتم بن سويد بن منجوف لييأس الخوارج مما بلغهم من فساد أمر الحجاج ، ويقوى متن المهلب وأصحابه .

ونادى الحجاج في الناس أن يلحقوا بأمصارهم ففرقهم ، وأقبل حتى دخل البصرة ، فقتل أُشَيْم بن شقيق بن ثور الهذلي ، ويقال إنه دخل في أمانه من آمن ، فرآه في مجلسه فقال له : يا أشيم أخرجت مع ابن الجارود ؟ قال : نعم وقد أتى عفوك على ذلك ، وكان مع الحجاج كراز بن كراز العبدي ، وهو صاحب لواء ابن الجارود ، وراشد بن عوف العبدي ، ومسلم مولى مالك بن مسمع ، وعبيدالله بن كعب النميري ، والغضبان بن القبعثرى الشيباني ، أخذهم برستقاباذ ، فحبسهم عنده ، ثم حبسهم بالبصرة أيضاً ، ثم قال لعبيد بن كعب : أنت القائل قل للحجاج يأتيني فإني لا آتيه ؟ ومن أنت يا بن اللخناء ، هل أنت إلا عبد من أهل هجر وحبسه وعذبه حتى مات ، وقال لمحمد بن عمير بن عطارد بن دهمان : أنت القائل لا ناقتي في هذا ولا جملي ؟ لا كانت لك في مثلها ناقة ولا جمل ولا رحل وأنشد :

ثعالب في السنين إذا أَحَصَّتْ وأُسد حين تمتلىء الوطاب

وكان يقال : أن عميراً أباه كان صدر عن عكاظ ، فمر ببني دهمان فعرضوا لامرأته فأخذوها ، ثم ردوها حاملاً .

وحدثني المدائني عن سحيم وغيره قالوا : رأى أبو جابر العبدي وكان جسيماً ابن الجارود مصلوباً بين الهذيل وبين حكيم وكان عبدالله بن الجارود

قصيراً يسمى لقصره بظير العناق فقال : ليتني كنت بينهما فقد فضحنا هذا بقصره .

قالوا : وكتب الحجاج إلى عبد الملك : «أما بعد فالحمد لله الذي حفظ أمير المؤمنين ، إني لما نزلت منزلي من رستقاباذ وثب علي أهل العراق فخالفوني ونابذوني ، ودخل فسطاطي ، وانتهبت أموالي ، وقالوا اخرج من بلادنا إلى من بعثك إلينا ، ففارقني البعيد ، وأسلمني القريب ، ويئس مني الشفيق ، فشددت عليهم بسيفي ، ولقيتهم بشيعتي ، وقلت الموت قبل البراح ، فوالله ما رمت العرصة حتى جعل الله لأمير المؤمنين منهم أنصاراً ، فضربت بمقبلهم مدبرهم وبمطيعهم عاصيهم ، فقتل الله عزوجل طاغية القوم عدو الله ابن الجارود ، وثمانية عشر من رؤوسهم ، وضرب الله عزوجل وجوههم ، فأخذوا شرقاً وغرباً ، ثم إني آمنت الناس غائبهم وشاهدهم ، فتراجعوا واجتمعوا وألحقت الناس بأمصارهم ، ولله الحمد كثيراً ، والسلام» .

فكتب إليه عبد الملك : «أما بعد فقد بلغني كتابك ، وأنت الناصح النجيب الأمين بالغيب القليل العيب ، فإذا رابك من أهل العراق ريب فاقتل أدناهم ، يرعب منك أقصاهم والسلام» .

وقال المدائني: أتي الحجاج بخليفة بن خالد بن الهرماس وقد ضرب على وجهه ، فقال له الحجاج : من أنت ؟ قال : أحد الكفرة الفجرة ، قال : خلوا سبيله ، فقال له سويد بن صامت العجلي هذا الذي يقول :

فلله حجاج بن يوسف حاكماً أراق دماء المسلمين بلا جرم

فأمر بخليفة فقتل .

قالوا : وبعث عبد الملك عبد الرحمن بن مسعود الفزاري إلى الحجاج ، وأهل العراق لينظر في مظالمهم ، وما يشكون من الحجاج ، وأمر بإطلاق كراز وقد كان قد كلم فيه ، فبلغ الحجاج ذلك فعجل على كراز وراشد بن عوف ، ومسلم مولى مالك بن مسمع فقطع أيديهم وأرجلهم ، فدخل ابن مسعود ودماؤهم تشخب ، ولما قدم ابن مسعود على الحجاج صعد الحجاج المنبر ، وصعد ابن مسعود درجتين أو ثلاثاً ، ثم قال : ألا من كان يطلب الحجاج بمظلمة فليقم ، فقال الحجاج : مه ، فقال : لا والله ما من مه ، ثم قال : يا أهل العراق جمع الله لكم خير الدنيا والآخرة فإياكم والشقاق والفتنة ، إني قد تركت ورائي خيلاً من حديد وقوماً لهم دين وليست لهم دنيا ، فإياكم أن تجمعوا دنياكم إلى دينهم ، ثم إنه انصرف إلى عبد الملك فأخبره بسوء سيرة الحجاج وظلمه وعذابه الناس، فبلغ ذلك الحجاج فكتب إلى عبد الملك : «إن ابن مسعود امرؤ ظنين علي ، قد بلغني أنه أساء علي الثناء ، وإن شيعة ابن الزبير لن تحبني أبداً ، وهو من شرارها وفجارها ، وليس مثله قُرِّبَ ولا صدق ، والسلام» ، فكتب إليه عبد الملك : «أما بعد فقد بلغني كتابك في ابن مسعود ، وليس مثله اتهم ، ولا ظن به ظن السوء ، والسلام» .

وكان ابن مسعود صديقاً لحضين بن المنذر ، فلقيه فسلم عليه فقال الحضين : ومن أنت عافاك الله ؟ فأعلم الحجاج ذلك ، فقال الحجاج : يا حضين أتعرف هذا ، قال:لا ، قال : كذبت ولكنك خفت أن يبلغني أنك سلمت عليه فأظن بك أنك تبلغه الأخبار قال : صدق الأمير وَبَرَّ ، قال : فلا تخف ، فسلم عليه حضين وكلمه .

وقال الحكم بن المنذر بن الجارود :

أبا مطر أقررت عين عدونا وكل إلى ما صرت سوف يصير
أبا مطر لو يدفع الموت بالفدا لكان رجال مشفقون كثير
أبا مطر لو يدفع الموت بالرشا لقد كان مال سارح وبدور

وقال الشاعر :

بكر النَّعيُّ بسيد الأمصار حامي الذمار وناقص الأوتار
بابن المعلى ذي السماحة والندى كهف الضعيف وطالب الآثار
عثرت به بعض الجدود وهَدَّنا يا للرجال لجدنا العثار

قالوا:وكان غضبان بن القبعثرى محبوسا عند الحجاج فكلم عكرمة بن ربعي روح بن زنباع في أمره فكلم عبدالملك في إيمانه فكتب بذلك إلى الحجاج فدعا به الحجاج فقال له:قد سمنت يا غضبان وصفا لونك ؟ قال : القيد والرتعة ، ومن يكن ضيف الأمير يسمن ، قال : أنت القائل لابن الجارود : تعش بالجدي قبل أن يتغدى بك ؟ قال : ما نفعت من قالها ولا ضرت من قيلتْ له قال: أتحبني قال : أوفرق خير من حب، قال: ولم لا تحبني ؟ قال : لأنك أخذت مالي ووضعت شرفي قال : فإن رددت مالك ورفعت قدرك ؟ قال : الرضا مع الاحسان والسخط مع الغضب قال : لأحملنك على الأدهم قال : مثل الأمير حمل على الأدهم والكميت ، قال : إنه حديد ، قال : يكون حديداً خير من أن يكون تليداً فحمل من بين يديه ليطلق من حديده ، فلما استقل به من حمله قال : الحمد لله ﴿الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾[1] فضحك الحجاج .

---

١ ـ سورة الزخرف ـ الآية : ١٣ .

قالوا : (١) وقتل مع ابن الجارود عبدالله بن أنس بن مالك الأنصاري ، وكان شجاعاً شديد البطش ، حمل بخراسان بدرة بفمه فعبر بها نهراً ، فلما بلغ الحجاج خبر مقتله قال : لا أرى أنسا يعين علي ، فلما دخل البصرة استصفى مال أنس ، فأتاه فلما دخل عليه قال : لا مرحبا ولا أهلا إيها يا خبيث، شيخ ضلالة جوال في الفتن، مرة مع أبي تراب، ومرة مع ابن الزبير، ومرة مع ابن الجارود أما والله لأجردنك جرد القضيب ، ولأعصبنك عصب السلمة ، ولأقلعنك قلع الصمغة ، فقال أنس : من يعني الأمير ؟ قال إياك أصم الله صداك فرجع أنس فأخبر ولده بما لقيه الحجاج به فأشاروا عليه بأن يكتب بذلك إلى عبد الملك ، فكتب إليه كتاباً شكا فيه الحجاج وما صنع به وما قال له ، فأجابه جواباً لطيفاً ، وكتب إلى الحجاج : «أما بعد يا ابن أم الحجاج فإنك عبد طمت بك الأمور فعلوت فيها حتى عدوت طورك وتجاوزت قدرك ، وأيم الله يا ابن المستفرمة(٢) بعجم الزبيب لأغمزنك غمزة كبعض غمزات الليوث الثعالب ، ولأخبطنك خبطة تود لها أنك رجعت في مخرجك من بطن أمك ، أما تذكر حال آبائك بالطائف حيث كانوا ينقلون الحجارة على ظهورهم ، ويحتفرون الآبار بأيديهم في أوديتهم ومناهلهم ، أم نسيت حَال آبائك في اللؤم والدناءة في المروءة والخلق ، وقد بلغ المؤمنين الذي كان منك إلى أنس بن مالك جرأة وإقداماً ، وأظن أنك أردت أن تسبر ما عند أمير المؤمنين في أمره ، فتعلم إنكاره ذلك أو إغضاءه

---

١ - بهامش الأصل : قصة أنس بن مالك مع الحجاج .
٢ - الفرم والفرمة : دواء تتضيق به المرأة . القاموس .

عنه ، فإن سوغك ما كان منك مضيت عليه قدما ، فعليك لعنة الله من عبد أخفش العينين أصك الرجلين ، ممسوح الجاعرتين ولو لا أن أمير المؤمنين يظن أن الكاتب كثر في الكتاب من الشيخ إلى أمير المؤمنين فيك لأتاك من يسحبك على ظهرك وبطنك حتى يأتي بك أنسا ، فيحكم فيك ، فأكرم أنسا وأهل بيته ، وأعرف له حقه وخدمته رسول الله ﷺ ، ولا تقصر في شيء من حوائجه ، ولا يبلغن أمير المؤمنين عنك خلاف ما تقدم فيه إليك من أمر أنس وبره وإكرامه ، فيبعث إليك من يضرب ظهرك ويهتك سترك ، ويشمت بك عدوك ، والقه في منزله متنصلاً إليه ، وليكتب إلى أمير المؤمنين برضاه عنك إن شاء الله ، والسلام» . وبعث بالكتابين مع إسماعيل بن عبد الله مولى بني مخزوم ، فأتى إسماعيل أنسا بكتاب عبد الملك إليه فقرأه ، ثم أتى الحجاج بالكتاب إليه ، فجعل يقرأه ووجهه يتغير ويتمعر وجبينه يرشح عرقاً وهو يقول : يغفر الله لأمير المؤمنين ، فما كنت أظنه يبلغ مني هذا كله ، ثم قال لإسماعيل : آنطلق بنا إلى أنس ، قال إسماعيل : فقلت : بل يأتيك ، قال : فنعم ، فأتى أنسا فاقبلا جميعاً حتى دخلا على الحجاج فرحب به الحجاج وأدناه وقال يا أبا حمزة عجلت يرحمك الله باللائمة والشكية إلى أمير المؤمنين قبل أن تعلم كل الذي لك عندي ، إن الذي فرط مني إليك عن غير نيَّة ولا رضا بما قلت ، ولكني أردت أن يعلم أهل العراق إذ كان من ابنك ما كان أني إذا بلغت منك ما بلغت ، كنت إليهم بالغلظة والعقوبة أسرع ، فقال أنس:ما شكوت حتى بلغ مني الجهد ، وحتى زعمت أننا الأشرار ، وقد سمانا الله جل وعز الأنصار ، وزعمت أننا أهل النفاق ونحن الذين تَبوَّأوا الدار والإيمان وسيحكم الله عز وجل بيننا وبينك ، فهو أقدر علي الغِيرِ

لا يشبه الحق عنده الباطل ، ولا الصدق الكذب ، وزعمت أنك اتخذتني ذريعة وسلما إلي مساءة أهل العراق باستحلال ما حرم الله عز وجل عليك مني ، ولم يكن بي عليك قوة ، فوكلتك إلى الله عز وجل ، وإلى أمير المؤمنين فحفظ من حقي ما لم تحفظه ، فوالله لو أن النصارى على كفرهم رأوا رجلاً خدم المسيح عيسى بن مريم يوماً واحداً لعرفوا من حقه ما لم تعرفه من حقي ، وقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ، وبعد ، فإن رأينا خيراً حمدنا الله عز وجل وأثنينا به ، وإن رأينا غير ذلك صبرنا والله المستعان ، فرد الحجاج عليه ما كان قبض من أموالهم .

قالوا: وأتي الحجاج بدينار صاحب حفرة، وكان هدم قصر الحجاج فأخذه ببنائه ، فلما بناه ضرب عنقه بين شرفتين منه ، ويقال ذبحه بينهما ، وقتل زياد بن مقاتل بن مسمع في المعركة ، ويقال قتل مع ابن الأشعث فبكته أخته فقالت :

أعيني جـودي ولا تجمـدي   وبكي زعيم بـني جحـدر

وقتل الحريش بن هلال ، ويقال قتل يوم [دير] الجماجم ، وقتل عبد الله بن رزام فقالت فيه امرأة :

على ابن رزام تبكي العيون   ومثل الحريش الفتى الأزهر

وقال بعضهم : قتل أبو رهم بن شقيق بن ثور ، والثبت أنه خرج مع ابن الأشعث، فرآه الحجاج في مجلسه، فقال له: أخرجت علي؟ فقال: أتى عفوك علي ذنوبنا ، فقال لبعض من معه : ضع هذا المنديل في عنقه وأخرجه فاضرب عنقه .

قال ابن الكلبي دخل البراء بن قبيصة الثقفي علي عبد الملك ، وكان الحجاج يطلبه لخروجه مع ابن الأشعث فأنشده قوله :

أرى كل جار قد وفى بجواره وجار أمين الله في الأرض يخذل

ويروى : وجار أمير المؤمنين المؤمل .

وفى ابن أبي النمس اليماني بجاره وروح بن زنباع ، وجارك يؤكل

وراح الفتى البكري ينفض عطفه وذا ابن عمير آمنا ما يزلزل

فما هكذا كنتم إذا ما أجرتم وما هكذا كانت أمية تفعل

فقال له : صدقت وآمنه ، وأمر الحجاج أن يمسك عنه .

أمر شارَزَنْجي[١] والزنج الذين خرجوا بفرات البصرة

حدثني روح بن عبد المؤمن المقرىء قال: سمعت علي بن نصير الجهضمي يحدث عن جرير بن حازم عن عمه الصعب قال : تجمع الزنج بفرات البصرة في آخر أيام مصعب بن الزبير ، ولم يكونوا بالكثير فأفسدوا ، وتناولوا الثمار ، وولي خالد بن عبد الله بن أسيد البصرة وقد كثروا فشكا الناس ما نالهم منهم ، فجمع لهم جيشاً كثيفاً ، فلما بلغهم ذلك تفرقوا ، وقدر على بعضهم فقتلوا وصلبوا ، فلما كان من أمر عبد الله بن الجارود وخروجه على الحجاج مع وجوه أهل العراق ما كان ، وهو برستقاباذ ، خرج الزنج أيضاً ، فاجتمع منهم خلق من الخلق بالفرات وصيروا عليهم رجلاً منهم يقال رياح شيرزنجي ، ومعنى شارزنجي أسد الزنج فلما فرغ الحجاج من أمر من خرج عليه برستقاباذ وعاد إلى البصرة وجه إليهم فقتلوا ؛

١ ـ شار بالفارسية : لقب ملك الحبشة ، وتعني أيضاً : دولة ، مملكة ، مدينة وسياق الخبر قد يرجح هذا التفسير على الذي سيقدمه المصنف بعد قليل .

وحدثني روح بن عبد المؤمن عن عمه ـ يعني أبي هشام ـ قال حدثني سحيم بن حفص وغيره أن الزنج خرجوا أيام الحجاج بالفرات وعلى شرطة البصرة زياد بن عمرو العتكي ، فوجه إليهم زياد حفصا ابنه في جيش من مقاتلة البصرة ، وذلك بأمر الحجاج فواقعهم فقتلوه وهزموا أصحابه ، وكان على الأبلة كراز بن مالك السلمي ثم البهزي .

وحدثني روح بن الوليد بن هشام بن قحذم قال : خرج شيرزنجي بالفرات وآتبعه خلق من الزنج ومعهم لفيف من أهل الكَلَّاء[1] وغيرهم بيضان ، فغلب على كورة الفرات ، وكان على الأبلة والفرات يومئذ كراز السلمي وذلك في أيام خروج الحجاج إلى رستقاباذ ، فكتب شيرزنجي إلى كراز السلمي : «من أمير المؤمنين رياح شيرزنجي إلى كراز السلمي ، أما بعد : فقد حضرت ولادة سِكَّةَ أم المؤمنين ، فآبعث إليها امرأتك لتقبلها ، والسلام» . فهرب كراز وأخلى عمله ودخل البصرة ، ثم إن زياد بن عمرو العتكي وجه إليه وهو على شرطة البصرة ، وخلافة الحجاج بها جيشا عليه ابنه حفص بن زياد ، فقاتله أشد قتال ، فقتل حفصا وهزم أصحابه ، وقوي أمر شيرزنجي ، فلما قدم الحجاج البصرة قال : يا أهل البصرة إن عبيدكم وكساحيكم رأوا معصيتكم فتأسوا بكم ، وأيم الله لئن لم تخرجوا إلى هؤلاء الكلاب فتكفوني أمرهم لأعقرن نخلكم ، ولأنزلن بكم ما أنتم له أهل باستخراجكم وفسادكم ، فانتدب الناس من كل خمس من أخماس البصرة ،

---

١ ـ الكلاء : هو مكان ترفأ فيه السفن ، وهو ساحل كل نهر ، والكلاء : اسم محلة مشهورة وسوق بالبصرة . معجم البلدان .

ووجه عليهم وعلى جماعة من المقاتلة كراز بن مالك السلمي فلم يزل يقاتل الزنج حتى صاروا إلى صحارى دورق[١]، فواقعهم هناك فقتل شيرزنجي والزنج، فقل من أفلت منهم، قال فلما قال جرير للأخطل:

لا تطلبن خؤولة في تغلب فالزنج أكرم منهم أخوالا[٢]

إنبرى له سنيح بن رياح مولى بني سامة بن لؤي فقال:

إن الفرزدق صخرة عادية طالت فليس ينالها الأوعالا[٣]
ورميت تغلب وائل في دارهم فأصبت عند التغلبي نضالا
والزنج لو لاقيتهم في حربهم لاقيت ثم حجاجاً أبطالا
قتلوا ابن عمرو حين رام رماحهم ورأى رماح الزنج ثم طوالا
هذا ابن عجل قد علمتم منهم غلب الرجال سماحة وفعالا
وبنو الحباب مطاعم ومطاعن عند الشتاء إذا تهب شمالا
وبنو زبيبة عنتر وهراسة وسليك المتحمل الأثقالا
والزنج قد شهد النبي بجودهم وببأسهم إن حاربوا الأقتالا

يعني بابن عمرو زياد بن عمرو، وبابن عجل عبدالله بن خازم السلمي كانت أمه سوداء يقال لها عجل، وكانت أم عمير بن الحباب سوداء، وكانت أم سليك سلكة سوداء، وقوله: شهد النبي بجودهم، ذهب إلى الحديث الذي روي أن النبي ﷺ قال في السودان: «إن فيهم

---

١ ـ دورق: بلد بخوزستان. معجم البلدان.
٢ ـ ديوان جرير ص ٣٦٣.
٣ ـ بهامش الأصل: أي طالب الأوعال، فليس ينالها، يعني حفص بن زياد بن عمرو.

لخلتي صدق:السماحة والنجدة» ، وروى سفيان بن عيينة وعمرو بن عوسجة مولى ابن عباس قال : ذكر الحبش عند النبي ﷺ فقال : «لا خير في الحبش وإن فيهم لخلتين إطعام الطعام ، وبأس عند البأس»[1] .

وحدثني حفص بن عمر عن الهيثم ابن عدس وهشام بن الكلبي قالا : دخل الوليد بن يزيد بن عبد الملك على هشام وعنده ولده ، وفيهم مسلمة بن هشام المكني أبا شاكر ، فقال الوليد لمسلمة ، وكان ظريفاً : ما اسمك ؟ قال : شيرزنجي يعرض بأنه يكثر شرب النبيذ إكثار الزنج ، ويطرب طربهم ، وكان شيرزنجي خرج بفرات البصرة في خلق من الزنج فقتل ، فلما قام الوليد ليخرج قام معه أبو شاكر فوثب الوليد على فرسه ولم يمس السرج ولا المعرقة ، فأعجبه فعله ، فقال لأبي شاكر : أيصنع أبوك مثل هذا ؟ فقال أبو شاكر : لأبي مائة عبد يصنعون مثل هذا وأكثر منه ، فبلغ هشاماً ذلك ، فقال : ما له قاتله الله وما أظرفه ، على أنه قد غلبني مجوناً .

---

١ ـ انظره في كنز العمال ـ الحديث ٢٥٠٩٤ .

بسم الله الرحمن الرحيم

أمر عبد الرحمن بن محمد
ابن الأشعث بن قيس الكندي

حدثني روح بن عبد المؤمن المقرىء ، مولى باهلة قال:حدثني عمي عن سحيم بن حفص عن شيخ من كندة قال:كان عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس معجباً عظيم الكبر وكان شخص إلى سجستان مع خال له في طلب ميراث ، فجعل يختلف إلى بغي يقال لها ماهنوس فأُخذ معها ، فشهد عليه كردم الفزاري الذي يقول الناس فيه : كل الناس بارك فيه ، وكردم لا يبارك فيه ، وكان أبو كردم مرثد بن نجبة مع خالد بن الوليد فقتل على سور دمشق ، وشهد عليه معه زفر بن عمرو الفزاري ، ومحمد بن قرظة ، ويزيد بن زهير ، فضرب حداً ، ولم تذهب الأيام حتى صار هؤلاء النفر في جنده ، وقد ولي سجستان فأساء بهم ودس إليهم قوماً شهدوا عليهم بالزنا ، فحدهم فقال قائلهم :

شهدنا بحق وانتقمت بباطل فأُبنا بأجر واشتملت على وزر

فلما كانوا بدير الجماجم خرج عيينة بن أسماء الفزاري إلى الحجاج وفارق ابن الأشعث ، ثم إنه رفع على هؤلاء النفر أنهم كانوا موافقين لابن

الأشعث ، وعلى رأيه ، فحبسهم الحجاج وقال : لا تقتلوهم فيقول عدونا أنا نقتل أصحابنا ، فأتاهم بعض أصحابه ليلاً فقتلهم .

حدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي قال : حدثنا وهب بن جرير بن حازم عن أبيه عن عمه ، أن المهلب بن أبي صفرة لما فرغ من قتال الأزارقة قدم على الحجاج فأكرمه وأجلسه على سريره ووصله وأهل الغَنَاء ممن كان في جيشه، وقال: هؤلاء أهل الفعال والإستحقاق للأموال، هؤلاء غياظ الأعداء وحماة الثغور وولاه خراسان وسجستان ، فقال : ألا أدلك على من هو أعلم بسجستان مني ؟ قال : بلى قال : عبيدالله بن أبي بكرة ، فقد كان وطىءَ هذا الثغر وعرف أموره ، فولى ابن أبي بكرة سجستان .

وحدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه ، وحفص بن عمر عن الهيثم بن عدي عن المجالد بن سعيد قال : بعث الحجاج عبيدالله بن أبي بكرة إلى عبد الملك ، ليطلب له ولاية خراسان وسجستان ، وكان على الثغرين أمية بن عبدالله بن خالد بن أسيد ، فقال عبد الملك : لست بنازع أمية عن الثغرين للحجاج ، وكان له محباً ، ولكن إن شئت وليتك إياهما ، فقال : ما كنت لأخون الحجاج وقد أرسلني ووثق بي ، ثم إن عبد الملك استقصر أمية بن خالد وأَمْرَهُ ، واستبطأه في جباية الأموال وأتته جبايات الحجاج كثيرة موفرة ، فكتب إلى الحجاج بولاية الثغرين ، وبعث إليه بعهده عليهما في سنة ثمان وسبعين ، فولى الحجاج المهلب خراسان ، وعبيدالله بن أبي بكرة سجستان .

وقال المدائني وغيره لما قدم عبيدالله بن أبي بكرة سجستان منعه رتبيل الإتاوة التي كان يؤتيها ، فكتب عبيدالله بذلك إلى الحجاج فكتب الحجاج

إليه يأمره بغزوه وأن لا يبرح حتي يستبيح أرضه ، ويهدم قلاعه ، ويقتل مقاتلته ، ويسبي حريمه ، فغزاه بمن معه من أهل الكوفة والبصرة ، وكان على أهل الكوفة شريح بن هانىء الحارثي ، فسار ابن أبي بكرة متوغلاً في بلاد العدو ، فأصاب من الغنيمة ما شاء الله عزوجل ، فقال له شريح : إن الله عزوجل قد غَنَّمَنا وسلمنا وأذل عدونا ، فارجع بنا من مكاننا ونحن وافرون معافون ، فإني أتخوف إن كاثرت رتبيل وأهل بلده ، والتمست فتح مدائنهم وقلاعهم في غزوة واحدة أن لا تطيق ذلك فقال له : اصبر أيها الرجل ودع هذا ، فقال [ابن) هانىء : إنه ليس لقصير أمر ، والله إنك لتعمل في هلاك نفسك وجندك ، وسار حتى قرب من كابل ، وجعل لا يظهر له أحد ، وتفرق أصحابه يطلبون العلف وانتهى بهم إلى شعب فأخده عليهم الترك ولحقه رتبيل ، وليس بالقوم قتال ، فبعث ابن أبي بكرة إلى شريح إني مرسل إلى هؤلاء فمصالحهم ومعطيهم مالاً على أن يخلوا بيننا وبين الخروج ، فقال شريح : إنك لا تصالحهم على شيءٍ إلا حسبه الحجاج عليكم من أعطياتكم فقال ابن أبي بكرة : حرمان العطاء أيسر علينا من الهلاك ، وبعث إلي رتبيل يطلب منه الصلح على أن يعطيه خمسمائة ألف درهم ، ويقال سبعمائة ألف درهم ، وعدة من وجوه من معه وثلاثة من ولده يكونون عنده ، وأن لا يغزوهم ما كان والياً ، وكان الثلاثة من ولده : نهار ، والحجاج ، وأبو بكرة ، ومعهم العاقب بن سعيد فقال له شريح: اتق الله عزوجل وقاتل هؤلاء القوم ، ولا تشتر الكفر بالإيمان ، وزيادة خمسمائة ألف درهم ، ويقال سبعمائة ألف ، وتدفع قوماً من المسلمين إلى المشركين ، ثم تشترط لهم أن لا تقاتلهم ولا تجبيهم خراجاً هرباً من الموت الذي أنت إليه صائر ، هذا

وأنت لا تدري ما يكون من سخط الحجاج ، ثم قال شريح : والله لقد فني عمري وذهب ، ولقد تعرضت للشهادة في غير موطن ، فأبى الله عزوجل أن يبلغني إرادتي منها ثم قاتل وقاتلت معه جماعة مطوعة من مذحج وهمدان فقتل ، وقتل معه من أهل المصرين ومن أهل الشام جماعة ، وبعث ابن أبي بكرة إلى رتبيل حين استعد شريح لقتال العدو وزحف لذلك : إني على صلحك وما فارقتك عليه ، وهذا رجل واحد من أصحابي عصاني ولست أنصره عليك ، فخذله وجرأ رتبيل عليه ، وقال شريح وهو يمشي إلى الكفار :

أصبحت ذا بث أقاسي الكبرا
قد عشت بين المشركين أعصرا
ثمت أدركت النبي المنذرا
وبعده صِدّيقهُ وعمرا
ويوم مهران ويوم تسترا
والجمع في صفينهم والنهرا
هيهات ما أطول هذا عمرا

وكان شريح من شيعة علي .

قالوا : واجتنب بنو عبيدالله بن أبي بكرة ما كان رتبيل يعرضه عليهم من النساء والخمر ، فعظموا في عينه وأعين أصحابه .

وخرج ابن أبي بكرة من بلاد العدو ، وجعل جنده يؤتون بالطعام فإذا أكلوه ماتوا ، ثم إنهم أطعموا السمن فلانت أمعاؤهم ، فلم يصلوا إلى بُسْت إلا وهم خمسة آلاف .

وكان ابن أبي بكرة حين رأى ما الناس فيه من القحط وهم يأكلون دوابهم في بلاد العدو يشتري الطعام ثم يبيعه جيشه حساب القفيز بدرهم ، حتى أصاب الناس ضر شديد ومرض ، وكان يبعث إلى الحصرم فيضعه في أسواقهم ويبيعهم إياه يقول: هذا صالح لمرضاكم، وباعهم التبن غربالاً بدرهم ، ففي ذلك يقول عبد الرحمن بن الحارث ، وهو أعشى همدان في قصيدة له أولها :

ما بال حزن في الفؤاد مولج ... ولـدمعـك المتحـدر المتهيـج
أسمعت بالجيش الذين تمـزقوا ... وأصابهم ريب الزمان الأعوج
حبسوا بكابل يأكلون جيادهم ... بـأضر منـزلـة وشر معـرج
لم يلق جيش في البلاد كما لقوا ... فلمثلهم قـل للنـوائـح تنشـج
واسـأل عبيـدالله كيف رأيتهم ... عشرين ألف مجفف ومـدجـج
بعثـا تخـيره الأمـير جـلادة ... بعثاً من المصرين غير مـزلج
وليت شـأنهم وكنت أمـيرهم ... فأضعتهم والحرب ذات توهج
ما زلت نازلهم كما زعموا لنا ... وتفلهم وتسـير سـير الأهـوج
وتبيعهم فيهـا القفيـز بـدرهم ... فيظل جيشك بالملامة ينتجي
ومنعتهـم أتبـانهم وشعـيرهم ... وتجرت بالعنب الذي لم ينضج
ونهكت ضربا بالسياط جلودهم ... ظلماً وعـدوانـاً ولم تتحـرج
والأرض كافرة تضرم حـولكم ... حـرباً بهـا لقحت ولما تنتج
فتساقطوا جوعاً وأنت صفندد[1] ... شبعان تصبح كالايد الأفحج

---

١ ـ لم أجد لهذه الكلمة معنى .

رخو النَّسَا والحالبين ملثما في مثل جحفلة الحمار الديزج[١]
وظننت أنك لم تعاقب فيهم والله يصبح من أمام المدلج
حتى إذا هلكوا وباد كراعهم رمت الخروج وأي ساعة مخرج
وأبى شريح أن يسام دنيةً حرجاً وصحف كتابهم لم تدرج
وبقيت في عدد يسير بعدهم لو سار وسط مراغةٍ لم يرهج
لا تخبر الأقوام شأنك كله وإذا سئلت عن الحديث فلجلج

في أبيات .

قالوا: فمات ابن أبي بكرة كمداً ، ويقال اشتكى أذنيه فمات ، وبلغ الحجاج خبر ابن أبي بكرة وأنه قد استخلف ابنه أبا برذعة ، فكتب إلى المهلب أن يوجه إلى سجستان من قبله رجلاً فوجه وكيع بن بكر ، فقال كعب الأشعري :

ما زال أمرك يا مهلب صالحاً حتى ضربت سرادقاً لوكيع
وجعلته ربّاً على أربابه ورفعت منه غير جَدٍّ رفيع

فلما قدم على أبي برذعة أهدى إليه أبو برذعة ثلاثمائة ألف درهم ، وهدايا سوى ذلك ، وأقام أبو برذعة بسجستان حتى قدم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث من وجه الخوارج فولاه الحجاج كرمان .

وقال أبو مخنف وعوانه : لما هلك عبيدالله بن أبي بكرة بسجستان ، غم الحجاج مهلكه غماً شديداً ، وكتب إلى عبد الملك يعلمه ذلك ويستطلع

١ـ الجحفلة : بمنزلة الشفة للخيل والبغال والحمير . والديزج ـ معرب ديزه : اللون الأسود ، الرمادي . القاموس .

رأيه في تولية هذا الفرج رجلاً فكتب إليه : «بلغني كتابك بما ذكرت من مصاب المسلمين بسجستان حتى لم ينج منهم إلا الشريد، وجرأة العدو لذلك وقوتهم على أهل الإسلام، فأولئك قوم كتب القتل عليهم فبرزوا إلى مضاجعهم وعلى الله عز وجل ثوابهم ، فأما ما استطلعت فيه الرأي ، فإن رأيي أن تمضي ولاية من رأيت توليته موفقاً رشيداً .

قالوا: وكان الحجاج مبغضاً لعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، وكان عبد الرحمن رجلاً معجباً ، ذا نخوةٍ وأبهةٍ ، وكان الحجاج يقول : ما بالعراق رجلٌ أبغض إلي منه وما رأيته قط ماشياً أو راكباً إلا أحببت قتله ، وكان عبد الرحمن يقول : ما رأيت قط أميراً فوقي إلا ظننت أني أحق بإمرته منه ، وكان أيضاً يقول : لو قد رأيت البياض ، وقرأت القرآن ، وماتت أم عمران ـ يعني أمه ـ لطلبت الغاية التي لا مذهب بعدها .

حدّثني حفص بن عمر عن الهيثم عن مجالدٍ عن الشعبي قال : إني لعند الحجاج إذ دخل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث يتمشى فقال : انظروا إلى مشية المقيت والله لهممت أن أضرب عنقه ، فلما سلم عليه قال : إنك لمنظراني ، قال : ومخبراني أصلح الله الأمير ، ثم جعل يقول : أنا منظراني أنا منظراني .

قال الشعبي : فحدثت عبد الرحمن بما قال الحجاج حين رآه يتمشى ، فقال : اكتم علي والله لأحاولن إزالة سلطانه إن طال بي وبه عمر .

قالوا:ثم إن الحجاج انتخب اثني عشر ألفاً ويقال عشرة آلاف من أهل الجلد والقوة والهيئة ، فأعطاهم وجهزهم وقواهم واستعمل عليهم عطارد بن عمير بن عطارد بن حاجب ، ويقال بعض ولد ذي الجوشن الضبابي ، وسار

بهم إلى البصرة وانتخب من أهل البصرة مثلهم ، وجعل عليهم عطية بن عمرو العنبري الذي يقول فيه أعشى همدان :

فابعث عطية في الخيول تَكُبُّهُنَّ عليه كبا
فإذا جعلت دروب فا رس خلفنا درباً فدربا

فلما تتاموا واجتمعوا سمي ذلك الجيش جيش الطواويس ، ويقال ان الناس سموهم بذلك لتكامل أهبتهم وعدتهم ونبلهم وشجاعتهم ، وأمر فأمضى ذلك الجيش إلى الأهواز وكتب إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بولاية سجستان وضم إليه ذلك الجيش ، وكان الحجاج قد وجه عبد الرحمن لقتال الخوارج ، فشخص بهم عبد الرحمن حتى قدم سجستان ثم نزل بست ، فأتته رسل رتبيل ، وأتى اسماعيل بن الأشعث الحجاج فأشار عليه أن لا يولي عبد الرحمن وقال : إني والله أخاف خلافه ، والله ما جاز جسر الفرات قط فرأى أن لأحدٍ عليه سلطاناً ، فقال : ليس هناك إني لست كأولئك هو لي أهيب ، وفيما لدي أرغب من أن يخالفني أو يخرج يداً من طاعتي فقدم سجستان في آخر سنة تسعٍ وسبعين .

وقال أبو عبيدة : كان الحجاج وجه هميان بن عدي السدوسي إلى كرمان ، وجعله مسلحةً بها ليمد عامل سجستان إن احتاج الى ذلك ، فعصى بمن معه ، فوجه عبد الرحمن بن الأشعث لمحاربته فحاربه فهزمه ، وأقام بموضعه ، فلما مات ابن أبي بكرة ضم إليه جيشاً أنفق عليه ألفي ألف درهم ، وكتب إليه في محاربة رتبيل بمن معه وبذلك الجيش .

وقال أبو مخنف : خطب ابن الأشعث الناس حين دخل سجستان فقال : إن الأمير الحجاج ولاني ثغركم ، وأمرني بجهاد عدوكم الذي استباح

بلادكم ، وأباد خياركم ، ثم عسكروا وأخرجت له الأسواق ، وبلغ ذلك رتبيل فكتب إليه : إنه ليست أمة من الأمم أعظم في أنفسنا ، ولا أحق بالإجلال والإكرام والتبجيل عندنا منكم ، وقد كان من مصاب إخوانكم ما علمتم وما كان ذلك عن هوى مني ، ولا إرادة وقد كنا صالحناكم على صلح فيما مضى ، ولولا أن ابن أبي بكرة نقض وبدل لجرينا في أمره مجرانا في أمر غيره ، ونحن نسألك أن تصالحنا وتقبل منا ما كان غيرك ممن قبلك يقبله ، وأهدى إليه خاله العاقب بن سعيد ، وكان ابن أبي بكرة رهنه مع ولده ، ثم اتبعه جميع الرهن الذين كانوا قبله ، فلم يجبه حتى أعد له القاسم بن محمد بن الأشعث أخاه ، وكان ورد عليه من طبرستان في خيل عظيمةٍ ، وأمره أن يغير عليه بمكانه الذي هو به ، وكان مع رتبيل رجلٌ من بني تميم يقال له عبيد بن سبع بن أبي سبع ، ويقال عبيدالله بن سبع ، وكان يرى رأي الخوارج فيما يقال ، وكان مقيماً بسجستان في ولاية زياد بن أبي سفيان وبعد ذلك ، فقال له : قد جاءك أغدر العرب وأشدهم أبهةً وكبراً ، فتحوّل من مكانك فإني لا آمن عليك أن يأتيك وأنت غار ، فخرج من مكانه مسرعاً ، وورد القاسم فلم يجد إلا عجائز وشيوخاً وقتلى من المسلمين فكفنهم وصلى عليهم ودفنهم ثم لم ينشب أن سار إليه في الجنود .

أبو الحسن المدائني عن أشياخه قالوا : قدم عبد الرحمن سجستان ، فأقام حتى استمر الناس وأراحوا ، وحضر الغزو فخرج من بابشير[1] ، فعرض الناس وخطبهم ، وحرضهم ، ثم لما كان في أول المفازة عرضهم فلم

---

١ ـ قرية على مقدار فرسخ من مرو . معجم البلدان .

يتخلف عنه أحد منهم ، وقطع المفازة ونزل بست[1] ، فتلقاه رتبيل واعتذر إليه من مصاب المسلمين وقال كان ذلك على كرهٍ مني ، وعرض عليه الفدية وسأله أن يقبل منه ما كان يقبله من قبله ، وبعث بالرهن وفيهم خاله العاقب بن سعيد ، فأخذ الرهن ولم يجبه إلى شيءٍ مما يريد ، وقدم القاسم أخاه أمامه ثم سار ، وجعل رتبيل يدع البلاد حصناً حصناً طمعاً في أن ينال منه ما نال من غيره ، وحذر ابن الأشعث فكان لا يأتي حصناً ولا يجاوز عمراناً إلا خلف فيه قائداً في كثف من المسلمين ، ورتب الرجال فأنزل القاسم أخاه الرُّخَّجَ ونزل هو بست وكره التوغل في البلاد وكتب إلى الحجاج بذلك ، فكتب إليه : يا بن الحائك الغادر، كتابك إليَّ كتاب رجل يحب الهدنة والموادعة لعدو قليل ذليل ، ولعمري يا بن أم عبد الرحمن إنك حين تكف عن ذلك العدو ومعك جندي وحدي لسخي النفس عمن أصيب من المسلمين ، إني لم أعدد رأيك مكيدةً ، ولكني عددته ضعفاً وجبناً ، والتياث رأي ، فأمض لما أمرتك به من الوغول في أرضهم والهدم لحصونهم ، فإنها داركم حتى يفتحها الله عز وجل عليكم» .

فأغضب عبد الرحمن بن محمد ذلك ، وقال : يكتب إليَّ ابن أبي رغالٍ بمثل هذا الكتاب ، وهو والله الجبان ، وأبوه من قبله ، وعزم على خلع الحجاج ، وكان معه سوى جند الكوفة والبصرة الذين جعله الحجاج عليهم بالأهواز ، جند قدموا مع الصباح بن محمد ، والقاسم بن محمد أخويه، كانوا بطبرستان ، فكتب الحجاج في إشخاصهم إليه معهما ، وبعث الحجاج

---

١ - بست : مدينة بين سجستان وغزنين وهراة ، من أعمال كابل . معجم البلدان .

أيضاً إلى عبد الرحمن : اسحق بن محمد بن الأشعث ، في جند آخر ، وكتب إليه : «إن توقفت عن المسير في بلاد العدو ، وليت إسحق بن محمد بن الأشعث جندك ، وصيرتك من تحت يده كبعض أهل المصر .

فأظهر خلع الحجاج وقال أيها الناس إني والله لكم ناصح ، ولصلاحكم محب ، وفيما يعمكم نفعه ناظر ، وقد استشرت ذوي أحلامكم والتجربة منكم ، فأشاروا عليَّ بما علمتم من ترك التوغل في بلاد العدو ، وإن الحجاج كتب إليَّ بإنكار ذلك وكراهته إياه ، وأمرني أن أتوغل بكم تغريراً لجماعتكم، كما غرر بإخوانكم بالأمس، فقالوا: لا بل نأبى على عدو الله عز وجل أمره ولا نسمع له ولا نطيع ، فإن ابن أبي رغالٍ لا يريد بنا خيراً ، وعقد لمن وثق به ، وحل ألوية من أبى منهم ، وافتعل كتاباً من الحجاج في تولية قوم ، وعزل آخرين ، ليفسد قلوبهم ، وكانوا وجوهاً أشرافاً .

قالوا : وكان أول من تكلم عامر بن واثلة الكناني ، وكان خطيباً شاعراً : فقال بعد أن حمدالله وأثنى عليه : أما بعد ، فإن الحجاج والله ما يرى لكم إلا ما يرى القائل الأول : احمل عبدك على الفرس فإن هلك هلك ، وإن نجا فهو لك ، والله ما يبالي أن يخاطر بكم فيقحمكم بلاداً كثيرة اللهوب والعقارب والأشب ، فإن ظفرتم وغنمتم جبى وحاز الأموال ، وإن ظفر بكم كنتم الأعداء البغضاء ، فاخلعوه وبايعوا أميركم فأني والله أوّل خالع للحجاج عدو الله .

ثم قال عبد المؤمن بن شبث بن ربعي : إنكم إن أطعتم الحجاج جعلها بلادكم ما بقيتم وجمركم تجمير فرعون لجنده ، والله ما يبالي أن تهلكوا

أو تقتلوا ، فنادى الناس من كل جانب : خلعنا الحجاج عدو الله ووثبوا إلى عبد الرحمن يبايعونه فيقول لهم : تبايعون على خلع عدو الله الحجاج ، وعلى نصرتي ، وعلى جهاد عدو الله وعدوي معي حتى ينفيه الله عزوجل من أرض العراق ، فبايعه الناس ، ولم يذكروا خلع عبد الملك .

وقال أبو مخنف :كانت بيعته على كتاب الله ، وخلع أئمة الضلال ، وجهاد المُحِلِّين .

قال : فلما بايعوا ابن الأشعث قالوا : ننصرف إلى العراق فنخرج الحجاج عدو الله من العراق فإن جهاده أولى .

وقال الهيثم بن عدي : أخبرني عمر بن ذر الهمداني أن أباه ذر بن عبدالله بن زرارة كان مع ابن الأشعث ، وأنه ضربه وحبسه لانقطاعه إلى أخويه القاسم وإسحق ابني محمد ، وضرب ، وحبس معه عدة منهم : عمران بن عبد الرحمن ، وقتادة بن قيس ، فلما خلع دعا بهم فحملهم وكساهم وأعطاهم ، وأقبلوا معه فيمن أقبل ، فأما ذر بن عبدالله فكان قاصاً خطيباً ، فثبت معه وناصحه وأما عمران بن عبد الرحمن فناصحه وثبت معه وأما قتادة ففارقه ولحق بالحجاج .

قالوا : ولما خلع الحجاج عبد الرحمن وأصحابه ، وادع رتبيل وكتب بينه وبينه كتاباً وعاهده أن لا يرزأ منه شيئاً ، فإن ظفر بالحجاج لم يسأله خراجاً أبداً ما بقي ، وإن قوي عليه الحجاج لجأ ومن معه إليه فمنعهم ، ثم انصرف ابن الأشعث إلى بست فاستعمل عليها عياض بن عمرو السدوسي ، وهو الثبت ، ويقال عياض بن همام ، وكان عياض قاتل عبد الرحمن حين قدم سجستان فقتل من أصحابه مقتلة عظيمة . وبعث إلى

الحجاج برؤوس من قتل وهرب حتى لحق برتبيل فلما بلغه خلعه الحجاج أتاه فبايعه ، وولى عبدالله بن عامر التميمي ثم المجاشعي ولقبه البعّارزرنج ، وقال ابن الكلبي البعار علقمة بن حوي بن سفيان بن مجاشع .

وأقبل عبد الرحمن بن محمد يريد العراق ، فهرب منه إسحق بن محمد ، والقاسم ، والصباح ، والمنذر إخوته ، فأما القاسم فانه رأى إسحق يناجي الصباح دونه ، فغضب فعاد إلى أخيه ، وأما الآخرون فلحقوا بالحجاج ، وجعل أعشى همدان يجري على فرس له ، وقد خرج عبد الرحمن عن سجستان مقبلاً إلى الحجاج وهو يقول :

شطت نوى من داره بالإيوان ... إيوان كسرى ذي القرى والريحان
فالبندنيجين إلى طرازاستان[1] ... فالجسر فالكوفة فالغريان
من عاشق أمسي بزابلستان ... إن ثقيفاً منهم الكذابان
كذابها الماضي وكذاب ثان ... إنا سمونا للكفور الخوان
حين طغى في الكفر بعد الإيمان ... بالسيد الغطريف عبد الرحمن
سار بجمع كالدبا من قحطان ... ومن معد قد أتى ابن عدنان
بجحفل جم كثيرِ الأركان ... فقل لحجاج ولي الشيطان
أثبت لجمع مذحج وهمدان ... والحي من بكر وقيس عيلان
فإنهم ساقوك كاس ذيفان[2] ... أو ملحقوك بقرى ابن مروان

---

١ ـ طراز : بلد من ثغور الترك . والبندنيجين : بلدة مشهورة في طرف النهروان . معجم البلدان .

٢ ـ الذيفان : السمّ .

وقال أبو جلدة اليشكري وكان مع ابن الأشعث :

نحن جلبنا الخيل من زرنجا ما لك يا حجاج منا منجى
لتبعجن بالرّماح بعجا أو لتفرن وذاك أنجى

حدثني خلف بن سالم وأحمد بن إبراهيم قالا : حدثنا وهب بن جرير عن ابن عيينة أن عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث لما خلع كتب إلى المهلب يسأله الخلع معه ، فقال المهلب : ما كنت لأغدر بعد سبعين سنة ، ثم قال : ما أعجب هذا يدعوني إلى الغدر مَنْ بعض ولدي أكبر منه ، وقال لرسوله : قل له : اتق الله في دماء المسلمين ولم يجبه عن كتابه ، وبعث به إلى الحجاج .

وحدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن جده قال : لما عاهد عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث رتبيل وكتب بينه وبينه كتاب الوثيقة ، وثب رجل من همدان يقال له فندش بن حيان الهمداني على رجل من الكفار من أصحاب رتبيل جرى بينه وبينه خلاف في شيء فضربه فندش بعود معه فشجه شجة خفيفة فبعث رتبيل إلى عبد الرحمن بفندش ولم يقتله ، فأمر عبد الرحمن بقتله ، فقال أعشى همدان ، وكان فندش صديقاً ونديماً له :

تعوذ إذا ما بت من بعد هجعة من المرء في سلطانه المتفحش
ومن رجل لا تعطف الرحم قلبه جريء على أخواله متحمش
لجوج شديد بطشه وعقابه متى يأته ساع بعمياء يبطش
أفي خدشة بالعود لم يدم كلمها ضربت بمصقول علاوة فندش
وأزهقت في يوم العروبة[1] نفسه بغير قتيل صاحياً غير منتش

١ - أي يوم الجمعة . القاموس .

أبي رتبيل قتله فقتلته   وأنت على خوارة وسط مفرش
وباكية تبكي على قبر فندش   فقلت لها أذري دموعك واخمشي
وإنا لنجزي الذحل بالذحل مثله   ونضرب خيشوم الأيَلِّ الغطمش
فتى كان مقداماً إذا الخيل أجحمت   ضروباً بنصل السيف ليس بمرعش

ويقال أن فندشاً والأعشى ورجلاً آخر، كانوا على شراب لهم، وهم في عسكر ابن الأشعث فنودي يوماً بالسلاح، فمر بهم المنادي فأمرهم باللحاق بالناس، فقال فندش: لا نريم حتى نفرغ من شرابنا، فعلاه المنادي بالسوط، فوثب فندش عليه فضربه بعصاً على رأسه فانطلق إلى ابن الأشعث فأعلمه، فأمر بقتل فندش، فقتل، والأول أثبت.

قالوا: وكان مع ابن الأشعث أبو جوالق أحد بني غِسْل بن عمرو اليربوعي، وقوم يقولون عِسْل، والأول قول ابن الكلبي، وكان أبو جوالق شجاعاً وفيه يقول الشاعر:

سبعون ألفاً كلهم مفارق   مثل الحريش وأبي جوالق

يعني الحريش بن هلال القريعي.

قالوا: وأقبل عبد الرحمن يسير بالناس، وسأل عن أبي إسحق السبيعي، فقيل له: ألا تأتيه فقد سأل عنك، فكره أن يأتيه ونزل أبو إسحق بفارس، ولم يدخل في الفتنة حتى انقضت، وأتى عبد الرحمن كرمان فولاها عمرو بن لقيط العبدي ثم أتى فارس فولاها خرشة بن عمرو التميمي.

وحدثني علي بن المغيرة عن أبي عبيدة قال: كتب المهلب إلى ابن الأشعث من خراسان: «يا بن أخي إنك قد وضعت رجليك في ركابين

طويل غَيُّهُما على أُمة محمد ﷺ ، تركت قتال المشركين ، وأَقبلت لقتال المسلمين ، أَما تذكر بلاء الحجاج عندك حين جمع لك الجندين جميعاً .

قالوا : وقال أَعشى همدان :

مـن مبـلغ الحجـاج أ ني قد نبذت[1] إليه حربا
حـربـا مـذكـرة عـوا نـا تترك الشبـان شهبـا
وصفقـت في كف امـرىءٍ جـلد إذا الأَمـر عـبـا
لابـن الأشـج قـريـع كـنـ ـدة لا أبـين فيـه عتبـا
أَنت الـرئيس بن الـرئيس وأنت أَعـلى القـوم كعبـا

في قصيدة .

قال : وتمثل ابن الأشعث حين أقبل يريد الحجاج بشعر مغفر بن حماد البارقي :

سائل مجاور جرم هل جنيت لهم حرباً تُزيّل بين الجيرة الخلط
وهل تركت نساء الحي ضاحية في باحة الدار يستوقدن بالغبط[2]

وتمثل أيضاً :

خلع الملوك وسار تحت لوائه شجر العرى وعراعر الأقوام

قال : وأَخرج ابن الأشعث لأي بن شقيق بن ثور عامل الحجاج عن كرمان ، وأخذ ما في بيت مالها وقدم لأي بن شقيق بن ثور على الحجاج فأَخبره خبره ، فكتب معه إلى عبد الملك يستمده قال : وقالت ابنة سهم بن غالب الهجيمي :

---

١ ـ بهامش الأصل : ندبت .

٢ ـ الغبط : القبضات المحصورة المصرومة من الزرع . القاموس .

يا أيها السائل عما قد كان ... أبشر أتاك الغوث من سجستان
إبنا نـزار وسراة قحـطان ... وفيهم المنصور عبد الرحمن
يقود جيشاً جحفلاً ذا أركان ... سبعين ألفاً لابسين الأبدان
قد ذهب الملك عن آل مروان ... والثقفي زال عنه السلطان

قالوا : فلما صار ابن الأشعث ومن معه بفارس قال بعضهم لبعض : إذا خلعنا الحجاج ، فقد خلعنا عبد الملك ، فاجتمعوا إلى ابن الأشعث فكان أول الناس قال خلعت عبد الملك : تيحان بن أبجر أحد ولد ربيعة بن نزار ، ثم أحد بني بكر بن وائل ، قام فقال : يا أيها الناس إني قد خلعت أبا ذبان كخلعي قميصي هذا ، فخلعه الناس ، وكان أبو حزابة وهو الوليد بن حنيفة بن سفيان بن مجاشع بن ربيعة بن وهب بن عبدة بن ربيعة بن حنظلة بن مالك بكرمان ، فلما وردها ابن الأشعث تعرض له فقال :

يا بن قريع كندة الأشـج ... أما تراني فـرسي في المرج
وما هنوش ذهبت بسرجي ... في فتنة الناس وهذا الهرج

فضحك وقال : افتكوا سرجه قبحه الله ، وكان قد رهنه على خمسين درهماً عند بغي يقال لها ماهنوش وبات ليلته عندها . والأشج قيس بن معد يكرب ، شج في بعض أيامهم .

وحدثني عبدالله بن صالح العجلي قال : حدثني القاسم بن سهل النوشجاني قال : حدثني عدة من آل المهلب أن المهلب كتب إلى ابن الأشعث حين بلغه خلعه : «إنك يا بن محمد قد وضعت رجلك في غرز طويل الغي ، فالله الله يا بن أخي انظر لنفسك ولا تهلكها ، واتق الله

عزوجل في دماء المسلمين أن تسفكها ، والبيعة فلا تنكثها ، والجماعة فلا تفارقها ، فإن قلت أخاف الناس على نفسي فالله أحق أن تخافه والسلام» .

قال:وقالوا : كتب المهلب إلى الحجاج : «أما بعد فإن أهل العراق قد أقبلوا إليك وهم مثل السيل المنحط من عل ليس يرده شيء حتى ينتهي إلى قراره ، ولأهل العراق شِرَّةٌ في أول مخرجهم ، وبهم صبابه إلى أبنائهم ونسائهم فليس يبلى بردهم دون أهليهم فلا تستقبلهم وخل لهم الطريق حتى يأتوا البصرة فيواقعوا نساءهم ويتنسموا أولادهم ، فترق قلوبهم ، ويخلدوا إلى المقام في منازلهم ، فيتفرقوا عن ابن الأشعث ، ثم واقع من حاربك منهم فإن الله عز وجل ناصرك عليهم» ، فلما قرأ الحجاج كتابه قال : ويلي على المزوني والله ما لي نَظَرَ ولكن لابن عمه نصح ، ثم إنه نظر بعد ذلك في كتابه فقال : رحم الله المهلب ، فقد كان ناصحا للإسلام وأهله .

وحدثني عمر بن شبة عن هارون بن معروف عن ضمرة بن ربيعة عن ابن شوذب قال : كتب عمال الحجاج إليه : «إن الخراج قد آنكسر ، وإن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار» .

فكتب إلى أهل البصرة وغيرها : «إن من كان له أصل في قرية فليخرج إليها فخرج الناس فعسكراو وجعلوا يبكون ويقولون : وامحمداه ، وجعلوا لا يدرون أين يذهبون ، فجعل قراء أهل البصرة يخرجون إليهم متقنعين فيبكون معهم ، وقدم ابن الأشعث على بغتة ذلك فآستبصر أهل البصرة في قتال الحجاج مع ابن الأشعث :

وقال أبو مخنف وعوانة : ورد على الحجاج أمر ابن الأشعث وهو نازل بلعلع[1] فقال إنها لغليقة من الأمر ، وكتب إلي عبد الملك يخبره وسأله إمداده بالجنود ، وأتى الحجاج موضع واسط حين فصل من لعلع فآبتنى به مسجداً ، وقال : هذا مكانٌ واسط ، فسميت واسط القصب ، ثم بناها بعد ذلك .

قالوا:ولما ورد الكتاب على عبد الملك في أمر ابن الأشعث ، نزل عن سريره ، وبعث إلى أبي هاشم خالد بن يزيد بن معاوية فأقراه الكتاب ، فلما رأى خالد ما به من الجزع والإرتياع قال : إنما يخاف الحدث من خراسان ، وهذا الحدث من سجستان فلا تخفه ، ثم خرج عبد الملك على الناس فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ثم قال : إن أهل العراق قد استطالوا عمري فآستعجلوا قدري فسلط اللهم عليهم سيوف أهل الشام حتى تبلغ رضاك .

وصار الحجاج إلى البصرة فأقام بها ، وعزم على لقاء ابن الأشعث ، وكان المهلب كتب إليه يشير عليه أن لا يقاتله حتى يرد الناس منازلهم ، فيركنوا إلي الدعة وتمنعهم الرقة على أولادهم وعيالاتهم من المحاربة ، وتحدث لهم آراء غير أرآئهم وينتقصوا عند التفرق عن أمرهم ، ويعظ الرجل أخوه ، والرجل قومه ، فينفسح عزمه ، فلم يلتفت إلى كتابه ومشورته ، وكان الحجاج أقدم سفيان بن الأبرد الكلبي من طبرستان ، وأخذه بالحساب ، فكان محبوساً عنده ، فلما حدث هذا الحدث دعا به خالياً فشاوره فيه ، فرأى له أن يستقبل ابن الأشعث ويجعله على خيله ، وأحب بذلك التخلص من الغرم ، فقبل قوله لموافقته هواه ، ورفض رأى المهلب ، وجعل

---

١ ـ لعلع : منزل بين البصرة والكوفة . معجم البلدان .

فرسان أهل الشام يأتونه من قبل عبد الملك أرسالاً ، يأتيه في اليوم المائة والعشرة ، وأكثر من ذلك وأقل ، فبعضهم يأتي على البريد ، وبعضهم على الخيل العتاق المقدحة ، وبعضهم على الإبل الناجية ، وكانت أخبار ابن الأشعث تأتيه بنزوله مكاناً مكاناً وسار الحجاج بأهل الشام حتى نزل تستر الأهواز ، وقدم بين يديه عبد الله بن زميت الطائي ومظهر بن حيي العكي وجعل ابن زميت من تحت يده .

يوم دجيل وهو يوم تستر

قالوا : وقدم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث محمد بن أبان بن عبد الله الحارثي في ثلاثمائة فوجه إليه مظهر بن حيي العكي عبد الله بن زميت ، فهزم ابن أبان وأصحابه حتي اضطرهم إلي دجيل الأهواز ، فوجه مظهر مولى له يقال له منقذ إلى الحجاج بالفتح وعظم الأمر ، وأخبر أنه لقي مقدمة ابن الأشعث فهزمهم وقتل أكثرهم ، ولما رأى ابن الأشعث ما فعل بأصحابه جمع الناس وعبأهم ، ثم قال : آعبروا إلى أصحاب الحجاج ، فأقحم الناس خيولهم في دجيل حتي صاروا إلي موضع الوقعة ومظهر في سبعة آلاف من أهل الشام ، وذلك في يوم ضباب لا يكاد الرجل يتبين فيه صاحبه ، فحمل عليهم عطية بن عمرو العنبري فضعضعهم ، ثم حمل عليهم جرير بن هاشم بن سعد بن قيس الهمداني ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، ثم أتاهم الحريش بن هلال القريعي من خلفهم ، وحمل الناس عليهم من بين أيديهم ، فهزموا هزيمة قبيحة ، وقتلوا قتلاً ذريعاً ، وركب أصحاب الخيول

في طلبهم فقتلوهم وأسروهم أنَّى شاؤوا ، وكان في الأسرى رجل من همدان فقال لابن الأشعث : أصلح الله الأمير أنا أحد أخوالك ، فقال : ابدأوا بخالي فقدم وقتل وذلك يوم النحر سنة إحدى وثمانين يوم الجمعة ، ويقال عشية عرفة ، واستباحوا عسكرهم ، وكان الحجاج حين جاءه رسول مظهر صعد المنبر فخطب وقال : أحمدوا الله على هلاك عدوكم ، فلما نزل حتى جاءه بخبر هذه الوقعة عبيد بن سرجس مولاه، فقال: أيها الناس آرتحلوا بنا إلى البصرة ، فإن هذا مكان لا يحتمل الجند ، وانصرف حتى نزل الزاوية ، وبعث إلى طعام التجار بالكلاء فأخذه فحمله إليه ، فقال : من كان منهم وليا لنا رددنا عليه ، ومن كان عدواً فماله ودمه حلال لنا ، وخلى البصرة لأهل العراق وكان عامله عليهم الحكم بن أيوب الثقفي الذي يقول فيه الشاعر :

قد كان عندك صيد لو قنعت به فيه غنى لك عن دراجة الحكم
وفي عوارض ما تَنْفَكُّ تأكلها لو كان يشفيك أكل اللحم من قرم

وكان الحكم بن أيوب بن الحكم بن أبي عقيل هذا أبخل الخلق ، وكانت له دراجة يؤتى بها بعد الطعام ، وكان استعمل رجلاً من بني تميم يقال له العظرت علي بعض الفروض فقدم عليه والدراجة بين يديه ، فدعاه إلى الأكل فأكل معه من دراجته ، فعزله وقال له الحق بأهلك ، والعوارض ما أنكسر فنحر ، يقال : أهذا لحم عبيط ، أم لحم عارضة ؟

وقال الهيثم بن عدي : هزم ابن الأشعث صاحب الحجاج يوم دجيل وقتل من أصحابه ثمانية آلاف ، وقال غيره : قتل ألفين .

قال وجاء ابن الأشعث وأهل العراق حتى دخلوا البصرة فبايعه أهلها على حرب الحجاج وخلع عبد الملك ، وسارع إليه القراء والكهول ، وكان الحجاج أمر سفيان بن الأبرد الكلبي حين أقبل إلى البصرة أن يكون في أخريات الناس فيهدم القناطر ، ويقطع الجسور ، وضم إليه جماعة ففعل سفيان ذلك ، وكان نزول الحجاج الزاوية يوم الخميس لسبع ليال بقين من ذي الحجة سنة إحدى وثمانين ، وكان عياش بن الأسود بن عوف الزهري حين بلغه أمر ابن الأشعث جمع بسوق الأهواز رجالاً ثم أتاه ومحمد بن الأسود فكانا معه ، وكان أول من دخل البصرة هميان بن عدي السدوسي ، وكان شجاعاً ، وكان الحجاج قد حبس امرأته في قصر المجيزين ، وهي أم بكر من ولد شقيق بن ثور السدوسي ، وكان معه قوم نصروه فأخرجوها وقوماً كانوا محبوسين معها ، فقال الشاعر :

فمن للمرهقين إذا استجاروا   ونادى المحصنات أبا جرير

وهي كنية هميان ، وعارض سفيان بن الأبرد هميان حين أخرج امرأته من محبسها فقاتله حتى دخل ابن الأشعث والناس .

وقال زادا نفروخ بن تيرى المجوسي كاتب الحجاج : إنك إن منعتهم من دخول البصرة حاربوك بجد واجتهاد لطول غيبتهم عن أوطانهم ، وإن أنت تنحيت وتركتهم فرجعوا إلى أهليهم قل من يحاربك منهم .

يوم الزاوية

قالوا : ودعا ابن الأشعث بعباد بن الحصين وقد كبر وفلج فقال : أشر علي بالرأي فقال :

يا ليتني فيها جذع
أخب فيها وأضع

أرى أن تخندق على المربد وما يليه ، ثم تدعهم حتى يخرجوا من معسكرهم بالزاوية فيأتوك معيين كالّين ، ويخرج الناس إليهم نشاطى جامين ، فقال عبد الله بن عامر بن مسمع ، وكان قد صار إليه وكان قبل قدومه على شرطة البصرة ، وبشر بن محمد بن الجارود وعبد الحميد بن منذر بن الجارود : أنخندق على تميم ونترك دورنا ودور الأزد ، فخندق ناس من الناس على ما يليهم ، وخندق ابن الأشعث ، ولم يبلغ في الحفر وخندق الحجاج على عسكره ، وخرج سورة بن أبجر إلى الحجاج فصار معه ، وخرج إلى ابن الأشعث رجل من أهل الشام يقال له نويرة الحميري ، وكان شجاعاً ، فصار معه ، وكان قوم من أصحاب الحجاج يخرجون فيناوشون قوماً من أصحاب ابن الأشعث ، ثم إن الحجاج ضم إليه خيله ، وجعلت الرجال تأتيه من عند عبد الملك على البريد والإبل والدواب ، وكتب كل واحد منها ترد على صاحبه في كل يوم ، وقال الحريش بن هلال السعدي لعبد الرحمن : علام تدع الحجاج يأتيه كل يوم مدد من أهل الشام ، عاجله قبل أن يكثر جمعه ، فقال ابن الأشعث : إن الله جل وعز قد جمع كلمتكم ، وأعز دعوتكم فآخرجوا إليهم فجاهدوهم على اسم الله عز وجل ، فخرج

وخرج الناس ، فجعل على الميمنة عبد الرحمن بن عوسجة الهمداني وعلى الميسرة الحريش بن هلال السعدي وعلى مجففته[1] طفيل بن عامر بن واثلة وتيحان البكري ثم التميمي ، وعلى الرجالة زياد بن مقاتل بن مسمع ، وخرج الحجاج إليهم وعلى ميمنته سفيان بن الأبرد الكلبي وعلى ميسرته أيوب بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي ، فقال الحجاج لأصحابه : يا أهل الشام إنكم على الحق ، فآصبروا صبر المحق ، فإن الله عز وجل مع الحق ، والناكث المبطل أولى بالفرار ، ثم إنهم اقتتلوا قتالاً شديداً ، فجعل الشاميون يقولون للحجاج : لو صبرت حتى يجيء مدد أمير المؤمنين ، فيقول : لو كنت مبطلاً انصرفت ، وجعل العراقيون يدخلون عسكر الحجاج حتى بلغوا بيت ماله وسجنه ، وانهزم عنه أهل بيته ثم رجعوا إليه ، وجاء مولى لقيس بن الهيثم السلمي يقال له توبة إلى الحجاج وهو يظنه ابن الأشعث لكثرة من رأى في عسكره من العراقيين . فقال : أقر الله عينك أيها الأمير ، الحمد لله الذي أخزى الحجاج ، فقال الحجاج : آقتلوه لعنه الله فقتل ، ثم إن الحجاج جثا على ركبتيه ، وثاب أصحابه إليه ، وحمل سفيان على الناس فهزمهم ، فقال : زباد بن عمرو العتكي للحجاج : قد هزموا والحمد لله على عونه ، وكان معه .

وقتل في المعركة يوم الزاوية على ما ذكر هشام ابن الكلبي : عياش بن الأسود بن عوف الزهري ، ويقال بل أسر بهراة من خراسان وأتي به الحجاج

---

١ ـ أي الذين لبسوا التجافيف جمع تجفاف ، والتجفاف الة للحرب ، يلبسه الفرس والانسان ليقيه في الحرب . القاموس .

فقتله وقتل محمد بن الأسود أخوه ، وقتل عقبة بن عبد الغافر الأزدي ، وقتل عبد الرحمن بن عوسجة أبو سفيان ، وقتل عبدالله بن عامر بن مسمع ، وقد كان على شرط الحجاج بعد زياد بن عمرو ، حين غضب على زياد ، فلما أتي الحجاج برأسه قال : والله ما كنت أرى هذا فارقني ، وقتل الطفيل بن عامر بن واثلة الكناني ، وكان قد قال :

ألا أبلغ الحجاج أن قد أظله   عذاب بأيدي المؤمنين مصيب

فمر به الحجاج ، وهو في القتلى ، وقد كان بلغه شعره ، فقال : تمنيت لنا أمراً كان في العلم أنك أولى به ، فعجل الله عز وجل ذلك لك في الدنيا ، وهو معذبك في الآخرة وكان قتالهم يوم الأحد ، وكان البراء بن قبيصة بن أبي عقيل مع الحجاج فانهزم مع من انهزم من أهل بيته ، وفارقوه في صدر يوم الأحد فرجعوا إليه جميعاً ، إلا البراء فإنه مضى إلى عبد الملك فعاذ به ، فقال الحجاج : والله لا آمنته إلا أن أضربه ضربةً بالسيف أخذت ما أخذت ، وأبقت ما أبقت ، فقال البراء في أبياتٍ :

أخوف بالحجاج يوماً ومن يكن   طـريدة ليث بـالعراقـين يفرق

كأن فؤادي بين أظفار طائـر   من الخوف في جو السماء محلق

وكان أمرءاً قد كنت أعلم أنه   متى ما يعد من نفسه الشر يصدق

وصبر آل سعيد بن العاص مع الحجاج ، فقال ابن موهب ، كاتب الحجاج ومولاه ، واسمه عبيد :

لعمري لقد فر البرا وابن عمه   وفرَّت قريش غـير آل سعيد

يعني مصعب بن عبدالله بن أبي عقيل ، وكان عنبسة بن سعيدٍ أيضاً جال جولة ، ثم رجع إلى الحجاج من ساعته فلم يفقده ، وظفر الحجاج

بأهل الزاوية حين فاء الفيء يوم الأحد ، وأقبل إلى البصرة فقاتله الناس قتالاً شديداً على أفواه السكك ، فقال الحجاج : دعوهم فإنهم منهزمون والآن يتفرقون ، وانصرف عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، واستخلف عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وقال له : قاتل بالناس فإن عندهم قتالاً شديداً ، ولهم نشاط ، فإني منصرف إلى الكوفة وممدك بالرجال ووثب أهل البصرة إلى عبد الرحمن بن العباس فبايعوه على الصبر ، فقاتل بهم الحجاج ، ثم انصرف وكانت تلك الفعلة من ابن الأشعث هزيمةً ، وكان يقول : إنما انصرفت وفي الناس فضل ، وعندهم قتال لأنه بلغني أن مطر بن ناجية الرياحي وثب بالكوفة ، فغاظني أن أكون فتحت باباً دخل مطر منه ، وأن يكون إنما قدر على الوثوب بي فيكون له صوت معي ، فأريد أن ألحقه فأحول بينه وبين إرادته ، فأقبل عبد الرحمن نحو الكوفة في ألف من أهلها ، وقاتل ابن العباس آخر يوم الأحد ، ويوم الاثنين ، ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ، وليلة الخميس وهي ليلة الهرير ، وصبر أهل البصرة على قتال الحجاج على أفواه السكك ، وفقد ابن الأشعث فأمر الحجاج فرفعت راية أمانٍ وناداهم أصحاب الحجاج بأمره : ثكلتكم أمهاتكم علام تقاتلون وقد ترك صاحبكم القتال ومضى ، فدخلوا في الأمان وتفرقوا ، وخرج ابن العباس ومن معه من أهل الكوفة والأقوياء من أهل البصرة حتى لحق بابن الأشعث ، وجاء الحجاج حتى دخل البصرة ، فنادى مناديه : يا أهل الشام لا تنزلوا البصرة ، ونزل هو دار المهلب فرأى عندها جماعة نسوة ، فقال : إن هؤلاء النسوة لجأن اليَّ وخشين أن يدخل عليهن ، فليرجعن فنحن أغير عليهن من أزواجهن وقال حميد الأرقط في ابن عبد

الرحمن بن سمرة ، وكان أعور ، وذلك في أيام الزاوية .

يا أعور العين فديت العورا
لا تحسبن الخنـدق المحفـورا
يدفع عنـك القدر المقـدورا
ودائـرات الدهـر أن تدورا

وصعد الحجاج المنبر فذكر الله عز وجل بما هو أهله ، ثم قال : إن الله عز وجل لم ينصركم يا أهل الشام على عدوكم ، لأنكم أكثر منهم عدداً ، وأظهر قوةً، ولقد كانوا أثرى منكم وأقوى وهم في بلادهم، ومادتهم تأتيهم من مصرهم وبيوتهم ، فهم يستندون إلى ذلك ويعتصمون به ، ولكنكم كنتم أهل الطاعة ، وكانوا أهل المعصية ، فنصركم الله عز وجل بغير حولٍ منكم ولا قوةٍ فاحمدوا الله عز وجل على نعمه ولا تبغوا ولا تظلموا ، وإياكم أن يبلغني أن رجلاً منكم دخل بيت امـرأة فلا يكون له عندي عقوبة إلا السيف ، أنا الغيور ابن الغيور لا أداهن في الريبة ، ولا أصبر على الفاحشة .

قالوا : وأصابت الحريش يومئذٍ جراحة ، وكان يقاتل قتالاً شديداً ويقول :

أنـا الحـريش وأبـو قـدامـه
أضرب بالسيف مقيل الهامة
أشجع من ذي لبدٍ ضرغامه

وأتى سفوان[1] فمات من جراحته .

١ ـ سفوان : ماء على قدر مرحلة من باب المربد بالبصرة .

وقالت حميدة ابنة مقاتل ترثي أخاها زياد بن مقاتل بن مسمع :

يـا عـين جـودي ولا تفـتري وبـكي رئيس بـني جـحـدر
ولمـا تـولت جمـوع العـراق وأسلم من كـان في العسكـر
وحـامى زيـاد عـلى قـومـه وفـر محـامي بني الـعـنـبر

فسمعها البلتع وكان يبيع سمناً له عند بعض بني العنبر فأتزر بكسائه ، وجاء حتى قام عندها وهو يقول :

عـلام تـلومـين من لم يـلم تـطاول لـيـلك مـن مقصر
فقد تبطح الخيل تحت العجاج غـير الـشـهـيـد ولا المـعـذر
ونحن منعنـا لـواء الحـريش وطـاح لـواء بـني جـحـدر

ورجع إلى أصحابه فقال: قد شفيتكم منها .

وقال عامر بن واثلة ، أبو الطفيل يرثي ابنه :

خلى طفيل على الهم فانشعبا فهـد ذلك ركني هدَّةٍ عجبـا
وابني سهيمـة لا أنساهمـا أبداً فيمن نسيت وكل كان لي نصبا
وأخـطأتني المنـايـا لا تـطالعني حتى كبرت فلم يتركن لي شذبا

في أبيات .

وولى الحجاج الحكم بن أيوب البصرة في صفر ، واتبع ابن الأشعث ، وسلك طرق البر وكان زادا نفروخ بن تيرى مستخفياً بالبصرة ، فخرج من دار إلى دار فقتله بعض من رآه من أصحاب ابن الأشعث ، فاستكتب الحجاج مكانه ابنه مردانشاه .

أمر مطر بن ناجية الرياحي

قالوا : وكان مطر عامل الحجاج على المدائن وناحيتها ، فأتى الكوفة فقال حين نزل من المنبر : ان ابن الأشعث قد هزم أهل الشام ، فهلموا نخرج من عندنا منهم ، فكثرت تابعته ، وجاء حتى أحاط بالقصر ، وفيه عبد الرحمن بن عبدالله بن عامر الحضرمي ، عامل الحجاج على الكوفة ، وهو في أربعة آلاف من أهل الشام ، ويقال في ألفين ، فأشرفوا عليه وصالحوه على أن يجلوا ويخلوا القصر والمصر ، وكان يونس بن أبي إسحق يحدث أن مطراً لما أراد دخول القصر زحمه بغل فضربه بسيفه فقطع جحفلته، ثم قال: اللهم أخزه زحمني وقد آمنت صاحبه، فأعطاه بغلاً مكانه، وأسلف الناس مائتي درهم مائتي درهم ، وصحت عنده هزيمة ابن الأشعث، فخطب الناس فقال: إن ابن محمد قد هزم، وأنا لكم مكانه، أقوم مقامه ، فبايعه نفر من قومه قليل ، وأمسك الناس ، فلم يبايعوه ، فلما رأى ذلك دخل القصر ، ثم خرج بالعشي فقال : أيها الناس إن ابن محمد لقي الحجاج بالزاوية إلى جانب البصرة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، ثم تحاجزوا فنظروا فإذا ابن محمد مفقود ، لا يدرى أفي الأحياء هو أم في الأموات ، فثار

الناس عند ذلك إلى عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فبايعوه ، فعهد العاهد به وقد حصر الحجاج وظهر عليه ، فقوموا فبايعوا له ، فإنه رجل من قريش ثم من بني هاشم من أهل بيت نبيكم ﷺ ، فقام إليه عبد الرحمن بن أبي ليلى فبايعه ، ثم بايعه حمزة بن المغيرة بن شعبة ، ثم إنه دخل وأمر مطر بن أبي ليلى أن يبايع الناس ففعل ، فقال صدقة وتوبة ابنا عبيدالله بن الحر الجعفي : ما هذه البيعة ؟ نحن على بيعتنا الأولى ، ويقال إنهما ضربا وجه ابن أبي ليلى بحصى كان معهما وقالا : نحن على بيعتنا التي بايعنا عليها صاحبنا حتى ننظر ما صنع ، وقام ناس كثير فقالوا مثل ذلك وصاحوا بابن أبي ليلى أنزل فنزل ، وسمع ابن ناجية الصوت فقال : ما هذا ؟ قالوا له : قد اختلف الناس ، فرجع إليهم فقال : أيها الناس أنا رجل منكم فمن استقمتم له ورضيتم به وبايعتموه بايعته ، فسكن الناس ، وأقبل ابن الأشعث وسمع الناس بمجيئه ، فخرجوا إليه يستقبلونه .

وقال الهيثم بن عدي : أقبل ابن الأشعث من سجستان وقد خلع فنزل الخريبة بالبصرة ، فخندق على عسكره ، واقتتل هو والحجاج بالزاوية ، وبلغ ابن الأشعث أن مطر بن ناجية قد أخذ الكوفة ، فدعا خاصته فأعلمهم أنه يريد الكوفة ، واستخلف عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة ، وسار في نحو من ألف ففقد وقاتل عبد الرحمن بن عباس بالبصرة خمسة أيام ، ثم انهزم وقدم ابن الأشعث الكوفة .

وقال ابن الكلبي عن أبي مخنف وغيره : لما خرج الناس لتلقي ابن الأشعث فرأى كثرة من استقبله عدل عن الطريق كراهة أن يروا من معه من

الجرحى ، وجعل أصحابه يقولون : إن الله عز وجل قد أخزى الحجاج وهزمه وفرق جمعه ، وأقبل حتى نزل عند دار فرات بن معاوية وقال : لا والله لا أبرح ولا أدخل منزلي حتى أستنزل مطراً ، ثم جلس في أصحاب الخلقان ، فرآه رجل من بني أسد يقال له عبدالله فقال : ما أخلق هذا الرجل لأن يخلق امره ، وجاء الناس إليه من كل مكان ، وسبقت إليه همدان بالناس، وكانوا أخواله وتفرق الناس عن ابن ناجية، وأراد قوم من بني تميم أن يقاتلوا عنه ، فلم يطيقوا ذلك ، فأمسكوا ، وقال ابن الأشعث : كفوا عنه ولا تقتلوه واتوني به سليماً ، فدعا الناس بالسلاليم ، فوضعت على القصر ، وصعدوا فأخذ فأتي به ابن الأشعث ، فقال له : استبقني فإني أفضل فرسانك وأعظمهم غناءً عنك ، فأمر به إلى الحبس ثم دعا به بعد ذلك فبايعه : فقال الأقيشر الأسدي :

ابني تميم ما لمنبر ملككم ... لا يستقر فعوده يتمرمر
يبكي إذا مطر علا أعواده ... شم الكرام وقال ما قد ينكر
إن المنابر أنكرت أشباهكم ... فادعوا خزيمة يستقر المنبر
قوم رأيت الله ينصر دينهم ... عند اللقاء ودينكم لا ينصر
خلعوا أمير المؤمنين وبايعوا ... أحواك كندة بيعةً لا تظفر
بايعتم مطراً وكانت هفوةً ... خلف لعمرك من أمية أعور[1]

قالوا : ودخل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث القصر ، وجاءه الناس من كل أوب، وأتاه أهل البصرة، وتقوضت إليه المسالح ، وجاءه

---

١ ـ ديوان الأقيشر الأسدي ـ ط . بيروت ١٩٩١ ص ٣٩ ، وورد في الديوان أربعة أبيات فقط مع فوارق .

قوم من الثغور ، ولحق به عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب في جماعة من فرسان أهل البصرة ووجوههم ممن لم يأمن الحجاج ، ولم يثق بأمانه ، وتلاحق به أصحابه ، وقام الحجاج بالبصرة خطيباً فقال : إنكم خالفتم وعصيتم وأحللتم بأنفسكم ، فعفوت عنكم ، وقد قدرت ، وأنا أقسم لكم بالله لئن عدتم لمثل فعلكم لأقتلن مقاتلتكم ولأحربنكم بأموالكم .

وأقام فيما يقال بالبصرة نحواً من شهر ، ثم خرج منها إلى الكوفة ومعه زياد بن عمرو العتكي ، فرفع إلى الحجاج أن عند زياد ثقل عبدالله بن يزيد بن المغفل ونجائبه وإبله ، فسأله الحجاج عن ذلك فأقر به ، وقال : أصلح الله الأمير كان رجلاً من قومي ، فوالله ما شعرت بشيء حتى رأيته في داري وثقله ، فاستحييت منه ، وخرج هارباً ، وكانت مليكة بنت يزيد بن المغفل أخته امرأة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، قال : أفتؤوي ثقله ، وقد عرفت عداوته لي وللمسلمين ، فأين ثقله الآن ؟ قال : ألحقته به ، إلا ما لا بال به ، فشده في الحديد ، وخرج به معه ، فبعث زياد ابنه الحواري بن زياد إلى عبد الملك فأعلمه علمه ، فكتب إلى الحجاج : «أما بعد فإنه بلغني أنك حبست زياد بن عمرو العتكي ، وليس مثل زياد حبس ، ولا ظن به سوء ، فخل سبيله حين يأتيك كتابي ، فإنه من أهل السمع والطاعة والمناصحة قديماً ، والسلام» .

فخلى سبيله وهو بدير الجماجم .

خبر دير الجماجم

قالوا : سار الحجاج من البصرة في البر فمر بين القادسية والعذيب ، فبعث ابن الاشعث إليه عبد الرحمن بن العباس في خيل أهل الكوفة والبصرة . وكان ابن الأشعث جمع بالبصرة سلاحاً كثيراً وتجافيف ، فسار ابن العباس إليه في خلق من المجففة فمنعوه من نزول القادسية ، وبلغه كثرة من مع ابن الأشعث واجتماعهم على قتاله فارتفع عنهم ، وسايروه حتى نزل دير قرة[1] . وكان قد عزم على الارتفاع نحو الجزيرة ليقرب من عبد الملك ولا يكون بينه وبينه أحد يتخوفه ، فلما صار إلى دير قرة قال : والله ما بهذا المنزل بين أمير المؤمنين وأهل الشام بُعْد ، ولا أحد يحول بيني وبينهم ولا أتخوف أن يأتيني من ورائي أحد ، وإني لفي رساتيق من الفلوجة وبالقرب من عين التمر ، وأرجو أن تحملنا هذه الرساتيق ، ولنزولي معهم في بلادهم أشد عليهم من نزولي نائياً عنهم .

---

١ ـ قريب من دير الجماجم ، على طرف من البر ، ودير الجماجم مما يلي الكوفة . معجم البلدان .

فنزل بدير قرة ، ونزل عبد الرحمن بن العباس بدير الجماجم ، وخرج ابن الأشعث حتى صار إلى دير الجماجم فعسكر فقال الحجاج : نزلنا بدير قرة ونزل عدو الله بدير الجماجم أفما أتفاءل بهذا ، وخندق الحجاج على نفسه ، وخندق ابن الأشعث أيضاً على نفسه .

واجتمع قراء أهل الكوفة إلى جبلة بن زِحْر الجعفي فجعلوه رئيساً عليهم ، وكان الحجاج كتب إلى عبد الملك حين قدم من البصرة فخبره بكثرة أهل العراق وجدهم واجتماعهم على حربه ، فسرح إليه عبد الله بن عبد الملك ابنه في عشرين ألفاً من أهل الشام ، ومحمد بن مروان أخاه في عشرين ألفاً من أهل الجزيرة ، فوافوا الحجاج بدير قرة بعد تضييق أهل العراق عليه ، فلما قدموا عليه قوي أمره وروخي من خناقه .

ولم يكن بين الفريقين قتال قبل قدوم عبد الله ومحمد ، إلا أن أهل العراق كانوا يأتون عسكر الحجاج فيكون بينهم تناوش على خندقه عند أبوابه في غير تزاحف .

وكان مَنْ قِبَل عبد الملك من وجوه الناس من قريش وغيرها قالوا له : إذا كان رضا أهل العراق بعزل الحجاج فاعزله عنهم تخلص لك طاعتهم وتحقن دماءهم ودماء أهل الشام . فقال لابنه : إذا اجتمعت ومحمداً عمك فاعرض على أهل العراق أن تعزل الحجاج عنهم ، وتجري عليهم أعطياتهم كما تجري على أهل الشام ، وتجري على ذريتهم كما تجري على ذرية أهل الشام ، وأن ينزل ابن الأشعث أي بلد شاء ويكون عليه والياً ما دام حياً ، فإن قبلوا ذلك كان محمد بن مروان الأمير عليهم ، وإن أبوا فالحجاج أمير عليك وعلى محمد والناس .

وكان عبد الملك كتب إلى محمد بن مروان في المسير إلى العراق من الجزيرة لأنه كان عامله عليها ، وكتب إليه بمثل ما أوصى به ابنه عبد الله ، وقوم يزعمون أن محمداً كان حاضراً فأوصاه مشافهة ، والأول أثبت .

قالوا : فلما قدم عبد الله ومحمد على الحجاج ، وقد أوصيا بما أوصيا به ، اشتد ذلك على الحجاج فكتب إلى عبد الملك : والله لئن أعطيت أهل العراق ما يحبون من نزعي ، وعرفوا أنك تحب مداراتهم لم يلبثوا إلا قليلاً حتى يخالفوك ويسيروا إليك ، ألم تسمع بوثوب أهل الكوفة على عثمان ، فلما سألهم عما يريدون قالوا: نزع سعيد بن العاص ، فلما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه ، وإن بعض الشدة أبلغ في السياسة وأحزم في الرأي فإن الحديد بالحديد يفلح ، خار الله لك فيما ارتأيت .

وأبى عبد الله إلا عرض هذه الخلال على أهل العراق طلباً للعافية ، فخرج عبد الله ومحمد حتى وقفا على عسكر أهل العراق فقال لهم : أنا عبد الله ابن أمير المؤمنين ، وهذا عمي محمد بن مروان ، وإن أمير المؤمنين يعطيكم كذا وكذا ، وأدى رسالة أبيه ، فقالوا : ترجع العشية لنعرفك رأينا .

ثم اجتمعوا إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، فقال لهم : إنكم قد أعطيتم ما سمعتم فاقبلوا ما عرض عليكم وأنتم أعزاء أقوياء ، إن كانوا قد نالوا منكم يوم الزاوية قبلا فقد نلتم منهم يوم تستر مثله ، وهذه فرصة لكم فانتهزوها .

فوثب الناس من كل جانب فقالوا : إن الله قد أهلكهم فأصبحوا في الأزل والضنك والمجاعة والقلة والذلة ، ونحن ذوي العدد الكثير والمادة القريبة ، لا والله لا نقبل ، وأعادوا حلفاً ثانياً .

وكان إجماعهم على خلع عبد الملك بدير الجماجم أكثر من اجتماعهم على خلعه قبل ذلك ، فرجع عبد الله ومحمد إلى الحجاج فقالا : شأنك بعسكرك وجندك فاعمل برأيك فإنا قد أمرنا أن نسمع ونطيع لك ، فكانا يسلمان عليه بالإمرة ويسلم عليهما بالإمرة أيضاً ، وخلياه والحرب ، فعبأ جنده ، وعبأ ابن الأشعث جنده فجعل على خيله عبد الرحمن بن العباس الهاشمي ، وعلى القراء جبلة بن زحر الجعفي ، وكان في القراء عامر الشعبي وسعيد بن جبير مولى بني أسد وقوم يقولون أنه مولى سعيد بن العاص وذلك باطل .

وكان الحجاج وجهه على نفقات جيش الطواويس ، فصار مع ابن الأشعث بعد ، وأبو البَخْتَري الطائي واسمه سعيد بن فيروز مولى بني نبهان .

وقال الهيثم بن عدي : اسمه سعيد بن جبير ، وقال علي بن المديني : اسمه سعيد بن عمران . وعبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري ، ومسلم بن يسار مولى طلحة بن عبيد الله من بني تيم من قريش ، وعبد الله بن غالب الجهضمي من الأزد ، وعقبة بن وساج البرساني من الأزد ، وأبو صالح ماهان الحنفي ، ومحمد بن سعد بن أبي وقاص ، فجعلوا يتزاحفون فمرة ينتصفون ومرة يكون لهؤلاء ومرة لهؤلاء ، وكان أهل العراق في خصب وأهل الشام في غلاء من السعر وضر ، وكان ابن الأشعث قد بعث عبد الله بن

إسحاق بن الأشعث ، لحشر الناس من الكوفة ، فأخرج جعفر بن عمرو بن حريث ، وبعض آل أبي معيط إلى عسكر ابن الأشعث ، وأمر كميل بن زياد أن يحرض الناس فأخرج وهو شيخ كبير فحمل حتى أقعد على المنبر دون عبد الله بن إسحاق بدرجتين فخطب خطبة طويلة يقول فيها : إنكم قد غلبتم على فيئكم وبلادكم ، ولقد فتح الله عليكم الموصل وأداني الجزيرة وجميع آذربيجان وأرمينية ثم انتزعها منكم معاوية ، فجعل عليكم غزوها وجعل لأهل الشام خراجها ، إنه والله لا ينفي عنكم الظلم والعدوان إلا التناصح والتأسي ، واجتماع الكلمة ، وصلاح ذات البين ، والصبر على الطعان بالرماح والضرب بالسيوف ، إنكم يا أهل العراق منيتم بشر أهل بيتين في العرب : بآل الحكم بن أبي العاص بن أمية وآل أبي عقيل ، فتباذلوا وتناصحوا وتواسوا بالأنفس والأبدان .

قالوا : ولم تكن كتيبة أشد على أصحاب الحجاج من كتيبة القراء ، لأنهم كانوا يحملون فلا يكذبون ، ويحمل عليهم فلا يبرحون .

ثم إن الفريقين تَعَبُّوا فعبأ الحجاج لكتيبة القراء ثلاث كتائب وبعث عليها الجراح بن عبد الله الحكمي ، فحمل أهل الشام عليهم ثلاث حملات ، ثم قال ابن أبي ليلى : إن الفرار قبيح ، وليس هو بأحد من الناس أقبح به منكم فإني سمعت علياً رفع الله درجته في الصالحين وأثابه أحسن ثواب الشهداء الصديقين يقول : من أنكر منكراً بقلبه فقد برىء منه ، ومن أنكره بلسانه أجر ، ومن أنكره بالسيف فقد أصاب سبيل الهدى ، ونور قلبه باليقين ، قاتلوا هؤلاء المحلين المبتدعين الذين جهلوا الحق فليس يعرفونه ، وعملوا بالعدوان فليس ينكرونه .

وقال أبو البختري الطائي : قاتلوهم فوالله لئن ظهروا عليكم ليفسدن دينكم وليغلبنكم على دنياكم .

وقال الشعبي : قاتلوهم فوالله ما أعلم أحداً على بسيط الأرض أَجْوَرُ منهم في حكم ، ولا إغلاء في ظلم لا تركاً ولا ديلماً .

وقال سعيد بن جبير : قاتلوهم بنيَّةٍ ويقين ولا تتأثموا في قتالهم ، فَعَليَّ كل إثم يدخل عليكم في ذلك ، قاتلوهم على جورهم في الحكم وتجبرهم في الدين واستذلالهم الضعفاء ، وإماتتهم الصلاة .

قال : ثم تهيأوا للحملة ، فقال جبلة بن زحر : احملوا حملة صادقة . فحملوا فضربوا الكتائب الثلاث حتى أزالوهم ، فوجد جبلة بن زحر صريعاً لا يدرى من قتله فهدهم ذلك ، فقال أبو البختري : إنما كان ابن زحر رجلاً منكم فاعتصموا بالصبر وارجعوا إلى الله في الأمر . ويقال إن الحارث بن جَعْوَنَة العامري طعن جبلة فقتله .

وحمل الحجاج رأس جبلة على رمحين وقال : ما كانت فتنة قط فخبت حتى يقتل فيها رجل من أهل اليمن ، وقتلت جماعة من القراء .

وقال ابن الكلبي عن أبي مخنف وعوانة : كان قتالهم بالدير مائة يوم ، ثم اقتتلوا فهزموا ، وضعف أمر ابن الأشعث ، وقتل أبو عيسى عبد الرحمن بن أبي ليلى ، ويقال إنه قتل يوم دجيل الأهواز ، وأبو البختري وابن شداد بن الهاد ، ويقال يوم دجيل أيضاً ، ويقال إن أبا البختري قتل يوم دجيل أيضاً .

قالوا : وكان بسطام بن مصقلة بن ميسرة الشيباني بالري فلما بلغه خلع الناس وابن الأشعث ، قام ابن مصقلة خطيباً فقال : إن عبد

الرحمن بن محمد بن الأشعث قد خلع الحجاج وعبد الملك وأخرج الحجاج من العراق فانصرفوا إلى نسائكم وأولادكم ، فتصدع الناس وتركوا قتيبة ، ووثبت ربيعة إلى بسطام ، وصار أهل اليمن إلى جعفر بن عبد الرحمن بن مخنف فبقي قتيبة ليس معه أحد ، وخاف أن يحارب فلما انصرفوا عنه وتركوه ولم يقاتلوه سر بذلك .

وأقبل بسطام مسرعاً حتى أتى عبد الرحمن بن محمد بالجماجم ، فيقال إن قتيبة استخلف على عمله وسار يستقري الجبال ويسكن الناس والدهاقين حتى صار إلى عكبرا ، وكتب إلى الحجاج يعرفه خبره فكتب إليه ؛ قد وفيت وسمعت وأطعت ونصحت فأقبل إلي ، فصار إليه ، ثم ردَّه حين كثرت عنده الأمداد .

ويقال : إنه لم يبرح من الري ، وكان بسطام بدير الجماجم على ربيعة ، فاقتتلوا فحمل حتى دخل عسكر الحجاج فسبى نحواً من ثلاثين امرأة من بين أمة وسرية ، فلما دنا من عسكر ابن الأشعث خلاهن ، فقال الحجاج : أولى له ، أما والله لو لم يفعلها لسبيت غداً نساءهم إذا ظهرت عليهم .

وكان أبو البختري وسعيد بن جبير يقولان : ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤتة منها وسنجري الشاكرين﴾[1] ثم يحملان .

---

١ ـ سورة آل عمران ـ الآية : ١٤٥ .

حدثني يوسف بن موسى ، ثنا جرير بن عبد الحميد عن معين عن البزيغ بن جبلة وخالد الضبي قال : سمعت الحجاج خطب على المنبر فقال : أخليفة أحدكم في أهله أكرم عليه أم رسوله في حاجته ؟ فقال : قلت : عليَّ لله ألا أصلي خلفك أبداً ، وإن رأيت قوماً يجاهدونك أن أجاهدك . فخرج في الجماجم فقتل .

وقال أبو المخارق الراسبي : قاتلناهم مائة يوم أعدها ، نزلنا دير الجماجم مع ابن الأشعث غداة يوم الثلاثاء في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين ، وهزمنا يوم الأربعاء لأربع عشرة مضت من جمادى الآخرة عند ارتفاع الضحى ، وما كنا قط عليهم أجرأ منا في ذلك اليوم ، خرجوا إلينا فاقتتلنا قتالاً شديداً ونحن للهزيمة آمنون ، وعليهم ظاهرون ، ثم خرج علينا سفيان بن الأبرد الكلبي من قبل ميمنة أصحابه ، فانحط على ميسرتنا وفيها الأبرد بن قرة التميمي فانكشف ، فظن الناس أنه كوتب واستميل لأن الفرار لم يكن من عادته فتقوضت الصفوف لفعله ، وركب الناس رؤوسهم به وصعد عبد الرحمن بن محمد منبره وجعل ينادي : عباد الله ، أنا عبد الرحمن بن محمد . وجاءه قوم فأحاطوا به فيهم بسطام بن مصقلة وهو فارس الناس ، وأتاه عبد الله بن يزيد بن المغفل أخو امرأته فقال له : انزل فإن الناس قد ذهبوا ، وإن أهل الشام قد كثروا ، وأنا أخاف إن لم تنزل أن تؤسر ، ولعلك إن انصرفت عنهم أن تجمع لهم جمعاً يهلكهم الله به .

وقال الحجاج حين انهرموا : لا تتبعوهم ، فنزل ابن الأشعث فخلى أهل العراق والعسكر ومضى مع بني جعدة حتى جاؤوا به قرية بني جعدة بالفلوجة ، فعبروا وانتهى إليهم بسطام بن مصقلة فقال : أفيكم ابن محمد ؟

أفيكم الأمير؟ فلم يكلموه ، فأتى أهله فأوصاهم ثم خرج من الكوفة فأتى المدائن ثم أتى مأمنه .

واستقبل مطر بن ناجية الناس فحمل على أصحاب الحجاج في خيل لبني حنظلة فخرقهم حتى جازهم ، ثم حمل عليهم راجعاً فقال الحجاج : دعوهم لا تتبعوهم .

ثم إن الناس مضوا منهزمين ، وجال أصحاب الخيل في متونها ، واسودت الأرض من الرجالة ، وتنحى عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة في ناس، ناس كثير فقاتلوا معه قتالاً شديداً بعدما ذهب أكثر النهار، وشغل الحجاج وأهل الشام عن الناس حين انهزموا وكثرت عليهم الأسراء فقتل بعضهم وعفا عن بعض كراهة أن يفنيهم ، وقال من لثغورهم إذا ذهبوا ؟

وأمر الحجاج فنودي : إن من رجع فهو آمن ، ومضى حتى نزل دير النساء[1] ، وكان على الكوفة من قبل عبد الرحمن بن محمد : عبد الله بن اسحاق بن الأشعث فهرب حتى لحق بعبد الرحمن بن محمد ، ومضى عبد الرحمن إلى المدائن ، ثم أتى مسكن الأهواز وهي بقرب تستر ، واجتمعت إليه فلوله من أهل الكوفة وغيرهم وتلاوموا في الفرار .

وقال الهيثم بن عدي وغيره : أتى ابن الأشعث بعد الجماجم الكوفة فحمل ولده ونساءه وماله ، ثم أتى المدائن فزحف إليه الحجاج فمضى نحو البصرة فقاتله الحجاج بفج دجيل .

---

١ ـ لعل المعني هنا هو دير العذارى الذي ذكره الشابشتي في كتابه الديارات ـ ط . بغداد ١٩٦٦ ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

مقتل بسطام

وقد كان بسطام بن مصقلة لحق به ، ثم إن بسطاماً حلق رأسه وقال : حتى متى تكون الحياة ، وقاتل وخلق معه تبايعوا على الموت حتى قتلوا جميعاً ، فَهَدَّ ذلك ابن الأشعث .

قالوا : وفصل ابن الأشعث من مسكن فأمر بقنطرة وشاذروان هناك فهدما فلم تصلح القنطرة إلى هذه الغاية .

قالوا : ورجع محمد بن مروان إلى الجزيرة وعبد الله بن عبد الملك إلى الشام ، وخلوا الحجاج والعراق ، فجاء حتى نزل الكوفة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أهل العراق ، إن الشيطان قد استبطنكم ، فخالط اللحم منكم والعصب والأعضاء والأطراف ، وجرى مجرى الدم ومضى إلى الأمخاخ والأصماخ فحشاها شقاقاً ونفاقاً وسوء رعة ، ثم عشش فيها وباض وفرخ ودب ودرج ، اتخذتموه دليلاً تتابعونه وقائداً تطاوعونه فلن ينفعكم معه تجربة ولا تعظكم وقعة ولا يحجزكم إسلام ولا يكفكم بيان ، ألستم أصحابي بالأهواز حين رمتم النكر وسعيتم بالغدر واجتمعتم على الكفر ، فأقسم بالله إني لأرميكم بطرفي وإنكم لتسللون متفرقين كل امرىء منكم ناكس رأسه على عنقه حذار السيف رعباً وجبناً وذلاً مكنه الله في قلوبكم ، ويوم الزاوية وما يوم الزاوية بما كان فشلكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليكم بعد أن غركم فوليتم أستاهكم السيوف هاربين لا يسأل الشيخ عن بنيه ، ولا يلوي امرؤ على أخيه حتى عضكم السلاح وأقعصتكم الرماح ، ويوم دير الجماجم وما دير الجماجم ، كانت الملاحم والمعارك العظام بضرب يزيل الهام

عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله ، فما الذي اذكر منكم يا أهل العراق وما الذي أتوقع وما الذي استبقيكم له ، إن بعثتكم إلى الثغور جبنتم ، وإن أمنتم رجعتم ، وإن خفتم نافقتم ، لا تجزون بحسنة ولا تشكرون نعمة ، هل استنبحكم نابح واستغواكم غاو واستخفكم ناكث واستفزكم عاص إلا بايعتموه وتابعتموه وكيفتموه وأجلبتم حوله ؟! وهل شغب شاغب ، ونعب ناعب ، وظهر كاذب إلا كنتم أشياعه وأنصاره ، يا أهل العراق لم تنفعكم التحارب وتُحْكِمْكُم المواعظ عن سوء ما أتيتم واجتنيتم ، ولا انتفعتم بالعبر في الوقائع ، ولا وزعتكم موارد الأمور ومصادرها ، ثم يا أهل الشام أنا لكم كالظليم المحافظ على فراخه ينفي عنهن القذر ، ويباعد المدر ، ويكنفهن عند المطر ، ويحرسهن من الذباب . أنتم العدة والجنة إن حارب محارب وجانب مجانب ، وما أنتم إلا كما قال نابغة بني جعدة :

تحين المنايا بأيديكم ومن يك ذا أمل يكذب[1]

قالوا : ولم يدخل في الأمان إلا نحو من ألف ، فأمر الحجاج مصقلة بن كرب بن رقبة العبدي بتوبيخهم وتصغير أنفسهم إليهم فجلس على كرسي يبايعهم ويوبخهم ويشتمهم ، حتى جاء زهير بن مسلم الأزدي ، وكان قد ولاه قبل ذلك ميسان ، فقال الحجاج : يا هؤلاء ألا أعجبكم هذا الذي عهدي في يده ولم يجف خاتمه ، ثم خرج علي .

وركب الناس وجوههم إلى المدائن حتى اجتمعوا إلى ابن الأشعث بمسكن وهو من الأهواز .

١ - في ديوان النابغة ص ٣٠ :

وحانت منايا بأيديكم ومن يك ذا أجل يجلب

وقال الهيثم : صار الحجاج إلى البصرة فوجه جيشاً لمحاربة ابن الأشعث وضمه إلى ابنه محمد بن الحجاج فواقعه بمسكن فقتل بسطام بن مصقلة وجماعة بايعوه على الموت ثم بعد مسكن بالسوس ساعة من نهار ، ثم إن ابن الأشعث انهزم وأصحابه حتى صاروا إلى سابور من فارس،فاجتمعت إليه مع أصحابه الأكراد فقاتلهم عمارةُ قتالاً شديداً ثم إنَّ ابنَ الأشعث انهزم ومن معه.وقاتلت الأكراد بعد مضي ابن الأشعث عمارة قتالاً شديداً على العقبة .

وأتى ابن الأشعث كرمان فتلقاه عمرو بن لقيط العبدي ، وكان خلفه عليها ، فهيأ له نزلاً ، وقال رجل من عبد القيس لابن الأشعث : والله لقد بلغنا أنك كنت جباناً ؟ فقال : والله ما جبنت ، ولقد دلفت بالرجال إلى الرجال ولففت الخيل بالخيل ، وقاتلت فارساً وراجلاً وما تركت العرصة للقوم حتى لم أجد مقاتلاً ، ولكن زاولت ملكاً مؤجلاً له مدة .

وأمد الحجاج عمارة بن تميم بخيل كثيفة ، وأمر محمداً ابنه بالانصراف إليه ، وولى عمارة بن تميم سجستان ، ثم إن ابن الأشعث فوز بمن معه في مفازة كرمان ، وأهل الشام يتبعونه ، فدخل بعض الشاميين فَضَلَّ في المفازة ، فإذا فيه شعر كتبه بعض أصحاب ابن الأشعث في صحيفة ، ويقال في حائط :

أيا لهفي ويا حزني جميعاً ويا حرَّ الفؤاد لما لقينا
تركنا الدين والدنيا جميعاً وأسلمنا الحلائل والبنينا
ألا كنا أناساً أهل دين فنصبر للبلاء إذا ابتلينا

ألا كنا أناساً أهل دنيا فنمنعها وإن لم نرج دينا
تركنا دورنا لطغام عك وأنباط القرى والأشعرينا

ثم إن ابن الأشعث سار إلى مدينة زرنج بسجستان وفيها رجل من بني تميم كان خلفه عليها يعرف بالبعار ، فلما علم أن ابن الأشعث منهزم ، أغلق باب المدينة دونه ومنعه من دخولها التماساً للتقرب بذلك إلى الحجاج وتلافي أمره عنده ، فأقام عنده ، فأقام ابن الأشعث عليها أياماً فلما لم يصل إليها أتى بست فاستقبله عياض بن عمرو السدوسي صاحبه بها وقال له : انزل ، فجاء حتى نزل ، فلما تفرق أصحابه في المنازل وأغفلوه وثب عليه فأوثقه ليأمن بها عند الحجاج ويتخذ لديه مكانة .

وعلم رتبيل بمقدم ابن الأشعث فاستقبله في جنوده ، فلما أُوثق ابن الأشعث ذهب رجال من أصحابه يركضون حتى استقبلوا رتبيل فأخبروه بما ركب عياض صاحبه منه ، فجاء رتبيل حتى أحاط ببسْت ، ثم نزل وبعث إلى عياض فقال : والله لئن أقذيتَ عينه أو ضَررته أدنىٰ مضرة أو رزأته حبلاً من شعر ، لا أبرحُ حتى أقتلك وجميع من معك ، ثم أسبي ذراريكم .

فأرسل إليه : أعطنا أماناً على أنفسنا وأموالنا ، ونحن ندفعه إليك سالماً موفوراً ، فأمنهم ففتحوا الباب لابن الأشعث وخلوا سبيله .

واستأذن ابن الأشعث رتبيل في قتل عياض فقال : قد أُمنته ، قال : فأذن لي في الإستخفاف به فأُذن له في ذلك ، فأمر أَن يوجأ عنقه ثم تركه ، ويقال إن رتبيل وجه من يخلص ابن الأشعث وقدم إليه بعياض ، ولم يتولَّ أمره .

ولما صار ابن الأشعث إلى رتبيل أعظمه وأكرمه وقام له الأتراك ولمن معه ، ووفى بما كان بينه وبينه قبل شخوصه عن سجستان .

وقدم فلال ابن الأشعث عليه من كل وجه ، فاجتمع إليه منهم عشرون ألفاً فأمروا عليهم عبد الرحمن بن العباس الهاشمي ، وحاولوا فتح زرنج ، وكتبوا إلى ابن الأشعث فأتاهم فلما صار بزرنج وفتحها أخذ البعار فضربه وحبسه .

وقال أصحاب ابن الأشعث حين قرب منهم عمارة بن تميم بن فروة اللخمي : أخرج بنا من سجستان ودعها لأصحاب الحجاج وائت خراسان ، فقال : إن بخراسان يزيد بن المهلب وهو رجل شاب شجاع ولن يترك لكم سلطانه لو دخلتموها ، ولن يدع أهل الشام أيضاً اتِّبَاعَكُم فأكره أن يجتمع عليكم أهل الشام وجند خراسان .

فقالوا : إنما أهل خراسان منا ، نرجو إن دخلتها أن يكون من يتبعك منهم أكثر ممن يقاتلك . وهي أرض طويلة عريضة نَتَنَحَّىٰ منها إلى حيث شئنا إن أردنا التنحي ، ونقيم بها إلى أن يهلك الله عبد الملك والحجاج ونرىٰ من رأينا .

فقال : سيروا على اسم الله ، فسار ابن الأشعث بأصحابه حتى قرب من هراة فلم يشعر حتى فارقه عبيدالله بن عبد الرحمن بن سمرة القرشي في ألفين ، وأخذ طريقاً غير طريقهم ، وجعل يفسد الناس على ابن الأشعث .

وقال بعضهم : أتى البصرة بعد ذلك فغلب عليها ثم هرب .

وقال ابن الأشعث لأصحابه إني قد شهدت بكم هذه المواطن فليس منها مشهد إلا وأنا أصبر لكم فيه نفسي حتى لا يبقىٰ معي منكم أحد ، فلما

رأيت أنكم لا تقاتلون ولا تصبرون أتيت ملجأ ومأمناً ، فكنت به فجاءتني كتبكم بأن أقبل إلينا فقد اجتمعنا بزرنج ، وأمرنا واحد ، وكلمتنا مجتمعة ، فأبيتم قتال عدوكم ورأيتم أن نمضي إلى خراسان ، وزعمتم أنكم مجتمعون لي وأنكم لن تتفرقوا عني ، وهذا عبيدالله بن عبد الرحمن بن سمرة قد صنع ما رأيتم فحسبي منكم فاصنعوا ما بدا لكم فإني منصرف إلى صاحبي الذي أتيتكم من عنده ، فمن أحب منكم أن يتبعني فليفعل ، ومن كره ذلك فليذهب إلى حيث أحبَّ في خيار من الله .

فتفرقت منهم طائفة ، وخرجت معه منهم طائفة حتى أتوا معه رتبيل ، وبقي عظم العسكر فوثبوا إلى عبد الرحمن بن العباس الهاشمي فبايعوه . وانتهوا إلى هراة فلقوا بها الرقاد الأزدي فقتلوه .

وسار إليهم يزيد بن المهلب فلقي عبد الرحمن بن العباس ومعه خلق كثير فقاتلهم بهراة فهزمهم يزيد وفلهم وقتل خلقاً منهم فما أحصوا إلا بالقصب ، وأخذ رؤوس من معهم أسرى فكان فيهم محمد بن سعد بن أبي وقاص وعمر بن موسى بن عبدالله بن معمر التيمي ، وكان على شرطته بعد الحجاج ، وعتبة بن عبيدالله بن عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس ، وعاصم بن قيس التميمي .

وأسر يومئذ الهلقام بن نعيم بن القعقاع بن معبد بن زرارة بن عُدْس ، وعياض بن الأسود بن عوف الزهري ، ويقال إنه قتل بالزاوية . وعبد الرحمن بن طلحة الطلحات الخزاعي ، ويقال يزيد بن طلحة الطلحات . وفيروز حصين المنسوب إلى حصين العنبري ، وكان مولاه فحبس ابن طلحة الطلحات عنده وأمنه ، وبعث بالباقين إلى الحجاج ،

ويقال إنه صفح عن جميع الأسراء اليمانية وبعث بمن سواهم فقال الحجاج لمحمد بن سعد حين رآه ، وكان أحول أسود : هذا ظل الشيطان ، وثَّابٌ في كل فتنة ، ألست صاحب يوم الحرة تقتل أصحابك كما تقتل عدوك ، قال : أو ليس ذاك كان أحب إليك ، قال : أما والله لا تقاتل بعدها في فتنة أبداً ثم ليصلينَّك الله ناراً كلما خبت زيدت سعيرا . فقال : إن الله قد أعدها لك ولقومك أكباد الحمر ، وأما أنا فقد والله حشدت عليك فيمن حشد وجهدت مع من جهد ، وايم الله ما أعطيت بيدي طائعاً ، ولكني ضربت بسيفي حتى انقطع . فأمر به الحجاج فقتل .

ويقال إنه قال : يا ظل الشيطان أنت أعظم الناس كبراً وتيهاً ، تأبى بيعة يزيد بن معاوية تشبهاً بابن عمر والحسين ثم تتابع حواك كندة ؟ فقال له : ملكت فأسجح ، فضرب عنقه .

ثم دعا بعمر بن موسىٰ بن عبدالله فقال : أنت صاحب شرطة عبد الرحمن بن عباس ؟ فقال : أصلح الله الأمير ، كانت فتنة شملت البر والفاجر ، فدخلنا فيها وقد أمكنك الله منا فإن عفوت فبحلمك وفضلك ، وإن عاقبتَ عاقبتَ ظلمة مذنبين .

فقال : أما قولك : شملت البر والفاجر فقد كذبت فيه ، ما شملت إلا الفجار ولقد عوفي منها الأبرار ، أما اعترافك بذنبك فعسىٰ أن ينفعك ، فعزل ناحية ورجا له الناس السلامة .

وقال للهلقام : ما رجوت من اتباع ابن الأشعث ؟ أظننت أنه يكون خليفة ؟ قال : نعم قد رجوت أن يكون خليفة وطمعت في ذلك ، وأن ينزلني منه بمنزلتك من عبد الملك ، فغضب وقال : اضربوا عنقه .

ونظر إلى عمر بن موسىٰ وقد نحي ، فقال : اضربوا عنقه فقتل ، ويقال إنه قال لعمر بن موسى :

أتقوم بالعمود على رأس ابن الأشعث الحائك ، وتشرب معه الشراب ، يا فرزدق أنشده ما قلت فيه فانشده .

أخضبت أيرك للزناء ولم تكن يوم الهياج لتخضب الأبطالا[1]

قال : فوالله لقد أكرمته عن عقائل نسائكم .

وقتل عتبة بن عبيدالله بن عبد الرحمن بن سمرة وجميع الأسراء .

وكان يزيد بن المهلب أمر حين انهزم عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ومن معه أن لا يتبعوا ، فهرب عبد الرحمن إلى السند فمات بها .

وكان ممن خرج مع ابن الأشعث : ببة ، وهو عبدالله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، فلحق بعُمان وهو شيخ كبير فمات بها .

وقال المدائني في إسناده : لما خرج ابن الأشعث من هراة ، أشار عليه مودود بن بشر العنبري ألا يأتي رتبيل وأن يتحصن ويقاتل حتى يظفر أو يؤمن أو يموت كريماً فأبى ، وأتى رتبيل وأقام مودود متحصناً في مدينة زرنج ، فأتاه عمارة بن تميم اللخمي في أهل الشام فحصره حيناً ثم أمنه وأصحابه فوفىٰ لهم الحجاج وقال لمودود : أي الأرض أحب إليك ؟ قال : البصرة . قال : فأيها أبغض إليك قال : عُمان . فسيره إلى عمان . وفي مودود يقول بعض همدان ممن كان مع عمارة :

١ ـ ليس في ديوان الفرزدق المطبوع .

لله عيناً من رأى من فوارس أكر على المكروه منهم وأصبرا
فما برحوا حتى أعضوا سيوفهم بذي الهام منا والحديد المسمرا
فلو أنهم لاقوا قواماً مقارباً ولكن لقوا موجاً من البحر أخضرا

مقتل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث

قالوا : ولما صار عبد الرحمن إلى رتبيل منصرفه من خراسان وأقام عنده . كتب الحجاج إلى رتبيل : «أما بعد فإن الكذاب الشرود عدو الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس بن معدي كرب ، فأما معدي كرب فإنه عاهد مُهْرَة فغدر بهم فظفروا به فجدعوا أنفه وأذنيه ، وشقوا بطنه وملأوه حصىً ، وأما قيس فإنه عاهد مذحج ثم غدر بهم فقتلوه ، وأما الأشعث فإنه كفر بعد إيمانه وغدر بقومه فأسلمهم لينجو ، وأما محمد فغدر بأهل طبرستان وهذا رجل غدار فاجر مائق معرق له في الغدر والفجور ، فلا تثق به ولا تمنعه ولا تُؤْوِهِ» .

وتتابعت كتب الحجاج إلى رتبيل في ابن الأشعث بالوعيد والترغيب والترهيب ، حتى كان خوفه أكثر من رجائه ، وقال في بعض كتبه : «لئن لم تسلمه وتبعث به إلي أو تخرجه من بلادك إلى غير حرز لأبعثن إليك مائة ألف ومائة ألف من أهل الشام والجزيرة وأرمينية وأهل خراسان ، ولئن أسلمته أو أخرجته لأضعن عنك الأتاوة سبع سنين .

وكان عند رتبيل رجل من بني يربوع يقال له عبيد بن سبع بن أبي سبع ، فقال لرتبيل : أنا آخذ لك من الحجاج أماناً وكتاباً بوضع الخراج عن أرضك سبع سنين ، ولا تغزىٰ ، على أن تدفع عبد الرحمن بن محمد إليه .

فسفر بينه وبينه عمارة بن تميم ، ويقال إنه أتى الحجاج فتوثق منه لرتبيل .

وبعث رتبيل إلى الحجاج برأس ابن الأشعث ، فوفى له الحجاج بالصلح ، فيقال أن ابن الأشعث مات حتف أنفه ، فلما أرادوا دفنه احتز رتبيل رأسه وبعث به إلى الحجاج ، ويقال بل دس له شربة أضنته وقتلته ، فأخذ رأسه حين مات وبعث به إلى الحجاج فكانت امرأته مليكة - كما زعموا - تقول : مات ورأسه على فخذي ،فلما أرادوا دفنه أمر رتبيل فاحتز رأسه ، وكان قد أصابه السل .

وقال الهيثم بن عدي عن أشياخه : كان عبيد بن سبع مولى بني تميم تاجراً يدخل بلدان رتبيل وكان عاقلاً ، وهو كان الداخل بين ابن الأشعث ورتبيل في الصلح ، فبلغ ابن الأشعث عنه شيء فأراد قتله ، فصار عليه ، فلم يزل يحذر رتبيل الحجاج ووفاءه بما كان يتوعده به ، ويخوفه أهل الشام ، وقال : ابعثني أتوثق لك وعمارة ففعل ، واشترط له عمارة ألا تؤخذ الجزية منه عشر سنين ولا يغزى .

فكتب عمارة بذلك إلى الحجاج فأنفذه الحجاج وأجازه ، فلما هم رتبيل بالغدر بابن الأشعث قال له : فرق أصحابك فإن البلاد لا تحملهم ، ففعل ، ثم صنع طعاماً فَحَضَرَهُ وجعل يعظمه ، وأمر أساورته فكفروا له ، وأقبل على طعامه ، ثم أشار إلى أساورته بأن يأخذوه ومن معه في البيت من آل الأشعث .

وتسامع أصحاب ابن الأشعث بذلك فهربوا على وجوههم ، وأخذ من أهل بيته جماعة يقال ثمانية عشر ، ويقال سبعة وعشرين فبعث بهم إلى

عمارة فقتلهم جميعاً ، وبعث بابن الأشعث إلى الحجاج فرمى بنفسه من قصر أُنزله في طريقه فمات فأخذ رأسه .

وقال أبو الحسن علي بن محمد المدائني في إسناده : أتى عبيد بن سبع عمارة وهو ببست فقال : ما تجعلون لي ولرتبيل إن دفع إليكم ابن الأشعث ؟ فجعل له ثلاثمائة ألف درهم وجعل لرتبيل ألا يُؤخذ منه الخراج سبع سنين ولا يغزى .

وكتب إلى الحجاج أن عبيد بن سبع أحد بني يربوع ذكر كذا وسأل كذا . فكتب إليه : أَعطه ما سأل لنفسه ، وأعط رتبيل ما سأل له .

ثم قدم على رتبيل فقال له : ما كنت صانعاً فاصنعه فقد توثقت لك وإلا أتاك ما لا قبل لك به من جنود أهل الشام والمصرين والجزيرة وخراسان ، وَهَيَّبَهُ الحجاج ، وأخبره بغدر ابن الأشعث ، فأجابه إلى إسلام ابن الأشعث .

وجاء ابن الأشعث فدخل على رتبيل فلما جلس قام رتبيل فقال : قد جاشت نفسي . وترك ابن الأشعث في المجلس فقام إليه النعار ، وقد كان أُخرج من محبسه فضرب رأسه بعمود حديد كان معه فشجه وأثخنه ، فقال : ويلك أخذت لها جعلاً .

ثم أخذوا ابن الأشعث فأوثقوه وناساً من آل ابن الأشعث ، وقيل لأصحابه إنكم آمنون فاذهبوا حيث شئتم ، وبعث بابن الأشعث ومن معه من حرمه إلى عمارة بن تميم اللخمي لينفذهم إلى الحجاج ووكل بهم جماعة من جند رتبيل فسلموهم إلى عمارة بن تميم .

وصير عليهم عمارة رجلاً من بني تميم وسير معه رجلاً من بني ربيعة بن حنظلة كان أتى عنزاً فلقب أبا العنز ، فجعل مع ابن الأشعث في سلسلة واحدة . فلما صار بالرخج رمى ابن الأشعث نفسه من جبل ، ويقال من فوق سطح عال كان إلى الطريق وأبو العنز فوقه فتدهدى وأبو العنز يقول له : أنشدك الله والصحبة ، فلما وافيا الأرض مات أبو العنز ، ثم لم يلبث ابن الأشعث أن مات .

واحتز رأسه وحمل إلى الحجاج ، وقدم بالقاسم بن محمد وأهل بيته ومليكة بنت يزيد الأزدي امرأة عبد الرحمن وأمه على عمارة فحملهم ، فقال الحجاج : يا مليكة : أسلطاننا خير أم سلطان رتبيل ؟ فظَنَّت أنه عرض بها فقالت : ما كنت فحاشاً . فقال : إني لم أذهب إلى حيث ذهبت . فقالت : سلطانك خير لنا .

وقال الحجاج لأم عبد الرحمن : ويقال لأمرأته : أخذت مال الله فوضعته تحت ذيلك ، فقال عنبسة بن سعيد بن العاص : لقد أعففت المنطق ، قال : أفكنت تراني أقول الأُخرى ؟

ولما رأى الحجاج رأس ابن الأشعث قال : لقد كنت عالماً بتيهه وموقه وسخافة عقله ، ولكن الله أراد أن يهلك به جيلاً من خلقه كانت له فيهم نقم . وتمثل :

أبى حينه والموت إلا تهورا فلاقاه عبل الساعدين شتيم
كريه المحيا باسل ذو عرامة فروس لأعناق الكماة أزوم

فقال ناعصة بن يزيد القيني . ويقال إنه من غير القين : لا يبعد الله إلا من عصاك . قالوا : وبعث برأسه إلى عبد الملك ، فبعث به عبد الملك ، إلى عبد العزيز بمصر ، فقال الشاعر :

هيهات موقع جثة من رأسها رأس بمصر وجثة بالرُّخجِ
قتلوه قسراً ثم قالوا بايعوا وجرى البريد برأس قرم أبلج

وقدم بالقاسم بن محمد ومن معه من أهله على الحجاج فاستبقى القاسم ولم يقتله .

قال : ولم يقتل من آل ابن الأشعث أحداً يعرف غير عبد الرحمن وعبدالله بن اسحاق بن الأشعث . وكان عبد الرحمن بن محمد ولى عبدالله بن اسحاق الكوفة فلما هزم عبد الرحمن خرج وهو يريد عبد العزيز بمصر وكان ابن خالته ، فأخذ طريق السماوة فانتهى إلى ماء من مياه كلب . فنزله فوجد الأعراب منه ريح الطيب فقالوا: إن لهذا شأناً ، ولم يعلمهم من هو فأخذوه فأتوا به عبد الملك فضرب عنقه .

وكانت أم عبدالله بن إسحاق الشعثاء بنت زبّان بن الأصبغ الكلبي ، وأم عبد العزيز ليلي بنت زبان .

وقال هشام ابن الكلبي : خرج الحجاج في أيامه تلك ومعه حميد الأريقط وهو يقول :

مازال يبني خندقاً ويهدمه هيهات من مَصْعَدَهُ مُنْهَزَمُهْ
إن أخا الكظاظ[1] من لا يسأمه .

---

١ ـ الكظاظ : الشدة والتعب . وطول الملازمة والممارسة الشديدة في الحرب . القاموس .

فقال الحجاج : هذا أصدق من قول الفاسق أعشى همدان :
إن بني يوسف للزل انزلق ، وقد تَبينَّ مَنْ زَالَ وَتَبْ . ومَنْ دَحَضَ فَانْكَبّ .

ورفع صوته ففزع الأريقط فقال له : مالك ؟ قال : إن سلطان الله عزيز ، ورأيتك قد غضبت فأرعدت خصائلي واسترخت مفاصلي وأظلم بصري . فقال : صدقت . إن سلطان الله عزيز فعد إلى ما كنت فيه .

وقال أبو الحسن علي بن محمد المدائني : كان صلح رتبيل سنة ثلاث وثمانين والمدة سبع سنين ويقال تسع ، ويقال عشر سنين .

قالوا : وكان مع ابن الأشعث عبد الرحمن اليحصبي ، وكان أطول الناس صلاة ، فهرب إلى خراسان ودخل حائطاً ليصلي وبعث غلامه إلى السوق ليبتاع له ما يصلحه فجاء ناس فجلسوا إلى جنبه وظنوا أن معه مالاً فوثبوا عليه وهو قائم يصلي فقتلوه ثم نظروا فإذا ليس معه شيء .

وقال المدائني : كان عباد بن الحصين الحبطي مع ابن الأشعث وأشار عليه بأشياء بلغت الحجاج ، فهرب إلى سجستان وصار إلى ناحية كابل ، واعتزل في قرية هناك ، وكان صاحب القرية شاباً فكان يراسل أُمة له ، فسقىٰ عباداً يوماً شيئاً فقتله فوثب ابنه جهضم ، وبه كان يكنىٰ . على العلج فقتله فاجتمع أهل تلك القرية على بنيه ومن معه فقاتلوهم فقتلوا بعضهم ، فيقال إن جهضماً قتل يومئذ ، ويقال أن الحجاج ظفر به فقتله لخروجه مع ابن الأشعث .

وقال عوانة وغيره : بدأت فتنة ابن الأشعث في سنة اثنتين وثمانين وانقضت سنة ثلاث وثمانين ، ومات عبد الملك سنة ست وثمانين .

قالوا : وكتب عبد الملك إلى الحجاج : «أَنْ جَمِّرْ أهل العراق وتابع عليهم البعوث واستعن عليهم بالفقر فإنه جند الله الأكبر» . ففعل ذلك بهم سنتين . ثم إنه كتب إلى عبد الملك كتاباً يقول فيه : «إن الله إنما نصرنا بطاعته والوفاء ببيعة خليفته ، وإنما هلك أهل العراق . بمعصيتهم وخلافهم ونكثهم . وإن لهم في هذا الفيء حقاً ونصيباً ، وإنى أخاف إن حبسناه عليهم أن يُنصروا علينا ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر لهم بحقوقهم فليفعل . وإلا فلا يحرمن أمير المؤمنين الذرية الذين لا ذنوب لهم» .

فكتب إليه أن : «آمر للناس جميعاً من أهل المصرين مقاتلتهم وذريتهم بحقوقهم» ، فوضع للحجاج سريره في المسجد ، ثم دعا الناس بعد الجماجم بسنتين فأعطاهم عطاءين للسنة الأولى والثانية .

وعزل الحجاج عمارة بن تميم اللخمي وولى عبد الرحمن بن سليم الكلبي ثغر سجستان فظفر عبد الرحمن بعطية بن عمرو العنبري وخرشة ، وكانا متحصنين في القلعة وبعث بهما إلى الحجاج ، فقتلهما وصلبهما على بابي منزليهما .

قالوا : وكان منادي الحجاج حين هزم أهل دير الجماجم نادى : من لحق بقتيبة بن مسلم فهو آمن ، فلحقت به جماعة .

أمر الشعبي

وكان منهم عامر بن شراحيل الشعبي وكان قتيبة بالري، وسأل الحجاج عن الشعبي فأخبره يزيد بن أبي مسلم، مولى الحجاج، بمصيره إلى قتيبة، فكتب إلى قتيبة باشخاصه فلما قدم به استشار ابن أبي مسلم في أمره فقال: ماأدري ماأشير به، غير ان اعتذر مااستطعت، فلما دخل على الحجاج سلم بالإمرة ثم قال: أيها الأمير إن الناس أمروني أن اعتذر إليك بغير الحق، وايم الله لاقلت في مقامي هذا إلا حقاً، قد والله سعرنا عليك الحرب واجتهدنا كل الجهد فما ألونا، ولقد نصرك الله علينا وظفرك بنا، فإن سطوت علينا فبذنوبنا وما كسبت أيدينا، وإن عفوت فبحلمك عنا وبعد الحجة علينا.

فقال: أنت والله أحب إلي قولا ممن يدخل علينا وسيفه يقطر من دمائنا فيقول والله مافعلت ولا شهدت، فقد أمنت عندنا ياشعبي فانصرف، قال الشعبي: ثم دعاني فارتعت حتى ذكرت قوله أنت آمن عندنا فاطمأننت، فلما دخلت عليه قال: هيه ياشعبي. فقلت: أصلح الله الأمير، أوحش الجناب وأحزن المنزل ونبا بنا، واستشعرنا الخوف، واكتحلنا السهر، واستحلسنا

البلاء، وفقدنا الصالحين من الإخوان ـ أو قال صالحي الإخوان ـ وشملتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ولافجرة أقوياء، وماأعتذر إلى الأمير ألا أكون شيعت عليه، وقد كنت أكتب إلى يزيد بن أبي مسلم بعذري وأعلمه حالي فصدقه يزيد. فقال الحجاج: قد قبلت عذرك ياشعبي، وأمر بعطائه فرد عليه وقال: انصرف مصاحباً.

حدثنا يوسف بن موسى القطان عن جرير عن مغيرة قال: دخل الشعبي على الحجاج فقال له: ماالذي نقمت؟. قال: لايسألني الأمير مانقمت ولكن ليسلني لم بطرت.

حدثني عمر بن شَبَّه، ثنا حفص بن اسماعيل عن عيسى الحناط قال: لما ظهر الحجاج على ابن الأشعث، جعل يؤتى بالناس فأتي بالشعبي فقال: هيه ياشعبي. قال: أصلح الله الأمير، أجدب الجناب واعترانا السهر، وامتلأنا رعباً، وأتينا فتنةً لم نكن فيها أبراراً أتقياء ولافجاراً أقوياء. قال: صدق الشعبي، خَلُّو سبيله.

وروي عن مخلد بن الحسن عن أسماء بن عبيد عن الشعبي قال: هربت من الحجاجِ فأتيت المدينة.

حدثني حفص بن عمر عن الهيثم بن عدي عن مجالد عن الشعبي قال: لما انهزم ابن الأشعث ضاقت بي الأرض وكرهت ترك عيالي وولدي، فأتيت يزيد بن أبي مسلم، وكان لي صديقاً، وكانت الصداقة تنفع عنده، فقلت: قد صرت إلى ماترى؟ قال: إن الحجاج لايُكْذَبُ ولايخدع ولكن قم بين يديه وأقر بذنبك واستشهدني على ماشئت، قال: فوالله ماشعر الحجاج إلا وأنا قائم بين يديه فقال: أعامر؟ قلت: نعم أصلح الله الأمير. قال: ألم أقدم

العراق فأحسنت إليك ووفدتك إلى أمير المؤمنين واستشرتك؟ قلت: بلى. قال: فأنى كنت في هذه الفتنة؟ قال: استشعرنا الخوف، واكتحلنا السهر، وأحزن بنا المنزل وأوحش الجناب وفقدنا صالحي الإخوان وشملتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ولافجرةً أقوياء، وقد كنت أكتب إلى يزيد بن أبي مسلم بعذري. فصدقه يزيد، فقال الحجاج: هذا، لا مَنْ ضَرَبَنَا بسيفه ثم جاءنا بالأحاديث كان وكان.

حدثنا أبو أيوب سليمان بن المعلم الرقي عن عيسى بن يونس، عن عباد بن موسى عن الشعبي قال: أتي بي الحجاج، فلما انتهيت إلى الباب لقيني يزيد بن أبي مسلم، فقال: إنا لله ياشعبي لما بين كفيك من العلم، وليس بيوم شفاعة، بؤ الأمير بالشرك والنفاق على نفسك فبالحري أن تنجو، ثم لقيني محمد بن الحجاج فقال مثل مقالة يزيد. فقال لي الحجاج: وأنت ياشعبي فيمن خرج علينا؟. فقلت: أصلح الله الأمير، أحزن بنا المنزل، وأجدب الجناب، وضاق المسلك، واكتحلنا السهر واحتلسنا الخوف ووقعنا في خزية لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء.

فقال: صدق والله، مابروا بخروجهم ولاقووا بحمد الله علينا إذ فجروا، أطلق عنه.

ثم قال: ماتقول في أم وأخت وجدٍ؟. قلت: اختلف فيها خمسة من أصحاب رسول الله ﷺ: عثمان بن عفان، وعلي وعبد الله بن عباس، وابن مسعود، وزيد بن ثابت. قال: ماقال فيها ابن عباس إن كان لمتقناً؟. قلت: جعل الجد أباً فأعطى الام الثلث ولم يعط الاخت شيئاً. قال: فابن مسعود؟ قلت: جعلها من ستة فأعطى الأخت النصف ثلاثة، والجد الثلث اثنين،

والأم سدساً. قال: فأمير المؤمنين عثمان؟ قلت: جعلها أثلاثاً. قال:فزيد بن ثابت؟ قلت: جعلها من تسعة،أعطى الأم الثلث ثلاثة والجد أربعة،والأخت اثنين. قال: فأبو تراب؟ قلت:جعلها من ستة، أعطى الأخت النصف ثلاثة، والأم الثلث، والجد السدس. فقال: مروا القاضي أن يمضيها على قول أمير المؤمنين عثمان.

وقال الهيثم بن عدي: فارق ابن الأشعث عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة فأتى زابلستان فأقام بها برهةً من دهره، ثم صار إلى خراسان فحبسه قتيبة بن مسلم، وخرج ابنه أبو بكر بن عبيد الله إلى عبد الملك فطلب له الأمان فأمنه وكتب بذلك إلى الحجاج، فرتب الحجاج أمره، وبعث إلى قتيبة رسولاً ودفع إليه زبيبة وقال: ضعها في يد قتيبة ثم اغمز عليها، ففعل، فبعث قتيبة إلى عبيد الله من غمه حتى قتله ـ وكتب الحجاج إلى عبد الملك أن رسوله وافاه وقد مات.

وقال المدائني: لما هزم ابن الأشعث من مسكن هرب عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة إلى خراسان فاستخفى بها فعلم به يزيد بن المهلب فأخذه وحبسه، وكان قد فارق ابن الأشعث. فلما عزل يزيد وولي المفضل بن المهلب كتب إليه الحجاج في قتله، فكتب إليه: «إنه لما به، وستكفاه بغير قتله»، فلما ولي قتيبة خراسان ومات عبد الملك خرج أبو بكر بن عبيد الله بن عبد الرحمن إلى الوليد فكلمه في أبيه فكتب إلى الحجاج بأمانه، وبلغ الحجاج الخبر فسبق بتوجيه رجلٍ إلى قتيبة فقتله ودفنه.

أمر سعيد بن جبير

حدثني عدة من المشاريخ قالوا: سمعنا أبا نعيم الفضل بن دكين يقول: خرج مع ابن الأشعث من أهل الكوفة: سعيد بن جبير، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وعبد الرحمن بن عوسجة، والشعبي، وذر، وطلحة بن مصرف، وعبد الله بن شداد، وأبو البختري الطائي، والحكم بن عتيبة، وعون بن عبد الله فيما يقال، ومن أهل البصرة: مسلم بن يسار، وجابر بن زيد أبو الشعثاء الأزدي، وعقبة بن عبد الغافر، وقتل معه، وأبو الجوزاء وقتل معه، وعبد الله بن غالب وقتل معه، وعقبة بن وساج، وطلق بن حبيب، وأبو شيخ الهنائي، من الأزد، واسمه خيوان بن خالد.

وقال أبو نعيم: كان مع ابن الأشعث ثمانون ألف فارس ومائة واثنان وعشرون ألف راجل. قالوا: وكان خالد بن عبد الله القسري عامل الوليد بن عبد الملك بمكة، وكان سعيد بن جبير هرب إلى مكة فاستخفى بها حتى مات عبد الملك ثم ظهر، فكتب الحجاج إلى خالد في إشخاصه وإشخاص طلق بن حبيب العنزي، فأشخصهما إليه فقتلهما.

وقال المدائني: أخذ سعيد بن جبير خالد بن عبد الله القسري بمكة فحمله إلى الحجاج مع اسماعيل بن أوسط البجلي، فقال له: ألم أقدم العراق فأكرمتك؟ وذكر له أشياء فعلها به، فقال: بلى، قال: فما أخرجك علي؟. قال: كانت لابن الأشعث بيعة في عنقي وعزم علي، فغضب وقال: رأيت لعدو الله الحائك عزمةً لم ترها لله ولخليفته ولي؟ والله لاأرفع قدمي حتى أقتلك وأعجل بك إلى النار، قال: إذاً أخاصمك بين يدي الله، قال: أنا أخصمك، قال: ان الحاكم يومئذٍ غيرك. فأمر بقتله، فقام إليه مسلم الأعور ومعه سيف عريض حنفي، فضرب به عنقه.

حدثني محمد بن أبان الواسطي عن جرير بن حازم، وحدثني أحمد بن ابراهيم الدورقي عن وهب بن جرير عن أبيه عن محمد بن الزبير الحنظلي أن الحجاج وجه سعيد بن جبير في جيش الطواويس وأعطاه ألفي ألف درهم، وولاه نفقات الجيش وقال له: إذا رأيت خللاً فَسُدَّهُ، ومن كان من ضعيف فاحمله، ومن جريح فانفق عليه، وولاه أمر الغنائم إذا غنم الجيش، فخرج عليه مع ابن الأشعث، وكان يقول: ماخرجنا عليه حتى كفر بالله.

المدائني عن جرير بن حازم قال: قال سعيد بن جبير: أليس كافر بالله من زعم أن عبد الملك أكرم على الله من محمد رسول الله ﷺ.

المدائني عن يحيى بن زكرياء عن سالم الأفطس قال: لما قتل الحجاج سعيد بن جبير عرفوا تغير عقله لأنه قتله، ثم قال: قيود، ثم دعا بها ليقيده.

حدثني روح بن عبد المؤمن المقرىء، حدثني علي بن نصر الجهضمي قال: كان خالد بن خليفة يحدث عن بواب الحجاج قال: ضربت عنق سعيد بن جبير فبدر رأسه وهو يقول: لا إله إلا الله.

المدائني عن عبد الله بن مروان قال: لما أمر الحجاج بقتل سعيد بن جبير جاءت خالة له فدفع إليها يده فقبلتها، وقال له الحجاج حين أدخل عليه: أنت شقي بن كسير. قال: لا بل سعيد بن جبير. قال: ألم أصنع بك؟ ألم أكرمك، ألم أُوَلِّكَ ألم أأتمنك؟. قال: بلى. قال: فواله لاقتلنك. قال: إذا أخاصمك غداً. قال: إذا أخصمك ياعدو الله. فضحك سعيد، فقال: مايضحكك؟. قال: التعجب من جرأتك على الله.

المدائني عن أبي مريم صاحب الدستوائي قال: رأيت سعيد بن جبير مقيداً بمكة، واستأذن خالد بن عبد الله في توديع البيت، فأذن له فطاف أسبوعاً وهو مقيد، وقد اتكأ علي، أو قال على رجلٍ، فقال: اللهم إن كنت قضيت للحجاج قتلي فاجعل ذلك كفارة لذنوبي.

المدائني عن محمد بن ذكوان قال: أخذ سعيدا عبدالله بن أسد ابن أخي خالد فقال له: قد كنت أكره أن يجري أمرك على يدي. قال: فهلا إذ كرهت ذلك قلت كما قال العبد الصالح: ﴿إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك﴾[1].

وكان الكرى[2] الذي حمل سعيد بن جبير زيد بن مسروق اليربوعي، والذي أدخله إلى الحجاج اسماعيل بن أوسط البجلي.

المدائني عن رجل عن عمرو بن أبي وحشية قال: رأيت رأس سعيد بن جبير في فم كلب يعدو به بين الأطناب.

---

١ ـ سورة القصص ـ الآية: ٢٠ .

٢ ـ الكرى مفرد الأكرياء. القاموس.

المدائني عن عمرو بن هشام قال: قيل لسعيد بن جبير : إنَّ الحجاج إذا أخذ رجلاً كان مع ابن الأشعث فأقر له بالكفر ، خلى سبيله ، وإن الحسن[1] قال يدفع عن نفسه ، فقال سعيد بن جبير : يرحم الله أبا سعيد ، لاتقية في الإسلام .

المدائني عن جرير بن حازم عن واصل عن عبدالله بن سعيد بن جبير قال : قتل أبي وله تسع وأربعون سنة .

وحدثنا عفان بن مسلم ، ثنا هشيم ، أنبأنا أبو بشر عن سعيد بن جبير قال : أنا ممن أنعم الله عليه ببني أسد .

المدائني عن محمد بن إسحاق عن عبد الملك بن أبي سليمان قال : رأى خالد بن عبدالله سعيد بن جبير وطلق بن حبيب العنزي ورجالاً يطوفون بقيودهم فقال : ما هؤلاء ؟ قال : الأسراء الذين أمرت بحملهم قال : امنعوهم من الطواف .

حدثني عمر بن شبه ، ثنا أبو عاصم النبيل عن رجل عن جرير عن مغيرة أن الحجاج كان يعرف سعيد بن جبير فسأله مالخبر ، فقال سعيد : تركت الخمر تباع بالكوفة ظاهرة، ويباع الحكم بالرشا، فقال الحجاج: والله لئن وليت لاغيرن، فلما قدم رد شريحاً على القضاء، ومنع أن تباع الخمر.

المدائني عن جرير بن حبيب بن أبي عمرة أن الحجاج أمر سعيد بن جبير أن يصلي بالناس في شهر رمضان، فصلى بهم فكساه الحجاج برنوس خزٍّ أسود فلبسه.

١ ـ الحسن البصري.

حدثني عمر بن شبه، ثنا أبو عاصم النبيل، أنبأنا عمرو بن قيس قال: كتب الحجاج إلى الوليد: «إن قوماً من أهل الشقاق والنفاق قد لجأوا إلى مكة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي فيهم»، فكتب الوليد إلى خالد بن عبد الله القسري فيهم، فأخذ عطاء، وسعيد بن جبير، ومجاهدا، وطلق بن حبيب، وعمرو بن دينار. فأما عطاء وعمرو فخليا، وأما الآخرون فبعث بهم إلى الحجاج، فمات طلق في الطريق، وحبس مجاهد حتى مات الحجاج، وقتل الحجاج سعيد بن جبير.

حدثني عمرو بن محمد الناقد عن عبد الله بن نمير عن عبد الملك بن أبي سليمان قال: أخذ خالد القسري سعيد بن جبير، وطلق بن حبيب، وحبيب بن أبي ثابت، وأصحابهم فقيدوا، فكانوا يطوفون بالبيت في قيودهم.

قالوا: وبعث إبراهيم إلى سعيد في السر: إنَّ القوم لن يستحيوك فاصلب لهم.

حدثني العباس بن الوليد النرسي، ثنا عبد الواحد بن زياد عن الربيع بن أبي صالح قال: دخلت على سعيد بن جبير حين جيء به فبكيت فقال: مايبكيك؟ قلت: الذي أرى بك، قال: فلا تبك فإن هذا كان في علم الله، وقرأ: ﴿ماأصاب من مصيبة﴾ إلى قوله: ﴿نبرأها﴾[1].

المدائني عن أبي بكر بن عياش، عن عاصم بن بهدلة قال: ماتكلم سعيد بشيء وذلك أنه كره المِثْلَة.

---

١ ـ سورة الحديد ـ الآية: ٢٢.

حدثني الحسين بن علي بن الأسود عن أبي بكر بن عياش عن يزيد بن أبي زياد قال: لما جيء بسعيد جعل يحدثنا لاننكر منه شيئا، حتى جاءت ابنته فتحرك فانكشفت قيوده، فبكت الجارية فقال سعيد: اسكتي يابنية، لاتغمي أباك. فهذا أكثر مارأينا منه.

حدثني حفص عن الهيثم بن عدي عن ابن عياش قال: قال الحجاج لسعيد: أكفرت بخروجك؟ قال: ماكفرت مذ آمنت. قال: اختر أي قتلةٍ أقتلك. قال: اختر أنت لنفسك أي القصاص شئت فإن القصاص أمامك، فقتله، فما قتل أحداً بعده.

حدثني أحمد بن ابراهيم الدورقي، ثنا وهب بن جرير عن أبيه عن المفضل بن سويد قال: جيء بسعيد بن جبير فقمت على رأس الحجاج، فقال له الحجاج: ألم أشركك في أمانتي، ألم استعملك، ألم أفعل ألم أفعل؟.

قال: بلى. قال: فما حملك على خروجك عليَّ؟ قال: عزم عليَّ الرجل. فقال: رأيت لعزمة عبد الرحمن حقاً ولم تر لله ولا لأمير المؤمنين ولا لي عليك حقاً؟!! اضرب عنقه، فضربت عنقه فندر رأسه وعليه كُمَةٌ بيضاء لاطية صغيرة.

المدائني قال: قال سلم بن قتيبة: كنت عند الحجاج فقال لسعيد: أخرجت عليَّ؟ قال: كانت للرجل في عنقي بيعة. قال: أتفي لعدو الله ولاتفي لأمير المؤمنين؟. اضرب عنقه، فضربت عنقه فسال منه دم كثير.

حدثني عمرو بن محمد الناقد، ثنا سفيان بن عيينة عن سالم بن أبي حفص قال: لما أدخل سعيد بن جبير على الحجاج قال: أنت شقي بن كسير؟. قال: لا بل أنا سعيد بن جبير. قال: أما والله لأقتلنك، قال: إني

إذا لكما سمتني أمي سعيد، دعوني أصلي ركعتين. فقال: وجهوه إلى قبلة النصارى. قال: اينما ﴿تولوا فثم وجه الله﴾[1].

وحدثني علي بن الحسين بن عرفة عن أبيه عن الحارث بن أبي الزبير المدني عن عبد العزيز بن زمعة العامري حديثا طويلا اختصرته، أن الحجاج أرسل إلى سعيد بن جبير فأتي به فلما دخل عليه قال: أنت شقي بن كسير؟ قال: أنا سعيد بن جبير. قال: أنت شقي بن كسير. قال: أمي كانت أعلم باسمي منك، فقال لصاحب عذابه: اسمعني صوته فعذبه صاحب العذاب فلم يسمع له الحجاج صوتاً فقال له: أَلَمْ آمرك ان تصبّ عليه العذاب حتى تسمعني صوته؟ قال: قد عذبته بألوان العذاب فلم أر أصبر منه قط. فدعا به الحجاج فقال: أو تصبر على عذابي؟. قال: إن من ذكر عذاب الله هان عليه عذابك. فقال: لألحقنك بأمك الهاوية، فقال سعيد: لو علمت أنَّ ذلك إليك لاتخذتك إلهاً دون الله. ثم أمر به أن يقتل فتبسم، فقال له: ألم تقل لي أنك لم تضحك قط؟. قال: ضحكت للتعجب من جرأتك على الله واغترارك بحلمه. وانحرف إلى القبلة فعدل به عنها فقال: أينما ﴿تولوا فثم وجه الله﴾.

وقال سعيد: اللهم لاتمهله، فقدم فضربت عنقه، ويقال ذبح ذبحاً، فأخذ الحجاج الزمهرير، وَقرَّحَ جوفه حتى كانت القديدة تدلَّى في حلقه ثم تجبذ فيخرج فيها الدوْد وهو يصيح: مالي ولسعيد بن جبير، فلم يزل كذلك حتى مات.

---

١ ـ سورة البقرة ـ الآية: ١١٥ .

حدثني عبد الله بن صالح العجلي عن أبي بكر بن عياش عن يزيد بن أبي زياد قال: لما دخل سعيد بن جبير على الحجاج أمر به أن يقتل فنهض رجل من أهل الشام فقال له: ألصق بالمنكبين.

حدثني أبو محمد النحوي المعروف بالتوزي عن أبي عبيدة عن يونس النحوي قال: لما أتي بسعيد بن جبير قال الحجاج: لعن الله ابن النصرانية ـ يعني خالد بن عبد الله ـ والله لقد كنت أعرف مكانه ولوددت أنه بعث بغيره ولم يبعث به، ثم قال له: ماأخرجك علي؟. فقال: أنا رجل من الناس أخطىء وأصيب. قال: ألم أكرمك؟. قال: بلى. قال: فما حملك على مافعلت؟ قال: كانت للرجل في عنقي بيعة. فاستشاط الحجاج غضباً وقال: أفلم تكن لأمير المؤمنين في عنقك بيعة ثم، أخذتها عليك بالكوفة؟. قال: بلى. قال: فنكثت بيعة أمير المؤمنين ووفيت ببيعة ابن الحائك. اضربا عنقه. فذلك قول جرير بن عطية:

يارُبَّ ناكث بيعتين تركته وخضاب لحيته دم الأوداج[1]

وقال أبو عبيدة: أتي الحجاج بسعيد بن جبير وهو يريد الركوب، فقال: والله لاأركب حتى تِتبوأ مقعدك من النار، اضربوا عنقه. فضربت عنقه، فخولط والتبس عقله مكانه فجعل يقول: قيودنا قيودنا. فظنوا أنه يقول: القيود التي على سعيد، فقطعوا رجليه من أنصاف ساقيه وأخذوا القيود.

حدثني شجاع بن مخلد الفلاس، ثنا جرير بن عبد الحميد عن المغيرة قال: كان الحجاج يقول حين قتل سعيد بن جبير: ولع يالك من ولع[2].

١ ـ ديوان جرير ص٧٤.
٢ ـ ولع: استخف، وكذب،وبحقه ذهب. القاموس.

حدثني عمر بن شبه، ثنا عبيد بن جناد عن عطاء بن سالم قال: لما قتل سعيد بن جبير قال ميمون بن مهران: ماأدري بما أكافىء أخي إلا بأن أتزوج ابنته، فَأُقْدِمُ على سيف الحجاج. وانطلق فتزوج ابنة سعيد بالكوفة، وقدم بها الرقة. قال عطاء: فمضيت حتى رأيتها فإذا امرأة مسنةٌ جليلةٌ عابدةٌ قاعدةٌ في مسجدها، فالتمست عندها حديثا فلم أجده.

وقال عبيد بن جناد: وكان في الطريق أهل مسلحةٍ يمنعون النساء فجلس إليهم ميمون فألقى تحت مصلىً لهم ثلاثمائة درهم ثم قال: معي امرأة، فقالوا: وهل يمنع مثلك، امض راشداً.

حدثنا أبو أيوب المؤدب الرقّي، حدثني محمد بن مصفّى عن الوليد بن مسلم، ثنا عبد الملك بن محمد قال: سمعتُ ثابت بن محمد يقول: هرب سعيد بن جبير من الحجاج فكان عندي سنين أو قال سنتين.

حدثنا عمر بن شبه عن أبي عاصم النبيل، حدثني شيخ من أهل مكة قال: كان رجل من أهل مكة ضعيفا فمازحه سعيد وهو يطوف، أو قال: زَحَمَهُ. فقال: أنت تفر من الحجاج وتجيء إلى ههنا. فضربه عكرمة بن خالد وناس من قريش حتى كاد ينبسط.

حدثني الحسين بن علي عن أبي بكر بن عياش قال: قيل ليزيد بن زياد: هل كان سعيد يُحدِّث؟ قال: نعم ويضحك غير أني رأيت ابنته جاءت فجلست في حجره فسمعت حركة القيود فبكتْ فقال: مَهْ، قال: وأُخذ بكفلاء لئلا يلقي نفسه في الفرات إذا مرَّ به فكنت من كفل به في آخرين.

حدثني عمر بن شبَّه عن محمد بن حاتم : عن القاسم بن مالك ، ثنا أبو الجهم قال : دخل علينا سعيد بن جبير الديماس [1] ولم يكن لكل واحد منا فيه مقعد إلا قدر ما يمد رجله ، فأوسعت له إلى جنبي فلما كان يوم أخرج ليقتل قال لي : شد علي ثيابي ، قال : فشددت عليه بركتي [2] قباء كان عليه من خلفه وخرج به فقتل .

حدثني عمر بن شَبَّه عن عبدالملك بن عبدالله القطان عن هلال بن جناب قال : جىء بسعيد إلى الحجاج فقال له : والله لأقتلنك . قال : إني إذاً لسعيد كما سمتني أمي . قال : فقتله فلم يلبث بعده إلا نحواً من أربعين يوماً فكان إذا نام يراه في منامه يأخذ بمجامع ثوبه ويقول : يا عدو الله فيمَ قتلتني ؟ فيقول : ما لي ولسعيد بن جبير .

وحدثني عمر عن محمد بن حاتم عن القاسم بن مالك عن رجل من أهل هجر عن عبدالملك بن سعيد بن جبير قال : لما قدم سعيد بن جبير على الحجاج قال : أنت شَقِي بن كُسَيْر ؟ قال : أنا سعيد بن جبير . قال : والله لأقتلنك . قال : إذاً ألقى الله بعملي وتلقاه بدمي ، لقد أصابت أمي إذاً إذ سمَّتْني سعيداً ، فقال الحجاج : يا حرسي اضربه ضربة على حبل عاتقه تخالط رئته ، قال : فَأْذَنْ لي أصلّي ركعتين ، قال : صلِّ . فلما توجَّه الى القبلة فقال الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا ، قال الحجاج : لا ، إلاَّ إلى قبلة النصارى ، فقال سعيد : أينما ﴿تُوَلّوا فَثَمَّ وجه الله﴾ فصلى ، ثم ضربه الحرسي ضربة خالطت رئته .

١ ـ الديماس سجن للحجاج لظلمته . القاموس .
٢ ـ البركة : برد يماني . القاموس .

وقال الفضل بن دكين أبو نعيم : قُتل سعيد في سنة خمس وتسعين وهو ابن تسع وأربعين سنة .

وحدثني أبو مسعود الكوفي عن عوانة قال : لما أخذ الأعراب عبدالله بن إسحاق بن الأشعث فأتوا به عبدالملك قال له عبدالملك وقد أُدخل عليه بحمص : ألم أقدم الكوفة حين قتلت مصعباً فوجدتك في ستمائة من العطاء فبلغت بك ألفين ، ووليّتُ بشراً أخي الكوفة فأمرتُه أن يجعلك في صحابته ، وحملتُك على دابة من دواب رَجْلِي وخلعتُ عليك ثياباً من ثياب بدني ؟. قال : بلى . قال : ثم بلغني أن بشراً غضب عليك في حمقة من حمقاتك ، فإنك من أهل بيت حمق ولؤم ، فأغزاك أصبهان فكتبت إليه أعزم عليه أن يقفلك ويعيدك إلى حالك ففعل ؟ قال : بلى ، قال : فلعنتني على منبر البصرة وشتمتني على منبر الكوفة وأخذت رسولي فقطعت يديه ورجليه وصلبته منكوساً ؟ قال : بلى . قال : فأنت ترجو الهوادة عندي لا أمَّ لك . وتمثل :

أبعد الذي بالنعف نعف كُوَيْكِبٍ[1] رهينة رمس من تراب وجندل
أُذَكَّرُ بالبقيا على من أصابه وبقياي أني جاهد غير مؤتل
أنختم علينا كلكل الحرب مرة فنحن منيخوها عليكم بكلكل

---

١ ـ النعف : ما انحدر من حزونة الجبل ، وارتفع من منحدر الوادي ، ومن الرملة : مقدمها وما استرق منها . وكويكب : مسجد بين تبوك والمدينة للنبي صلى الله عليه وسلم . القاموس .

قم يا عتاب بن مسروق فاضرب عنقه ، ودع عليه من ثيابه ما يُواري عورته . فقال : قد أمنني عبدالعزيز ، فقال عبدالملك : ما يقول ؟ فأخبر به ، فقال : كذب ولو أمنه لم أجز أمانه ، فضربت عنقه .

قال ابن شبَّه في روايته: وأُتي عبدالملك بالمِسْوَر بن مخرمة بن عوف الكلبي فقال : ألم يأتني بك الأصبغ يدعيك عبداً ، فقلت أرى جلدة عربية ولأن يكون لك ابن عم خير من أن يكون لك عبداً ، فأثبت نسبك وفرضت لك في أربعمائة ، ثم أصحبتك للوليد بن عبدالملك حين أغزيته وأمرته أن يجعلك من البُشَراء ؟ . قال : بلى . قال : قُم يا أبا العباس فاضرب عنقه . ففعل .

ثم أتي بابن عبداللهبن يزيد الخطمي ، من الأنصار ، فقال له : من أنت ؟ قال : أنا ابن عبدالله بن يزيد الخطمي . قال : من أهل بيت سبابة ؟ قال : اقبل فيّ وصية رسول الله ﷺ بالأنصار أن يُقبل من محسنهم ويُعفى عن مسيئهم . فقال : خلوا سبيله .

وأُتي بغطيس الجهني ومعه ابن له يتعلق به وهو يقول : يا أمير المؤمنين ، أبي يا أمير المؤمنين أبي ، فرحمه وقال : قد وهبتُك لابنك .

[من]
[اخبار عبدالملك]

المدائني عن سحيم قال : دخل عروة بن الزبير على عبدالملك وعنده الحجاج ، فكلم عروة عبدالملك بكلام فيه بعض الغلظة ، فقال له الحجاج : يا بن العمياء ، أتقول هذا لأمير المؤمنين ؟ فقال عروة : وما أنت وهذا يابن المتمنية ، يعني أن الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود ، وهي أم الحجاج تمنت أنها على سطح فياح وعندها نصر بن حجاج فقالت :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها ... أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

المدائني عن علي بن سليم عن محمد بن علي الكناني قال : حج عبدالملك فأتى الطائف فسايره أبو بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام ، وعبدالرحمن بن أم الحكم أخت معاوية ، فذكر ابن أم الحكم الطائف ففضلها وفضل أهلها ، وقال : يا أمير المؤمنين ، جاء الإسلام وفينا من قريش عدة نساء فَكَثَّرَ ، فقال عبدالملك لأبي بكر : ما تقول ؟ فقال : إذا لا تجد فيهن مغيرية ، فقال ابن أم الحكم : نحن أعلم بقومنا ، إنا نعتام الكرام لمناكحنا ، ونأتي الأودية من ذروتها ولا نأتيها من أذنابها . فقال عبدالملك : قاتلك الله فما أَسَبَّكَ .

المدائني قال : جرت بين عبدالملك وبين عمرو بن سعيد منازعة في شيء ، فأغلظ له عمرو بن سعيد ، فقال خالد بن يزيد بن معاوية : إن أمير المؤمنين لا يكلم مثل هذا الكلام ، فقال : اسكت ، فوالله لقد سلبوك ملكك وغلبوك على أمرك فما كان عندك نكير فما هذه النصيحة له ، أنت والله كما قال الشاعر :

ومرضعة أولاد أخرى وضيعت بنيها فلم ترفع بذلك مرفعا

وقال الهيثم بن عدي : لما أمر عبدالملك بقتل عمرو بن سعيد شاور خالد بن يزيد فيه فقال له : اقتله ، فقال عمرو : اسكت فوالله لقد سلبت ملكك وَنِيْكَتْ أمك فما عندك نكير ، فما هذه النصيحة ؟ فقال : أما أنت فقد وقعت في الأنشوطة فانظر كيف تخلص ، وإنما أنت كما قال الأَوَّل :

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان

قال المدائني : وقال عبدالملك لثابت بن عبدالله بن الزبير : أبوك كان أعلم بكم حيث كان يشتمكم . فقال : يا أمير المؤمنين أتدري لم كان يشتمني ؟ ، إني نهيته أن يقاتل بأهل مكة وأهل المدينة ، لأن أهل مكة أخرجوا رسول الله ﷺ وأخلفوه ، ثم جاؤوا إلى المدينة فأخرجهم رسول الله ﷺ منها وسيرهم ، يعرض بالحكم بن أبي العاص . وأما أهل المدينة فخذلوا عثمان حتى قُتل بينهم لم يروا أن يدفعوا عنه .

المدائني عن مسلمة بن محارب عن بشير بن عبيدالله أن عمر بن عبيدالله بن مَعْمَر دخل على عبدالملك وعليه جبة حبرة مُصدَّأة ، عليها أثر الحمائل فقال له أمية بن عبدالله بن خالد بن أسيد : يا أبا حفص أيُّ رجل أنت لو كنت مِنْ غير مَنْ أنت منه من قريش ؟ قال : ما أحب أني من غير من

أنا منه ، إن منا لسيد الناس في الجاهلية عبدالله بن جدعان ، ومنا سيد الناس في الإسلام بعد رسول الله أبو بكر الصديق ، وما هذه يدي عندك ، إني استنقذت أمهات أولادك من عدوك وَهُنَّ حبالى فولدن في حجالك ، يعني استنقاذه إياهن من أبي فديك بالبحرين .

وقال أمية لعبدالملك : يا أمير المؤمنين إن هذا دهره الامتنان علي ، وهو كما قال الشاعر :

فوكنت كذئب السوء لما رأى دماً بصاحبه يوما أحال على الدم

وأنشد عمر :

ولو كنتَ صلب العود أو كابن معمر لخضت حياض الموت والليل مظلم

فتبسم عبدالملك وقال : قل له كما قال لك .

المدائني قال : أجرى عبدالملك الخيل فسبق عباد بن زياد فقال الشاعر :

سبق عباد وصلى[1] وَثَلَثْ بخيله تلك الخفيفات الجثث

فقال عبدالملك :

سبق عباد وصلت لحيته وكان خرازا يُجَوِّدُ قربته

قال : ويقال ! إن عباداً كان خرازاً ثم ادَّعاه زياد بعد ، وكان باع أمه وهي حامل به ثم أقر بعد أنه ولده ، فشكا عباد قول عبدالملك إلى خالد بن يزيد بن معاوية فقال خالد : والله لأضعنك منه بحيث يكره ، فزوجه أخته ، فكتب الحجاج إلى عبدالملك : إن مناكح آل أبي سفيان قد ضاعت ،

---

١ ـ أي جاء تالياً للسابق . القاموس .

فأخبر عبدالملك خالداً بكتاب الحجاج فقال خالد : يا أمير المؤمنين ما أعلم امرأة منا ضاعت ولا اغتربت إلا عاتكة بنت يزيد بن معاوية فإنها عندك ، وما عنى الحجاج غيرك ، فقال عبدالملك : بل عنى الدعي بن الدعي عباداً . فقال خالد : يا أمير المؤمنين أفأدعي رجلاً لا أزوجه ، إنما كنت ملوما لو زوجتُ دعي غيري .

قالوا : واستعمل عبدالملك نافع بن علقمة بن صفوان بن محرث على مكة فخطب ذات يوم وأبان بن عثمان تحت المنبر فشتم طلحة والزبير ، فلما نزل قال لأبان : أأرضيتك في المدهنين في أمير المؤمنين ؟ قال : لا ولكن سُؤْتَني فحسبي أن يكونا شركاء في أمره ، فبلغ ذلك عبدالملك فقال : صدق أبان ، وكتب إلى نافع ينهاه عن مثل ما كان منه .

المدائني عن عبدالحكيم الأشج عن أبي قُذّة أن عبدالملك خطب زينب بنت عبدالرحمن بن الحارث بن هشام فأبت أن تتزوجه وقالت : والله لا يتزوجني أبو الذبان ، فتزوجها يحيى بن الحكم بن أبي العاص ، فقال عبدالملك : والله لقد تزوجته أسود أَفْوَهَ ، فقال يحيى : أما إنها إذاً أحبت مني ما كرهت منه .

وكان عبدالملك رديء الفم ، كان يدمى فيقع عليه الذباب .

المدائني أن ليلى الأخيلية استأذنت على عبدالملك فأمر حاجبه أبا يوسف أن يدخلها ، ويقال بل كانت بثينة صاحبة جميل ، فدخلت امرأة طويلة يعلم أنها قد كانت جميلة ، فقال عبدالملك : يا أبا يوسف أَلْقِ لها كرسياً . ففعل ، فقال لها عبدالملك : ويحك ما رجا ثوبة ـ أو قال جميل ـ منك ؟ فقالت : رجا مني الذي رجته منك الأمة حين ولتك أمرها .

وروى الأصمعي عن نافع بن عبدالرحمن بن أبي نعيم المقرىء قال : قال عبدالملك للحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة وهو القباع : ما كان الكذاب - يعني ابن الزبير - يقول في كذا ؟ قال : ما كان كذاباً . فقال له يحيى بن الحكم : من أمك يا حار ؟ فقال : هي من تعلم . فقال عبدالملك : اسكت فإنها أنجب من أمك .

وكانت أم الحارث نصرانية فلما ماتت أتاه قوم من المسلمين يحشدون له ويجلسون معه فقال : رحمكم الله انصرفوا فإن لها ولاة غيركم ، وكانت سبية سباها أبوه من اليمن .

المدائني عن مسلمة بن علقمة المازني أن عبدالملك قال : العجب لخالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد ، وليته البصرة وأمرته أن يجرد السيف ويمنع المال ، فبذل المال وأغمد السيف . فقال عبدالله بن فضالة الزهراني : يا أمير المؤمنين ، لو جرد السيف لوجد سيوفاً مجردة ، ولو منع المال لوجد أيدياً تنازعه .

المدائني عن الفضل بن سليمان أن عبدالله بن خالد بن أسيد تزوج امرأة من مراد فولدت له جارية تزوجها عبدالله بن مطيع العدوي ، فدخلت المرادية على عبدالملك فقال لها : خدعتم الشيخ حتى زوج ابن مطيع فما رجا ابن مطيع وما رجوتم منه ؟ فقالت : ما رجا أبوك من بني حنطب وقالت :

وما لي لا أبكي وتبكي قرابتي وقد نكح البيضَ الأوانس حنطب
بنيٍّ لسوداء المغابن جعدة لها نسب في آل دومة مطنب

المدائني عن إسحاق بن ابراهيم ، عن عجلان مولى عباد قال : كنت عند عبدالملك فأتاه أبو يوسف حاجبه فقال : يا أمير المؤمنين هذه بثينة جميل

بالباب . فقال : أدخلها ، فدخلت امرأة أدماء طويلة يعلم أنها كانت جميلة ، فقال عبدالملك : يا أبا يوسف ألق لها كرسياً . فألقاه لها ، فقال لها عبدالملك : ويحك ما رجا جميل منك ؟ قالت : الذي رجت منك الأمة حين ولتك أمرها .

المدائني قال : اصطرع محمد وهشام ابنا عبدالملك بين يديه فصرع هشام محمداً وقعد على صدره فقال هشام : أنا ابن الوحيد . وكانت أمه مخزومية. فغاظ ذلك عبدالملك فقال: عودا، فصرع محمد هشاماً فقعد على صدر هشام وقال : سأرهقه صعوداً ، فضحك عبدالملك وضم محمداً إليه .

المدائني قال : ضرب يحيى سعيد بن العاص يوم قتل عبدالملك عمرو بن سعيد الوليد بن عبدالملك على إليته ، فحبسه عبدالملك أربعين يوماً ثم قال له: يا أبا قبيح ، لو قتلت الوليد بأي وجه كنت تلقى ربك؟ قال: بالوجه الذي خلق ، وكان يكنى أبا قبيح لقبح وجهه . وقال عبدالملك : لله دره أي ابن زوملة هو ، يعني عربية ، وكانت كنيته أبا أيوب .

المدائني قال : حرم الحجاج أهل العراق أعطيتهم لمظاهرتهم ابن الأشعث ، وكتب إلى عبدالملك يعلمه ذلك فكتب إليه عبدالملك : «إنا إنما نستوجب طاعتهم بإدرار أرزاقهم ، فأعطهم إياها فإن في ذلك أعظم الحجة لنا عليهم ، وهبك حرمت المقاتلة لسوء الطاعة فما بال الذراري ؟!

قالوا : وأتي الحجاج بِحُطَيْطٍ الحرامي الزيات، وحرام بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، فسأل الحجاج حطيطاً عن أبي بكر فقال خيراً ، ثم عن عمر فقال خيراً ، ثم سأله عن عثمان فقال : لم أولد إذ ذاك . قال الحجاج : يا بن اللخناء ، أولدت زمان أبي بكر وعمر ولم تولد زمان عثمان ؟

فقال : يا بن اللخناء لا تعجل علي ، إن الناس أجمعوا على أبي بكر وعمر ، واختلفوا في عثمان ، فوسعني أن أَكِلَهُ إلى الله .

قال : أما والله لألحقنك بالنار . قال : أما ترضى أن تكون مالكاً في الدنيا حتى تكون مالكاً في الآخرة ، فقال الحجاج : علي بصاحب العذاب ، فدفعه إليه وقال : أسمعني اليوم صوته . قال : نعم . فقال حطيط : كذب . فجعل يعذبه حتى وضع الدهق على ساقيه وكان ثقيلا فكسر إحدى ساقيه وقال : أنا فلان ، فقال حطيط : لعنك الله تتكنى علي لئن كسرت ساقي . فجعل يعذبه هو ساكت لا يتكلم فأخبر الحجاج بأمره ، فدعا به فحمل حتى وضع بين يديه فقال له الحجاج : أتقرأ من القرآن شيئاً ؟ فقال حطيط : بل أنت تقرأ . فقرأ الحجاج : ﴿هل أتى على الإنسان﴾ حتى بلغ ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيماً وأسيرا﴾ [1] فقال حطيط : وأنت تقتلهم .

قال : فبينا هو يحاوره إذ وقع ذباب على بعض جراحاته فقال : حس ، فقال الحجاج : يا بن اللخناء أتجزع من ذباب ولا تجزع من العذاب ؟ قال : يا بن اللخناء إني عاهدت الله عليك ولم أعاهده على الذباب . عاهدت الله لأجاهدنك بيدي ولساني وقلبي ، فأما يدي فما أجد عليك أعوانا ، وأما لساني فقد تَسْمَعُ ، وأما قلبي فالله أعلم بما فيه .

فقال الحجاج : علي بمسال الحديد فجعلت تُدخل فيها بين الظفر واللحم وهو ساكت ، فقال بعض جلساء الحجاج : ما أصبره ، فقال

---

١ ـ سورة الانسان ـ الآيات : ١ ـ ٨ .

حُطيط : أو ما علمت أن الله عز وجل يفرغ الصبر إفراغاً ، فأمر به فأدرج في عباءٍ وضرب بالخشب حتى قتل .

حدثني عبدالله بن صالح العجلي عن محمد بن فضيل بن غزون عن ابراهيم المؤذن قال : لما صلب ماهان الحنفي طعن وهو يسبح وفي يده أربع وعشرون ، فرأيته على الخشبة والعقد في يده ، وكنا نرى السرج بالليل عند خشبته .

وروى أبو بكر بن عياش عن عمار الدهني قال : لما صلب ماهان أبو صالح ، اجتمع الناس فنظر اليّ فقال : يا عمار ، وأنت ههنا أيضاً .

قالوا : وكان الحجاج بعث إلى عبدالرحمن بن أبي ليلى فقال : بلغني أنك تشتم أمير المؤمنين عثمان ، فقال : إنه ليمنعني من ذلك ثلاث آيات في كتاب الله ، قوله : ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم﴾ الى قوله : ﴿الصادقون﴾ . وقوله : ﴿والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم﴾ إلى قوله : ﴿رؤوف رحيم﴾ [1] وأنا منهم . فأعجب الحجاج قوله .

ثم إن ابن أبي ليلى أُدخل على الحجاج بعد ذلك فقال : يا أهل الشام إن أردتم رجلا يشتم أمير المؤمنين عثمان فدونكم هذا . فقال عبدالرحمن مثل قوله الأول ، فقال الحجاج : صدق .

حدثنا عمرو بن محمد الناقد عن هشيم ، ثنا الأعمش قال : رأيت عبدالرحمن بن أبي ليلى وقد ضربه الحجاج ووقفه على باب المسجد . فجعلوا

---

١ ـ سورة الحشر ـ الآيات : ٨ ـ ١٠ .

يقولون له : إلعن الكذابين ، فيقول : لعن الله الكذابين ويسكت ، ثم يبتدىء فيقول : علي بن أبي طالب وعبدالله بن الزبير والمختار بن أبي عبيد . فجعلت أعرف حين سكت ثم ابتدأ أنه لا يريدهم .

وحدثت عن أبي بكر بن عياش ، وحفص بن غياث عن الأعمش قال : رأيت عبدالرحمن بن أبي ليلى على المصطبة . وكأن ظهره مسح أسود لضرب الحجاج إياه ، وهم يقولون له : العن الكذابين ، فيقول : لعن الله الكذابين ثم يسكت ، فيقول : علي بن أبي طالب وعبدالله بن الزبير والمختار بن أبي عبيد ، وأهل الشام حوله كأنهم حمير ما يعقلون ما يقول .

وقوم يقولون : غرق ابن أبي ليلى بدجيل ، وآخرون يقولون : قتل يوم الجماجم ، وكان الحجاج أقامه قبل ذلك .

قالوا: وأتي الحجاج بالفضيل بن بزوان العَدْواني فقال له: فضيل؟ قال : فضيل ! قال : ألم أكرمك ؟ قال : بل أهنتني . وكان قد ولاه حين قدم العراق عملاً فهرب .

قال : ألم أقربك ؟ قال : بل باعدتني . قال : والله لأقتلنك . قال : بغير جرم ولا فساد في الأرض ؟ قال : كل ذلك قد أتيت بمعصيتي ، فقتله .

ويقال إنه قال له : إذاً أخاصمك في دمي . قال : إذاً أخصمك . قال : إن الحاكم يومئذ غيرك .

قالوا : ودخل الحسن بن أبي الحسن على الحجاج بعد قتل ابن الأشعث فقال : حملت عليّ السلاح ؟ قال : والله ما فعلت ، فأخرج

الحجاج إليه كفه فمسح عليها ثم لم يأمنه فتوارى ، فيقال انه توارى تسع سنين ، وكان يتنقل في منازل الناس ثم لزم منزله فتوارى فيه .

حدثني خلف بن هشام وعَفَّان قالا ، ثنا هشيم بن بشر : أنبأنا العوام بن حوشب أنه لما انطلق بابراهيم التيمي إلى السجن قال له أصحابه : هل توصي إلى إخوانك بشيء تحب أن نبلغهم إياه عنك ، ألكَ حاجة ؟. قال : نعم تذكروني عند غير الرب الذي عناه يوسف .

قال خلف: يقول تدعون الله لي ولاتشفعون لي إلى السلطان. وإن ابراهيم لم يسأل العافية مما هو فيه حتى مات في محبسه، وكان يقول: اللهم هذا بعينك، اللهم قد ترى.

وحدثنا عمرو الناقد عن سفيان بن عينية عن أبي سعد قال: دخل علينا ابراهيم التيمي السجن فتكلم، فقال أهل السجن: مايسرّنا أنا خارجون منه.

حدثني عمر بن شبه عن الأصمعي قال: قال يزيد بن أبي مسلم: هاتوا ابراهيم. فقيل: إنهما ابراهيمان التيمي والنخعي. قال: هاتوهما جميعاً. فمات التيمي في الحبس واستخفى النخعي.

حدثنا خلف البزار، ثنا أبو شهاب عن الحسن بن عمرو قال: كان ابراهيم النخعي ليالي الحجاج متوارياً وكان المسجد على بابه، فكان لايخرج فيصلي فيه.

المدائني عن عامر بن حفص قال: حبس الحجاج ابراهيم التيمي فجاءت ابنته فلم تعرفه حتى كلمها، وكان الحجاج يطعم أهل السجن دقيق الشعير والرماد مخلوطين.

ومات ابراهيم التيمي في السجن فرأى الحجاج في الليلة التي مات فيها قائلاً يقول: مات في هذه الليلة رجل من أهل الجنة، فلما أصبح قال: من مات الليلة بواسط؟. قالوا: ابراهيم التيمي قال: نزغة من نزغات الشيطان، وأمر به فألقي.

وقال الأصمعي : مات الحجاج وأبو عمرو بن العلاء مستخفٍ فسمع أعرابياً يقول : مات الحجاج . وأنشد :

ربما تشفق النفوس من الأمـ ـر له فَرْجَةٌ كَحَلِّ العقال

فقال أبو عمرو: ماأدري أبموت الحجاج كنت أسر أم بقوله فَرْجَةَ، إنما كنا نرويها فُرْجَةٌ. وأتي الحجاج برجل من ثقيف كان في الأسرى فشهق فمات.

قالوا: وأتي الحجاج بأعشى همدان فقال له: يابن اللخناء ألست القائل:

أَمْكِنْ ربي من ثقيف همدان يوماً إلى الليل تخلي ماكان

فقد أَمْكَنَ الله ثقيفاً من همدان، أو لست القائل[1]:

وسألتني بالمجد أين محله فالمجد بين محمد وسعيد
بين الأشج وبين قيسٍ في الذرا بَخْ بَخْ لوالده وللمولود

والله لاتبخبخ لاحد بعد اليوم أبداً، ثم أمر بضرب عنقه.

---

١ ـ الأغاني ج ٦ ص ٤٦ . مع فوارق .

قالوا: وأتي بابن القِريَّة فقال: أئذن لي في الكلام. فقال: لاتكلمني. قال: ائذن لي جعلت فداك في ثلاث كلمات كالدهم الواقفات، فأمر به فضربت عنقه.

وقال ابن الكلبي: قتل الحجاج أيوب بن السائب بن النمر بن قاسط وأمه القِريَّة.

وقال المدائني: أمره أن يكتب كتابا إلى ابن الأشعث فكتبه، وقال: انطلق به إليه، فأتاه بالكتاب، فقال: أنت كتبته؟ قال: لا. قال: بلى والله لاجرم لتكتبن جوابه فكتبه، وأتى الحجاج فلما قرأه قال: هذا كتابك. قال: أكرهني عليه. فقتله.

وقال علي بن محمد أبو الحسن المدائني عن أشياخه: قتل زياد بن مقاتل بن مسمع مع ابن الأشعث فقالت امرأته بنت شقيق بن ثور:

وماكنت أخشى أن أقوم سويةً لأبغي زياداً لا أموت وأكمد

وحبس الحجاج مسمع بن مالك، فكتب عبد الملك إلى الحجاج: قد كان من بلاء مالك بن مسمع عندنا مايعفي عن ذنب مسمع ابنه، فخل عنه وولِه سجستان. فولاه إياها فظهر أبو جلدة اليشكري في ولايته، وكان مستخفياً من الحجاج، فكتب إليه الحجاج في حمله، فكتب إليه: إنه قد مات، فكتب إليه: لارحمه الله، ابعث إلي بشعره. فأراد أبو جلدة أن يشخص إليه، فقال له: أتكذبني ويلك، أقم ولاتظهر. وبعث إلى الحجاج بشعره، ثم عتب أبو جلدة على مسمع فقال:

إذا كان خيرٌ قلت قيسٌ عشيرتي ... تميل علينا جائراً في قضائكا
وإن كانت الأخرى فبكر بن وائلٍ ... تخاف عليها ردها من ورائكا
قضية سوءٍ ماقضيت ابن مالك ... أما إن ستجزي فاعلمنَّ بذلكا

فأعطاه عشرة آلاف درهم فقال:

يامسمع بن مالك بن مسمع ... أنت الجواد والخطيب المصقع
فاصنع كما كان أبوك يصنع

فقال: لعنه الله أمرني أن أفعل بأمي ماكان يفعل أبي، ويقال أن الفرزدق قال ذلك.

وقال المدائني: أتي الحجاج بطفيل بن حكيم بمسكن، فقال له: ألم أجعلك عريفاً، ألم أفعل، ألم أفعل؟ قال: بلى. قال: فما أخرجك علي؟ قال: ياأبا محمد، إن رأيت أن تأذن لي فألحق بأهلي؟ قال: نعم، الحق بهم. فلما ولى قال الحجاج: ماكنت أرى أن به البائس من الضعف كل هذا.

قال المدائني: قدم إلى الحجاج قيس بن مسعود فقال: ماكنت أظنك إلا عند أبي حفص، يعني عمر بن محمد بن أبي عقيل، وكان بالبلقاء، فقال يزيد بن أبي كبشة: ﴿أكفاركم خير من أولئكم﴾[1] قال الحجاج: كأنك ترى أن ماقلت له ينجيه، وأمر به فقتل، وكانت ابنته عند عمر بن محمد بن أبي عقيل فلذلك قال له ماقال.

وقال المدائني: قتل مع ابن الأشعث عبد الله بن رزام، والحريش بن هلال، وعمر بن عتبة بن أبي سفيان، ويزيد بن كعب العدوي الشاعر، ونويرة الحميري وكان له هوىً في أهل العراق فأعلمهم بمكانهم فَقُتِلَ

١ ـ سورة القمر ـ الآية : ٤٣ .

وطفيل بن عامر بن واثلة، وغرق ابن أبي ليلى بدجيل الأهواز، ويقال قتل يوم الجماجم.

وقتل مرة بن شراحيل الهمداني الذي يقال له مرة الطيب. وقال له الحجاج: أما في الفتنة فأنت صحيحٌ تحضُّ وتأمر، وأما في الجماعة فأنت مريض سقيم ثم تسعى على أمير المؤمنين عثمان.

قال: وقتل بالكوفة رجالاً من أهل الشام رأوا رأي ابن الأشعث فأعانوه ويقال تعصبوا له باليمانية.

وغرق عبد الله بن شداد بن الهاد الليثي يوم مسكن في دجيل الأهواز. ويقال قتل يوم دير الجماجم.

وأتي الحجاج بعمران بن عصام العنزي الشاعر أحد بني هُميم، فقال: ياعمران ألم أوفدك إلى أمير المؤمنين فوصلك، ثم قدمت فوصلتك؟ قال: بلى ولكن باذام مولى ابن الأشعث أخرجني. قال: أما كان في حجلة[1] امرأتك مقعد لك؟ قال: قد فعلت فأخرجني باذام بالسيف. فهم بالعفو عنه فنظر إلى رأسه فإذا هو محلوق فقتله.

ويقال إن الحجاج أتي بعمران بن عصام فقال له: أقررت بالكفر؟. قال: ماكفرت مذ آمنت، فقتله.

قال: وأخذ ماهان الحنفي بمكة فحمل إلى الحجاج فشدَّ عليه قصباً قد شق ثم أمر به فجذب فقطع جلده فكان يقول أُخذتُ في حرم الله، وأنا بعين الله، ونعم القادر الله، فألقي وقد ذهب ما على عظامه من اللحم، فرق له

---

١ ـ الحجلة: كالقبة، وموضع يزين بالثياب والستور للعروس. القاموس.

أصحابه وبكوا فقال: لاتجزعوا فإن كانت النار فما أيسر هذا فيما يراد بي، وإن كانت الجنة فهذا محتمل.

قال: وقتل الحجاج فيزوز حصين في العذاب وكان مع ابن الأشعث، وكان الحجاج جعل في رأسه عشرة آلاف درهم وجعل هو في رأس الحجاج مائة ألف. فلما قدموا به في الأسرى من خراسان قال: احبسوا أبا عثمان، فحبس واستأداه فقال: إن أمنني على دمي لم أكتمه شيئاً. فلم يؤمنه وعذبه فقال: أخرجوني فإن لي عند الناس ودائع فأخرج وكثر الناس فقال: أيها الناس، أنا فيروز حصين فليبلغ الحاضر الغائب، إنّ من كان لي عنده مال فهو له. فقال لصاحب العذاب: اقتله. فوضع الدهق على صدره حتى قتله. قال: ويقال إن فيروز كتب ماله ولم يسم من هو عنده وقال: لاأسميهم أو تؤمنني على دمي، فلم يؤمنه وقتله.

وقتل الحجاج عمر بن موسى بن عبيد الله بن مَعْمَر وقال له: ألست صاحب ليلة سابور مع ابن الأشعث وقد خضبت أيرك؟ فقال: لقد كنت أرغب به عن عقائل نساء قومك. فقتله.

وقتل الحجاج عتبة بن عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة حين حمل إليه.

وقال ابن الكلبي: أتي بعمران بن عصام فقال له: ألم أقدم العراق وأنت خاملٌ فنوهت باسمك وزوجتك مولاتك ابنة مقاتل بن مسمع ولست لها بكفء، وأوفدتك إلى أمير المؤمنين؟

قال: بلى. قال: فخرجت علي تضربني بسيفك مع ابن الحائك؟. قال: قد فعلت. قال: أكفرت بخروجك عليَّ؟. قال: ماكفرت مذ

أسلمت. فأمر به فضربت عنقه، فقال عبد الملك: أَقَتَلَ عمران بن عصام بعد قوله:

وبعثتَ من ولد الأغر معتب صقراً يلوذ حمامه بالعوسج
مهما طبخت بناره أنضجته وإذا طبخت بغيرها لم ينضج

قال: وكان ممن خرج مع ابن الأشعث: يوسف بن عبد الله بن عثمان بن أبي العاص الثقفي فهرب، ثم مثل بين يدي الحجاج فلما رآه قال: ثكلتك أمك. قال: وأبي مع أمي. قال: أين ألقتك الأرض بعدي؟ قال: ماقمتُ مقاماً أوسع من مقامي، إنَّ الله استعملك علينا فأبينا فأبى علينا. فأمَّنه.

وقتل الحجاج آدم بن عبد الرحمن أخا صالح بن عبد الرحمن. ويقال بل قتله لأنه كان يرى رأي الخوارج.

المدائني عن سعيد بن عبد الرحمن عن مالك بن دينار قال: حبس الحكم بن أيوب الثقفي علي بن زيد بن عبد الله بن أبي مليكة بن عبد الله بن جدعان التيمي، والحسن يومئذٍ مستخفٍ ونحن معه مستخفون فأتاه الحسن ليلاً وأتيناه فأجلسه معه على السرير، فما كنا عنده ليلتنا إلا مثل الفراريج. فذكر يوسف وإخوته فقال: باعوا أخاهم وحزنوا أباهم، ومكانه من أبيه مكانه، ثم لقي يوسف عليه السلام مالقي من الحبس وكيد النساء ثم أداله الله منهم وأعلى كعبه. فلما أكمل أمره وجمع أهله وأقرَّ عينه بأبويه ﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين * قال لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله

لكم وهو أرحم الراحمين﴾(١) قال الحكم: وأنا أقول: لاتثريب عليكم، لو لم أجد إلا ثوبي هذا لسترتكم به، وأطلق علياً.

وقال المدائني: وأخذ الحجاج عبد الله بن شريك الأعور وكان خرج مع ابن الأشعث فقتله، ويقال: كان هرب إلى سجستان فبعث به إلى الحجاج.

وأتي بالمساور بن رئاب السليطي فقتله، وقال: ادفعوه إلى أهله فأهل القتيل يلون القتيلا. ويقال: قتل يوم الزاوية في المعركة.

قال المدائني: وكان الحجاج إذا قتل رجلاً فتزوجت امرأته كف عنها، وإذا لم تتزوج حبسها في قصر المسيرين، فحبس من قدر عليه من نساء أصحاب الأشعث.

وقال المدائني: لما أتي الحجاج برأس ابن الأشعث سجد وقال: كنت أحب أن أوتي به أسيرا فأقيمه فيخطب على حزبه خطبة إبليس على أهل النار: ﴿ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وماكان لي عليكم من سلطان﴾(٢) الآية.

المدائني عن عبد الله بن فائد، وسحيم بن حفص قالا: عرض الحجاج أهل البصرة بعد هزيمة ابن الأشعث على الإقرار بالكفر والنفاق فمن أقرَّ ختم في يده، ومن أبى قتله فما أبى ذلك إلا ثلاثة قتلهم، فكان ابن سيرين يلبس رداءً وإزاراً ولم يكن ختم فيمن ختم، فقيل له: لو لبست قميصاً ليكون أستر ليدك فمن رآك ظنَّ أنك قد ختمت فأبى ذلك.

---

١ ـ سورة يوسف ـ الآيتان: ٩١ ـ ٩٢.
٢ ـ سورة إبراهيم ـ الآية: ٢٢.

حدثني عمر بن شبه عن أبي داود عن شعبة عن عمرو بن مرة قال: لما كان يوم الجماجم أراد القراء أن يؤمروا عليهم أبا البختري الطائي فقال: إني مولى فأمروا رجلاً من العرب.

وروى سفيان بن عيينة عن العلاء بن عبد الكريم قال: رآني طلحة بن مصرف وأناأضحك، فقال: أما هذا فلم يشهد الجماجم.

حدثنا عمرو الناقد عن أبي أحمد عن عبد الجبار الهمداني عن عطاء بن السائب قال: قال لي أبو البختري الطائي يوم الجماجم: أين تفر؟. النار أشد حراً من السيف، فقاتل حتى قُتل.

أخبرنا عمرو عن أبي نعيم عن اسرائيل بن الحكم قال: سمعت ذراً بالجماجم يقول: هل هي إلا حديدة في يد كافر مفتون. قال: وقال زادان: وددت أن دماء أهل الجماجم في كسائي هذا وأنا خصمهم عند الله.

حدثني الحسين بن علي، حدثني يحيى بن آدم عن أبي بكر بن عياش عن الأعمش قال: قلت لابراهيم: مالك لاتخرج، قد خرج ابن أبي ليلى، وسعيد بن جبير، وأبو البختري. وعددت عليه، فقال: إني رجل جبان - يقول عما أقدموا عليه[1] -.

قالوا: وأتي الحجاج بكميل بن زياد، أتى به قومه، فقال له: ياعبد النخع كنت ممن سار إلى أمير المؤمنين عثمان فعفا عنك معاوية، ثم عفا عنك أمير المؤمنين عبد الملك، فأقمت في بيتك مقعداً لاتشهد للمسلمين جمعة ولاجماعة حتى إذا خلع حوَّاك كندة خرجت فقعدت على المنبر ثم قلت: إنَّ شرَّ

---

١ - بهامش الأصل: كميل بن زياد.

بيتين تحت أديم السماء الحكمين: الحكم بن أبي العاص، والحكم بن أبي عقيل، ثم أمر به فضربت عنقه، وهو شيخ كبير.

وقال الهيثم بن عدي: التقى الحجاج وابن الأشعث بمسكن من أبرقباذ فقتل عبد الله بن شداد بن الهاد في عسكر ابن الأشعث، وقتل معه بسطام بن مصقلة بن ميسرة الشيباني، وعمير بن ضبيعة الرقاشي، وبشر بن المنذر بن الجارود، والحكم بن مخربة العبدي، فجعَل الحجاج ينظر إلى رأس بسطام بن مصقلة ويقول:

إذا مـررت بوادى حيـةٍ ذكرٍ فاذهب ودعني أمارسْ حية الوادي

قال: وبكى مسمع بن مالك بن مسمع فقال الحجاج: أجزعاً عليهم؟ قال: لا ولكن جزعاً لهم من النار.

قال الهيثم: وكان قبل مولى زياد عاملاً لابن الأشعث على الأُبُلَّةِ، فأعد سفينة بحرية، فلما صار ابن الأشعث إلى الأبلة حمله في السفينة، وركب معه فمر بعبَّاد بن الحصين وهو في ضيعته بعبادان فناداه: ياأبا مالك احملني معك فإني أخاف الحجاج، فقال ابن الأشعث: إيَّاك أن تدنو منه فإنما يريد أن يتقرب بك إلى الحجاج، فلما لم يطمع فيه نادى: ويلك لايغلبنك ابن الأشعث، تقرَّب به إلى الحجاج تأمن على نفسك وولدك، فأتوا جناباً[1] ثم ركبوا الدواب إلى سابور، ثم مضى إلى سجستان.

قال الهيثم: وكان ممن تبع ابن الأشعث: سَوَّار بن مرواريذ.

---

١ - جنابة: بلدة صغيرة بساحل فارس - معجم البلدان.

وقال المدائني: قال ابن عون: رأيت ابن الأشعث يخطب على منبر البصرة متربعاً مارأيت متربعاً قط على منبر غيره، فجعل يوعد الذين ينهون عن اتباعه، فقيل: إنما يعني الحسن. قال: فأتيت الحسن فما دخل عليه أحد إلا نهاه عن اتباعه.

حدثنا عبيد الله بن معاذ عن أبيه، ثنا أبو معدان عن مالك بن دينار قال: شهدت الحسن بن أبي الحسن، ومسلم بن يسار وسعيداً ومسلماً يأمرون بقتال الحجاج مع ابن الأشعث فقال الحسن: إن الحجاج عقوبة جاءت من السماء، أفتستقبل عقوبة الله بالسيف؟. ولكن استغفروا وادعوا وتضرعوا.

المدائني قال: قيل لابن الأشعث: إن أردت أن يقاتل معك أهل البصرة جميعاً فأخرج الحسن. فيقال إنه أخرجه كرهاً.

حدثنا أبو الربيع الزهراني عن حماد بن زيد قال: حدثني أيوب أنه أخرج كرها وكان ينهى عنه.

المدائني قال: حمل عياش بن الأسود بن عوف الزهري إلى الحجاج أسيراً، حمله يزيد بن المهلب، وكان شيخاً فقال الحجاج: هذا والله الأشمط الغمت[1] الغفل، أتى بالعراق مذ كذا لم أُوَلِّهِ وجهاً قط، ولم أسمع له بذكر، حتى إذا كانت الفتنة خرج فيها تابعاً لابن الحائك. ثم أمر به فقتل.

قال: وقتل محمد بن الأسود أخوه يوم الزاوية. قال: وحمل إليه أيضاً ابنٌ لعبد الله بن عبد الرحمن بن رستم فإذا غلام حدثٌ فقال: أصلح الله الأمير

---

١ ـ غمته: ثقل على قلبه فصيره كالسكران. القاموس.

مالي ذنبٌ. كنت غلاماً صغيراً مع أبي وأمي لا أمر لي ولانهي. قال: وكانت أمك مع أبيك في هذه الفتن كلها؟. قال: نعم. قال: على أبيك لعنة الله.

وروى عبد الله بن المبارك قال: كان مُطَرِّف بن المغيرة بن شعبة مع ابن الأشعث، ثم اعتزله فأتي به الحجاج بعد ذلك فقال: يامطرف: أكفرت؟ فقال: لم نبلغ ذلك، ولو نَصَرْنَا الحق وأهله كان خيراًلنا.

حدثنا الحرمازي، أخبرني أبو عبيدة معمر بن المثنى أنّ الهلقام بن نعيم التميمي قال للحجاج حين أدخل عليه، وقد حمله إليه يزيد بن المهلب: لعنك الله ياحجاج إن فاتك هذا المزوني[1] وقد قدَّم قومك وأخر قومه، فوقر ذلك في قلب الحجاج وقال: أتخذني ابن المهلب جزاراً أجزر مضر وترك قومه اليمانية، وكان قد امسك عن حمل اليمانية، وحمل غيرهم من خراسان.

المدائني قال: لما قتل عبد الملك عبد الله بن إسحاق بن الأشعث أصابوا في ثَقَلِهِ جارية فقالت: أنا لنافع كاتب الحجاج استودعني قوماً بالبصرة، فلما خرج الحجاج عن البصرة دلوا ابن الأشعث عليَّ فأخذني فصرتُ إلى عبد الله بن إسحاق. فبعث بها إلى الحجاج فقال الحجاج لنافع: هذه جاريتك وقد وطئها ابن اسحاق المنافق فلا تقربها، فأعتقها ابن نافع وعوضه الحجاج منها خمسة آلاف درهم فتتبعتها نفسه فتزوجها وأحبلها، وغضب الحجاج عليه في سر أفشاه إلى صالح بن عبد الرحمن في كتاب أقرأه إياه وفي مائة ألف درهم ارتشاها. وبلغه أن الجارية حبلى فأرسل إليه فقطع يديه ورجليه، وسأله عن كتب كانت عنده، فقال: أين تلك الكتب؟ فقال:

١ ـ أي يزيد بن المهلب.

في حر أمك. فقطع لسانه وقال: قطعت لسانك لأفشائك سري، وقطعت يديك ورجليك للرشوة، وزعمت انك تزوجت هذه الجارية ولم تقم البينة على تزويجك فأنا ارجمك. فرجمه، وقيل: مات قبل ان يرجم.

وكان أيضاً تزوج أم ولد للحجاج بغير علمه، وكان نافع مولى لمصعب، فانضمّ إلى الحجاج حين ولي العراق فاستكتبه.

خبر مطرف بن المغيرة بن شعبة الثقفي وخروجه على الحجاج

حدثني على بن المغيرة الأثرم عن أبي عبيدة قال : سمع مطرف الحجاج يقول : أرسول أحدكم أكرم أم خليفته ؟ فوجم وقال : كافر والله ، والله إن قتله لحلال .

وحدثني العمري عن الهيثم بن عدي عن ابن عياش الهمداني قال : قدم الحجاج الكوفة فاستعان بولد المغيرة ، فولى عروة الكوفة وأُمُّهُ أَمَةٌ كانت لمصقلة بن هبيرة ، فلم يزل على الكوفة حتى رجع إليها الحجاج بعد رستقباذ .

وولى حمزة بن المغيرة المدائن ، وأرسل إلى مطرف بن المغيرة وكان يتألَّهُ فقال له يوماً : إن عبد الملك خليفة الله وهو أكرم على الله من رسله . فوقرت في نفس مطرف ، وكان يعتقد إنكار المنكر ولا يبلغ قول الخوارج ، فَمَرَّ شبيب بن يزيد الخارجي بالمدائن ومطرف بها فناظره فخالفه في رأيه ووافقه على الخروج .

وقال هشام ابن الكلبي عن أبي مخنف وغيره: كان بنو المغيرة صلحاء نبلاء ، فاستعمل الحجاج عروة بن المغيرة على الكوفة فكتب الى عبد الملك

كتاباً ذمَّ فيه الحجاج ونَسَبَه إلى العَجَلَةِ والتَسَرُّعِ إلى القتل . فبعث عبد الملك كتابه إلى الحجاج فضربه بالسياط حتى مات وذلك بالكوفة .

وقال أبو عبيدة : كتب عبد الملك إلى عروة وإلى محمد بن عمير بن عطارد يسألهما عن سيرة الحجاج . فأما محمد بن عمير فأتى الحجاج بكتابه فأقراه إياه وكتب جوابه برضاء الحجاج وإرادته . وأما عروة فكتب ينسب الحجاج إلى التجبر والعجلة في الأمور ، والتسرع إلى العذاب ، والإقدام على الدماء ، فضربه حتى قتله بالتجني عليه .

وقال هشام ابن الكلبي : استعمل الحجاج حمزة بن المغيرة على همذان واستعمل مطرفاً على المدائن ونواحيها .

وخرج شبيب بن يزيد الخارج على الحجاج ، فجاء جتى نزل مدينة بهرسير[1] ، فقال بشر بن الأجدع الهمداني لمطرف :

إني أعيذك بالرحمن من نفر ... حمر السبال كأسد الغابة السود
فرسان شيبان لم يسمع بمثلهم ... أبناء كل كريم النجر صنديد
شدوا على ابن حصين في كتيبته ... وغادروه صريعاً ليلة العيد
وابن المجالد إذ أودت رماحهم ... كأنما زلّ عن خلفاء مَنْجودِ

سعيد بن المجالد بن عمير بن ذي مرار الهمداني يعني أصحاب شبيب الخارجي . فقطع مطرف الجسر بينه وبين شبيب ، وبعث إلى شبيب أنْ ابعث إليَّ رجالاً من صلحاء أصحابك لأناظرهم فيما تدعو إليه ، فبعث إليه قعنباً وسويد بن سليمان في آخرين .

١ - بهرسير : إحدى المدائن السبع التي سميت بها المدائن .

واحتبس شبيب رسل مطرف ليكونوا رهناء عنده بأصحابه ، فلما دخلوا على مطرف قال سويد : السلام على من خاف مقام ربه وعرف الهدى وأهله . قال مطرف : أَجَلْ فَسَلَّمَ الله أولئك فقصوا علينا أمركم وخبرونا إلى ما تدعون .

فحمد الله سويد وأثنى عليه ثم قال : الذي ندعو إليه كتاب الله وسنة نبيه ، وقد نقمنا على قومنا الاستئثار بالفيء ، وتعطيل الحدود ، والتسلط بالجبرية . فقال مطرف : ما دعوتم إلا إلى حق ، ولا أنكرتم إلا منكراً ، ولا نقمتم إلاّ جوراً ظاهراً ، وأنا لكم على مثل هذا متابع فأجيبوني إلى ما أدعوكم إليه يجتمع أمري وأمركم ، وتكن يدي وأيديكم واحدة .

قالوا : هات اذكر ما تريد أن تذكر ، قال مطرف : أدعوكم إلى أن نقاتل هؤلاء الظلمة الغاصبين على ما أحدثوا وندعوهم إلى الكتاب والسُّنة ، وأن يكون هذا الأمر شورى بين المسلمين يُوَلُّون مَنْ ارتضوه على مثل الحال التي تركهم عليها عمر بن الخطاب ، فإن العرب إذا علمتْ أنه إنما يُـراد الرضا من قريش رضوا وقنعوا ، فإنما الأئمة من قريش . فقالوا : هذا ما لا نُجيبك إليه يا بن المغيرة ، ولو كان القوم يريدون غدراً كنت قد أمكنتهم من نفسك ففزع لها وقال : صدقتَ وإله موسى .

ومضى القوم فأخبروا شبيباً بقول مطرف ، فطمع فيه ، وبعث إليه من الغد سويداً ، فانطلق ومعه رجل آخر ، فقال له مطرف : من هذا الذي ليس لك دونه سرّ؟ قال : هذا الشريف الحسيب ، هذا ابن مالك بن زهير بن جذيمة العبسي . قال مطرف : بخٍ بخٍ استكرمت ، فاربط ، إن كان دينه على قدر حسبه فهو الكامل .

ثم أقبل سويد على مطرف فقال له : قد ألقينا إلى أمير المؤمنين ما قلت ، وهو يقول لك : إنّا لا نرى قريشاً أحق بهذا الأمر منا ، فكما اختارت قريش أفضلها بعد وفاة رسول الله فكذلك لنا أن نختار أفضلنا .

وانصرف الرجلان ، ثم إن مطرفاً دعا رجالاً من ثقاته ونصحائه فيهم الربيع بن يزيد الأسدي فقال لهم : إنكم نصحائي وأهل مودتي ومن أثقُ بصلاحه وحسن رأيه ، ولم أزل لأعمال هؤلاء الظلمة كارهاً أنكرها بقلبي ، فلما عظمت خطيئتهم ، ورأيت هؤلاء يجاهدونهم لم أرهم أولى بمجاهدتهم مني ، ولم يسعني إلاّ مخالفتهم ومحاربتهم إنْ وجدتُ أعواناً عليهم ، ولو كان هؤلاء الخوارج أجابوني إلى الشورى ، ولم يركبوا أهواءهم لقاتلتُ معهم ، وخلعتُ عبد الملك بن مروان والحجاج .

فقال له يزيد بن أبي زياد مولاه : إني لا آمن أن يُؤدى ما كان منك إلى الحجاج ، ويُزاد على كل كلمة مما تتكلم بها عشرة أمثالها ، وأرى لك أن تطلب داراً غير المدائن فإن أصحاب شبيب سيتحدثون بما دار بينك وبينهم حتى يفشو خبرك وخبرهم ، ونحن مجيبون لك إلى دعوتك . فقال : إني أُشهدكم أني قد خلعت عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف ، فمن أحبَّ صحبتي فليصحبني ومن أباها فليذهب حيث شاء فإني لا أحب أن يتبعني من لا نية له في جهاد أهل الجور ، وأني أدعوكم إلى قتالهم ، فإذا جمع الله لنا أمرنا كان هذا الأمر شورى بين المسلمين يرتضون من قريش من أحبوا. فوثب إليه أصحابه فبايعوه ، وأتاه قوم من أهل المدائن فبايعوه أيضاً ، وارتحل حتى أتى الدسكرة ، ثم خرج منها متوجهاً نحو حلوان وقد صارت معه جماعة يرون رأيه .

وبلغ الحجاج بن حارثة خروج مطرف فاتّبعه وصار معه في ثلاثين ، ودخل مطرف حلوان فقاتله عامل حلوان قتالاً خفيفاً عذر فيه ، ثم بعث إليه العامل أن اخرج من حلوان فإني أكره أن ينالك وأصحابك مني مكروه ، فمضى وعرض له الأكراد فأوقع بهم ، فلما دنا من همذان كره أن يدخلها فيتهم أخوه حمزة عند الحجاج ، فبعث إليه يسأله إعانته بمال وسلاح ، وكان رسوله يزيد بن أبي زياد ، فصرفه إليه بما سأله .

وبلغ الحجاج ذلك فعزل حمزة ، وكتب إلى قيس بن سعد العجلي ، وهو على شرطة حمزة بن المغيرة ، بولايته همذان ، وأمره أن يحبس حمزة فحبسه ، فيقال إنه مات في الحبس .

وسار مطرف حتى نزل بقرب أصبهان ، ثم صار إلى ناحية قُمْ وقاشان وعلى أصبهان البراء بن قبيصة بن أبي عقيل الثقفي ، وهو الذي يقول فيه الشاعر .

حوى الملك حجاج عليك كما حوى   عليك الندى والمكرمات بـراء

فبعث الحجاج نحواً من ألف رجل من موالي الإمارة عليهم عُبيد مولاه إلى البراء ، وأمره أن ينهض إلى مطرف ، فأنهضهم وعدة معهم ممن قِبَلَهُ إليه ، فقاتلوه فهزمهم حتى لحقوا بالبراء وهو بجيّ[1] .

وكان مطرف قد كتب كتبه بالدعاء ، وبثّ دعاته في النواحي فأجابه خلق من الناس ، فكتب البراء إلى الحجاج : إن كانت لك في أصبهان وغير أصبهان حاجة فابعث إلى مطرف جيشاً كثيفاً يستأصله ، . فإنه لا تزال

---

١ ـ جي : اسم مدينة ناحية أصفهان القديمة . معجم البلدان .

العصابة بعد العصابة تأتيه فقد كثرت تابعته ، واستفحل أمره ، واشتدت شوكته ، فكتب إليه الحجاج : إذا أتاك كتابي فاخرج بمن معك ، ومن بعثت به إليك من الموالي ، فعسكر حتى يصير إليك عدي بن وتاد الإيادي من الري فقد كتبت إليه أن يُنهض إليك ثلاثة أرباع أهل الري ، فإذا صار إلى ما قبلك كان أمير الجيش كله فسمعت له وأطعت .

فوافاه عدي فيمن نهض معه، واجتمعا على قتال مطرف، والأمير: عديّ بن وتاد ومعه عمرو بن هبيرة الفزاري على إحدى مجنبتيه ، وهو في حَدّ دستبى. فلما تدانوا وعظهم مطرف ودعاهم إلى مجاهدة الظلمة، ثم أمر بعض أصحابه فنادى : يا أهل قبلتنا أسألكم بالله الذي لا إله غيره لّما انصفتمونا وصدقتمونا فإن الله شهيد على نِيَّاتكم أخبرونا عن عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف ، ألا تعلمونهما جبارين يتبعان الهوى ويزيغان عن الحق ويأخذان بالظنّة ويقتلان على الغضب ؟. فقالوا من كل جانب : كذبتَ يا عدو الله ، فقال مطرف : قل لهم : ﴿وَيْلَكُم لا تَفْتَروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى﴾[1] قد استشهدتكم فكتمتم الشهادة ، وقال الله عز وجل : ﴿ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثِمٌ قلبهُ﴾[2] .

وكان الرجل بكير بن هارون البجلي ، فخرج إليه صارم مولى عدي بن وَتّاد فقتله بكير وجعل يقول :

صارمُ قد لاقيت سيفي صارما غير كهامٍ يختلي الجماجما

١ ـ سورة طه ـ الآية : ٦١ .
٢ ـ سورة البقرة ـ الآية : ٢٨٣ .

ثم لقي القوم فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فانكشفت ميسرة مطرف حتى انتهت إليه، فجعل يقول: ﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سَواءٌ بيننا وبينكم ألّا نعبد إلا الله ولا نُشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾[1] .

وقاتل أشد قتالٍ حتى قُتل واحتز رأسه عمرو بن هبيرة الفزاري ، وذكروا أنه هو قتله ، وقيل إن الذي قتله غير ابن هبيرة ، وإن ابن هبيرة احتزَّ رأسه فأوفده به عدي بن وتاد إلى الحجاج وبذلك حظي وذكر .

وقتل يزيد بن أبي زياد مولى المغيرة ، وكان صاحب راية مطرف .

ثم انصرف عدي وأصحابه إلى الري ، وطلبت بجيلة الأمان لبكير بن هارون فأمنه عدي ، وكان رجال من أصحاب مطرف لما أُحيط بهم في عسكره نادوا : يا براء خُذْ لَنا الأمان ، يا براء اشفع لنا . فشفع لهم ، فنزلوا .

وأسر عدي خلقاً فخلى سبيلهم وبسط للناس الأمان فسلموا .

وأتى الحجاج بن حارثة الري فطلب إلى عدي بن وتاد فيه وهو مستخفٍ ، فقال : هذا رجل مشهور مع صاحبه ، وهذا كتاب الحجاج فيه أن أحمله إليه إن كان حياً، ولابد من السمع والطاعة له، ولولا كتابه لم أعرض له ولم أطلبه ولآمنته . فلم يظهر الحجاج ولم يزل خائفاً حتى عزل عدي بن وتاد عن الري ، وقدم خالد بن عتاب بن ورقاء الرياحي والياً على الري ، فكلم فيه فأمنه وظهر .

---

١ ـ سورة آل عمران ـ الآية : ٦٤ .

وقال بعضهم : كان مطرف يرى رأي الخوارج ، وذلك باطل ، إنما كان رأيه كرأي من خرج مع ابن الأشعث من القراء . قالِ الشاعر :

فيا فرحه ما يغْرمَنَّ عدونا إذا لم يكن في دستبى مُطَرِّفِ
فنعم الفتى تعشو إلى ضوء ناره ونعم الفتى عند القنا المتقصف

وقال بعضهم : وجه الحجاج إلى مطرف أولاً علقمة بن عبد الرحمن ، ويقال خريم بن عمرو المري . وكان عمر بن هبيرة في جنده ، ثم كتب إلى ابن وتاد أن يلقاه وولاه الجيش الذي بعثه إليه وقال قوم : تولى حرب مطرف خريم ، وهو أوفد ابن هبيرة إلى الحجاج ، وأمر ابن وتادٍ أثبت .

حدثني عبدالله بن صالح العجلي قال : كتب عبد الملك إلى أبي يعقوب عروة بن المغيرة ، وإلى محمد بن عمير بن عطارد : إنكما من سراة أهل العراق فاكتبا إليَّ بسيرة الحجاج وأمره وأصدقاني عنه . فأما محمد بن عمير فأتى الحجاج بالكتاب وقال : آمُرْني بأمرك فكتب إليه بما أملاه الحجاج . وأما عروة فكتب : إن في الحجاج عجلة ، وإن في لسانه ذرباً . فبعث عبد الملك بالكتاب إلى الحجاج ، فدعا بعروة فضربه بالسياط حتى مات وذلك بالكوفة .

وقال المدائني : كتب عروة : إنّ فيه غربا وتسرعاً وإقداماً على الدماء . فضربه الحجاج حتى قتله .

وحدثني عباس بن هشام عن أبيه عن عوانة قال : كانت الفارعة بنت همّام بن عروة بن مسعود بن مُعتِّب أم الحجاج بن يوسف عند المغيرة بن شعبة ، فولدت له ابنة فماتت فخاصم الحجاج في ميراثها عروة بن المغيرة إلى ابن زياد ، فأغلظ له عروة بن المغيرة وقال : مالأختك عندنا ميراث . فكان

يحقد ذلك على عروة . فلما كتب فيه إلى عبد الملك بما كتب به قدم رسول عبد الملك إلى الحجاج بكتابه وعروة عنده فقال له : ما هذا الكتاب ؟ فلم يجبه . فضربه الحجاج وهو شيخ فمات تحت السياط . وقال قوم : أُخرج من الكوفة فمات بظهر الكوفة من ذلك الضرب .

حدثني عمر بن بكير عن الهيثم بن عدي قال : ابتاع المغيرة بن شعبة من مصقلة بن هبيرة جارية له ، وكان بها حبل ، فولدت له مطرف بن المغيرة فتنازعا فيه ، واختصما إلى معاوية ، فقضي بالولد للمغيرة ، وقذف مصقلة المغيرة فقال له : يا زانٍ . فيقال إن معاوية أراد أن يحد مصقلة . وقال قوم إنه حده وولاه بعد ذلك طبرستان .

وقال ابن الكلبي : قدم مصقلة يريد طبرستان فرأى قبر المغيرة فقال :

إن تحت الأحجار حزماً وعزماً وخصيماً ألد ذا مصداق
حية في الوجار أربد لا ينـ ـفع منه النفوس رَقْيَ الراقي

وقال أبو عبيدة : هلك مصقلة بطبرستان فقدم بثقله إلى الكوفة وفيه جارية له حاملٌ ، وكانت وضيئة ، فأخذها المغيرة بمال كان له عليه ، فولدت له مطرفاً فكان الحجاج يقول : لو كان مطرف من ولد المغيرة ما خرج على السلطان ولكان ذا سمع وطاعة واستقامة وسلامة كما سمع حمزة أخوه وأطاع ، ولكنه ابن مصقلة كما قيل وهذا الدين معروف لبني شيبان وليس فينا شيء منه بحمد الله ونعمته . وكان يقول أيضاً : ما لثقيف وهذا الرأي ، إنما هذا الرأي لبني شيبان .

أمر الخوارج في أيام عبد الملك بن مروان

أمر قطري بن الفُجَاءَة :

قالوا : لما قتل الزبير بن علي بأصبهان أراد الخوارج ان يولوا أمرهم عبيدة بن هلال ، فقال عبيدة : أنا أدلكم على من هو خير مني . قطري بن الفجاءة . فبايعوه ، وكان قطري يكنى أبا نعامة . فلما بلغ الأحنف خبره ومسيره من أصبهان قال : إيه أبا نعامة ، ان ركب بنات سجاح وقاد بنات صهال ، وأمسى بأرض وأصبح بأخرى وجبى المال ، وأعطى الرجال طال أمره ، فبلغ ذلك قطرياً فنادى في عسكره : ألا لا يصحبنا إلا رجل معه بغل فكان ذلك مما ينكر على الأحنف . واسم الفجاءة فيما ذكر الكلبي عن شرقي القطامي جَعْوَنة .

وقال غيره أن اسمه مازن بن زياد بن يزيد بن حَنْثر بن حارثة بن صُعَيْر بن خزاعي بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم .

وقال الكلبي : غاب مازن بن زياد باليمن دهراً ثم أتاه فجاءة فسمي الفجاءة ، وكان اعتقاد قطري وبيعته في سنة إحدى وسبعين .

وأتى قطري فارس وعليها عمر بن عبيد الله بن معمر فاقتتلا ، ثم صار قطري والخوارج إلى رام هرمز وكان المهلب بن أبي صفرة بالبصرة ، وقد أراد المصعب بن الزبير المصير إلى باجميرى[1] للقاء عبد الملك فسأله المهلب أن يكون معه أو بقربه فأبى وقال : ان أهل مصرك محتاجون أن تدفع عنهم هذا العدو المطل عليهم فأنا أؤثرهم بك لأني خائف أن تسبيهم الحرورية . فسار المهلب لقتال الخوارج فلما بلغ ذلك قطرياً صار إلى كرمان فقال بعض أصحاب قطري :

هربنا نريد الخفض من غير علةٍ وللحرب ناب لا يُفل ومخلب
فقولا لأصحاب القرآن نصيحة دعو الظن إن الظن بالناس يكذب
عسى أن تقولوا أن فينا منافقاً يعيب أمير المؤمنين ويقصب
فلا والذي أرسى ثبيراً مكانه ورضوى بأكناف الحجاز وكبكب
لقد قلت هذا غير طالب عيبه وفي عيبه لو عبت جذع موعب[2]

فلما بلغ قطرياً الشعر رجع إلى رامهرمز ، فسار إليه المهلب فقاتله ثلاثة أشهر أو أكثر ، وقتل مصعب بن الزبير فبلغ خبر قتله قطرياً قبل أن يبلغ المهلب ، فناداهم الخوارج : ما تقولون في مصعب ؟ قالوا : إمام هدى . قالوا : فما تقولون في عبد الملك ؟ قالوا : ضالٌّ مضلٌّ . فمكثوا يومين أو ثلاثة ثم أتى المهلب قتل مصعب واجتماع الناس على عبد الملك ، وورد على المهلب كتاب عبد الملك بتوليته قتال الخوارج فضجوا في عسكره ، وأقبل

---

١ ـ باجميرى : موضع دون تكريت . معجم البلدان .
٢ ـ أوعب : جمع والجذع استأصله ، والشيء في الشيء أدخله فيه كله . القاموس .

الخوارج فوقفوا على الخندق فقالوا : ما تقولون في مصعب بن الزبير ؟ قالوا : لا نخبركم ، قالوا : فعبد الملك ؟ قالوا : إمام هدى . قالوا : يا أعداء الله كان بالأمس عندكم ضالاً وهو اليوم إمام هدى . لعنكم الله يافساق يا عبيد الدنيا . وهذا أثبت الأخبار ولم يأت قطري فارس لمكان عمر بن عبيد الله ، فقُتل مصعب وقطري برامهرمز .

ولاية خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد

قالوا : قدم خالد البصرة والياً من قبل عبد الملك بن مروان ، وجهه من الكوفة وقال له : أكرم جُفْريتك ـ يعني من نصره يوم الجُفْرَة ـ فعزل خالد المهلب عن قتال الأزارقة : قطري وأصحابه ، وولاه الأهواز وكور دجلة ، وولى فارس ابنيه ، فجعل أحدهما في بعض كورها ، والآخر على باقيها ، وبعث أخاه عبد العزيز بن عبدالله على قتال قطري وأصحابه ، فسار إلى قطري ومعه فرسان أهل البصرة ، ومعه مقاتل بن مِسْمع ، وكان معه ابن قيس الرقيات .

وقال أبو الحسن المدائني : لما قدم خالد وذكر عزل المهلب عن قتال الأزارقة قال له ابن النعمان بن صبهان الراسبي : إن أهل البصرة قد كانوا أمنوا العدو والمهلب بالأهواز وابن معمر بفارس ، وقد عزلت معمراً عن فارس فإن عزلت المهلب لم تأمن العدو .

فقال خالد : ذهب المهلب بحظ هذا المصر فأعزله وأوجه عبد العزيز إلى هذه المارقة ، فقال له أمية أخوه : لا تعزل المهلب فإن ظفره لك وهزيمته عليه . فأبى إلا عزله . وكتب إلى المهلب فقدم عليه .

وتجهز خالد وشخص إلى الأهواز ، وأقبل قطري والخوارج إلى الأهواز فخرج إليهم خالد ومعه المهلب فالتقوا بكريج دينار ، فقاتلوا خالداً ومنعوه من حط أثقاله وصبر لهم يومه كلَّه فقُتل الربيع بن زياد اليشكري ، وهو يومئذٍ على شرطته .

وتحاجزوا عند المساء فقال له المهلب : إنك لا تدري أتطول حربك أم تقصر وما ههنا لا يحمل متعلقك وسرحك ، فاقطع دجيلاً فتصير بين مناذر والسوس وجنديسابور ونهرتيرى . ففعل وارتحل قطري فنزل مدينة نهرتيرى ، وكان الخوارج قد بنوها وخندقوا وعقدوا جسراً وجعلوا كرسيه في الخندق .

ونزل خالد رستاقاً من مناذر يقال له بِرَتا ، فقال المهلب : ان قطرياً قد تحصن وأنت أولى بهذا منه فخندق وفرغ سفنك وأدخلها الزايذان فإني لا آمن البيات ، قال : يا أبا سعيد الأمر أعجل من ذلك ، فقال المهلب لبعض أصحابه : أخرجوا ما كان لكم من متاع في هذه السفن فإني أرى أمراً ضائعاً ، وقال لزياد بن عمرو : خندق فخندق .

ودعا المهلب فيروز حصين إلى التحول إليه فقال : يا أبا سعيد الرأي رأيك ولكني أكره مفارقة أصحابي . قال : فكن يا أبا عثمان قريباً منا إذا رأيت مفارقة أصحابك ، فقال : أما هذا فنعم . وكان زياد يومئذ على شرطة خالد بن عبدالله ، وقاتلهم الخوارج أربعين يوماً لا ينفسونهم .

وكتب عبد الملك إلى بشر بن مروان أن يمد خالداً بجيش عليه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي ففعل ، وقال بشر لعبد الرحمن : إذا فرغتم من الحرب فسر إلى الري . فقدم عبد الرحمن على خالد ، وقال

المهلب لخالد : أصلح الله الأمير إنك قد أبيت أن تخندق وأن تدخل سفنك الزايـذان فحول ما في سفنك فأبى .

وأقبل الخوارج يريدون أن يبيتوا خالداً ، فأخذوا سفناً فيها قصب فألهبوا فيها النيران وحدروها على سفن خالدٍ ، وأقبلوا هم على خيولهم ، وأحرقت النيران سفن خالد ، وأقبل الخوارج حتى خالطوا عسكر خالد لا يلقون أحداً إلاّ قتلوه ولا دابة إلاّ عقروها ولا فسطاطاً إلاّ هتكوه وألهبوا فيه النار ، فبعث المهلب يزيد ابنه في مائة فارس فخرج من الخندق ، وجاء الصلت بن الغضبان الجذعي في مائة ، وجاء فيروز حصين في مائة من مواليه ، وجاء عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث في مائة ، فحمل الخوارج عليهم فصُرع يزيد بن المهلب فقاتلوا عنه حتى ركب ، وأبلى عبد الرحمن بن الأشعث فصُرع ، وحامى عليه قوم من همدان ، وأبلى الصلت ، ورماهم فيروز بالنشاب حتى أخرجوهم من العسكر ، فانصرفوا على حاميتهم إلى عسكرهم ، ونادى ملاّحو قطري مَلاَّحي خالد : تعالوا إلى خير الناس وأوفاهم فقال أعشى همدان لعبد الرحمن بن الأشعث في قصيدة .

ويـوم أهـوازك لا تـنـسـه ليس الثنا والمدح بـالبـائـد

وأصبح عسكر خالد كأنه حرة سوداء من الرماد ، فنادى الخوارج خالداً : ذهبت سفنك لولا هذا الساحر المزوني لأهلكك الله وأخزاك .

وقال خالد للمهلب لما رأى ما بعسكره من القتلى والجرحى : كدنا نفتضح . فقال : إن لم تخندق عادوا إليك . فقال : اكفني أمر الخندق فقام المهلب بالخندق حتى أحكمه فقاتل قطري خالداً بعد أن خندق ثلاث

مرات ، ثم ارتحل إلى كرمان . ورجع خالد إلى البصرة وخلف أخاه على الأهواز عاملاً عليها .

وقال قطري لما بلغه انصراف خالد : إن أتاكم عتاب بن ورقاء أتاكم شجاع يلقاكم في سرعان الخيل ، وإن أتاكم حجازي فهو ما تريدون ، وإن أتاكم ابن معمر فليست ثم مناظرة ، هي دفعة إما له وإما عليه وفيها الموت . وإن جاءكم المهلب فإن ناجزتموه ناجزكم وإن طاولتموه طاولكم وهو البلاء .

قال أبو الحسن المدائني : أقام قطري وأصحابه بكرمان خمسة أشهر ثم أتوا فارس فقال له مقاتل بن مسمع : وَلِّ عبد العزيز قتال الأزارقة وانتخب له ، ففعل .

وشخص عبد العزيز في ثلاثين ألفاً ويقال في خمسة وعشرين ألفاً وعلى شرطه هَرَاسة بن الحكم ، أحد بني ضبيعة بن قيس بن ثعلبة ، وعلى بكر بن وائل مقاتل بن مِسمع ، وعلىٰ بني تميم عبس بن طلق ، وحمل عبد العزيز معه امرأته ابنة المنذر بن الجارود ، واستعمل خالد المهلب على الأهواز ، فأقام بها في ثلاثمائة .

وقال عبد العزيز حين سار للقاء الخوارج : زعم البصريون أن هذا الأمر لا يقوم له إلاّ المهلب ، وسيعلمون .

وكان الخوارج بأَزْدَشِيرْخُره ، فلما قرب عبد العزيز منهم قيل له : إن الخوارج منك قريب فانزل الناس على غير تعبئة ، فما حطوا الأثقال حتى طلع عليهم سعد الطلائع في سبعمائة وهم على غير تعبئة فناوشوهم ثم ولى الخوارج منهزمين مكيدة منهم ، وقال سعد : استطردوا لهم ، واتبعهم عبد

العزيز والناس فقيل له : ارجع واتركهم حتى يحط الناس أثقالهم . فقال : لا حتى أخرجهم من هذا الرستاق .

فانتهوا إلى عقبة فصعدوا فيها ولهم بها كمين ، ثم انحدروا من العقبة واتبعهم عبد العزيز وأصحابه ، وخرج الكمين عليهم فحكّموا ، وعطف قطري والخوارج فقاتلوهم فقال عبد العزيز لعبس بن طلق : انزل . فنزل وهو أعرج فقتل ، وصبر الناس فقتل مقاتل بن مسمع وهراسة بن الحكم وسليم بن سلمة الليثي وجعفر بن داود بن قحذم أحد بني قيس بن ثعلبة ، وانحاز عبد العزيز والناس واتبعوهم فقتلوهم حتى فرسخين وأسروا منهم أسرىٰ فشدوهم وثاقاً وألقوهم في غار ، وسدوا عليهم بابه فماتوا فيه .

وحوىٰ قطري عسكر عبد العزيز وأخذوا امرأته أم حفص بن المنذر بن الجارود . وأخذوا امرأة سليم بن سلمة وغيرها . وساقوا النساء إلى عسكرهم ، وضربت امرأة منهن الرجل الذي أخذها بسوارها فشجته فقتلها وكان يقال لها ريمة ، ونادوا على أم حفص فتزايد عليها قوم أسلموا من المجوس وصاروا خوارج ففرض لهم الخوارج في خمسمائة خمسمائة فسموا البنجكية حتى بلغوا بها سبعين ألفاً ، فغم ذلك قطري بن الفجاءة وقال : ما ينبغي لرجل من المسلمين المهاجرين أن يكون له سبعون ألف درهم ، وإن هذه لفتنة ، فضربها أبو الحديد العبدي فقتلها فأخذوه فقال قطري : مَهْيَم يا أبا الحديد . قال : يا أمير المؤمنين خشيت الفتنة عليهم في هذه المشركة ، قال : أحسنت، وقال آل الجارود : ما ندري أنذم أبا الحديد أم نشكره ؟ فقال رجل من الخوارج :

كفانا فتنة عظمت وجلت ... بحمد الله سيف أبي حديد
تغالى المسلمون بها وقالوا ... على فرط الهوىٰ هل من مزيد
فزاد أبو الحديد بنصل سيف ... رقيق الحد فعل فتى رشيد

وجاء يومئذ العلاء بن مُطَرِّف بن شهاب التميمي من بني عبشمس ومعه امرأتان له إحداهما عبشمية من بني ملادس والأخرى ضبيّة يقال لها أم جميل وهي مطلقة ، وقال :

ألست كريماً إذ أقول لفتيتي ... قفوا فاحملوها قبل بنت عقيل

بنت عقيل يعني العبشمية المطلقة

ولم لم يكن عودي نضارا لغودرت ... بخسف غداة الروع أم جميل
فقلت لبئس الفحل فحلك إن نجا ... وآل ولما يذعروا بقتيل
وما سر لي من والد ترك عرسه ... فكيف إذا غب الحديث أقول
وحمتها عند الفراق ببكرة ... حفاظاً وإخوان الحفاظ قليل

العلاء ابن عم عمرو القنا الخارجي ، وكان قطري يقدمه أمامه ، وكان العلاء يتمنىٰ أن يلقاه عمرو فلقيه فتمثل عمرو :

تمناني ليلقاني لقيط ... وذاك عليه لو يدري بلاء

ثم قال له : النجاء يا أبا الصدي .

وقال الهيثم بن عدي : كان على عبد العزيز سلاح مظاهر ، فضرب ثلاثين ضربة فلم تحكم فيه ، وفر فقال بعضهم : قبح الله ابن السوداء ، فر وإن الدُّوْلَةَ له .

قال : وقال ابن قيس الرقيات :

عاهد الله إن عدته المنايا ليعودن بعدها حرميا

مرة يسكن الصفاح ونعما[١]ن ومراً ومرة في حديا

حيث لا يشهد الصفوف ولا يسمـ ـع يوماً لركز خيل دويا[٢]

حدثني خلف بن سالم عن وهب بن جرير عن أبيه عن عمه صعب بن زيد قال : لما توجه عبد العزيز بن عبدالله بن خالد بن أسيد إلى قطري أتاني كردوس حاجب المهلب وأنا بالأهواز فقال : أجب . فأتيته فقال : يا صعب كأني انظر إلى هزيمة عبد العزيز ولا أدري من يفجأنا وليس معي جند فأعلم أين مستقر عبد العزيز ، فخرجت حتى علمت مكانه وما بينه وبين الخوارج ، ثم خلفت عمران بن عزيز البرساني ليكتب بخبرهم ، وإذا كردوس قد دعاني بعد مقدمي بثلاث ، فأتيت المهلب وأقرأني كتاب عمران بن عزيز بهزيمة عبد العزيز ، فقال : اخرج حتى تلقى الفَلَّ وتعلم العلم ، فخرجت على فرسي فسمعت بالليل كلام عبدالله بن قيس الجهضمي فناديته فعرفني فقلت : ما وراءك ؟ قال : الشر . قلت : أين عبد العزيز ؟ قال : أمامك . فانتهيت إلى ماهزويان[٣] فإذا خمسون فارساً معهم لواء فجاءني رجل يركض فقلت : لمن هذا اللواء ؟ فقال : لعبد العزيز . فدنوت

---

١ ـ نعمان : قرب الكوفة من ناحية البادية والصفاح : موضع بين حنين وأنصاب الحرم ، ولم أقف على تحديد للموقعين الآخرين . معجم البلدان .

٢ ـ لم ترد هذه الأبيات في ديوان ابن قيس الرقيات المطبوع .

٣ ـ ماه اسم القمر كانوا يقحمونه على اسم كل بلد ذي خصب ، لأن القمر هو المؤثر في الأنداء والمياه التي منها الخصب معجم البلدان ، هذا ولم يذكر ياقوت هذا الماه في معجمه .

منه فسلمت عليه ثم قلت : أيها الأمير لا يعظم عندك ما لقيت فإنك كنت في شر جند كلهم متأمّر مقاتل وهراسة والهذيل بن عمران وأشباههم ، ثم تركتهم وأقبلت إلى المهلب فقلت : الخبر ما يَسُرُّك ، هزم الرجل وافتضح . فقال : ويحك ، وما يسرني في فضيحة رجل من قريش وفل جيش المسلمين ، فوجهني إلى خالد فامتنعت وقلت أهديك إذاً إلى بيت الله ، فوجه عمران بن عزيز وقال : أنا بينه وبين أخيه فلا أجد بُداً من أن أبعث إليه بخبره قال : فلما أتى خالداً فأخبره قال : كذبت وكذب من بعث بك والله لهممت أن أضرب عنقك .

قال عمران : ورد علي رجل من قريش وقال : كذبت فقلت : أصلح الله الأمير إن كنت كاذباً فاقتلني وإن كنت صادقاً فأعطني مطرف هذا المتكلم . قال : لهان ما أخطرت به دمك .

قال صعب : وقدم عبد العزيز على المهلب فوصله وكساه وبره وشخص معه إلى البصرة ، واستخلف بالأهواز ابنه حبيب بن المهلب وقال : لا تبرح موضعك حتى ترى الخيل فإن رأيتها فصر إلى مناذر ثم اقطع الجسر وخذ على نهر تيرى حتى تقدم إلى البصرة ، ففعل حبيب ذلك حين رأى الخوارج وقدم البصرة فغضب خالد فتوارى حبيب حتى كلمه فيه المهلب فرضي . وتزوج حبيب في تواريه أم عباد بن حبيب وهي من بني هلال .

قال صعب : وكتب خالد إلى عبد الملك يعتذر لعبد العزيز وقال للمهلب : ما تراه صانعاً فيَّ ؟ قال : يعزلك . قال : تراه قاطعاً رحمي ؟ . قال : نعم قد علم أمر أُمية وانهزامه عن أبي فديك ، وعلم أمر عبد العزيز وأخذ خالد ما كان في بيت المال .

وقال الهيثم: لما أمد المهلب بعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قال له: يابن أخي خندق على اصحابك. قال: ياأبا سعيد أنا أعلم بهم منك، والله لهم أهون عليّ من ضرطة جمل. فقتل من أصحابه ولقوا شراً ولقب ضرطة الجمل. فقال الشاعر:

تركت فرسانا تدمى نحورهم   وجئت منهزما ياضرطة الجمل

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: أخذ خالد بن عبد الله ماكان في بيت المال بالبصرة وهو خمسة عشر ألف ألف درهم.

وقال أبو الحسن المدائني وغيره: كتب عبد الملك إلى خالد: إني عهدت إليك أن تولي المهلب قتال الخوارج، فلما ملكت أمرك آثرت هواك على طاعتي فعزلت المهلب ووليته الجباية، ووليت أخاك عبد العزيز قتال الأزارقة فقبح الله هذا الرأي، أتبعث أخاك وهو رجل من أهل مكة وتدع المهلب وقد مارسهم وقد قال الأول: ياعجبا من ضأن يطأن الرَّحَضَ[1] ولعمري لو عاقبتك على قدر جرمك لأتاك مالا بقية بعده، ولكني ذكرت الرحم فحجزني ذلك فجعلت عقوبتك عزلك.

وانتشر الخوارج وقال بعض الشعراء:

بعثت غلاماً من قريشٍ فَرُوقَةً   وأخرت ذا الرأي الأصيل المهلبا
أبى الذم واختار الوفاء وجربت   مكيدته عند الأمور وجُـرِّبا

وقال أبو الحديد:

---

١ ـ الرحض: الشنة والمزادة الخلق. القاموس.

عبد العزيز فضحت جيشك كلهم وتركتهم صرعى بكل سبيل
من بين ذي رمقٍ يجود بنفسه وملحبٍ[1] وسط الغبار قتيل
هلا صبرت مع الشهيد مقاتلٌ إذ رحت منتكث القوى بأصيل
وتركت جيشك لا أمير عليهم فارجع بعارٍ في الحياة طويل
ونسيت عرسك إذ تقاد سبيَّة تبكي العيون برقةٍ وعويل

وقال أيضاً:

عبد العزيز فضحت جيشك كلهم وتركتهم صرعى بكل مكان
لما رأيت أبا نعامة مقبلاً نجيت نفسك والرماح دوان
ورأيت سعداً في الطلائع معلماً ولصالح شغباً على الأقران
أسلمت عرسك والبلاء موكلٌ بالقول عند تشاجر المران[2]

وقال آخر:

ألا ليت شعري مايقولن خالدٌ إذا الخيل جالت والقنا يتشاجر
أتصبر إنَّ الصبر ليس سجيةً لآل أسيدٍ يوم تسبى الحرائر

وقال الفرزدق:

فرَّ اللئيم عن اللقاء مبادراً وثوى بمنزله الكريم مقاتل[3]

وقال عبد الملك: نكس خالد الرماح على عواليها، وترك المهلب المعروف بالنجدة والعلم بمكيدة الخوارج فجعله جابياً، وولى أخاه قتال الخوارج.

١ ـ الملحب: المضروب بالسيف. القاموس.
٢ ـ بهامش الأصل: المران: الرماح، واحدها مرانة.
٣ ـ ليس في ديوان الفرزدق المطبوع.

قالوا: ولما عزل عبد الملك خالداً جمع لبشر بن مروان الكوفة والبصرة وكتب إلى بشر: إنك أخو أمير المؤمنين يجمعك وإياه مروان، وإن خالداً يجمعني وإياه أمية فانظر لنفسك وانظر المهلب فإنه حازم صارم فوجهه إلى هذه المارقة، وأمِدَّهُ من أهل الكوفة بثمانية آلاف.

فغم بشراً كتابه في المهلب وقال: والله لأقتلنه فإنه زبيري. فقال له موسى بن نصير: أصلح الله الأمير. إن للمهلب بلاءً وطاعةً ووفاءً. فسار بشر من الكوفة إلى البصرة في آخر سنة أربع وسبعين وأول سنة خمس وسبعين، فكتب موسى بن نصير وعكرمة بن ربعي، وكان عكرمة واداً للمهلب، إلى المهلب: أن الق الأمير متذللاً. فلقيه على بغلٍ أو حمار وسلم مع العامة ثم انصرف.

ودخل بشر البصرة وعن يمينه الهذيل بن عمران البرجمي وعن يساره الحكم بن المنذر بن الجارود. فقال المهلب: أميركم يشرب. قد كنا نكتفي بشاهد واحد وهذان شاهدان، وكانا يشربان.

ولما نزل بشر دار الإمارة سأل عن المهلب وقال: لم أره. فقيل: بلى، قد أتاك وهو شاك. فأراد أن يوجه إلى قطري وأصحابه عمر بن عبيد الله بن معمر أو غيره فشاور، فقال له أسماء بن خارجة: ماولاك أمير المؤمنين إلا لتعمل بما ترى. فقال له عكرمة: لاتفعل ولكن راجع أمير المؤمنين وأعلمه شكاة المهلب. فأوفد بشر إلى عبد الملك وفداً يخبرونه بوجع المهلب وأن قوماً من أهل البصرة يُغْنُونَ أكثر من غنائه.

فخلا بعبد الله بن حكيم المجاشعي فقال له: إن لك عقلاًورأياً فمن ترى لمحاربة هذه المارقة؟

قال: المهلب. قال: إنه وجعٌ. قال: ليس وجعه مما يمنعه النهوض. فقال عبد الملك: أرى بشراً يريد أن يعمل بما عمل به خالد.

فكتب إليه يعزم عليه أن يوجه المهلب، فأرسل بشر إلى المهلب أن انتخب من أحببت. فقال: أنا عليل لاأقدر على الاختلاف، فأمر فحمل إليه الديوان فانتخب فلم يجز له بشر عامة من انتخب، وكلمه في قوم فخلفهم.

واستقرض المهلب مالاً من التجار وغيرهم وبلغت الجعالة بين الناس أربعة آلاف، وسار إليهم المهلب فلقوه فأبلى يزيد بن المهلب وهو ابن احدى وعشرين سنة فنفاهم عن الأهواز، فأتوا فارس، فوجه إليهم المهلب ابنه المغيرة فقيل له: طاول هؤلاء الكلاب وإلا فإنك ستلزم بيتك إن فرغت من أمرهم. فقال: ليس هذا من الوفاء.

ثم رجع الخوارج إلى رامهرمز فكتب بشر بن مروان إلى خليفته بالكوفة أن اعقد لعبد الرحمن بن مخنف على ثمانية آلاف، فلما قدم عليه قال له: قد علمت حالك عندي فكن عند ظني بك، انظر هذا المزوني فخالفه وأوعده، فخرج ابن مخنف وهو يقول: سبحان الله، ماطمع فيه هذا الغلام مني؟ يأمرني بتصغير شيخ من شيوخ قومي وساداتهم؟.

ونزل ابن مخنف رامهرمز، ومات بشر واستخلف خالد بن عبد الله بن أسيد فرفض أهل الكوفة وقدموا إلى بلدهم، وأراد أهل البصرة أن يفعلوا مثل ذلك فقال لهم المهلب: لستم تقاتلون لبشرٍ ولا لخالدٍ إنما تقاتلون عن بلادكم فلا تصنعوا كما صنع أهل الكوفة فتحربوا عدوكم عليكم. فأقام بعضهم ورجع بعض عصاة إلى البصرة، وأقام المهلب في البصريين وأقام عبد الرحمن في ناس من أهل بيته لم يكن بقي معه أحد غيرهم.

فلما قدم الحجاج العراق والياً في سنة خمس وسبعين بدأ بأهل الكوفة فخطبهم وتهددهم وتوعد العصاة بالقتل وقتل بعضهم، وخطب أيضاً بالبصرة وألحق الناس بالمهلب.

وكتب الحجاج إلى المهلب: «إنَّ بشراً رحمه الله بعثك مستكرهاًلنفسه عليك وأراك غناءه عنك، وإنى أعرفك حاجتي إليك فناهض عدوك ودع العلل، فوالله لأحشرن الناس اليك حشراً، فإني آخذ السميَّ بالسَّمي، والوليَّ بالولي، حتى يكون قليل من يأتيك ككثير من فارقك، واقتل من خفته على المعصية فإني قاتلٌ من قبلي من أهل الطبقة، فإن العاصي يجمع خلتين: إنه أخل بمركزه ووعر المسلمين من نفسه، وهو أجيرٌ لهم ليس له أن يأخذ إلا بقدر ماعمل».

فكتب إليه المهلب: «ليس معي إلا مطيعٌ، وإن الناس إذا أمنوا العقوبة صغروا الذنوب، وإذا يئسوا من العفو كفرهم ذلك، فهب لي الذين سميتهم عصاة، وإنهم فرسان أرجو أن يقتل الله بهم هذا العدو، إن شاء الله».

وقال المهلب لجنده: «لقد جاءكم والٍ ذكرٌ، ولولا هو كنا بمضيعة، فعليكم بالجد والحزم فإني رأيت البقاء مع الحزم، واستشعروا الصبر واعلموا أنه ليس كلُّ غازٍ يؤوب إلى أهله، ولا كلُّ سلامةٍ تدوم لأهلها، وهؤلاء القوم يقاتلونكم عن دينكم ودنياكم، فأكرموا الخيل تنفعكم عند اللقاء، وأطيلوا الرماح فإنها قرون الخيل، وعَيِّروا الجبان يأنف، فلقد رأيتني مع الحكم بن عمرو بخراسان وإنّا لنعدُّ في سرعان الناس رجالا مايعابون إلا بالجبن وإن

خلفهم لرجالاً مايحتملون إلا على الناس، فما رجع مستقدمٌ، ولا تقدم مستأخرٌ، والرجال يحمل غثها سمينها، والشجاعة ضراوةٌ».

فلما كثر الناس قال قطري وهو برامهرمز: من يأتي سردن[١] فإنها حصينة. قال عبيدة: بل نأتي سابور، ونخرج إلى كرمان، فنمضي منها إلى حيث نشاء.

فأتى قطري سابور، ونزل المهلب أرجان، وبعث خيلاً إلى سردن، وخاف أن يأتيها الخوارج فيتحصنون بها، وليست بمدينة، ولكنها جبال وعقابٌ منيعة.

وأتى المهلب كازرون فخندق، وأقبل عبد الرحمن بن مخنف في جند أهل الكوفة فنزل ناحيةً، وذلك أن الكوفيين أبوا أن يخالطوا البصريين، فأرسل إليه المهلب: إما أن تنزل معنا وإما أن تخندق على نفسك، فأرسل إليه: خنادقنا سيوفنا.

وكتب الحجاج إلى المهلب وهو بكازرون: إنك أقبلت على جباة الخراج وأبطأت عن قتال العدو، وقد هممت أن أولي عباد بن حصين أو عبيد الله بن حكيم المجاشعي ما وليتك قبل خروج الناس عليك.

وقال الهيثم بن عدي : استبطأ الحجاج المهلب فكتب إليه : «إنك مزوني وابن مزوني[٢] ، وللعجب منك حين تهاب قتال الأزارقة ، كأنك ترى

---

١ ـ سردن: كورة بين فارس وخوزستان من أعمال فارس. معجم البلدان.

٢ ـ بهامش الأصل : في حاشية الأصل بغير الخط : قد صحف الناسخ وإنما هو : مزوي ـ ومزون قبيلة من الأزد سكنت أرض مزون .

أنك ترث الأرض ، وايم الله لئن لم تناجزهم لأبعثن إليك من يحملك على مكروه أمرك والسلام» .

فكتب إليه : «أما بعد فقد جاءني كتابك وإني لمزوني وابن مزوني ما أُنكر ذلك ، وإنما مَزْوَن عُمان سمتها العجم بذلك ولكن الأمير أصلحه الله من قبيلة قد ادعت إلى حِمْيَر وعدة قبائل وما استقر قرارها بعد ، كانوا بقية ثمود ثم انتموا إلى وحاظة من حِمْيَر ، ثم إلى أياد ، ثم إلى عدوان ، ثم إلى قسي بن منبه» .

فلما قرأ الحجاج الكتاب تبسم ثم قال : أُفحشنا للرجل فأفحش .

وقال المدائني : كتب إليه الحجاج : «إنك تشاغلت بالجباية عن الحرب» . فكتب إليه : «إن من ضعف عن الجباية فهو عن القتال أضعف ، ولو وليت غيري ممن سميت لرجوت أن يكونا للولاية أهلاً في فضلهما وجرأتهما ، وذكرت أني رجل في الأزد من أهل عمان وإن شراً من الأزد قبيلة تنازعتها ثلاث قبائل ، ثم لم يستقر لها بيت في واحدة منهن» .

وناهض المهلب قطرياً وأصحابه بكازرون في شهر رمضان سنة خمس وسبعين ، وقاتل معه جعفر بن عبد الرحمن بن مخنف في رجال من أهل الكوفة ، وجعل عبيدة يقاتل وهو يرتجز .

إني لمذك للشراة نارها ومانع مما أتاها دارها
وغاسل بالطعن عنها عارها

ثم تراجعوا ، وأبلىٰ يومئذٍ عياش الكندي ، وكان من الفرسان ، فلما هلك قال المهلب : لا وَأَلَتْ أنفس الجبناء بعد عياش ، وكان من رجال المهلب .

وقتل مُرَّةُ الكنان فبكىٰ قطري حين أُتي برأسه . فقيل له : أتبكي على رجل من أهل النار ؟ فقال : إنما يُبكىٰ علىٰ أهل النار . وكان من قومه .

وأبلىٰ أهل الكوفة يوم كازرون حتى عرف مكانهم ، وحذر المهلبَ الحريش ومن معه من بني تميم البيات فقال الحريش للمغيرة بن المهلب : يا أبا خُداش ، لا تخافنَّ البيات من قبلنا . وأراد الخوارج أن يُبيِّتُوهم فلم يقدروا . وقال الحريش :

وجـدتمونـا وُقَّراً أَنجـادا لا كُشُفاً مِيْلاً ولا أوغـادا

وترَّجل أبو الأحوص صاحب مسعود وخزيمة بن نصر العبسي وغيره ، وقاتلوا فقتل ابن مخنف وارْتَثَّ جعفر ابنه .

وكان عبد الرحمن بن مخنف يلقب في قول بعضهم ضرطة الجمل ، ويقولون إنه القائل ما حكي عن ابن الأشعث من قوله : هم علي أهون من ضرطة جمل .

وقال حميد بن مسلم يرثي ابن مخنف :

إن يقتلوك أبـا حكيم غـرة فيـها يشـد ويقتـل الأبـطالا
ولمثل قتلك هد قومك كلهم من كان يحمل عنهم الأثقالا

في أبيات .

وقال سراقة بن مرداس البارقي :

أعيني جودا بالدموع السواكب وكيفاً كراس شنة[1] مع راكب

---

١ ـ وكف : قطر . والشن : القربة الخلق الصغيرة . القاموس .

وكونا بخير قبل قتل ابن مخنف   وكل فتى يوماً لبعض المذاهب
أمات دموع الشيب من أهل مصره   وعجل في الشبان شيب الرواسب

وقال أيضاً :

ثوى سيد الأزدين أزد شنوءة   وأزد عمان وهو رمس بكـازر
وصابر حتى مات أكرم ميتـة   بأبيض من بيض الحديد البواتر

في أبيات .

وواقع المهلب الخوارج مرات صابرهم فيها وصابروه ، وكان الحجاج يوجه إليه من يأخذه بالقتال والمناجزة ، ووجه إليه أميناً فكتب بخبره ، فقال الشاعر في أبيات له :

فمن مبلغ الحجـاج أن أمينه   زيـاداً أصابتـه رمـاح الأزارق

وكتب الحجاج إلى عتاب بن ورقاء ، فصار إلى المهلب ، فكان على جيش عبد الرحمن بن مخنف .

وقال المدائني : بعث الحجاج الجراح بن عبدالله إلى المهلب مستحثاً بالمناجزة ، فقال المهلب : يا أبا عقبة ما تركت حيلة أبلغ بها مكيدة إلا وقد أعملتها، وقد انتهيت في قتال هذا العدو إلى العذر ، ولكن البلاء أن يكون الرأي لمن يملكه دون من يعمله .

وكتب الحجاج إلى المهلب : «إنك أقمتَ في خندق احتجاراً من قتال هؤلاء المارقة» ، فكتب إليه المهلب : «أتاني كتابك تعتب فيه علي على الخندقة ، والخندقة حرز وحصن ، وقد خندق رسول الله ﷺ بأمر الله ، وذكرت أنك لا تظن في جبناً وعاتبني معاتبة الجبناء ، وأوعدتني كما يوعد العاصي ، فسل الجراح عما رأى» . فلما سأل الجراح قال : لم أر كما رأيت ،

اقتتلوا ثلاثة أيام ضرباً بالسيوف وطعناً بالرماح وخبطاً بالعمد ، فقال : لشد ما مدحته أبا عقبة ، فقال : كلا ولكنه يحتمل المصيبة ويلقى كثيراً بقليل .

ولم يزل عتاب بن ورقاء مع المهلب حتى بعث إليه الحجاج في القدوم للقاء شبيب ، فأعطي المهلب أهل البصرة ولم يعط أهل الكوفة ، فسأله عتاب إعطاءهم فلم يفعل فقال له : حدثت إنك شجاع فرأيتك جباناً ، وحدثت أنك جواد فرأيتك بخيلاً . فقال المهلب : يا بن اللخناء . فقال : إنها لَمُعِمَّةٌ مُخْوِلَةٌ، فغضبت بكر بن وائل للمهلب فشتم بسطام بن نعيم بن هبيرة أخو مصقلة عتاباً للحلف ، وكان المهلب كارهاً لحلف بكر والأزد ، فلما رأى أن بكراً قد نصرته سره ذلك الحلف ، فلم يزل بعد ذلك يشدده ويقويه .

وغضبت تميم البصرة لعتاب ، وأزد الكوفة للمهلب . فمشى المغيرة فيما بين أبيه وعتاب حتى أصلحه وكلم أباه فأعطى الكوفيين ، فقال رجل من أهل هجر :

ألا أبلغ أبا ورقاء عنا فلولا أننا كنا غضاباً
على الشيخ المهلب إذ جفانا لـلاقتْ خيله منا ضرابا

وكان عتاب وبنو تميم يحمدون المغيرة ، وقال عتاب : إني لأعرف فضله على أبيه .

وكان مقام عتاب مع المهلب ثمانية أشهر يقاتل معه الخوارج بفارس وكرمان ، واتخذ المهلب ركب الحديد ، وكانت ركب الناس الخشب . فكان الفارس يضرب ركابه فيقطع الركاب وقدمه ، فقال عمران بن عصام العنزي من عنزة :

ضربوا الدراهم في إمارتهم وضربت للحدثان والحرب
حلقاً ترى منه مراكلها كمناكب الجمالة الحُرَبِ

وقالوا : كان قتال المهلب قطرياً وأصحابه بسابور وما حولها ثمانية عشر شهراً . ووجه المهلب بشر بن مالك إلى الحجاج وأمر له بجائزة فردها وقال : إنما الثواب بعد الإستحقاق ، فلما ورد على الحجاج قال له : كيف تركت المهلب ؟ قال : أدرك ما أمل وأمن ما خاف . فقال : كيف هو لجنده ؟ قال : والد رؤوف . قال : كيف جنده له : قال : وَلَدٌ بررة . قال : هذه السياسة .

وكان مع قطري رجل حداد يقال له أَبْزَي يتخذ نصالاً مسمومة . فذكر ذلك للمهلب فقال : أكفيكموه . فكتب المهلب إلى أبزي : «إنه قد أتتنا نصالك ، وقد بعثت إليك بألف درهم فزدنا نصالاً» . وبعث بالكتاب فأُلقي في عسكر قطري فأُخذ الكتاب فدفع إلى قطري ، فسأل أبزي عن الخبر فقال : لا أدري ولا أعلم ما هذا الكتاب . فأمر به فقُتل . فقال له عبد ربه : قتلت رجلاً بغير ثقة ولا بيان يحل به دمه ؟ فقال : يمكن هذا أن يكون حقاً ، ويمكن أن يكون باطلاً . فرأيت في قتله صلاح الدين أُمثل ، وللإمام أن يحكم بما يرىٰ فيه الصلاح ، وليس للرعية أن ترد عليه . فتنكر له عبد ربه وجماعة وخالفوه في القول ولم يفارقوه .

وأرسل المهلب رجلاً نصرانياً وقال له : إذا رأيت قطرياً فاسجد له فإن نهاك فقل إنما سجدت لك ، ففعل النصراني ذلك فقال له قطري : مه . إنما السجود لله . قال : ما سجدت إلّا لك ، فقال رجل من أصحابه : قد عبدك من دون الله ، وقرأ : ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب

جهنم﴾(١) . فقال قطري : قد عبد النصارى المسيح ابن مريم ، وإنما عنى الله الأصنام ، فقام رجل فقتل النصراني فقالوا : قتلت ذمياً ، فاختلفوا .

ودس المهلب أيضاً إلى عسكر قطري رجلاً فقال : أرأيتم إن خرج إليكم رجلان مهاجران فمات أحدهما قبل أن يصل إليكم ، وأتاكم الآخر فامتحنتموه فلم يجز المحنة فما تقولون في الميت ؟

فقال بعضهم: الذي مات مؤمن وهذا كافر حتى يجيز المحنة. وقال آخر : هما كافران . واختلفوا فارتحل قطري إلى اصطخر في سنة سبع وسبعين في صفر .

وقال المهلب: الاختلاف أشد عليهم وأسرع في هلاكهم فلا تشغلوهم بالقتال عن الجدال، فتركهم شهرين، ثم أتاهم باصطخر، فتركهم شهراً وهم يخوضون في اختلافهم. فقال لهم صالح بن مخراق مولى قريش، ويقال مولى آل مصقلة الشيباني: إن المسلم يغضي عينه على مايقذيها، ويدع حسناً لقبيح ، وصغيراً لمخافة كبير، والله إن الأمر الذي أتيتموه لقبيح ، وفي الفتنة المحق، فاتقوا الله وراجعوا سلامة صدوركم فقد أطمع اختلافكم عدوكم فيكم .

وخرج عمرو القنا فنادى: يامعشر المُحِلِّين، هل لكم في الطراد فلا عهد لنا به منذ حين. وقال:

ألم تر أنا مذ ثلاثون ليلةً قريبٌ واعلاء الكتاب على خفض

---

١ ـ سورة الأنبياء ـ الآية : ٩٨ .

فتصايحوا، وأبلى المغيرة بن المهلب وصُرع فاستنقذه فرسان من الأزد، واستاق الخوارج سرح المهلب فقال الرجل الذي كان يسوق السرح:

نحن خدعناكم بسوق السرح   وقد نكأنا القرح بعد القرح

فلحق ذلك الرجل بنو المهلب فردوا السرح.

وأراد الخوارج هدم فسا، فاشتراها أزادمرد بن الهربذ منه بمائة ألف درهم، وارتحل الخوارج يريدون كرمان فنزلوا صاهك[1] الصغرى وهي من اصطخر، فاتبعهم المهلب فقاتلهم، فقال غلامٌ لأُكْتَل بن مُنْجِبٍ السدوسي: اليوم آتيك بجارية من جواريهم. فقال أكتل:

أخلاج إنك لن تعانق طفلةً   سرحاً بها الحادي كالتمثال
حتى تلاقي في الكتيبة مقدماً   عمرو القنا وعبيدة بن هلال
وترى المقعطر في الكتيبة معلماً   في عصبةٍ قسطوا مع الضلال

والمقعطر عبدي.

قالوا: ومضى قطري إلى السيرجان، ورجع المهلب إلى فارس، وبعث الحجاج كَرْدَماً على فارس فسأل المهلب الحجاج أن يجعل له كوراً سماها ففعل، فكان المغيرة والرقاد يجبيان ولايعطيان الجند فقال رجل من بني ضبة:

ولو علم ابن يوسف مانلاقي   من البلوى بمنزلة الطراد
بكت عيناه من شفقٍ علينا   وأصلح ماستطاع من الفساد
قرونا أرض فارس في جمادى   إلى شعبان نقطع كل واد

---

١ ـ صاهك: مدينة بفارس لها عمل برأسها، دخلت في كورة اصطخر. معجم البلدان.

ترى الشيخ البجال على حمارٍ يسوق به فتىً رخو النجاد
ألا قل للامير جزيت خيراً أرحنا من مغيرة والرقاد

وفي كردم يقال:

لو رآها كردم لكردما كردمة العير أحسَّ الضيغما

قال ابن الكلبي: وهو كردم بن مرثد الفزاري.

وأتى المهلب السيرجان فقاتل قطريا بها فصعد قطري المنبر[1] فخطب فقال: «أما بعد فإني أحذركم الدنيا فإنها حلوة نضرة، حفت بالشهوات ورامت بالقليل، وتحببت بالعاجلة، وتحلت بالآمال، وتزينت بالغرور، لايدوم خيرها، ولاتؤمن فجيعتها، غرارةٌ ضرارة، وحائلةٌ زائلة، ونافذة بائدة، أكالةٌ غوالة، لاتعدو إذا هي تناهت إلى أُمنية أهل الرغبة فيها، والرضى عنها أن تكون كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا﴾[2]. مع أنَّ امرءاً لم يكن منها في حيرةٍ إلا أعقبته بعدها عَبْرَةً، ولم يلق من سرائها بطناً إلا منحته من ضرائها ظهراً، ولم يطله فيها رخاء إلا هطلت عليه مزنة بلاء، وحريٌّ إذا أصبحت له منتصرة أن تمسي له خاذلة متنكرة. وإن جانبٌ منها اعذوذب وحلا، أَمَرَّ منها جانبٌ وأوبأ، وإن أتت امرءاً من غضارتها ورقاً أردفته من نوائبها تعباً، ولم يمس امرؤٌ منها في جناح أمنٍ

١ ـ بهامش الأصل: خطبة قطري.
٢ ـ سورة الكهف ـ الآية: ٤٥ .

إلا أصبح منها في قوادم خوفٍ. غرارةٌ غرورها فيها، فانيةٌ فان من عليها، لاخير في شيء من زادها إلا التقوى. من أقل منها استكثر مما يؤمِّنه، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه ويطيل حزنه ويبكي عينه، كم من واثق بها قد فجعته، وذي طمأنينة قد صرعته، وذي احتيالٍ قد خدعته، وكم ذي أبهةٍ فيها قد صيرته حقيراً، وذي نخوة قد ردته ذليلاً، ومن ذي تاجٍ قد أكبته لليدين والفم. سلطانها ذلٌّ وعيشها رَنْقٌ، وعذبها أجاج، وحلوها صبر، وغذاؤها سِمام، وأسبابها رمام، حيها بعرض موت، وصحيحها بعرض سقم، ومنيعها بعرض اهتضام، ملكها مسلوب وعزيزها مغلوب، وسليمها منكوب وجارها محروب، مع أن وراء ذلك سكرات الموت وهول المطلع، والوقوف بين يدي الحكم العدل ﴿ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾[1] ألستم في مساكن من كان أطول منكم أعماراً وأوضح منكم آثاراً وأعد عديداً وأكثف جنوداً، وأشد عنودا، تعبدوا للدنيا أيَّ تعبد، وآثروها أي إيثار، فظعنوا عنها بالكره والصغار، فهل يعلم أن الدنيا سمحت لهم نفسا بفديةٍ، أو أغنت عنهم فيما أهلكتهم بخطب، بل قد أرهقتهم وضعضعتهم بالنوائب، وقد رأيتم شكرها لمن دان لها وآثرها وأخلد إليها حين ظعنوا عنها لفراق الأبد إلى آخر المسند، هل زودتهم إلا الشغب أو احلتهم إلا الضنك أو توردت بهم إلا الظلمة أو أعقبتهم إلا الندامة؟. فهذه تؤثرون؟ أم على هذه تحرصون أم إليها تطمئنون؟

١ـ سورة النجم ـ الآية: ٣١.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون﴾(١). فبئست الدار لمن أقام فيها، فاعملوا وأنتم تعلمون أنكم تاركوها لابد، فإنما هي كما وصفها الله عزّ اسمه باللعب واللهو، وقد قال: ﴿أتبنون بكل ريعٍ آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾(٢). وقد ﴿قالوا من أشد منا قوة﴾(٣) ثم حملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركبانا، وأنزلوا فلا يتركون ضيفاناً. وجعل لهم من الضريح أجنانا ومن التراب أكفاناً. ومن الرفات جيراناً. وهم جيرةٌ لايجيبون داعياً ولايمنعون ضيماً. إن أخصبوا لم يفرحوا وإن قحطوا لم يقنطوا جميع وهم آحاد، جيرةٍ وهم أبعادٌ متناؤون لا يتزاورون. حلماء قد ذهبت أضغانهم. وجهلاء قد ماتت أحقادهم. لايخشى فجعهم ولا يرجى دفعهم. وكما قال الله عزّ اسمه: ﴿فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين﴾(٤) استبدلوا بظهر الأرض بطناً، وبالسعة ضيقاً، وبالأهل غربة، وبالنور ظلمة، فجاؤوها كما فارقوها حفاة عراة فرادى غير أن ظعنوا بأعمالهم إلى الحياة الدائمة وإلى خلود الأبد. يقول الله عزّ وجلّ: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنّا كنا فاعلين﴾(٥)

---

١ ـ سورة هود ـ الآية: ١٥ .
٢ ـ سورة الشعراء ـ الآيات: ١٢٨ ـ ١٣٠ .
٣ ـ سورة فصلت ـ الآية: ١٥ .
٤ ـ سورة القصص ـ الآية: ٥٨ .
٥ ـ سورة الأنبياء ـ الآية: ١٠٤ .

فاحذروا ما حذركم الله، واشفعوا بمواعظه، واعتصموا بحبله، عصمنا الله وإياكم بطاعته، ورزقنا وإياكم أداء حقه».

ثم ارتحل قطري إلى جيرفت واتبعه المهلب فنزل على ليلتين منه، واختلفوا فقال المهلب: الاختلاف خير لنا وشر لهم، وإنما اختلفوا لأنهم اتهموا عبيدة بن هلالٍ بامرأة رجلٍ قَصّارٍ رأوه يدخل إليها بغير إذنٍ متفضلاً فأخبروا قطريا فقال لهم: إنه عبيدة وموضعه من الدين والعسكر ماعلمتم، فقالوا: لانصالح على الفاحشة. فقال قطري لعبيدة: إني على أن أجمع بينك وبينهم فلا تكاشف مكاشفة البذيء ولاتخضع خضوع المريب.

ثم جمع قطري بينهم وبينه فقرأ عبيدة: ﴿إنّ الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم﴾[1] الآية. فبكوا وقاموا إليه فعانقوه وقالوا: استغفر لنا. فقال عبد ربه الصغير مولى بني قيس بن ثعلبة: والله لقد خدعكم، وإنه لكما ظننتم. فبايع عبد ربه منهم قوم وتنكروا لقطري وخالفوه في أمور فعلها نقموها عليه، فصار مع عبد ربه نصف عسكر قطري، فحارب عبد ربه قطرياً فقتل من أصحابه قوم، وقتل صالح بن مخراق مع عبد ربه، فكره قطري أن يقيم بين عسكرين يقاتلانه، فخرج يلتمس منزلاً، فجاء المهلب حتى نزل في معسكره، وقاتل عبد ربه وكتب إلى الحجاج بالخبر وأشار عليه أن يوجه إلى قطري من يتبعه ويحاربه.

---

١ ـ سورة النور ـ الآية: ١١ .

وألصق المهلب بعبد ربه، وقال عبد ربه: يامعشر المهاجرين إن قطرياًوعبيدة هربا رجاء البقاء ولاسبيل إليه فالقوا عدوكم غداً فإن غلبكم على الحياة فلا يغلبنكم على الموت.

فقاتلوا المهلب فقتل عبد ربه، وطلب بعض أصحابه الأمان، ومضى عمرو القنا إلى خراسان فمات بها، ومضى بعضهم إلى سجستان.

وحوى المهلب عسكر الخوارج وأصاب به جرحى فدفع كل جريح إلى قومه، ورجع المهلب إلى جيرفت فقال: الحمد لله الذي ردنا إلى الخفض والدعة فما كان عيشنا بعيشٍ.

قالوا: ونظر المهلب في مجلسه إلى قوم لايعرفهم فقال: ماأشدَّ عادة السلاح. قالوا: فقام في الحين فلبس سلاحه وقال: خذوا هؤلاء فأخذوا فقال: من أنتم؟ قالوا: أردنا غرتك لنقتلك. فقتلهم.

وقال الهيثم بن عدي: اعتزل عبد ربه الصغير في أربعة آلاف، والصغير مولى بني قيس، واعتزل عبد ربه الكبير في سبعة آلاف، والكبير مولى بني يشكر. فقاتل المهلب الصغير فقتله وأصحابه، ومضى قطري وبقي الكبير فقاتله المهلب فقتله أيضاً.

قالوا : وكتب المهلب إلى الحجاج : «أما بعد فالحمد لله الكافي بالإسلام فقد ما سواه ، الذي أوجب المزيد بالشكر ، وقد كان من أمرنا وأمر عدونا ما قد انتهى إليك خبره بعد مطاولة نلنا فيها منهم ما لم ينالوه منا ، وأُدنيت السواد من السواد حتى تعارفوا بالوجوه وقاتلت الأغمار ، وكان

ما يسوءهم منا دون ما يسرهم[١] ، وما يسرنا منهم فوق الذي يسوءنا حتى وقع بينهم الإختلاف ففرق الله أهواءهم وألقى بأسهم بينهم ، ولم يزل الله يمحصنا[٢] ويمحقهم ، وينصرنا ويخذلهم حتى بلغ بنا وبهم الكتاب أجله ، فقطع دابر الكافرين والحمد لله رب العالمين[٣]» .

فكتب إليه الحجاج : «إن الله صنع بالمسلمين خيراً ، وقد فرغتم من عدوكم وأراحكم من كثير مما كنتم فيه ، فاقسم ما أفاء الله عليك فيمن معك . فأما قطري وعبيدة فنحن كافوك إياهم بعون الله وتوفيقه ، فأقبل وليكن معك بنوك وفرسانك ولا تطمعن أحداً في اللحاق بأهله دون قدومك علي ، واستخلف على كرمان» .

فاستخلف ابنه يزيد وأوصاه بالقصد والمبالغة في الأمور ، وكان قد بعث بكتاب الفتح مع كعب الأشقري ، وَمُرَّةَ بن تليد الأزدي ، أزد شنوءة ، فأنشد كعب الحجاج قوله :

يا حفص إني عداني منكم السفر . .

فقال الحجاج : أخطيبٌ أنت أم شاعر ؟ فقال : خطيب شاعر .

قال : فأخبرني عن بني المهلب . قال : المغيرة سيدهم وأشجعهم وحسبك بيزيد فارساً وما يستحي شجاع أن يصد عن مدرك ، وما لقي الأبطال مثل حبيب ، وعبد الملك موت ناقع ، وكفاك ببأس مفضل ونجدته ، وأسخاهم قبيصة ، ومحمد ليث عاد . ثم قال لابن تليد : أخبرني

١ ـ بهامش الأصل : وكان ما يسرهم منادون ما يسوءهم .
٢ ـ التمحيص : الإبتلاء والاختبار . القاموس .
٣ ـ الآية في سورة الأنعام (٤٥) ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ .

كيف كانت حالكم . قال : كنا إذا لقيناهم بعفونا وعفوهم يئسنا منهم وإذا لقيناهم بجدّنا طمعنا فيهم ، قال : فكيف كان بنو المهلب ؟ قال : حُماة السرح نهاراً وفرسان البيات . قال : فأين السماع من العيان ؟ قال : السماع دون العيان . قال : فأيهم أفضل ؟ قال : هم الحلقة المفرغة لا يعرف طرفاها . فوصل بني المهلب وأهل البلاء والغناء ممن كان معه وزادهم في الأعطية .

وولى الحجاج المهلب خراسان ، وكان المهلب يقول : ما أُحب أن لي مكان بيهس بن صهيب ألف فارس . فقيل إنه ليس بشجاع ؟ قال : لكنه سديد الرأي عاقل حذر فهو لا يدع الإحتراس والسؤال ، ولو وجد مكانه ألف فارس شجاع لناموا حتى يحتاج إليهم .

قالوا : وعقد الحجاج لسفيان بن الأبرد الكلبي على خمسة آلاف ، وضرب على أهل الكوفة بعثاً فخرجوا في عشرة آلاف عليهم الصباح بن محمد بن الأشعث ، ويقال إسحاق بن عبدالله بن الأشعث . وجعل على جماعة الناس سفيان بن الأبرد وقال له الحجاج : أتدري إلى أين تسير؟ قال : نعم إلى كلاب النار . قال : إعلم أنك تسير إلى أُسد الشرى وسباع العرب ، يرون الموت قربةً إلى الله ويعدون الفرار كفراً فعليك بالصبر والعزم ، والقوم أصحاب مناجزة فإياك والعجلة .

فصار سفيان وجعل على ساقته البختري بن عامر العاملي ، فمر بالأخضر بن ورقاء الكلبي ومصاد بن زياد القيني والوازع بن دُوالة الكلبي وهم سكارى فشتموا البختري ، فقال له سفيان : هلا ضربت أعناقهم . وبلغ الحجاج أمرهم فحلق على أسمائهم فكتب فيهم فردها .

قالوا : ومضى قطري وأصحابه نحو مكران وما وراءها ، فأوقع ببعض من كان بأطراف بلاد السند ، ومضى بعض أصحابه إلى سجستان ، وأتى عبيدة بن هلال قومس فصار بها ، ومضى قطري في طريق خراسان ثم عدل يريد الإصبهبذ بطبرستان .

وبلغ الإصبهبذ ذلك فبعث إلى قطري والخوارج يسألهم عن أمرهم فقال قطري : نحن قوم أنكرنا جور سلطاننا فتنحينا عنه ، ونحن قوم لا نظلم أحداً ولا نغصبه ولا ننزل عليه إلا برضاه . فأذنَ له الإصبهبذ في دخول بلاده ، فدخل قطري طبرستان في أصحابه ، فلما استقر بعث إلى الإصبهبذ يدعوه إلى الإسلام أو الجزية فقال الإصبهبذ لرسله : قولوا له أنت رجل دخلت بلادنا طريداً فآويناك وأحسنا إليك فتبعثُ إلي بمثل هذه الرسالة . فأرسل اليه : إنه لا يسعني في ديني غير هذا . فصار الإصبهبذ إليه ليخرجه عن بلده فأوقع به قطري وهزمه وقتل ابنه وأخوه ، فخرج حتى أتى الري .

وغلب قطري على طبرستان وأتى الطبري سفيان بن الأبرد وقد وافى الري فوضع يده في يده ، وحدثه بما صنع قطري وقال له : أنا أُدخلك عليه في طريق مختصرة حتى تُوافيه وهو لا يشعر بك ففعل ، فقاتل سفيان ومن معه قطرياً وأعانه الإصبهبذ وأساورته ، وجعل قطري يقول :

أنا أبو نعامة الشيخ الهبل . أنا الذي ولدت في أُخرى الإبل .

فطعنه رجل من أهل الشام في صدغه وانهزم أصحابه ، فاتبعهم أهل الشام فقتلوا منهم خلقاً .

وعثر بقطري فرسه فاندقت فخذه ووقع بين صخرتين ، وانتهىٰ إليه باذام مولى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فقال باذام : الساقط بين الصخرتين والله قطري . فقال قطري : يا فاسق أنا غزيلكم ، أو قال : أُرينبكم الذي تطلبون ، فاختلف وباذام ضربتين فكانت ضربه قطري ضعيفة . وضربه باذام فأبان يده ثم احتز رأسه ، وادعىٰ سورة بن الحر التيمي أنه قتله معه .

وقال المدائني : انهزم قطري فإذا هو قد دفع إلى غيضة ، فنزل عن فرسه فقاده حتى انتهى إلى موضع فيه ماء فأقام عنده وذلك في الصبح . وأقبل سورة بن الحر ، وباذام مولى الأشعث بن قيس وشنطيز الثعلبي أحد بني ثعلبة بن يربوع يطلبون قطرياً فأُخبروا بأن رجلاً دخل الغيضة فطلبوه فيها فوجدوه قائماً يصلي وقد نزف دمه وضعف . فقال لهم : أنا غزيلكم الذي تطلبون ، فقال سورة لباذام إن شئت أتيته أنا من بين يديه وأتيته أنت من خلفه ، وإن شئت فأنا آتيه من خلفه وأنت من بين يديه . فتلقاه سورة من بين يديه وأتاه باذام من خلفه فقتلاه واحتزا رأسه فاختصما فيه ، ووافاهم أبو الجهم الكلبي فأخذ الرأس وأتى به سفيان فبعث به إلى الحجاج .

ويقال إن سورة كان يقول : رأيت قطرياً وهو على فرس وخلفه امرأة على بغل فاتبعته أنا وباذام ونحن لا نعرفه فحملتُ على المرأة فلما غشيتها نادت : يا أمير المؤمنين . فعطف علي وشددت عليه فعانقته فسقطنا إلى الأرض فصار تحتي ، وندر سيفه من يده فزحف يريد السيف وصارت إبهامه في يدي فرضضتها حتى فتر ، وجاء باذام فضرب بالسيف بطنه واقتتلت أنا وباذام على رأسه .

ويقال إن الذي قتل قطرياً عثمان بن أبي الصلت .

المدائني قال : قال معاوية بن محصن الكندي : رأيتُ قطرياً وقد صُرِع في الشعب وهو يهوي ولا أعرفه ، وحوله نسوة وفيهن عجوز ، فحملت عليهن فانتضت العجوز السيف فضربتني فجرحتني في عنقي فضربتها فقتلتها .

وأتى علج قطرياً وهو لا يعرفه فقال له : اسقني ولك سلاحي ، فمضى العلج فحدر عليه صخرة فأوهنت فخذه ، وأتاه سورة فقتله ، واختصم في رأسه سورة وباذام وشنظيز الثعلبي ، وعثمان بن أبي الصلت ، وجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف ، والصباح بن محمد بن الأشعث .

وقال جعفر بن عبد الرحمن : إني لما عرفته لم تكن لي همة إلا قتله لأنه قتل أبي .

قالوا : ولما قتل قطري وبعث سفيان برأسه ، أتى قومس وبها عبيدة بن هلال فحصره ثلاثة أشهر ، ويقال خمسة أشهر ، ووضع عليه المنجنيق ، فضاقوا وضجروا وصاروا إلى ذبح دوابهم وأكل لحومها ، وأكلوا الجيف ، فذلك حين قال عبيدة :

إلى الله أشكو ما نرى بجيادنا بقومس هزل مخهن قليل
فإن يك أفناها الحصار فربما تشحط فيها بينهن قتيل

وأشرف عبيدة عليهم فقال : أقرأ عليكم أو أنشدكم ؟ فقالوا : أَنشد . فقال : يافسقة . قد علمت أنكم تؤثرون الشعر على القرآن .

ونادىٰ سفيان : من خرج فهو آمن . فَهَمَّ قوم بالخروج كثير .

وقال الهيثم : نادىٰ سفيان : يا معشر الأزارقة لا أمان عندي إلا لمن

جاء برأس صاحبه فكان الرجل منهم يخاف ابنه وأخاه على قتله لما هم فيه من الجهد .

وخرج عبيدة فاقتتلوا في يوم الجمعة إلى المساء ، ثم دخل عبيدة القصر ، وانهزم قوم من أصحابه فلم يدخلوا فاتبعهم سفيان ، فأخذ منهم أسرى فقتلهم . وقال عبيدة :

وما زالت الأقدار حتى قذفنني بقومس بين الفرخان وصول
إلى الله أشكو لا إلى الناس أشتكي بقومس إذ فيها الشراة حلول

ووعظ أصحابه فقال : إنما هي ساعة حتى تظفروا أو تستشهدوا ، فخرجوا وشدوا على سفيان وأصحابه وقالوا الحصن لمن غلب ، فكُشف أصحاب سفيان ، ثم بقي في جماعة من أهل الشام ليسوا بالكثير فقال سفيان : يا أهل الشام ، يا أهل الصبر والحفاظ ، يا حماة الأدبار أعن هؤلاء الأكلب تفرون ، فتراجع الناس فقال سفيان : الأرض ، فنزلوا جميعاً وصبروا فقال عبيدة : يا إخوتي روحوا إلى الجنة ، وقاتل فقتل عبيدة وعامة أصحابه واستأمن الباقون ، فأمنهم سفيان ، وكان من المستأمنة حطان الأعسر فقال شعراً :

بليت وأبلاني الجهاد وساقني إلى الموت ، إخوان لنا وأقاربُ
شريت فلم أقتل وما زلت لم أصب كذاك صروف الدهر فينا عجائب

واستأمن قيس الأصم وهو قيس بن عَسْعَسْ ويلقب الخشبي ، ثم كفَّ بصره فمر بقومس فقال لقائده : أي موضع هذا ؟ فأخبره . فقال : قف بي أبكي إخواني . وقال :

ذكرت الشراة الصادقين بقومس وذكري لهم مما يهيج شجوني

وكان الحجاج كتب إلى سفيان يستبطئه في أمر عبيدة ويصغر ما عمل فقال : أن أبا محمد لا يرضي حتى جعل المحسن مسيئاً والمطيع عاصياً .

قالوا : وكانت عند قطري العيوف بنت يزيد بن حبناء التميمي فولدت ابنتين : مزنة والفجاءة فأخذ سفيان الفجاءة فبعث بها إلى عبد الملك ، فصارت إلى العباس بن الوليد فولدت له الحارث والمؤمل فلما ولي عمر بن عبد العزيز وأمر برد سبايا الأزارقة قال للعباس : خل سبيلها أو تزوجها إن رضيت ، فتزوجها برضى منها ، ويقال : إنه كانت عند العباس نعامة بنت قطري .

قال المدائني : وفد على عمر بن عبد العزيز قوم من بني مازن في أمر بنت قطري ، فقال شاعرهم :

أتينـاك زواراً ووفداً إلى التي أضاءت فما يخفى على الناس نورها
أبوها عميد الحيّ عمرو وأمها من الحنفيـات الكرام قبـورها
فإن تك كانت حيث كانت فإنها لهـا أسرة منـا كـرام نفـيرهـا

فقال عمر : قد تزوجـها برضاها . وقال رجل للحارث بن العباس ؛ أنت ابن الخلائف الأربعة . قال : ويحك من الرابع ؟ قال : قطري .

وقال الهيثم : بعث سفيان برأس قطري ورؤوس أعلام من معه إلى الحجاج مع الوليد بن بخيت الكلبي .

أمر أبي فُدَيك عبد الله بن ثور أحد بني قيس بن ثعلبة بن عكابة

قالوا : ولما خالف نجدة بن عامر من خالفه من أصحابه ، ولوا أمرهم أبا فديك عبدالله بن ثور[١] ، وكانوا بايعوا قبله ثابتاً التمار ، وكانت أخته عند أبي فديك ، ثم قالوا : لا يقوم بأمرنا إلا رجل من العرب ، وجعلوا الاختيار إليه فاختار لهم أبا فديك .

فلما ولي خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد البصرة ، وَجَّه أخاه أمية بن عبدالله إلى أبي فديك وهو بالبحرين فهزمه أبو فديك وفضحه فقال الفرزدق :

جاؤوا على الريح أوطاروا بأجنحة ساروا ثلاثاً إلى الجلحاء من هجرا[٢]

حدثنا أبو خلف بن سالم المخزومي ، ثنا وهب بن جرير بن حازم عن أبيه عن عمه صعب بن زيد ومحمد بن أبي عيينة قالا : خرج أبو فديك بالبحرين فلقيه أمية بن عبدالله فهزمه ، فركب أمية فرساً له جواداً كان يقال

١ ـ بهامش الأصل : بلغ العرض بالأصل الثالث .
٢ ـ ديوان الفرزدق ج ١ ص ٣١٠ وفيه : «إلى البحار من هجرا» .

له المهرجان فدخل البصرة عليه في ليلتين أو ثلاث . فقال يوماً وهو بالبصرة : لقد سرتُ على المهرجان إلى البصرة فدخلتها في ليلتين أو قال ثلاث ، فقال له بعضهم : هذا المهرجان ، فلو ركبت النوروز لم تسر ليلة حتى تدخلها .

حدثنا خلف بن سالم وأحمد بن إبراهيم الدورقي قالا ، ثنا وهب بن جرير عن أبيه عن صعب بن زيد وغيره قالوا : خرج أبو فديك بالبحرين فبعث إليه خالد أخاه أمية فهزم ، فبعث إليه عمر بن عبدالله بن معمر فقتله ، وقالوا : هزم أبو فديك أمية ، وهزم قطري عبد العزيز بن عبدالله بالأهواز بعد ذلك وفضحه ، فقال الفرزدق :

كل بني السوداء قد فَرَّ فَرَّةً فلم تبق إلا فرة عند خالد
فضحتم قريشاً بالفرار وأنتم لدى الحرب أنكاسٌ قصار السواعد[1]

قال الهيثم : هزم أبو فديك أمية بن عبدالله ، فندب عبد الملك عمر بن عبيدالله بن معمر وضم إليه عبد الرحمن بن عضاه الأشعري ، ومعه وجوه أهل الشام ، وقدم الكوفة فأجلسه بشر على سريره وأكرمه ، فسار فواقع أبا فديك فانهزم أهل البصرة ، وقاتل في أهل الشام والكوفة فقُتل أبا فديك .

وكان لقاؤه إياه بالبحرين ، وكان أبو فديك في اثني عشر ألفاً . وكان على جند البصرة عباد بن الحصين ، ونصب رأس أبي فديك في رحبة البصرة .

---

١ ـ ليسا في ديوانه المطبوع .

قال ودعا عمر أعشى همدان فقال له : يا أبا المصفح[1] سر إلى بشر بالفتح ، وقل فيه شعراً .

وقال ابن الكلبي : كان محمد بن موسى بن طلحة بن عبدالله التيمي، وعمر بن موسى بن عبيدالله بن معمر يتباريان في فعلهما وكانا في جيش عمر بن عبيدالله . فقال عبدالله بن شبل البجلي يفضل عمر بن موسى بن عبيدالله بن معمر ، وهو الذي خرج مع ابن الأشعث بعد ، فقتله الحجاج :

تباري ابن موسى يابن موسى ولم تكن   يداك جميعاً تعدلان له يدا
تباري امرءاً احدى يديه مفيدة   وإحداهما تبني بناء مشيدا

ووجه محمد بن موسى بعد إلى شبيب فقتله شبيب .

وقال أبو اليقظان: كان على جيش أهل البصرة مع عمر بن عبيدالله حين توجه إلى أبي فديك : عمر بن موسى بن عبيدالله بن معمر ، وكان أخا عبدالله بن عامر لأمه ، أمهما : دجاجة بنت الصلت ، وعلى جيش أهل الكوفة : محمد بن موسى بن طلحة بن عبيدالله .

وقال العجاج :

لقد شفاك عمرو بن معمر   من الحروريين يوم العسكر
وقع امرىء ليس كوقع الأعور

يعني عبدالله بن عمير الليثي ، وكان قد وُجِّهَ إلى بعض الخوارج نجدةً أو غيره فهزم .

وقال العجاج في أرجوزته في عمرو أولها :

١ـ بهامش الأصل : أبا صبح .

قد جبر الدين الإله فجبر هذا أوان الجد إذ جد عمر
وصرح ابن معمر لمن ذمر[1]

المدائني عن أشياخه قالوا : بويع عبدالله بن ثور أبو فديك أحد الحرقيين ، والحرقيان : تيم وسعد ابنا قيس بن ثعلبة بن عكابة سنة إحدى وسبعين ، فأقام باليمامة ستة أشهر ، ثم فتك به مسلم بن جبير وهو من أهل الحجاز لمخالفته إياه في رأيه ، وقوله بقول نجدة فوجأه اثني عشرة وجأة ، وقال :

خالفت قومي في دينهم خلاف صبا الريح جاءت جنوبا
أرجي الإله وغفرانه ويرجون درهمهم والجريبا

فقُتل مسلم م وحمل أبو فديك فبرىء من جراحاته ، وقيل لأبي فديك : لا خير لك في المقام باليمامة مع بني حنيفة لأنَّا لا نأمنهم عليك ، فخرج أبو فديك إلى البحرين فأقام بجواثا ، فوجه إليه مصعب بن الزبير محمد بن عبد الرحمن الإسكاف ، فقال أبو فديك : «يا معشر المسلمين ان الله قد أذهب عنكم نزغ الشيطان وأنقذكم من فتنة نجدة وصيركم إلى أنصاركم فأنتم تناضلون عن دين الله ، أو ما سمعتم ما أعد الله للمجاهدين في سبيله حين قال : ﴿والذين جَاهَدوا فِيْنا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وإنَّ الله لَمَعَ المُحْسِنِينْ﴾[2] فمن كان الله معه فهو المُفْلح المُنْجح . وقال : ﴿ولا تَحْسَبَنَّ الذين قُتلوا في سَبيل الله أمواتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُون﴾[3] . فاشروا

١ ـ ديوان العجاج ص ٤ ـ ٩ .
٢ ـ سورة العنكبوت ـ الآية : ٦٩ .
٣ ـ سورة آل عمران ـ الآية : ١٦٩ .

أنفسكم تنالوا الفوز كما وعدكم واصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تُفلحون ، وإياكم والفرار من الزحف فَتَبُوؤا بسخط من الله ويحل عليكم غضبه ، ثم ناهضهم .

وكان البصريون يرون أن ابن الإسكاف إذا عاين أبا فديك قتله . فلم ينتصف النهار حتى انهزم البصريون ، ومضى ابن الإسكاف منهزماً .

وأقام أبو فديك بالبحرين ، وسار مصعب إلى الكوفة ، وتشاغل بأمر عبد الملك ولقائه ، فجمع زياد بن القرشي جمعاً من أهل البحرين ومن أهل البصرة ، ولقي أبا فديك محتسباً فقال له السائب بن الأخرس من ولد اللّبُوء بن عبد القيس : ويحك يا بن القرشي لا تخرج إليهم ، فأبى وسار إليهم ، فلقيه عمارة الطويل ، وهو عمارة بن عقبة بن مليل ، وعمير بن سلمى من ولد زيد بن يربوع بن ثعلبة بن الدؤل بن حنيفة ، فقُتل ابن القرشي ، وتفرق أصحابه فقال الشاعر :

تمتع قبل جيش أبي فديكٍ وقبل عمارة الرجل الطويل
أغر صميدع يمشي إذا ما تتابع مشية الجمل الصؤول
وقبل الطير ينهش لحم قوم بمعترك البياذق والخيول
وقبل معرس[1] لاشك فيه سينأى بالخليل عن الخليل
فما لك حين تقطع صرّتاج[2] إلى البيض العباهر من سبيل
لقاء الأُسد أهون من لقاء به التحكيم يشهر بالأصيل

١ ـ المِعْرس : السائق الحاذق السياق ، إذا نشطوا سار بهم ، وإذا كسلوا عرس بهم ، أي نزل بهم في آخر الليل ، والموضع مُعْرَس ومُعَرَّس . القاموس .

٢ ـ لعل صرتاج اسم مكان ، والعبهر : الممتلىء الجسم والعظيم ، والناعم الطويل من كل شيء . القاموس .

قالوا : وقُتل مصعب في سنة اثنتين وسبعين ، وقدم خالد بن عبدالله بن خالد بن أُسيد بن أبي العيص والياً علىٰ البصرة من قبل عبد الملك ، فوجه أخاه أمية بن عبدالله في سنة ثلاث وسبعين إلى أبي فديك في اثني عشر ألفاً ، وأبو فديك في سبعمائة . فلما تواقف الجمعان وتراءيا قال أبو فديك : قد ترون عدوكم والقليل المنصور خير من الكثير المخذول فاستنصروا ربكم واصبروا لعدوكم .

فاقتتلوا ثم تحاجزوا على السواء ، ثم عاودوا القتال فقاتلوهم حتى زالت الشمس ، فكمن لهم ثابت التمار في مائة واستطرد الخوارج ، واتبعهم أمية فلما جاوز موضع الكمين خرجوا عليهم وهم يحامون من خلفهم ، وكر أبو فديك وأصحابه فصبر البصريون ساعة ثم انهزموا ، وصرع أُمية فحماه عون بن عبد الرحمن بن سلامة التيمي ، وحوىٰ أبو فديك عسكرهم .

ومضى أُمية والناس منهزمين إلى البصرة ، وأصاب أمية في طريقه ضر ، ولم يجد طعاماً ، فلقي أعرابياً فقال له عون : ما معنا دراهم ولكني أعطيك درعي هذه وتبيعني ناقتك ؟ قال : لا أب لك ، أتُراها تُساوي ناقتي ؟ قال : والله لهي خير منك ومن أبيك ومن ناقتك ، فأخذ الدرع ونحروا الناقة فأصابوا منها ، فأكثر أمية الأكل فقال عون : ألم ينهك الطبيب عن لحم الجزور ؟ قال : ويحك اسكت فليس هذا بموضع مزاح .

فلما قدموا البصرة لزم أمية بيته استحياء من الناس حين هزم وفر ، فأتاه خالد بن صفوان بن عبدالله بن الأهتم التميمي فقال : الحمد لله الذي خار لنا عليك ولم يخر لك علينا ، أما والله لقد كنت حريصاً على الشهادة

طالباً لها ، ولكن الله أبىٰ إلا أن يزين بك مصرنا ويؤنس بك وحشتنا ، ويجلو بك غمنا .

وقال الفرزدق يذم أُمية :

أُمَيَّ هلا صبرت النفس إذ جزعت فتبلي الله عذراً مثل من صبرا
طاروا سراعاً وما سلوا سيوفهم وخلفوا في جواثا سيدي مضرا
ساروا على الريح أو طاروا بأجنحة ساروا ثلاثاً إلىٰ الجلحاء من هجرا
لو كنت إذ جشأت ربَّطْتَ جُرْوَنها ولم تُوَلِّهُمُ يوم الوغى الدبرا[1]

يعني بسيدي مضر : عبدالله بن الحشرج الجعدي ، والحارث بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، ارتث بجواثا فحُمل إلى البصرة فمات بها ودفن ، ويقال بل مات هناك فحمل في صندوق إلى البصرة .

وقال بعض الشعراء :

يوما بني خالد يومان قد فضحا يوم بِفَسًّا ويوم كان في هجرا

وقال آخر لأمية :

أَما القتال فلا أراك مقاتلاً ولئن فررت ليعرفن الأَبلق

وقال أبو الحسن علي بن محمد المدائني وغيره : بلغ عبد الملك أمر أمية بن عبدالله فقال لعمر بن عبيدالله بن معمر بن عثمان بن عمرو بن كعب بن تيم بن مرة ، وهو عنده : اكفني أبا فديك . فقال : لا يمكني . فقال عبد الملك : والله لتسيرن إليه . قال : والله لا أفعل . قال : فارفع

١ - ديوان الفرزدق ج ١ ص ٣١٠ ، مع فوارق .

حسابك لفارس وصححه . قال : نعم . وقام فاتبعه روح بن زنباع الجذامي فقال : يا أبا حفص . ترد على أمير المؤمنين ويقسم فتقسم . قال : يا أبا زرعة إن أخاه بشراً بالكوفة وابن عمه خالد بن عبدالله بالبصرة وهما حائلان بيني وبين ما أريد من النخبة ، وأن يندبا معي إلا ضعفة الناس من لا يحامي على دين ولا حسب ، فإن صبرت قتلت ضيعة وإن أنحزتُ افتضحت .

فرجع روح إلى عبد الملك بقول عمر ، فأرسل إليه عبد الملك فرده وقال : يا أبا حفص ، لو رأيت بين عيني أمير المؤمنين وتداً أما كنت نازعه وواقياً أمير المؤمنين مكروهه ؟ قال : بلىٰ والله يا أمير المؤمنين بنفسي وأهلي ومالي . قال : فإن أبا فديك وتد بين عيني فاكفني أمره . قال : نعم إن أعفيتني من عنت بشر وخالد؛ قال : فليس لأحد عليك سلطان في بلد تنزله وليس لك أن تصلّي بالناس ولا تجبي الخراج وأنت مُسلَّط على الدواوين فانتخب من شئت وكم شئت ، وكتب له بذلك إلى بشر ، فسار حتى قدم الكوفة على بشر ، فأكرمه وأقعده معه على السرير وقال : والله لو لم يكتب إلي أمير المؤمنين بما كتب فيك ، لقويت ، فهذه الدواوين فانتخب من شئت ، وهذا المال فأعطهم ، فانتخب من كل ربع ألفين وأعطاهم أعطياتهم ، فلم يكلمه بشر في تخليف أحد ، وقال لهم : سيروا إلى البصرة ، واستعمل عليهم محمد بن موسىٰ بن طلحة بن عبيدالله .

وساروا وتزوج عمر بالكوفة عائشة بنت طلحة فأقام عندها أياماً ، ثم اتبع محمد بن موسىٰ وحمل معه عائشة فقدم البصرة وأوصل كتاب عبد الملك إلى خالد ، وانتخب من أهل البصرة ثلاثة عشر ألفاً ، فكلمه خالد في قوم ليخلفهم فأبىٰ ذلك فمنعه خالد الديوان ، فقال بيهس بن صهيب الجرمي :

إن بشر بن مروان لم يكلمه في تخليف أحد ، وهو أخو أمير المؤمنين ، ولم يطمع في ذلك . فقال : إنه لم يدع لي محدثاً ولا سميراً .

فكف خالد حتى استكمل ما أراد فقال العجاج :

لقد سما ابن معمر لما اعتمر مغزى بعيداً من بعيد وصبر
في نخبة الناس الذي كان افتخر
ثلاثة وستة واثني عشر أُلفاً يجرون من الخيل العكر[1]

فقال عمر بن عبيدالله : لا حول ولا قوة إلا بالله .

وكان المهلب بالبصرة قد عزله خالد عن قتال الأزارقة وولى قتالهم عبد العزيز أخاه ، فأثبته عمر فيمن يخرج معه ، وأثبت عباد بن الحصين ، فقال له المهلب : إني رمد العين فاختر أي بني شئت ليخرج معك واعفني . قال : لا .

وعسكر عمر ، وأخذ الناس في الجهاز ، وأعطاهم أُعطياتهم ورأى المهلب فقال له : مر ابنك المغيرة بالتجهز والخروج مكانك فإن أهل مصرك محتاجون إليك يا أبا سعيد .

وبعث خالد إلى عمر بمال فقال : اقسمه في فرسانك ، فقسمه فيهم وفضل المغيرة بن المهلب ، وقال : أما والله لأربحن عليه ربحاً رغيباً .

فتجهز الناس بجهاز حسن وأداة كاملة ، وخرجوا إلى المعسكر بالنُّحَيْت[2] ، وخرج المغيرة في ثلاثين مجففاً فعرضهم عمر ، فجاءه الصلتان

---

١ ـ ديوان العجاج ص ٥٠ ـ ٥١ مع فوارق .
٢ ـ بهامش الأصل : النحيت : موضع على أربعة أميال من البصرة .

العبدي فقال : حاجتك ؟ . قال : أُنشدك . قال : إياك أن تكلمني في أن أعفي أحداً من وجهه هذا . قال : ما كنت لأرغب بأحد عنك . قال : هات . فأنشده :

لن يعدم الخابط المؤمل إن حل بدار ابن معمر ورقا
لا يخلف الوعد حين تسأله ولا يرى عابساً ولا غلقا

في أبيات .

فقال : حاجتك ؟ قال : ما تركت لي حاجة غير صحبتك . قال : ما أرغبني في أن تصحبني ولكني أكره أن أعرضك فقال الصلتان :

رأيت صروف الدهر ليس يفوتها صغير ولا ذو حنكة يتفكر
فكم من شجاع طاول الحرب قد نجا ومن حائد عن عمره لم يعمر

قال : صدقت ، وأمر له بأربعة آلاف درهم وحمله على فرس وأعطاه سلاحاً ، وصيَّر عمر بن عبيدالله على أهل الكوفة جميعاً وهم ثمانية آلاف محمد بن موسىٰ بن طلحة ، وعلى ربع أهل المدينة : بشر بنْ جرير بن عبدالله البجلي ، وعلى ربع كندة وربيعة : إسحاق بن الأشعث وعلى ربع تميم وهمدان : محمد بن عمير بن عطارد ويقال مطر بن ناجية ويقال عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني ، وعلىٰ ربع مذحج وأسد : زياد بن النَّضْر الحارثي وابنه ، ويقال زحر بن قيس الجعفي ، وكان على جماعة أهل البصرة : عمر بن موسى بن عبيدالله بن معمر ، وعلى خمس أهل العالية : سنان بن سلمة بن المحبق الهذلي ، ويقال سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي . وعلىٰ بكر بن وائل : أبو رهم بن شقيق بن ثور السدوسي . وعلىٰ

تميم : عباد بن الحصين ، وإليه الخيل كلها . وعلى عبد القيس : الحكم بن مخربة . وعلىٰ الأزد : المغيرة بن المهلب .

وحمل عمر بن عبيدالله معه عائشة بنت طلحة ، وخلف رملة بنت عبدالله بن خلف فلم يحملها معه ، فقال الشاعر :

أُنعم بعائش في عيش له أُنق وانبذ برملة نبذ الجورب الخلق

ويروىٰ : عيش بعائش عيشاً غير ذي رنق .

وقال أيضاً :

من يجعل الديباج عدلاً للزيق بين الحواري وبين الصديق
كبكرة مما تباع في النوق

قالوا : وسار بالناس فلما نزل الوَفْراء[1] وجه خمسمائة فارس وبعث معهم الفعلة وقال : احفروا لي خندقاً فإذا فرغتم فأعلموني .

فتقدموا فحفروا له خندقاً وأعلموه فارتحل فنزل الخندق وقدمهم ليحفروا في المنزل الآخر خندقاً ، فلم يزل يصنع ذلك وتحفر له الخنادق وينزلها حتى أتى هجر ونزل جواثا في خندق وأبو فديك بالمشقر[2] في جمع كثير من الأعراب كانوا ضووا إليه بعد هزيمة أمية ، فقال أبو فديك لأصحابه : قد أتاكم هؤلاء القوم فمن أحب لقاء الله فليقم ومن أراد الدنيا فليذهب حيث شاء فهو في حل .

---

١ ـ اكتفى ياقوت بقوله : الوفراء : اسم موقع .
٢ ـ المشقر حصن بالبحرين عظيم قبل مدينة هجر . معجم البلدان .

فتفرقوا عنه ، وبقي فيما بين التسعمائة إلى الألف ، وعمر في أحد وعشرين ألفاً . وقال رجل لأبي فديك : إن عطية بن الأسود بريء من نجدة فإن كنا مخطئين فنجدة محق ، وإن كنا محقين فعطية لنا وليٌّ فما تقول ؟ . قال : ليس هذا يوم نظر . عدونا قد نزل فنجتمع على حربه حتى يحكم الله بيننا ، ثم ننظر فيما سألت عنه ، قال : فعلام أسفك دمي ؟ ولحق باليمامة .

وجعل عمر على الحرس : عباد بن الحصين الحبطي فخرج ليلة فتلقاه المغيرة بن المهلب فقال عباد : من هذا ؟ وقال المغيرة : من هذا ؟ فضربه عباد فشجه . فقيل له : هذا المغيرة فكف عنه ، فغضبت الأزد للمغيرة ولبسوا السلاح فجاء رجل من هناءة من الأزد وكان متألها فقال له رجل من قومه : اتق الله . فقال : اغرب ، تقول لي اتق الله وقد ضرب ابن المهلب ؟ .

وبلغ عباداً فقال : أعلى هذه الحال ونحن بإزاء العدو ، ولئن كانت بيننا صيحة ليهلكن هذا الجيش . فمشى إلى المغيرة فاعتذر إليه ، ويقال إنه إنما كان هذا أيام ما يَرْنَا بنهر تيرى وهم يقاتلون الأزارقة ، وضرب عباد المهلب فغضبت الأزد ، والأول أثبت .

وأقام عمر بن عبيد الله ثلاثة أيام ثم أتاهم أبو فديك فنزل بإزائهم وخندق خندقاً دون خندق وخرج عمر من معسكره ينظر ومعه رجلان من بني حنيفة فلقوا رجلاً من أصحاب أبي فديك فحملوا عليه فقال : سبحان الله أما تستحيون ؟ ثلاثة على فارس واحد ؟ ليبرز إلى رجل رجل . فبرز إليه أحد الحنفيين فلم يصنع شيئاً ، وطعنه الخارجي فقتله .

وخرج إليه عمر بن عبيد الله بنفسه فوقف له الخارجي فلما دنا منه وَحَّشَ بالرمح ثم ضربه بالعمود على رأسه فصرعه ونزل إليه فأجهز عليه .

ورجع عمر إلي أصحابه فقال : ما يئست من الحياة قط إلا يومي هذا فدفع الله ، رأيت الحنفيين جميعاً قد أحسنا القتال وطعناه فلم يصنعا شيئاً فعلمت أن على جسده شيئاً يقيه الطعن فقلت لا يقتله إلا العمود ، فلما قتله نظرت فإذا عليه سنون[1] .

فلما كان اليوم الرابع من مقام عمر قال أبو ماعز الحارثي : لو خرج منا إلى هؤلاء القوم فوارس فذاقوهم ، فخرج أبو ماعز في ثلاثمائة فارس حتى أتى خندق أبي فديك فأشرفوا عليهم فخرج اليهم فوارس من الخوارج فاستطرد لهم أبو ماعز وأصحابه حتى إذا انقطعوا عطفوا عليهم فصرعوا من الخوارج أربعة أو خمسة .

وبلغ ذلك عمر فأقبل في الناس وقد تحاجزوا وانصرف الخوارج فلام عمر أبا ماعز وقال : كدتم تفضحونا ، لو قتل منكم رجل واحد لهد العسكر ، فقال مجّاعة بن عبد الرحمن العتكي : قد وقى الله ما حذرت .

ورجع عمر إلى عسكره فلما كان الغد نهض عمر للقتال وصف الناس وقدم الرجالة ، وخرج الخوارج من عسكرهم فركزوا رماحهم واستتروا بالبراذع فقال أهل البصرة للرجالة : حركوهم . فقال عباد : إن خلف هذه البراذع أذرعا شداداً وأسيافاً حداداً وأنفساً سخية بالموت ، وهم شادون عليكم شدة لا يقوم لها شيء ، فإن كانت فيكم جولة فليكن انصرافكم على

١ ـ لم أقف على معنى محدد لهذه الكلمة في المعاجم ، مع أن المقصود منها واضح هنا .

حامية يمنع بعضكم بعضاً فإنهم يتبعونكم وأكثرهم رجالة فإذا لغبوا فكروا عليهم .

قال: وقال رجل من الخوارج : شدوا عليهم واحذروا تخطئة الحمار[1] . يقول احذروا قول عباد حين قال ليكن انصرافكم على حامية فإذا لغبوا فكروا عليهم فَنَحُّوا البراذع وأصلحوا رماحهم وسيوفهم وشدوا على الميسرة وفيها أهل البصرة فكشفوهم فذهبوا في الأرض .

وصرع المغيرة فحماه الكوثر بن عبيد ، ويقال عبد بن معمر ، واعتزل المغيرة بن المهلب ومجاعة بن عبد الرحمن الأزدي في فوارس فقاتلوهم ، وتراجع الناس فردوا الخوارج وحازوهم إلى موقعهم ، ومر أصحاب عمر بن عبيد الله بعمر بن موسى جريحاً فاحتملوه وشدوا على الخوارج حتى أدخلوهم عسكرهم وأحرقوا فيه تبناً ، وهاجت الريح فأمالت الدخان في وجوههم فقتلوا منهم ثلاثة ويقال ثمانية وذلك الثبت ، وأسروا ثلاثة نفر فقتلهم عمر صبراً .

فلما كان اليوم الثالث من هذا اليوم باكرهم أبو فديك بالقتال ، فقال لأصحابه : إن قتلت فأميركم أبو طالوت . وزحفوا جميعاً مستميتين ، فشدوا على الناس شدة أزالت الميمنة والميسرة والقلب من أهل العراق ، فبقي عباد بن الحصين وسنان بن سلمة والمغيرة بن المهلب ، فأمر عباد غلمانه : مهيراً ووازعاً ، وميسرة فجثوا وأشرعوا رماحهم ، ونادى عباد : أيها الناس أنا عباد . فقال له غلامه الوازع : يا سيدي لا تنوه باسمك فيقصدوا إليك ،

---

١ ـ في هامش الأصل : سُمُّوا عُبّاداً .

قال : ويحك ، إني إن ثَبَتُّ ولم أنوه باسمي أقدموا علي فإذا عرفوني لم يقدم علي منهم أحد .

فرجع مجاهد بن بلعاء في الخيل ، وكان عباد صيره خليفته على الخيل ، فرجع في عدة من البصريين وجماعة من أهل الكوفة من بني تميم ، ومضى الباقون فلم يكن لهم ناهية دون البصرة ، فقال عباد لمجاهد : احمل عليهم ، فقال : إني عليك لهين حين تأمرني بالإقدام بالخيل وليس معي رجالة تقيها .

فقال عباد : فليترجل بعضهم ، فترجلوا ، وقال عمر لعباد : ما ترى ؟ فقد ذهب الناس . قال : الصبر . فقال : ما شاورتك إلا وأنا أريد أن أسألك أي موتة ترى أن أموت قال : انزل ، فنزل عن برذون له أشهب أبيض وأقدموا عليهم ، فكان عباد يحمل عليهم فيطاعنهم ثم يرجع فيقول : إنا لله .

وصبروا ملياً فسمعوا صارخاً يقول : صرع أمير المؤمنين ـ يعني أبا فديك ـ وأطافوا به فأقبل عمر كأنه جمل هائج قاصداً لمصرع أبي فديك وحماه أصحابه حوله ، فشدوا عليه بأسيافهم فما انثنى حتى أخذ برجل أبي فديك فسحبه والدم يسيل من كمه والسيوف تأخذه ، فذب عنه عباد بن الحصين والمغيرة بن المهلب وسنان بن سلمة ومحمد بن موسى ومجاهد بن بلعاء حتى أفرجوا عنه وانحازوا وإن رجل أبي فديك لفي يده ، فقال : احتزوا رأسه فاحتزوه وبعث به من ساعته إلى البصرة .

واتبع ابن بلعاء الخوارج ، ثم رجع ومضى الخوارج إلى المشقر ، فوجه عمر بن عبيد الله إليهم مجاهد بن بلعاء وبيهس بن صهيب الجرمي

وعرفطة بن رجاء اليشكري ، فحصروا الخوارج حتى نزلوا على حكم عمر فقتل الموالي واستحيى العرب .

وكان على خيل أبي فديك عبد الله بن صباح الزِّماني ، فلما طلب الأمان كلم قوم من بني حنيفة عمر وقالوا إنا قد آمناه . فقال : لا ولا نعمة عين ، وأرسل إليه فحبسه فهرب من السجن فلقي أعرابياً معه بعيران فقال : أتكريني إلى اليمامة ؟ فقال : نعم بكذا وكذا . فقال عبد الله : بل أضعفه لك على أن ترفق بي في السير . قال : ذاك إليك ، فحمله .

وطلبه عمر بن عبيد الله بن معمر ، وبلغ الأعرابي أن عمر يطلب ابن صباح الزماني ، فلما سار بقية يومه قال للأعرابي : أتدري من أنا ؟. قال : لا . قال : أنا عبد الله بن صباح الزماني هربت من السجن وعمر يطلبني وإن يأخذني هلكت وذهب بعيرك فأنت أعلم .

قال : غررتني . قال : أتراني أضعفت لك كراءك وأنا آمن . فطرد به شلا حتى قدم اليمامة ، ثم أتى البصرة فاستجار بعامر بن مسمع فأخذ له عامر بن مسمع الأمان من خالد ، فكان يغدو إلى خالد .

وتزوج ابن صباح ابنة عطية بن الأسود ، فأقام بالبصرة حتى قدم الحجاج بن يوسف فدخل عليه فقال له : من أنت ؟. فقال : رجل من ربيعة . قال : هات نسباً أقرب من هذا . قال : من بني بكر بن وائل . قال : من أيِّهم ؟. قال : من بني مازن . قال : فمن أنت ؟ قال : عبد الله بن صباح . قال : صاحب خيل أبي فديك ؟ . قال : نعم . قال : لئن تغيبت عني لأقطعن يدك ورجلك ، ولأضربن عنقك .

فخاف وهرب إلى اليمامة فكان في أصحاب ابراهيم بن عربي ، وأظهر التوبة من رأي الخوارج ، فرأى يوماً رؤوساً تشيط فغشي عليه، فعلم أنه على رأيهم .

قالوا : وقدم المنهزمة من أصحاب أبي فديك إلى البصرة ، فكان أول من دخلها منهم عبد الله بن عثمان بن أبي العاص الثقفي ، ثم تتابعوا فسر ذلك خالد بن عبد الله ، ودعا بسرير له فجلس عليه وأعلم الناس أن عمر قد انهزم ، وأرسل إلى عبد الله بن عمير الليثي وكان قد انهزم عن بعض الخوارج فبشره بانهزام عمر ، فأعتق كل مملوك له .

وبعث خالد يوم جاء خبر هزيمتهم رسولاً إلى عبد الله بن عبيد الله بن معمر فأخبره بأن أخاه قد انهزم فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، إني لأنتظر من الله إحدى الحسنيين الشهادة أو الظفر ، فأما الهزيمة فلا أخافها عليه لا سيما ومعه ابنة عمه .

ودخل المهلب على خالد فقال له : يا أبا سعيد ما عندك من خبر أبي حفص ؟. فقال : عندي أن أبا فديك قد قتل ورأسه يأتيك . قال : وما علمك ؟ قال : وجهت مع المغيرة ابني غلامين فقلت : إن ظفر عمر فوجه إلي فلاناً ، وإن ظفر أبو فديك فوجه فلاناً ، ولا ترسل واحداً منهما حتى يتبين لك الظفر . فبعث بالذي أمرته أن يرسله إذا ظفر عمر . قال : ما أتاك الغلام إلا منهزماً . قال : ما بذلك أخبرني .

قالوا : فإنه ليحدث إذ دخل رسول عمر بن عبيد الله برأس أبي فديك فألقاه بين يديه فقال : ويحك كيف كان الأمر ؟ قال : انهزم الناس وصبر عمر وعباد ونفير يسير معهما ساعة ثم كر أهل الحفاظ فقاتلوا الخوارج فقتل

أبو فديك ، وأخذ الرسول بأذنيه ثم هزه وقال : يا أبا فديك كيف رأيت ضرب بني عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي ؟ وذلك أن عمر بن عبيد الله من ولده .

فتناول خالد نعليه فانتعل وقال : أف ، ودخل مغموماً . فكان عباد بن الحصين يقول : ما رأيت أحداً يقاتل يوم أبي فديك غير المغيرة بن المهلب وسنان بن سلمة بن المحبق .

وقالت عائشة بنت طلحة يومئذ : من الرجل الذي كان إذا صاح كادت الأرض تتصدع من صوته ؟ فقال لها عمر : ذاك عباد بن الحصين .

وقال خير بن حبيب بن عطية ، أحد بني مالك بن سعد : استأذنت على عمر بن عبيد الله بن معمر بالبحرين فقال آذنه : من أنت ؟ قلت : خير . فدخل ثم رجع إلي فقال : أي خير ؟ قلت : خير بن حبيب . وعلمت أنه قد عرفني وتفاءل باسمي ، فدخل ثم رجع فأذن لي فدخلت عليه وجاريته تشد عليه جيب الدرع وهي تبكي . فكلمته بحاجتي ثم خرجت وخرج ، فقتل يومئذ أبو فديك .

قال : ثم أرسل إلي بعد ذلك بأيام فدخلت عليه وعائشة إلى جنبه فلم أر زوجاً قط أحسن منهما . فقال : ما قلت في عائشة ؟ قلت : من يجعل الديباج عدلاً للزيق . وبين يديه لؤلؤ منثور ، فقال : تناول من هذا اللؤلؤ . وحفن لي حفنات منه . فبعتُ ذلك اللؤلؤ واشتريت بثمنه أرضاً وكانت عائشة بنت طلحة تقول لعمر : أي اليومين كان أشد عليك ؟ يوم أبي فديك أو يوم فارقت رملة ؟ فيضحك .

ويقال إنها قالت : أو يوم كنت تزور فيه رملة فترى خلقتها وعظم أنفها ؟ وكان مقتل أبي فديك في سنة أربع وسبعين .

وقال المدائني : كانت هزيمة عبد العزيز بن عبد الله بعد مقتل أبي فديك ، وأوفد عمر إلى عبد الملك ببشارة الفتح وفدا فيهم الصلتان وهو قثم بن خبية بن قثم العبدي ، ويقال هو تميم بن خبية بن قثم . فقال له عبد الملك : يا صلتان لعمر ثناؤك وعليه جزاؤك . فقال : يا أمير المؤمنين إني لأعيش من جدواه وأتقلب في نعماه ، وإن خيره علي لكثير وقد أدرك في عدوك ما أدرك وهو محمود . فقال : صدقت ، وأمر له بألفي درهم .

وقال بعض الشعراء :

ضجت جواثا ولم تفرح بمقدمنا لما قدمنا وماذا ينفع الضجر
كانت لنا هجر أرضاً نعيش بها فأرسل النار في حافاتها عمر

وقال أعشى همدان في قصيدة له طويلة يذكر فيها قتالهم بجواثا ويفخر بصبر الكوفيين ، ويذم البصريين في هزيمتهم ، فمنها قوله :

ألم يأت بشراً ما أفاءت رماحنا وبشر بن مروان بذلك أسعد
فإنك قد جهزت جيشاً مباركاً ومثل أبي مروان بالخير يحمد
أطعت أمير المؤمنين وإنما جعلت غياثاً كل خير تغمد
وأعطيتنا منك العطاء مضاعفاً وزودتنا حتى جعلنا نحسد
ولما رأينا القوم ليس لديهم لمن زار إلا المشرفي المهند
مشينا إليهم في الحديد كأننا سحاب يضيء البرق فيه ويخمد
ولما رأى أهل البصيرة حزمهم تَوَلُّوا سراعاً خيلهم ثُمَّ تُطْرَدُ
وما قاتلتْ فرسانهم عن رجالهم وما منعوا قتلاهم أن يجردوا

ولكنهم حاصوا من الموت حيصة فهم في أصول النخل شتى وموحد
وأهلك جمع المارقين فأصبحوا أحاديث إذ جاروا عن الحق واعتدوا

حدثني العمري عن الهيثم بن عدي أن سعيد بن خالد من ولد عثمان بن عفان قال لبيهس بن صهيب الجرمي : يا أبا المقدام ، أمية أفضل أم عمر بن عبيد الله ؟. فقال : أو كلما نشأ ناشىء من بني أمية أردتم أن تجعلوه مثل عمر ؟ لا والله لعمر أجود منه جوداً ، وأكرم منه نفساً وأشد منه بأساً ، فغضب سعيد وقال : ما أنت وذاك يا أخا جرم . فقال : اسكت فما أنت بالأول ولا الثاني ولا الثالث ، ولقد كنت الرابع فربحت .

المحتوى